
دكتور عادل الشويخ
مسافر في قطار الدعوة
لا إله إلا الله محمد رسول الله
Bibliotheca Alexandrina
0116004



تأصيل الفقه الدعوى



مسافر في قطار الدعوة

الدكتور
عادل عبدالله الليلي الشويخ

❑ الكـتاب : مسافر في قطار الدعوة .

❑ الكاتـب : الدكتور / عادل عبد الله الليلي الشويخ .

❑ الطـبعة : الأولي .

❑ الناشـر : دار البشير للثقافة والعلوم - مصر .

❑ التـوزيـع : دار البشير - طنطا أمام كلية التربية النوعية .

☎ 322404 - 356663 فاكس : 228277

❑ التجـهيـز الفنى : شركة الندى للتجهيزات الفنية . المحلة الكبرى . ص .ب 265

❑ الإيداع القانونى : 96 / 1726 .

❑ الترقيم الدولى : 1 - 015 - 278 - 977 .





- من باب المحراب المتواضع .. تبدأ رحلة الداعية المسلم ..
- ثم يكون تقدم العمل .. فتكون مساجد .. ومنابر .. ومراكز ..
- فينطلق (قطار) الدعوة ..
- ووجهته .. عالمية ..
- فمسافرٌ عملاق .. مُميَّز .. مثل (عادل) ..
- فيه شموخ .. ويتقن الاجتهاد والإبداع .. يكاد يتناوش الأعالى
- ومسافر يستكمل .. وهبته الفطرة نصفاً . . وأعانه أبٌ وأم وكتاب
- لكنه علي (السكة) الدعوية الخلفية . يسعي إلى نصف التربية الآخر
- وإلى فقه .. وفن .. ووعى .. وميزان ..
- وبينهما مسافرون كثير عددهم .. تتلون أحوالهم .
- لكن القطار الدعوي لا يجعلهم في صف متتابع ..
- ولا يوارى الذين بعد الأوائل ..
- بل يضعهم فى جبهة عريضة ..
- وينشرهم في ساحة التنافس الخيرى ..
- وتتشكل زحمة .. هى زحمة الحياة الدنيا وصراع الخير والشر .
- ويظهر تباين في الصف الدعوى . يفرضه اختلاف العقول والطاقات
- وتفرض فتن .. ومحن حمراء ..
- لكن من وراء الزحمة والضجة .. يُطل الكون الأخضر الرحيب
- الهادئ

- يتفكر فيه من يتفكر .. فيسبح .. فيزداد يقيناً ..
- ويطلب الخلود بالعمل الصالح .. من يطلبه .
- وتلك هي صورة الغلاف التي صممها ونفذها محمد أحمد الراشد تحية لعادل .
- والفنان المسلم محدَّد .. ضيق الخيار ..
- فيهرب مجبراً من صورة ذى الروح ومن الوضوح ..
- إلى الرمز والإيماء والتكعيب والمثال والسريال .
- وقد خط العنوان والاسم الفنان الأستاذ صلاح شيرزاد .



مر رائد الإبداع .. وهذا الأثر

قرأت للأستاذ كامل الشريف ، لما أرّخ البطولات الإسلامية فى مقاومة الاحتلال البريطانى لقناة السويس ، أنه كان يعرف بالفراسة علامة الفدائى الذى تنتظره الشهادة قريباً ، فيميزه من خلال استبشار يطغى على محياه ، وعبر حركة دائبة ونشاط غير عادى يسبق استشهاده .

وهكذا نهاية أخى العزيز الحبيب ، وعضدى ، وسندى ، وصاحبى فى دربى ، وقرينى ،وتلميذى الدكتور عادل عبد الله الليلى الشويخ البصرى رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خيراً ، ورفع مقامه فى جنان الخلد مع علماء الأمة و الشهداء والصالحين .

كان فى ذروة حركته طيلة الموسم الذى سبق رحيله ، فقَدَمَ له فى ماليزيا ، وأخرى فى موريتانيا ، وطاف بأميركا ، وعرّج على أوكرانيا ، ينشر فقه الدعوة ، ويلقى الدروس ، ويحاور المربين ورواد العمل الإسلامى ، حتى حمله شوقه على أن يقصد كردستان العراق مبشراً بالأخوة الإيمانية التى تجمع القوميات ، ومشجعاً للتيار الإسلامى الكردى الصاعد المتنامى ، حتى إذا بلغ الذروة فى البشارة

والنذارة وحلقت أرواح من معه عالياً : نزل فجأة إلى قبر هادئ على سفح تل مهيب فى ظاهر مدينة السليمانية بعد حادث سيارة ، أكرم الله مثواه .

لكنى لم أميز اقتراب موته كما ميّز الشريف موت أصحابه ، ولم ألتفت إلى تلك العلامات الخيرية الكثيرة التى سبقت انتقاله إلى جوار الله تعالى ، فهزّنى الحادث ، وأذهلنى ، ونفضتنى صدمة عنيفة لم أزل أرزح تحت تأثيرها ، لا أدرى ما أقول ، ولا ما أفعل ، وغير مهتد لطريق تعويض مكانة أبى عبد الله التربوية ، وكل الذى أملكه من تسلية : ثقة بالله تعالى ، وأمل بأن يقيم منّا سيداً كلما مات سيد

وإن كان لى فخر ، ففخرى أن أبا عبد الله كان أكبر تلامذتى ، وأمين سرّى ، والنجى الذى أبثه همومى ، والمستشار الذى طالما حاورته ففتح لى من نوافذ التفاؤل ما شاء الله ، وأغلق أخرى تطل على أودية التشاؤم ، وأنا أسن منه بثمان سنوات ، وترقى علاقتى به إلى ثلاثين سنة ، يوم جاء إلى بغداد من البصرة طالباً جامعياً ، فكان أوعى من يستوعب دروسى فى تأصيل فقه الدعوة ، واكتشفت فيه قريناً مكافئاً لا تلميذاً ، ومنذ ذلك اليوم لبث معى على يمينى كأرسخ ما يكون الثقة نطور معاً مدرسة جديدة وطريقة فى إيضاح فقه الدعوة من خلال حرد كتب الفقهاء

الأولين واستخراج ما تناثر من أقوالهم مما فيه كشف لمعنى تربوى أو سياسى أو تنظيمى أو تخطيطى ، وخلط ذلك بأقوال المعاصرين من الدعاة والمفكرين ، وبشواهد تاريخية ، وبأشعار الحكماء ، مع مجازات رمزية ، ولغة إيمائية ، واستدلالات من العلوم التطبيقية ، والخروج من كل ذلك بمزيج متجانس من الكلام الشارح لما ينبغى أن تكون عليه المواقف الدعوية ، وقد تلقى الدعاة ـ بحمد الله ـ هذه الطريقة بقبول حسن ، واحتفلوا بالمنطلق ، وتجاوبوا مع نداء اجتياز العوائق ، ومالت قلوبهم إلى الرقائق ، وما زالت أعناقهم تمتد تطلعاً إلى البوارق ، ورنوا نحو المعالى ، وتكاتفوا فى المسار ، ثم استلم الراية أصحابى فى الكويت حين أقمت بين ظهرانيهم ، فكانت كتابات الأخوة جاسم مهلهل ، وعبد الحميد البلالى ، وعلى الهزاع ، وعدنان الرومى ، على نفس النمط ، وكانت مشاركات أخى عادل رحمه الله عبر رسائل العين : التقويم الدعوى ، وربانية التعليم ، والإيجابية ، التى كتبها باسم عبد الله يوسف الحسن ، وعبر عشرات المقالات الإبداعية الأخرى السائرة المشهورة فى أوساط الدعاة فى أنحاء العالم ، وعشرات الأشرطة ، فكان (أستاذاً ونصفاً) كما يقال ، فقد فاقنى وذهب إلى أبعد منى ، حتى استوت المدرسة ، وله تسعة كتب رحمه الله غير هذه المقالات كلها ناضجة تكاد أن تكون جاهزة للطبع ، بيد أنه كان يتطلع إلى

المثاليات ، وينتظر تحسينها ، ولا يدرى بالقدر الذى ينتظره ، وسنحرص بإذن الله على تنسيقها وإعدادها للطبع ، بالتعاون مع بعض الأخوة ، وكتاب (مسافر فى قطار الدعوة) أبسطها وهو الكتاب الوحيد الذى أعده بنفسه للطبع وصححه فى حياته ، والكتب الأخرى أهم منه وأجزل وأعمق ، لأنه كتب هذا الكتاب للعامة ، وكتب كتبه الأخرى للخاصة ، وفيها تأصيل كثير واجتهاد .

وقد استبد به الزهد فى الكلام وإلقاء الدروس قبل سنوات ، واشتكى من سلبية بعض السامعين وعدم مجاراتهم له من خلال الأسئلة الواعية التى تحرك المدرس عادة لمزيد من العطاء ، حتى ذكر لى بأنه ينوى التوقف عن الكتابة والكلام احتجاجاً ، فوجد عندى من هذا المعنى ما هو أكثر ، واستولى علينا التبرم، وتعاهدنا على السكوت ، فساق الله إلينا شاباً يخرجنا من الخطأ ، إذ كنت أجلس مع عادل فى مطار استانبول ننتظر الطائرة قافلين من دورة لم نصادف فيها من أسئلة الدعاة ما يشجع ، وإذ نحن نتبارى فى التلفظ بمرادفات اليأس ، إذ بشاب يُقبل علينا ثانياً ركبتيه ، يسأل :

قال لى : أأنت محمد أحمد الراشد ؟

قلت : نعم ، هل التقينا سابقاً ؟

قـال : لا ، عرفـتك من خـلال رؤية ڤـيديو كلمـتك في مـؤتمر هيوستن بأميركا .

قلت : ومَن تكون ؟

قـال : اسـمى خـالد الموسـاوى ، وأنا جـزائرى من أهل واحـة وادى سـوف على بعـد ألف كـيلو مـتـر عن العـاصـمـة جنوباً على مشارف الصحـراء الأفريقية الكبرى قرب أقصى الحـدود التونسية ، ونحن هناك نـقـرأ لك ونسـمع أشـرطتك ونـرى بعض دروسك من خلال الڤيديو ، وأنا ذاهب إلى الجهاد بأفغانستان .

فرحبنا به ، وأبدى سروره لهذا اللقاء على غير موعد ، وسألنى عن أمور ، وسألته ، ثم تنهد مستدركاً .

قال : لكن ما زال نصف حلمى لم يتحقق ، لم أتعرف بعد إلى عادل .

قلت : فكيف بك إذا أنزلتك معى فى دبى لأعرفك به !

قـال : إذاً يكـون يوم عـيـدى ، فـنحن نسـمع دروسـه ولم نر صورته عبر الڤيديو .

وهنا تدخل عـادل رحمه اللـه ، فسأله عـما سمعه مـن أشرطة دروسه دون أن يعرفه بنفسه ، فعدّد له عناوين دروس عديدة .

فسأله عادل ممتحناً : الدرس الفلانى ماذا يقول فيه ؟

قال : كذا وكذا ، وأتى بمختصر معانيه على وجهها .

ثم امتحنه مراراً ، يسأله عن دروس أخرى ، والفتى يأتى بالمعانى على وجهها بإتقان أدهشنا .

فقلت له بعد أن ازددت فراسة فى صدق توجهه : إذن فهذا عادل أمامك ، هو الذى يمتحنك .

فطار الفتى من الفرح وأذهلته المفاجأة .

قال : كلنا فى وادى سوف على هذه الشاكلة ، نقرأ ونحفظ ونعيد السماع .

ثم أخرج كتاب الموافقات للشاطبى من خُرجه ، وقال لعادل : سمعتك فى شريط تثنى على الكتاب وتوجب على الدعاة أن يطالعوه ، فاقتنيته ليكون صاحبى فى الجهاد .

هذه الحادثة هزّت عادلاً وجعلته يوقن بوجود مبلّغين أوعى من سامعين ، ومال إلى التوبة من اليأس ومن الزهد بالكلام ، وطفق يقول بعدها : نتكلم لأهل الواحات والغابات إن خذلنا أهل الحواضر ، فكان من ثمّ إكثاره فى السنوات الأخيرة ، رحمه الله .

لقد كنت وإياه كأننا فريق عمل مشترك ، ننضج أفكارنا معاً ، ونرحل معاً ، ونتكلم معاً ، ونكتب معاً ، ولذلك شعرت بأن نصفي قد مات لما بلغني نعيه ، وما أظن أن أحداً من أصحابه حزن لموته كحزني ، وقد تركني أمام تكاليف الحياة لوحدي ، أسأمها ، وهي الثقيلة علي ، وكان المشير علي بعقل وحكمة إذا حزبني أمر ووجدت الأبواب مغلقة .

ولد رحمه الله بأبي الخصيب من أعمال البصرة على شط العرب عام ١٩٤٦ ميلادية بين غابات النخيل الممتدة الكثيفة ، وكان أبوه من دعاة الإسلام أيضاً ويمتهن التعليم ، وهم من أُصول نجدية ، ودرس الفيزياء بجامعة بغداد والعلوم الشرعية بكلية الدراسات الإسلامية المعترف بها من جامعة بغداد ، ثم رحل إلى بريطانيا حيث نال الدكتوراه في فيزياء الجوامد من برمنكهام ، ومال إلى جامعة الرياض بضع سنين يمارس التدريس ، وخلالها حصل على الماجستير في أصول الفقه من جامعة الإمام ابن سعود ، وكان على أهبة دراسة الدكتوراه فيها ، ولكن آراء الدعاة عاكسته ، واستقر به المقام أخيراً في الإمارات ، حيث لمع نجمه وعبر الآفاق سنا فكره ، وحمله نشاطه إلى ديار الأكراد ، فألقى دروساً في مدينة السليمانية ، سجلت على الفيديو ، وقصد مدينة أربيل ليلقى دروساً أخرى ، فانقلبت السيارة التي يستقلها قرب سد دوكان ، وأسلم

الروح بعد ساعة ، ضحى يوم السبت الرابع من صفر ١٤١٤ هـ ، الموافق للرابع والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٩٣ م ، رفع الله درجته ، وقد رثاه الشعراء ، وأطنب الدعاة في ذكر مناقبه ، وسأجمع كل ذلك في كراس خاص ، وفاء له ، وترويجاً للاقتداء بسمته ، وكان يريد أن يرثيني ، فها أنا ذا أرثيه ، وسبحان الحي الباقي ، وقد قال لي يوم سفره : بيننا وبينهم الجنائز ،يسليني ويسلي نفسه إزاء لغط وقع فيه بعض أهل الأوهام ، وصدَّق الله ظنَّه ، إذ لم تشهد كردستان جنازة مثل جنازته ، وزاد عدد الذين شيعوه على عشرين ألفاً ، في موكب وقور وتظاهرة إيمانية مميزة ، وارتفع النحيب ، يبكونه وما صاحبوه غير يومين ، وكثر الذين وصّوا أن يدفنوا إذا ماتوا قرب قبره ، تحصيلاً لشرف الجوار ، رحم الله الأحياء والأموات .

إن قبره في مقبرة الشيخ أحمد الهندي على الطريق الخارج من السليمانية إلى كركوك لهو الوتد العربي الدعوي بين ظهراني الأكراد ، وثَم دليلنا على عمق الأخوة الإيمانية بين الشعوب الإسلامية إذا أراد الجميع السعي لعمرانها .

لقد سلك عادل في جادة الدعوة ، فأحسن السلوك ، واكتال من الوفاء ما شاء الله أن يكتال ، وحرص على العلم والتعليم ،

ومضى ملىء اليدين ، وطبعت أقدامه أعمق الآثار .

فهل من سالك بعده فيه العوض ، يواصل ويتصدى للأجر؟

لقد مرّ الهمام .. فمن ذا الذى يرشحه القدر لخلافته ؟

اللهم يا أرحم الراحمين : أنزل شآبيب رحمتك على عادل والرهط الذى صدقك من الدعاة المعلمين وأساتذة التربية الإيمانية والشهداء والصالحين ، واغفر لهم ، وارفع مكانهم عندك ، وأدخلهم الجنان العالية ، فلقد أتقنوا العمل ، فأجزل لهم الثواب ، إنك أنت العفو الودود الوهاب .

آمين ، وفى كل دعاة الإسلام بركة إذا عزموا عزمات الخير .

محمد أحمد راشد





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

((١))

كان أصل هذا الكتاب بضع محاضرات ، أُلقيت على مجموعة من ناشئة الدعاة ، الغرض منها تبيان شرعية العمل الدعوى الجماعى ، وما يتعلق به من أسس الإيمان ومبادئ الإسلام ، وما يرتبط بذلك من العلم الصائب ، وأنواع العمل الصالح ، ورغبت عند البدء فى أن تكون بأسلوب رمزى يجمع بين تقريب الفهم من جهة ، ويثير حوافز التأمل فى المعانى من جهة أخرى ، وجرى على اللسان التشبيه بالسفر ، وبقافلة الإبل المقطورة نحو هدف معين ، فكان الرمز ملائماً للمقصد ، ومناسباً للعرض والشرح ، وقد شجّع على ذلك ورود صفة الرواحل فى الحديث النبوى الصحيح ، وتكرار نظائر التشبيه فى عبارات السلف ، فكان اختيار قطار الدعوة رمزاً لجماعة العاملين للإسلام ، أخذاً من عبارة أحد المحدثين

الحفّاظ ، الذى روى عنه قوله : (أو ما أحب أن أكون فى قطار رسول الله ﷺ)

((٢))

بعد أن تم إلقاء هذه المحاضرات نشرت على مدى ست حلقات فى مجلة « الإصلاح » فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، فرغب الإخوة الأفاضل القائمون على المجلة فى الاستمرار بكتابة حلقات أخرى فى فقه الدعوة ، فما كان منى إلا الاستجابة للطلب ، واستمرت الكتابة خلال فترة تزيد على أربع سنوات ، نشرت فيها ثلاثون حلقة تحت نفس الاسم ، ما بين ربيع الأول من عام ١٤٠٨ هـ (نوفمبر ١٩٨٧ م) ، وحتى ذى القعدة من عام ١٤١٢ هـ (مايو ١٩٩٢) ، وكانت جميعها فى مسائل شتى فى أسس فقه الدعوة ، جمعتها رمزية باتجاه واحد ، ونظمت معانيها مجازات واستعارات متشابهة .

((٣))

ونظراً لمرور فترة طويلة منذ بداية النشر ، وعدم احتفاظ الكثير من القراء بأعداد المجلة ، رغب بعض الإخوة فى أن تُضم المقالات بين دفتى الكتاب ، تعميماً لفائدة النشر الأوسع ، ودراسة المعانى بشكل متسلسل ، ولمّا كانت الواجبات أكثر من الأوقات ، فقد

تقرر طبعها كما نشرت ، دون تفويت المصلحة بتأخير إظهارها ، فيما لو أعيد النظر فيها بالزيادة والتنقيح ، إذ إن طلب الكمال أمر صعب المنال ، ولعل من حسن ظننا بالقراء ، ما يجعلنا نطمئن إلى حسن ظنهم بنا ، والتأوّل لنا بالخير عن كل خطأ وزلل .

((٤))

لقد اعتمدت منهجية هذه الفصول ، التى انتظمت أخيراً على شكل هذا الكتاب على تناول بعض أفكار فقه الدعوة إلى الله عز وجل ، بأسلوب مختصر بسيط بعيد عن التقعر والتكلف ، حيث تعتمد كل المعانى فيه على النصوص الشرعية وعلى جملة من نصوص السلف والفقهاء والعلماء ، دون محاولة الاستكثار والاستقصاء والحصر ، وأُكتفى ـ فى معظم الحالات ـ بالإشارة إلى جزء من النصوص ، حتى يعتاد القارئ الرجوع إلى الأصول ، والاستفادة من الكتب المنقول عنها ، مع بعض التعليقات والشروح الموضحة لتلك النصوص ، محاولين الابتعاد ـ جهد الإمكان ـ عن الآراء الشاذة ، والتأويلات المتكلفة ، مع تخريج مجمل الأحاديث النبوية الشريفة .

((٥))

شملت الفصول الثلاثون مدى واسعاً من الأفكار الدعوية ،

فتضمنت أسس الفهم ومراتب العمل ، وبعض خصائص الدعاة وأخلاقهم ، وتأصيل فقه العمل الجماعى ، وربانية العمل والدعوة والتعليم ، وأصول معاملة الأفاضل ، ومناهج النظر إلى الأخطاء ، كما تضمنت أحاديث عن الفتن والمحن فى الدعوات ، مع تأصيل العمل النسائى وبعض الأنشطة الدعوية ، تخلت ضمن هذه المواضيع حلقات وعظية تقطع ملل القارئ ، كتأصيل أدب المسامرة والمزاح ، ورحلة فى أشجار الإيمان ، واستراحة المسافر ، وكانت الفصول الأخيرة إشارات إلى طرق تطوير أجيال الدعاة المتقدمة ، بالعودة إلى الأصول ، واستلهام المعرفة الإنسانية . ومن الجدير بالذكر ، أن مادة يسيرة من بعض هذه الفصول قد نشرت فى رسائل مستقلة .

((٦))

تهدف جملة هذه المواضيع إلى دفع الدعاة إلى المزيد من الوعى المنهجى ، والعودة إلى أصالة الفهم والتطبيق ، وإلى إثراء العمل الصالح بالجدة والإبداع ، وكذلك إلى الارتفاع بمستوى الأداء للتأثير فى تطوير المجتمع الإسلامى ، وبناء الأمة فى مختلف مناحى الحياة على أساس الإسلام ، وهذا الكتاب مجرد محاولة على الطريق ، نشترك فيها مع الآخرين لعلها تضع زاداً ينفع فى دعم أولويات العمل الإسلامى ، فى مسار الصحوة المباركة ولعله يصيب

بفضل الله ونعمته شيئاً من الهدف ، وما كان فيه من صواب فمن الله وحده وما كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان ، وأستغفر الله تعالى منه.

وأسأل القارئ الدعاء لنا بظهر الغيب ، ووفقنا الله تعالى جميعا لما يحبه ويرضاه .

د / عادل عبد الله الشويخ





(١) قطار الرواحل

سلام الله .. أولاً

أخى القارئ .. سلام الله عليك ، وأحمد الله إليك ، ولعلك تصبر معى قليلاً حتى تكمل قراءة هذه الكلمات ، والصبر على القراءة عزيز هذه الأيام ، ولكنها ـ كما أظن ـ حكايات تستحق الرواية ، أو عرض يستحق القبول ولعلك فى هذه الأجواء تبحث عن طريق ، أو قل ربما عن رفيق ، وقد يكون فى العرض شيء من هذا أو شيء من ذاك ، وما عليك إلا الانتظار ، وأنت تعلم كم هو الركام الكثير فى عصرنا هذا من بضاعة الكلام ، والتنافس في التشدق والإعلام ، ولكن بحسبنا كلمات صغيرة لعلها تطرق القلوب الكبار ، ومسالك القلوب وعرة ، والولوج إليها صعب ، وما حيلتنا إلا بالطرقات الخفيفة ، لعلنا نلج القلوب المرهفة ، وتنصت لنا الآذان المتعبة من كثرة الصخب والضجيج . واعلم أخى أن ما يخرج من القلب يدركه القلب ، وما يخرج من اللسان لا يتجاوز الآذان ، والرائد لا يكذب أهله والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بالتقاطها ، ولقد ميز الله سبحانه وتعالى ابن آدم بالعقل ليميز الحسن من القبيح ، والصالح من الطالح ، وسوف

تكون أمامك مائدة تأخذ منها أطايب الكلام كما ينتقى الطيب من الطعام ، ولعلك بهذا تحصل على عاقبة الخير ، فنفتح لك القلوب ، ونقترح عليك السفر معنا في قطار الدعوة ، لعلنا وإياك نكون من الذين يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون على الأذى ، ونبصر بدين الله أهل العمى ، ونكون جميعاً من طائفة الحق الذين لا يضرهم من خالفهم فى الدنيا ، وفى الآخرة من الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

سفر ... وطريق

ولعل الاقتراح بالسفر مفيد ، ولكن أى سفر هذا ، إنه السفر الأهم والموصل إلى طريق النجاة ، ولا يزال الرسول ﷺ يوصى بسؤال الله تعالى الهداية ، وما الهداية إلا لمن وجد الطريق بعد الضلال .

« حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى . إلى طريق رضاه وجنته ، كأنه مسافرٌ ، وقد ضل عن الطريق . ولا يدرى أين يتوجه ، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها ، فسأله أن يدله علي الطريق ، فهكذا شأن طريق الآخرة ، تمثيلاً لها بالطريق المحسوس المسافر، وحاجة المسافر إلي الله سبحانه ، إلى أن يهديه تلك الطريق أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى

من يدله علي الطريق الموصل لها ... » (١) .

فالمسألة إذن ليست رمزية بعيدة ، وإنما هى حقيقة الحياة ونقْلتها ، والإنسان حتى فى حياته الاعتيادية ما هو إلا بين سفر وسفر ، طال أو قصر ، لينبهنا الله تعالى بالصغير على الكبير ، وبالتافه علي المهم ، وبالطارئ على المستديم . وقد كان ﷺ يذكر أنه فى الدنيا (كراكب استظل بشجرة ثم راح وتركها) والمؤمن مع سفرته الطويلة ، فدونها أسفار ، فبعد أن قطع سفرته من الجاهلية إلى الإسلام ، ثم تسامى بنفسه من المعاصى إلى الطاعات ، شمر عن ساعد الجد حتى سافر من السفوح الهابطة إلى القمم السامقة ، وكان من السابقين بالخيرات ، وهو من هؤلاء الذين ندعوهم لركوب قطار الدعاة بعد التعرف علي مصاعب الطريق ، وخصائص القطار ، وصفات الرفقة . واستعدادات السفر ، وأنت ـ أيها القارئ العزيز ـ بالخيار بعد ذلك ، والأسفار على قدر الهمم .

رموز الخير

وحتى على فرض التسليم بالرمزية هذه فالرموز ليست غريبة على الحس الإسلامى بل هى فى صميمه ، وما مجاز العربية إلا منه ، فهذا المصطفى ﷺ يشبه الناس بالمعادن فيقول : « الناس معادن

---

(١) ابن القيم / إغاثة اللهفان ١ / ٥٧ .

خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » ، ويشبه الوضوء اليومى بالاغتسال من حوض دائم ، ويشبه بعض قراء القرآن بالأترجة أو الحنظلة أو غيرها ، والناس فى استماع الخير كالأرض التى يصيب بعضها الماء وينبت الكلأ ، وبعضها يمسك الماء وبعضها لا ينبت الكلأ ولا يمسك الماء . ومن تمثيل المصطفى ﷺ لركب الناس فى سفرهم إلى الآخرة ، جعلهم كركاب سفينة دون انتقاء .

فانظر إلى السفر الحياتى وفيه من أصحاب الخير الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، وفيهم من أهل الشر الذين لا بد من أطرهم على الحق ، حتى لا تضيع سفينة الحياة ، ولعل قدرة الله تعالى شاءت بأول تاريخ البشرية الثانى أن تكون السفينة معنوية وحقيقية عندما تهادت سفينة نوح بركب المؤمنين تقطع السفر الطارئ ، ليكون التنبيه دوماً أن سفينة الإيمان باقية تتهادى بين موج هادئ ، أو عواصف هادرة بحماية الله وحفظه ، ولا تزال :

سفينة الأمس لا زالت بجدتها   سبحان من صاغها للناس سبحانا

الرواحل ... قليلة

ولطالما كانت التشبيهات النبوية بالإبل لأنها أقرب إلى التصور فى بيئة العرب ، وهو نوع من التنبيه على حقائق الكون والحياة فى كل بيئة ، ومن ذلك قوله ﷺ : « إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد

فيها راحلة »[١] .

وهيهات أن تصلح كل الإبل لحمل الأثقال ، كما لا يصلح كل الناس لحمل الأمانة الثقيلة لغلبة الشهوات، وثقلة الأرض ، وهذا يدل على أن البعض كالإبل السائبة ، والبعض يصلح للقافلة وهم النجباء الأوفياء ، وهم الذى يحرص على السفر بهم .

قال الأزهرى : إن الله ذم الدنيا وحذر العباد سوء مغبتها ووضع لهم فيها الأمثال ليعتبروا كقوله تعالى : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ وما أشبهها من الآى ، وكان النبى يحذرهم مما حذرهم الله ، ويزهدهم فيها فقال : لا يجدون الناس المرضى كإبل مائة ، ليس فيها راحلة أراد أن الكامل فى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة قليل ، وهذا ينسجم مع آيات الله وأحاديث الرسول ﷺ .

وقال الخطابى : « إن أكثر الناس أهل نقص وجهل فلا تستكثر من صحبتهم ، ولا تؤاخ منهم إلا أهل الفضل ، وعددهم قليل بمنزلة الراحلة من الإبل الحمولة ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ .

« .. وقال القرطبى : الذى يناسب التمثيل أن الرجل الجواد

---

(١) حديث متفق عليه .

الذى يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ، ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة فى الإبل الكثيرة .. وقال ابن بطال : معنى الحديث أن الناس كثير والمرضى منهم قليل .. » [(١)] .

ولعلك ـ أنت ـ من هذه الرواحل ، إن شاء الله .

إبل مقطورة

والإبل الرواحل نوعان : منها سائبة ، وإبل مقطورة ، والتى تسمى عندئذ القطار « والقطار من الإبل عدد على نسق واحد » [(٢)]

وهذا القطار من النجائب ، ويرتبط على نسق واحد بحبل بينهم ، ليتوجهوا نحو وجهة ثابتة ، وبخطى وئيدة ، لا تعوقهم عوائق الطريق ، ولا يلتفتون للوراء ، ولا يشذ عنهم إلا ضعيف هزيل ، أو مريض أجرب ، وبهم يفوز المسافر ، وعليهم تقطع المفاوز ووجهتهم معروفة ، ودليلهم حداء ، لا تزعجهم صرخات النشاز ، ولا يحول دون سيرهم همس الإغراء .. وهذا القطارمن الإبل به سميت العربات الحديدية المتشابهة ، والمربوطة مع بعضها البعض تسحبها قاطرة واحدة على خط معروف .. وبهم ـ قطار الإبل ، وقطار الحديد ـ تشبه قافلة الإيمان التى نريد السفر معها ، مجموعة متماثلة متماسكة من المؤمنين ، طريقهم اتباع الهدى النبوى ،

---

(١) فتح الباري ١١ / ٣٣٥ .

(٢) المصباح المنير ـ مادة قطر

وحبلهم حبل الله المتين ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ... ﴾ أصل منهجهم الكتاب والسنة ، وجواز ركوبهم الإيمان والعلم ، وتأشيرتهم إخلاص العمل وصوابه .

ورفقتهم فى السفر ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ . ووجهتهم ﴿ **جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ ، وزادهم فى السفر التقوى وذلك خير زاد ، ومحطات استراحتهم ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه** ﴾ ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يبخلون إذا بخل الناس ، سفرهم كله عبادة ليله ونهاره ، لأنه سفر لله ومع الله ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾.

فى السفر نفرة

والسفر حركة ، وهو تناسق مع الكون ، وتساوق من أصداء تسبيح الخلق ، فالحركة سنة كونية ، ولا تزال الأجرام فى حركتها ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ ، و«الإلكترونات » فى مداراتها ، والذرات فى مسيرتها ، وفق سنن ثابتة لا تتغير إلا وفق سنن أخرى ، وكما فى عالم المادة ، ففى عالم الأحياء ، نبات ينمو ، وزهر يتفتح ، وثمرة تنضج ، وفراشة تطير وخلائق تسبح وتدور ، والكل فى

حركـة لا تفتر ، فهي سـنة الله التي لا تتغيـر ، والمؤمن وحده يتناسق في عمله مع حركـة الكون ، ويتفاعل مع انسيابيتـه ، ويتصرف وفق سنة الخالق وكما أراد ، وبالتـالى فهو يسبح الله تعالى كبـقية الخلائق بلا انحراف عن الفطرة ، ولا اعـوجاج عن الصراط المستـقيم ، وقد تكون حركة بعض المؤمنين أشد من بعض ، فـهم أقواهم علي السفر وأرغبـهم فيه ، وهؤلاء هم أهل النـفرة سواء فى الجـهاد أو العلم ، أو فيهمـا معا : ﴿ **ومـا كان المؤمنون لينفـروا كـافة فلولا نفـر من كل فرقـة منهم طائفة ليـتفقـهوا فى الدين ولينذروا قـومهم إذا رجـعوا إليهم لعـلهم يحذرون** ﴾ ،« بل ينبـغى أن ينفـر من كل فـرقـة منهـم طائفة تتـفقه . ثم ترجع تعلـم القاعدين فـيكون النفير على هذا نفـير تعلم .. وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجـهاد كلهم بل ينبغى أن تنفر طائفة للجـهـاد وفرقة تقعد تتـفقه فى الدين .. وعلى هذا فالنفيـر نفير جهاد ... » [١] .

فيا الله مـا أحلى نفرة المؤمن مع غيره كطائفة تتـفقه في الدين ، وتنذر القوم لعلهم يحذرون.

النية ... بداية الطريق

ترى كيـف يسافر المسـافر ، وهو بلا مـقصـد ، فبـالنية يتـحدد

---

(١) مفتاح دار السعادة / ٥٦ .

السـفـر ، وتتوضح الـوجهـة ، وعلى أسـاسـهـا يخطـط منهج الرحلة طالت أم قصرت ، وعـلى صدقها يحمل الزاد ، وهكـذا سفر المؤمن لابد له من النية الصادقة ، وهى أصل الأعمال « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ... » [١] .

والنيـة أصل العبادات ، وبهـا يتـميـز الصـحيح مـن السقـيم ، والخـالص من غـيـره ، وبالنيـة تتـحـدد منازل السـالكين ، ووجـهـة القاصديـن ، ومن يريد بها وجه الله تعالى ، أو يريد السـفر بأى نوع كالهجرة إذ إنها قد تكون ، لمصلحة دنيوية ، أو دنيا يصيبها أو امرأة ينكحـهـا ، وبهذه الـنية يتحـدد الإخلاص الذى به يؤجـر المرء على متـاعب الطـريق ، وبه يستعذب العذاب ، وبه تهون مشاق الطريق .

والإخلاص وحده يقود إلى شفافية القلب ، وصفاء الوجدان ، لأن المؤمن لا يفكر بعده إلا فى عظمة ربه ولا يتوجه إلا إلى خالقه ، فلا يضـيره مـتاعب المثبطيـن ، ولا نداء المرجفين ، ولا يقـعده فـتور الهابطين . ومن الإخلاص النصح للمسلمين ولزوم جماعتهم ، لأن مـقتـضي الاخـلاص الطهـارة من الغل والغش « فـالاخـلاص سبـيل الاخلاص ، والاسلام هو مركـب السلامة ، والايمان خاتم الأمان . . ولزوم جـماعـتهم هـذا أيضاً مما يطهـر القلب من الغل والغش فـإن

---

(١) أخرجه الستة .

صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها ، ويسوؤه من انحاز عنهم ، واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم .. » (١) .

فإذا كان المستعد للسفر قد طهر قلبه من الغل والحسد ، فما أحلى رفقة أهل الإيمان معه ، وما أجمل سكون أهل اليقين وإياه ، فهنا يحلو الطريق وعندها يحمد القوم السرى .

مقومات السفر

إذا كنت ـ يا أخى القارئ ـ لا زلت مصراً على الإتمام ، فاعلم أن مقومات السفر ثلاثة :

أولها : منهج السفر ولا مجال لنا فى الاجتهاد فيه ، إذ إن الاجتهاد فى أسفار الدنيا مسوغ لأن مبناه على مصالح العباد ، أما السفر مع قافلة الإيمان فقد تكفل رب العزة بالمنهج ، وهى فكرة « الإسلام » وحدها فهو يحدد الغاية والأهداف ، والوسائل والغايات ، والله تعالى لا يتقبل غيره .

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ... ﴾

وثانياً : دليل الطريق أو حداء القافلة ، أو ربان السفينة ، وهى

---

(١) مفتاح دار السعادة / ٧٢ .

القدوة التى لا بد منها ، والتى ابتدأت بزعامة الأنبياء والمرسلين ، وكانت تحت راية المصطفى ﷺ ، ولا تزال قاعدة السفر هكذا حتى فى عالم الحقيقة لا المجاز « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » (١) .

« فإذا كان قد أوجب فى أقل الجماعات ، وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم، كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك ... » (٢) .

وثالثها : رفقاء السفر والذين لا بد منهم لقضاء الحاجة ولا يزال البشر يحتاج بعضهم لبعض حتى تتحقق مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهذه سنة الله فى خلقه « وكل بنى آدم لا تتم مصلحتهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر ..، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة ، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد ، والناهى عن تلك المفاسد .. » (٣) .

فافهم ـ أخى فى الله ـ أركان الجماعة المؤمنة ، فهم ركب من المسلمين ، تقودهم إمارة بالحق ، لتحقيق الدعوة إلى الله عز وجل ، على وفق منهاج النبوة .

١) مسند الإمام أحمد .

(٢)فتاوي ابن تيمية ٢٨ / ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ٦٢ .



(٢) السفينة السائرة

لا زلنا نبحث عن مقومات السفر فى طريق الدعوة والدعاة ، ذلك السفر المتفرع بدوره عن سفرة الحياة ، إذ لا يزال الناس مسافرين منذ خلقوا من شاطئ الدنيا إلى شاطئ الآخرة ، يركب بعضهم اللجة فيصل إلى شاطئ الندامة ، والبعض يركب مع سفينة الأمل والرجاء ، مع السفينة التي يقودها الأنبياء فتتجاوز أمواج الفتن ، وعواصف البلاء حتى تصل شاطئ الأمان . والتشبيه فوق أنه معنوى ، فله أساس حقيقى أيضاً فما بداية البشرية الثانية إلا من مجموعة المؤمنين الناجين مع سفينة نوح عليه السلام ـ التى صنعت على عين البارى عز وجل ، وتجاوزت بهم جبال الأمواج وعصمهم الله :

« الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط رحالهم إلا فى الجنة أو النار ، والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة راحة ، إنما ذلك بعد انتهاء السفر ، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل أنة من أنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف ، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد

الموصل ، وإذا نزل أو نام أو استراح على قدم الاستعداد للسير » [1]

قافلة الخير

ولا يزال ركب المؤمنين مستمراً يحدوه المصلح بعد المصلح ، والقائد بعد القائد .. وسفينة المؤمنين هى سفينة النجاة التى تحمل ركب الإيمان وتنقله من شاطئ الدنيا إلى الآخرة ، ولا يزال البشر ـ أيضاً ـ وهم على شاطئ الحياة فى قوافل متعددة ، منها قوافل البغى والاستطالة ، ومنها قوافل الخير والمعروف ، ومنها قوافل الشر والعدوان . وقوافل الخير فيها من هو مقتصد ، ومنها من هو سابق للخيرات ، وهؤلاء هم قوافل الأبرار من الدعاة الذين زالت عنهم وحشة السير التى يجدها المتخلفون ، ولان لهم ما استوعره المترفون :

« وأسمعهم منادى الإيمان النداء ، فاستبقوا إليه ، واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ، ... علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ومنزل عبور لا مقعد حبور ، وأنها خيال طيف أو سحابة صيف .. وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما أسرعت إلى الخلق مقبلة ، فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام ، وما ليل المحب بنائم ، علموا طول الطريق وقلة المقام فى منزل التزود ،

---

(١) الفوائد ... لابن القيم / ٢١١ .

فسارعوا إلى الجهاز ، وجد بهم السير إلى منازل الأحباب ، فقطعوا المراحل وطووا المفاوز .. » [1] .

تأشيرة السفر

وهنا يأتي دور الراغب في السفر معهم ، فلا بد له من الاستعداد والعزم على ذلك ، وشروط ذلك ثلاثة : الإيمان ، والعلم والعمل . وهنا كان العزم على الالتحاق بالركب الميمون ، أولها : الإيمان وهو عمود الأمر وأساسه ، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وبه تصلح أمورهم فى أمور المعاش والمعاد ، وبه تتحقق المصالح . والإيمان قاعدة الشريعة ، وهو الفرقان بين الحق والباطل ، والمميز بين ركب الناجين وركب الهالكين ، كما أنه بدونه لا حياة للقلوب ، ولا نعيم ولا طمأنينة ، والمبلغ بهذا الإيمان هو المصطفى ﷺ وعلى كل مؤمن أن يؤمن بما جاء به على وجه الإجمال ، وأما ما جاء على وجه التفصيل فهو فرض أقدارهم وحاجاتهم ومعرفتهم ، ومن لا يتبع الرسول ، وهو أتبع الخلق فى الطريق الموصل لله ، فسوف يضل ، ويعجز عن معرفة الحق ، ولا يستطيع النظر والاستدلال الموصل إلى اليقين ، ويصيب الإنسان عند ترك النهج النبوى الضلال فى الدنيا والشقاء فى الآخرة. ولهذا فإن من

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ١٤٨

مقتضيات الإيمان اتباع المرسلين وما أنزل عليهم ، وما أنزل على محمد ﷺ وعلى أساسه يجب أن يكون البحث التام ، والنظر القوى ، والعمل بعد ذلك بالعمل الصالح ظاهراً وباطناً وللإيمان خصائص وصفات منها ما سيذكر باختصار :

الإيمان قول وعمل

وأول خصائص الإيمان أنه قول وعمل ، أو قول وفعل :

« فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ، ليدخل الاعتقاد والعبادات ، مراد من أدخل ذلك فى تعريف الإيمان ومن نفاه ، إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى ، فالسلف قالوا : هو اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان ، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط فى كماله » (١) .

ورأى السلف من علماء الأمة التوسط دون إفراط وتفريط ، والبعد فى هذا الأمر على طرفى نقيض ، فمن المبتدعة من قال : الإيمان اعتقاد ونطق كالمرجئة ، أو هو العمل والنطق والاعتقاد كالمعتزلة ، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً فى صحته ، والسلف جعلوها شرطاً فى كماله ، بل وإن اشتراط

(١) فتح الباري ١ / ٤٦ .

السلف لكمال الإيمان بالعمل إنما هو بالنظر لما عند الله تعالى ، أما عند إقرار الأحكام فى الدنيا ، فلا يحكم على أحد بالكفر إلا إذا اقترن به عمل يدل على الكفر كالسجود للصنم ، أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، أو لإقراره بالكفر ، أو الاستهزاء بآيات الله تعالى ..

قد ينفى الإيمان أحياناً عن شخص رغم إقراره ، ويراد به نقصانه ، وعدم كماله ، كما يطلق الكفر علي الفعل دون الفاعل ، كما يطلق الكفر على ترك الصلاة، بينما لا يطلق لفظ الكافر على تارك الصلاة إلا إذا تركها جحوداً أو إنكاراً ، والشهادتان تعصم دم الناطق بهما وفيهما إثبات ونفى ، إثبات الوحدانية لله تعالى ، ونفى الألوهية والربوبية عن غيره ، كما وفيهما التصديق بما جاء النبى ﷺ عنه ، والتوحيد أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

أنواع التوحيد

إن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع

أحدها : الكلام فى الصفات ، والأسماء ، وما يتفرع عنها .

والثاني : توحيد الربوبية ، وبيان أن الله واحد خالق كل شيء .
والثالث : توحيد الألوهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له .

والأول : إثبات صفات الله عز وجل كما أخبر عنها ، وأن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وخصائصه لا يوصف بها شيء من المخلوقات .

والثاني : هو الإقرار بأن الله خالق كل شيء ، وهذا حق ولا ريب فيه ، والقلوب مفطورة على الإقرار به ، وعليه اتباع الشرائع الأخرى ، كما أن عرب الجاهلية كانوا يقرون بوجود الخالق ولا يسجدون للأصنام إلا ليقربوهم إلى الله زلفى .

والثالث : هو التوحيد المطلوب ، والمتضمن توحيد الربوبية ، وهو الذى يحتاج المسلمون الإقرار به ، والقرآن الكريم مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه ، وضرب الأمثال له ، ومقتضى الشهادة : الإيمان اليقيني بالله تعالى وما يتضمن من أسمائه وصفاته ، وأنه هو :

« قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ، لا يفنى ولا يبيد ، ولا يكون إلا ما يريد ولا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبه الأنام ، حى لا يموت قيوم لا ينام ، خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤنة

، مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة ... وكما أنه محيى الموتى بعدما أحيا ، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم ، ذلك بأنه علي كل شيء قدير .. لا يحتاج إلى شيء ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » (١) .

الإيمان يزيد وينقص

ومقام الإيمان الثانى أنه يزيد وينقص ، وعلى هذا إجماع السلف حيث يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى ، ويتأثر بكثرة النظر ، ووضوح الأدلة ، ولهذا كان إيمان الصدر الأول أقوى ، وإيمان الصديق أقوى من إيمان غيره ، وإيمان الملائكة أتم من غيره :

« ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل ، حتى إنه يكون فى بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكلاً منه فى بعضها ، وكذلك فى التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها ... » (٢) .

وهذا التباين فى الإيمان إنما هو بأثره على السلوك ، وبنتائجه من الخشية والتقوى .

قال الطحاوى ـ رحمه الله ـ : « وأهله فى أصله سواء ،

---

(١) من متن الطحاوية .

(٢) فتح الباري ١ / ٤٦ .

والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ، ومخافة الهوى وملازمة الأولى »

وتشبيه ذلك كأصل الضوء فى المصابيح المختلفة فى قدرتها الكهربائية ، فأصل الضوء واحد فيها ، ولكنها تتباين فى شدة الضوء المنبعث منها بناء على قدراتها وما تتزود به من طاقة ، وكذلك يمكن القول بأن الأمر كالبصراء المختلفين فى قوة البصر وضعفه ، إذ أن فيهم الأخفش والأعشى ، ومنهم من يرى الخط الثخين دون الدقيق ، ومنهم من لا يرى إلا بعدسة ، وأصحاب العدسات بينهم فروق بقوة عدساتهم ، بينما هم جميعاً يصنفون في مجموعة المبصرين .

« إن التساوى إنما هو فى أصله ، ولايلزم منه التساوى من كل وجه ، بل تفاوت درجات نور (لا إله إلا الله) فى قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى ، فمن الناس من نور (لا إله إلا الله) فى قلبه كالشمس ، ومنهم من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى ، وآخر كالمشعل العظيم ، وآخر كالسراج المضيء ، وآخر كالسراج الضعيف ، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بإيمانهم ، وبين أيديهم على هذا المقدار ، بحسب ما فى قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملا ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم ، أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته »[1] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية / ٨٦ .

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه فى الكتاب والسنة كثيرة جداً منها .. قوله تعالى :

﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا** ﴾ . ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ ﴿ **ويزداد الذين آمنوا إيمانا** ﴾ . (وكان عمر يقول لأصحابه : هلموا نزداد إيمانا ..) . (وكان ابن مسعود يقول لأصحابه : اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً) . (وكان معاذ بن جبل يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة) .

وجميع هذه الأقوال تدل بوضوح على أن الإيمان يزيد ، والزيادة تتضمن حدوث النقصان أيضاً ، وكما أن الإيمان ـ على وجه الإجمال ـ يزيد وينقص ، فكذلك شُعَبه ، فقد يكون علي درجة عالية من التوكل لما ينكشف له من البراهين ، وتثبت عنده من التجارب بينما تكون شعبة إيمانية أخرى على أوجها عند مؤمن آخر وهكذا فمن المؤمنين من يكون على درجة عالية من الحياء والآخر على درجة عالية من التوكل ، وآخر على أقصى درجات الحب لإخوانه ، وغير ذلك (وكل ميسَر لما خلق له) ، والارتفاع بمستوى شعبة إيمانية يدرأ النقص فى غيرها ، وهكذا يتفاضل أهل الإيمان بالطاعات ، كما يتفاضلون بما يتداخل مع الطاعات من المعاصى ، بل إن المؤمن نفسه ليس على درجة سواء فى الأوقات المختلفة لما يطرأ

على قلبه من شبهات ، أو يتلبس به من الشهوات ، وبالتالى قد تنقص صفة إيمانية معينة ، وتزيد أخرى فى فترة معينة دون غيرها .

الإيمان .. والإسلام

بين لفظتى الإيمان والإسلام عموم وخصوص وفى العلاقة بينهما أقوال ثلاثة :

منها : أن الإيمان هو الإيمان بالأصول الخمسة ، والإسلام إتيان الأعمال الظاهرة .

ومنها : أن الإسلام هو الكلمة (أى شهادة التوحيد) .

ومنها : أن الإسلام مرادف للإيمان ، وهو رأى ضعيف لا تسنده أقوال السلف .

وقد صنف فيه العلماء التصانيف الكثيرة ، إلا أن التحقيق العلمى مع الأخذ بنظر الاعتبار لجميع النصوص الشرعية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقوال السلف كلها تدل على أن الإيمان قد يرد على وجهين : أحدهما : ما قد يرد مقروناً بكلمة الإسلام ، والثانى : وروده مجرداً فيكون عاما يتضمن الإسلام ، بينما يكون رديفاً له فى الحالة الأولى ، عندما يذكر مقرونا .

(... فلما ذكر الإيمان مع الإسلام ، جعل الإسلام هو

الأعمال الظاهرة : الشهادتان ، والصلاة والزكاة، والصيام والحج ، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، وهكذا في الحديث الذي رواه أحمد .. « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب) .

وإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل في الإسلام والأعمال الصالحة كقوله في حديث الشعب : (الإيمان بضع وسبعون شعبة ...) وكذلك سائر الأحاديث التي جعل فيها أعمال البر من الإيمان ...) [١] .

أي إن الإيمان أعم ، حيث تكسب لفظة « الإسلام » معنى التخصيص ، ومن الأحاديث التي تسند الوجه الأول حديث جبريل المشهود :

« الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ...

والإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) .

---

(١) فتاوي ابن تيمية ٧ / ١٤ .

ويشهد للوجه الثانى الأحاديث التى جعلت الدين ثلاث درجات أعلاها الإحسان وأوسطها الإيمان ثم الإسلام ، وبذلك يكون الإسلام بعض الإيمان ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، منها قوله ﷺ :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

ومعلوم أن من كان مأموناً علي الدماء والأموال ، فسوف يسلم المسلمون من لسانه ويده ، ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه .

والخلاصة أن :

(اسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ، ولا باسم العمل الصالح ولا غيرها ، وتارة يذكر مقروناً ، إما بالإسلام كقوله فى حديث جبرائيل : « ما الإسلام وما الإيمان » ؟ وكقوله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ .. وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح .. كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ ، وإما مقروناً بالذين أوتوا العلم ، كقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان** ... ﴾ [١] .

١) فتاوى ابن تيمية ٧ / ١٣ .

وهذا الفهم يمكن أن تخضع له جميع النصوص دون إشكال ، كما أن المؤمن يدرك منه أن منزلة الإيمان أعلى ، وكذلك فإن فروع الإسلام قد تكون ـ بحد ذاتها ـ هي من شعب الإيمان أيضاً .





(٣) شعب الإيمان

لما كان الإيمان يتشعب كما ورد فى الحديث الشريف : « الإيمان بضع وستون شعبة ... » .

فلا بد من النظر لها ، وإتيانها ـ ولو بدرجات متفاوتة ـ كما أنها تتفاوت بين شخص وآخر ، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع :

(١) **أعمال القلب** (أربع وعشرون خصلة) وهى :

(الإيمان بالله ، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء ، واعتقاده حدوث ما دونه ، والإيمان بملائكته ورسله ، والقدر خيره وشره ، والإيمان باليوم والآخر ، ويدخل فيه المساءلة فى القبر ، والبعث والنشور والحساب والميزان والصراط ، والجنة والنار ، ومحبة الله ، والحب والبغض فيه ، ومحبة النبى ﷺ واعتقاده تعظيمه ، ويدخل فيه الصلاة عليه ، واتباع سنته ، والإخلاص ـ ويدخل فيه ترك الربا والنفاق ـ والتوبة والخوف والرجاء والشكر والوفاء والصبر ، والرضا بالقضاء والتوكل والرحمة والتواضع ـ ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير ـ وترك الكبر والعجب ، وترك الحسد ، وترك الحقد ، وترك الغضب)

وكل منها له مباحثه الواسعة ، وله أدلته من الكتاب والسنة ، وفى عجالة هذا المبحث تكفى الإشارة لها .

أعمال الجوارح

(٢) **أعمال اللسان** (سبع خصال) وهى : (التلفظ بالتوحيد ، وتلاوة القرآن وتعلم العلم ، وتعليمه ، والدعاء ، والذكر ، ويدخل فيه الاستغفار واجتناب اللغو) .

(٣) **أعمال البدن** (ثمان وثلاثون خصلة) وهى : (التطهير حساً وحكماً ، ويدخل فيه اجتناب النجاسات ، وستر العورة ، والصلاة فرضاً ونفلاً ، والزكاة كذلك ، وفك الرقاب ، والجود ، ويدخل فيه إطعام الطعام وإكرام الضيف ، والصيام فرضاً ونفلاً ، والحج والعمرة كذلك ، والطواف والاعتكاف ، والتماس ليلة القدر ، والفرار بالدين ، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك ، والوفاء بالنذر ، والتحرى فى الأيمان ، وأداء الكفارات ... والتعفف بالنكاح ، والقيام بحقوق العيال ، وبر الوالدين ...، وتربية الأولاد ، وصلة الرحم ، ... ومنها القيام بالإمرة مع العدل ، ومتابعة الجماعة ، وطاعة أولى الأمر ، والإصلاح بين الناس ... والمعاونة على البر ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الحدود والجهاد ، ومنه المرابطة ، وأداء الأمانة ومنه أداء الخمس ،

والقرض مع وفائه ، وإكرام الجار ، وحسن المعاملة ... وإنفاق المال في حقه ... ورد السلام ، وتشميت العاطس ، وكف الأذى عن الناس ، واجتناب اللهو ، وإماطة الأذى عن الطريق ..).

وقد يتغير الرقم قليلاً بضم البعض إلى البعض أو التفريق ، وهذا مما تفسره الروايات المختلفة ، وقد يختلف بعض المسميات عند طوائف من العلماء ، وقد اختير هنا ما ذكره ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرح صحيح البخاري (١ / ٥٢) ، لدقتها وشمولها واختصارها من جهة ، ولاستنادها على جملة النصوص الشرعية الصحيحة .

كفر دون كفر

ونقيض الإيمان الكفر ، وكما أن الإيمان يتبعض ، فكذلك الكفر والفسوق والعصيان فهو مراتب ، وإدراك المؤمن لهذه الحقيقة مهم جدا ، فالكفر مراتب وأعلاها ما يخرج عن الملة ، وأدناها ما يكون من أمور الجاهلية ، أي أن الطاعات قد تسمى إيماناً ، والمعاصي كذلك قد تسمى كفراً ، ولكنه ليس بالكفر الذي يخرج عن الملة ، لما ورد عن ﷺ أنه قال : «أريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن ، قيل : أيكفرن بالله؟ قال : يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئاً،

قالت : ما رأيت منك خيراً قط ... »

ولما كان الكفر مراتب ، كان التعامل معه على مراتب أيضاً حسب الظروف والمقدرة والمصالح . ومثل الكفر كلمة الجاهلية ، لقول النبى ﷺ لأبى ذر رضى الله عنه عندما عيّر أحدهم : « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

وظلم دون ظلم

وكذلك الظلم : لقول الصحابة عندما نزل قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ ، أينا لم يظلم ، فأنزل الله تعالي قوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

ووجه الدلالة منه أن الصحابة فهموا من قوله (بظلم) عموم أنواع المعاصى ، ولم ينكر عليهم النبى ﷺ ذلك ، وإنما بين لهم أن المراد أعظم الظلم وهو الشرك .. فدل على أن للظلم مراتب متفاوته ...) [1] .

والتعامل مع الظلم والمعاصى يكون على مراتب أيضاً ، فمنها ما يقرب من الشرك والكفر فيقتضى المحاربة والمفاصلة حسب الإمكان ، وحسب تقدير المصلحة بحيث لا يترتب عليها مفسدة ،

---

(١) فتح البارى : ١ / ٨٨ .

أو تفوت مصلحة أكبر ، وفى أدناها الظلم اليسير الذى يمكن التجاوز عنه ، أو لا يترتب عليه موقف أو حَدٌّ فى الحياة الدنيا ، وكذلك فإن مراتب الظالم تبنى على مقدار المفسدة المترتبة عليها هل هى كبيرة أو صغيرة ؟ هل هى فردية أو جماعية ، وغير ذلك .

اجتماع الخير والشر

وهذه القاعدة ينبنى عليها عمل إذ قد تجتمع بعض المعاصى وبعض الطاعات فى الشخص الواحد ، فيكون الحب والموالاة للخير الذى فيه ، والبغض والمعاداة للشر الذى فيه ، إذ لا يمكن أن يكون الشخص خيراً محضاً ولا شراً محضاً والحكم على الشخص بما يغلب عليه .

(إذا اجتمع فى الرجل الواحد خير وشر ، وفجور وبر ، وطاعة ومعصية ، وسنة وبدعة ، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير ، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر ، فيجتمع فى الشخص الواحد موجبات الإكرام والمهانة ، فيجتمع له من هذا وهذا ..) (١) .

وهذا من العدل الذى جاءت به الشريعة ، ومن الإنصاف فى حق العباد .

---

١) فتح البارى : ٢٨ / ٢٠٩ .

حلاوة الإيمان

من ثمرات الإيمان تلك الحلاوة التى يجدها المؤمن فى نفسه ، وهى من اللذات المعجلة فى الدنيا ، لا يحس بها غيره ، بل هى بنفسها تتفاوت حسب درجة الإيمان ، وإدراك شعبه والعمل بها ، رغم أن كل مؤمن يحس بها فى بعض أوقاته ليقيس عليها .

(والحلاوة التى يجدها المؤمن فى قلبه فوق كل حلاوة ، والنعيم الذى يحصل له بذلك أتم من كل نعيم ، واللذة التى تناله أعلى من كل لذة ، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم فى عيش طيب . وقال آخر: مساكين أهل الغفلة ، خرجوا من الدنيا ، وما ذاقوا أطيب ما فيها) (١) .

ولعل ذلك من ملامح قول المصطفى ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » (٢) .

قال الإمام النووى : « هذا حديث عظيم ، أصل من أصول

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم : ٢ / ١٩٧ .　　(٢) حديث متفق عليه .

الدين ، ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات ، وتحمل المشاق فى الدين . وإيثار ذلك علي أعراض الدنيا ، ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك الرسول » (١) .

وما من عالم ولا عابد ، إلا وقد وجد هذه اللذة فى نفسه ، بسبب الإيمان والتوحيد .

(فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذى لا يمكن التعبير عنه إنما هو معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده ، والإيمان به ، وانفتاح الحقائق الإيمانية ، والمعارف القرآنية .. والقلوب فيها وسواس النفس ، والشيطان يأمر بالشهوات والشبهات مما يفسد عليه طيب عيشها ، فمن كان محباً لغير الله فهو معذب فى الدنيا والآخرة ، إن ينله فهو فى العذاب والحسدة والحزن . وليس للقلوب سرور ، ولا لذة تامة إلا فى محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه ، وهذا حقيقة لا إله إلا الله) (٢) .

وهذه اللذة هى من الثواب المعجل للمؤمن فى الدنيا ، كما أن العيشة الضنك هى من العقاب المعجل للكافر لإعراضه عن ذكر الله تعالى ، وتتفاوت هذه اللذة على حسب درجة ترك المعاصى ، وقد

---

(١) فتح الباري : ١ / ٦١ .

٢ ١) فتاوي ابن تيمية ٢٨ / ٣١ .

يتلذذ الإنسان بالمعصية مؤقتاً ولكنه سيعقب به ألماً وغصة ، وآثاراً تدوم عليه ، والله عليم بخلقه .

كبائر .. وصغائر

وكما أن شعب الإيمان تتفاضل فيما بينها أهمية على قدر أثرها ، كما أنها تزداد بالنية وحسنها ، فإن المعاصى والذنوب ـ هى الأخرى ـ صغائر وكبائر ، والكبائر ما اتفقت الشرائع على تحريمه ، وما يسد المعرفة بالله ، وما فيها من ذهاب للأموال والأبدان ، وقيل : ما يترتب عليها حد أو توعد بالنار ، والتعزيز في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب ، فمن الكبائر الشرك والقتل ، والزنا والسحر ، والفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الزبا ، وشهادة الزور وأمثالها ، أما الصغائر فهى مما ليس فيها حد فى الدنيا ولا وعيد خاص فى الآخرة كالنار أو اللعنة والغضب ، (وهذا الأمر على أرجح الآراء) .

(ولكن ثم أمر ينبغى التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء ، وعدم المبالاة وترك الخوف ، والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر ، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب ، وهو

قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره) [١] .

ولذلك فعلى المؤمن أن لا يستهين بصغيرة ، كما أن الباب مفتوح للاستغفار عن الكبيرة وكل من الصغائر والكبائر تكفر بالتوبة النصوح بشروطها ، وبالاستغفار المقترن أو المتضمن للتوبة ، والحسنات التى تذهب السيئات ، والمصائب التى تكفر بها الخطايا ، وعذاب القبر ، ودعاء المؤمنين واستغفارهم فى الحياة وبعد الموت ، وأهوال القيامة ، والعبور على الصراط ، وشفاعة الشافعين ، والله فوق ذلك أرحم الراحمين لمن يبذل جهده ، ولا يأمن من مكر الله تعالى ، وعلي المؤمن أن يظل متأرجحاً بين الخوف من غضب الله عز وجل ، وبين الطمع فى رحمته .

ومع معرفة الكبائر والصغائر ، تظل القاعدة التالية صحيحة فى الحكم على ظاهر الناس : (ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ما لم يستحله ، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) .

الوسطية من خصائص العقيدة

فهذه القاعدة وسط بين الإفراط والتفريط، فهى ترد على الطائفة التى تنفى التكفير مطلقاً ، وتتساهل فى ذلك ، وتسكت عن

---

(١) شرح الطحاوية ٢٧٩ .

الكفر الظاهر البواح ، أو ترد الأمر للغيب (مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع ، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم ، وهم يتظاهرون بالشهادتين ؛ وأيضاً فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك ، فإنه يستتاب ، وإلا قتل كافراً ، والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور) [(١)] .

كما أن القاعدة ترد على أهل الغلو الآخر ، وهم الخوارج ـ ومن فى حكمهم ـ القائلون بتكفير المرء بكل ذنب حتى ولو لم يستحل ذلك الذنب ، وكذلك المعتزلة ـ ومن فى حكمهم ـ القائلون بخروج صاحب الذنب من الإيمان مع إحباط عمله ، ودخوله فى (منزلة بين المنزلتين) وأشباه هؤلاء ممن سيستمر ظهورهم حتى قيام الساعة .

(وهنا يظهر غلط الطرفين ، فإنه من كفر كل من قال القول المبتدع فى الباطن يلزمه أن يكفر أقواماً ليسوا فى الباطن منافقين ، بل هم فى الباطن يحبون الله ورسوله ، ويؤمنون بالله ورسوله ، وإن كانوا مذنبين) [(٢)] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٢٦٨ .

(١) المرجع السابق ٢٧١ .

والبدع فى دين الله من أقبح المعاصى وأسوأ الذنوب ، لأن المعصية تودى بصاحبها فقط ، والبدع اعتداء على تشريع الله عز وجل ، وإخلال بتوحيد الربوبية ، كما أن فيها الضلال الكبير لكثير من الناس ، ولذلك كانت البدعة أحب إلي إبليس من المعصية ، ولذلك كان العابد العالم أفضل من الجاهل لقدرته على معرفة البدعة والتخلص منها ، والبدع هى التى جعلت الأمة تفترق على بضع وسبعين شعبة كلها زائغة لأنها على الخلاف المذموم مع الطائفة المنصورة الملتزمة بأصول الشريعة .

تجنب الشذوذ والفرقة.. من الإيمان

ونختم الحديث عن الإيمان بإحدى شعبِهِ المهمة ، ويلخصها قول أهل السنة بما يلى :

(ونتبع السنة والجماعة ، ونتجنب الشذوذ والخلاف والفرقة ، ونحب أهل العدل والأمانة ، ونبغض أهل الجور والخيانة .. ونرى الجماعة حقاً وصواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً) ..

والاستنان يجب أن يكون بأفضل هذه الأمة ـ فالصحابة ـ أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، والجماعة لا تتم إلا بالاعتصام بحبل الله المتين ، ورد الخلاف إلى الله ورسوله ، لأن أهل الخلاف هالكون إلا أهل السنة والجماعة المعتصمون بالقرآن والسنة

، لما ثبت فى الأحـاديث من أن فـرق الخـلاف فى النـار ، وليس المقصود هنا الخلاف الممـدوح ، أو المتأول ، أو خلاف التنوع ، وإنما الخلاف المبنى على البدع والأهواء ، وإنكار النصوص ، والله وحده الهادى إلى سواء السبيل .



(٤) العلم بعد الإيمان

جرى العلماء على التثنية بكتاب العلم بعد كتاب الإيمان ، فى تصنيف الكتب الفقهية والحديثية ، لما للعلم من أهمية ومكانة ، وليس أدل على أهميته من قول الله تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ .. وقوله عز وجل : ﴿ **رب زدنى علماً** ﴾ .

يقول ابن حجر فى فتح البارى : (يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم ، ورفعه الدرجات تدل على الفضل ، إذ المراد به كثرة الثواب ، وبها ترفع الدرجات ، ورفعتها تشمل المعنوية فى الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت ، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة .. وقوله عز وجل : ﴿ **رب زدني علماً** ﴾ ، واضح الدلالة على فضل العلم ، لأن الله تعالى لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شىء إلا من العلم ، والمراد بالعلم العلم الشرعى)[١] .

وإنما يفضل الإنسان على غيره أساساً بالعلم وليس بقوة بدنه ، ولا بشجاعته ، أو بنطقه وكلامه ، فما من صفة بدنية إلا وهناك من الحيوانات التى خلق الله من هى أقوى بها من الإنسان ، والناس

---

(١) فتح البارى ١ / ١٤١ .

أنفسهم إنما يتباينون بالعلم ، وبه ساد العلماء ، ، على التجار ، وساد الفقهاء على الحكام ، وفى العلم حياة القلوب وشفاء الصدور .

والعلم أشرف ما يرغب فيه راغب ، وأفضل ما يجد فيه طالب ، وشرفه يثمر على صاحبه ، وفضله ينمو عند طالبه ، وهو أفضل خلق ، والعمل به أكمل شرف ، ولا يجهل فضل العالم إلا الجاهل ، لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم أيضاً ، وهذا الأمر أبلغ فى فضله ، فالعالم يعرف الجهل ومضاره ، والجاهل لا يعرف فضل العلم وأهله .

تنازع العلم والمال

ما تنازع العلم مع شيء إلا وغلبه ، ولكن تكفى الإشارة إلى صراعه مع المال ، وهو زينة العصر ، ومفخرة الدهر ، ولكن هيهات أن ينتصر المال على العلم ، وإن ظهر فى عصرنا ما يظهر منه عكس ذلك ، ولا عبرة بما يلاحظ الآن بوقوف العلماء علي أبواب الأغنياء إنما هو لمعرفة أهل العلم بالمال ، وعدم معرفة أهل المال بالعلم .
وحتى لو كان المال اليوم ترس المؤمن فما فائدة الناس منه وما فائدة المجتمع إذا كان المال بيد البخيل فهو كوجود السيف بيد الجبان وقد قال علي رضى الله عنه : « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو علي الإنفاق والمال تنقصه النفقه ،

العلم محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها العلم ، يكسب العالم الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة » (١) .

ثم ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما يقارب الخمسين وجها فى تفوق العلم علي المال ، وفيما ذكر كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد .

الحيتان والطيور .. فى الخدمة !!

كم يشقى الإنسان ـ فى العصر الحالى ـ فى ترويض حيوانات البحر ، أو الطيور المحلقة لجعلها فى خدمته ، من أجل أداء بعض المهمات ، ولكن الله تعالى قد تكفل لطالب العلم ـ وطالب العلم فقط ـ أن تقوم الحيتان في الماء ، والطيور فى الهواء بالدعاء له والاستغفار ، أى قد سخرها لخدمته دونما عناء منه وجهد ، وهذه الميزة لم ينلها أى مؤمن آخر مهما كان فضله وعمله ، وكفى بهذا الإحسان دليلاً على شرف العلم وطلبه ، والسعى إليه فقد قال ﷺ : « منْ سلك طريق علم سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن السموات والأرض والحوت

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١٢٣ .

فى الماء لتدعو له ... » [(١)].

معناه بسط الجناح وفرشها لطالب العلم لتحمله عليها ، فيبلغه حيث يقصده من البلاد فى طلب العلم ، وقيل : معناه المعونة ، وتيسير السعى له فى طلبه .. وقيل : إن الله سبحانه وتعالى ألهم الحيتان وغيرها من أنواع الحيوان الاستغفار للعلماء لأنهم هم الذين بينوا الحكم فيما يحل منها ويحرم للناس ، فأوصوا بالإحسان إليها ، ونفى الضرر عنها مجازاة لهم علي حسن صنيعهم ..) [(٢)] .

فإذا كانت هذه منزلة طالب العلم ، فيشمر المسافر إلى الله عن ساعد الجد رغبة فى ثواب الله ، وطلباً لمرضاته ، ورهبة من عقاب الله لترك أوامره ، وإهمال زواجره ، واجتماع الرغبة والرهبة تزداد الهمة وتسمو فى طلب العلم .

(أصل العلم الرغبة ، وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة ، وثمرته العبادة ، فإذا اقترن الزهد والعلم ، فقد تمت السعادة ..) [(٣)]

وبعد التعلم .. التعليم

أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره ، ونشره التعليم والإرشاد به ، وهو من شكر النعمة لفضل العلم ،

---

(١) أبو داود وأحمد والدارمي والترمذي .   (٢) شرح السنة للبغوي ١ / ٢٧٧ .

(٣) أدب الدنيا والدين ٥٥ .

ومن كتم علماً يلجم بلجام من نار ، والتبليغ بالعلم واجب ، وقوله تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين** ﴾ كاف للاستشهاد بواجب التعليم ، وما أجمل أن تزين هذه الفقرة بشىء من لوحة معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه :

« تعلموا العلم فإن تعلمه خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل علي الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة يقتدى بهم ، أدلة على الخير تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم .. لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور يبلغ به العبد منازل الأبرار ، والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل ويعبد ، وبه يوحد وبه يمجد .. وهو إمام والعلم تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء ...) [(١)] .

فهنيئاً لمن رحل وسافر وفى معيته معلم ومتعلم ، فيكسب أجر التعلم ويكسب التعليم، وهيهات أن يدرك ذلك إلا بصحبة الأبرار ، واللبيب اللبيب الذى يدرك ذلك .

(١) إحياء علوم الدين ١ / ١١ .

حتى بدون نية

هيهات ..هيهات أن يقبل عمل بلا نية ، والأعمال مشروطة بمقاصدها والعلم أحد الأعمال من طلبه لله أعزه الله تعالى ، ومن طلبه لغيره أوكله إلى نفسه ، ومن طلبه ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ، وهذا الأمر من ارتباط الأعمال بالنيات من قواعد الشريعة ، ولكن ـــ مع هذا الأصل الهام ـ قال العلماء بجواز العلم ابتداء حتى لو لم تكن نية ، ولا يجوز للعالم منع العلم عن غيره بحجة أنه لا نية لهم ، وهذا الاستثناء لم يحصل لكل فروع الشريعة إلا فى العلم ، وهذا بحد ذاته دليل شرف العلم ، وعلو منزلته :

قال حبيب ومعمر بن ثابت : طلبنا الحديث وما لنا فيه نية ، ثم رزق الله النية بعد .

وقال معمر : إن الرجل ليطلب العلم لغير الله ، فيأبى عليه العلم ، حتى يكون لله .

(وقال الثورى : ما كان فى الناس أفضل من طلب الحديث ، فقيل : يطلبونه بغير نية ؟ قال: طلبهم إياه نية) [1] .

---

(١) تدريب الراوي للسيوطي ٢ / ١٢٠ .

والسبب فى ذلك أن العلم ـ بحد ذاته يقود فى غالب الأحوال إلى حسن النية فينتفع به صاحبه ، أو ينقله لصادق نية فيستفيد منه ، ولو اشترطت النية بقرائنها الواضحة لاندرس العلم الشرعى ، ولهذا ما أكثر ما كرر أبو حامد الغزالى قول المحققين : « تعلمنا العلم لغير الله ، فأبى الله أن يكون إلا لله » [1] .

ليستدل على أن النية قد ترافق طلب العلم فيما بعد ، وكذلك فقد يمتنع العلم عن المرء ولكنه يؤجر بمعرفة ألفاظه ، وينقله للآخرين ويا سبحان الله العظيم ، ما أعظم العلم وأروعه ، أن يكون له مثل هذا الفضل العظيم ، فأين المشمرون السائرون ؟ .

العلم ثلاثة !

والعلم المقصود هو الموصل للآخرة ، وهو النافع فى رحلة السفر ، والذى أراده الله رحمة للعاملين ، ومحجة للسالكين ، وحجة الله على عباده أجمعين ، وهو العلم الذى يهدى به الله لأقوم الطرق وأحسن السبل ، حيث يفتح الله به قلوباً غلفا ، وأعينا عمياً وآذناً صماً ، وهو العلم الذى تشرق به الظلمات ، وتتألف به القلوب ، وقد حدد الرسول ﷺ العلم بثلاثة أمور :

« العلم ثلاثة : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة ،

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٤٩ .

وما سوى ذلك فهو فضل الله » [١] .

فالآية ما أراده الله تعالى لنا من أجل سلامة العقيدة ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، لحسن عبادته ، وبه تصح العبادة للتقرب إليه ، وبه يقوم السلوك لكسب مرضاته ، والسنة لمزيد الرضا منه ، وتطبيق منهاجه ، والفريضة لتحقيق مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهذا هو صلب العلم الذى نتعبد الله به ، وبه يباهى الله الملائكة ، وبسببه يستغفر الحوت فى الماء ، والطير فى الهواء لمعلمه ، وما عدا ذلك فهو ملح العلم وحواشيه ، ومن فضل المعرفة وتوابعها ، وهو من ظواهر العلم التى تحسن الأداء ، وتدفع العمل ، ويبقى جوهر العلوم العلم الشرعى فهو للخير مفتاح ، وللهداية مصباح ، وهو عمدة الشريعة ورأسها ، ومبنى الحياة وأساسها ، وعليه مستقبل الإنسان وقطب مداره ، وحسن معيشته ومحط سعادته .

وإلى بيان بعض مميزات العلم المراد ونخص منها ثلاثة :

العلم قبل العمل

وهكذا قال المصنفون ، وهم يقتدون بصنيع الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ لقول الله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** ﴾ فبدأ بالعلم بالتوحيد ثم أردفه بالاستغفار وهو من مظاهر

(١) رواه أبو داود وابن ماجة .

العمل ، بل وليس للعلم السبق فقط ، وإنما المكانة لقوله ﷺ « فضل العالم على العابد ، كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » (١) .

مما يدل على فضل العلم ، ونزول رتبة العمل المجرد عن العلم ، كما أن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وأن كثير العلم لا ينفع مع الجهل بالله عز وجل .

(قال ابن المنير : أراد به أن العلم شرط فى صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل ، فنية المصنف ـ أى البخارى رحمه الله ـ على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم ـ أن العلم لا ينفع إلا بالعمل ـ تهوين أمر العلم والتساهل فى طلبه) .

قال ابن عباس : « تدارس العلم ساعة من الليل خير من إحيائها » .

وقال قتادة : « باب من العلم يحفظه الرجل لصلاح نفسه وصلاح من بعده ، أفضل من عبادة حول » .

وقال سفيان الثورى : « ما أعلم عملا أفضل من طلب العلم وحفظه لمن أراد الله به » .

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح .

وقال مطرف بن عبد الله : « حظ من علم أحب إليَّ من حظ من عبادة » .

وقال الشافعى : « طلب العلم أفضل من صلاة النافلة » [١] .

فاحرص ـ أيها المسافر ـ فى رحلة الخير على التزود بالعلم حتى تكون الرحلة كما يريدها البارى عز وجل ، وبهذا ينالك التوفيق ...

اقتضاء العلم العمل

ما أحلى تشبيه العلم بالشجرة ، والعمل بالثمرة ، فالشجرة قد تثمر ، ولكن لا يمكن الحصول على ثمر من غير شجر ، وكذلك العلم قد يتبعه عمل ، والعمل لا يكون صائباً بغير العلم ، ولكن فوق منزلة العلم المجرد منزلة تفوقها كثيراً وهى منزلة الشجرة المورقة المثمرة ، شجرة العلم إذ أينعت بالثمر ، ولذلك قيل : « العلم شجرة ثمرتها العمل » .

وهذا هو الأصل فى مكانة العلم إذ إنه يقتضى العمل الصائب الصحيح الذى لا جزاء له إلا الجنة ، وقيل فى علاقة العلم والعمل ودليل اقتضاء الأول وجود الثانى :

« العلم والد والعمل مولود ، والعلم إمام والعمل تابع والعلم

(١) شرح السنة للبغوي ١ / ٢٧٩ .

مع العمل كالرواية مع الدراية ، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل ، ولكن اجمع بينهما وإن قل نصيبك منهما ، العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل » (١) .

ومما قيل ما جمعه الماوردى بقوله : « ثمرة العلم أن يعمل به ، و ثمرة العمل أن يؤجر عليه ..خير العلم ما نفع ، وخير القول ما ردع .. ثم العلوم العمل بالمعلوم .. من تمام العلم استعماله ، ومن تمام العمل استقلاله ، فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ، ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد » (٢) .

العلم قابل للتبعيض

إذا كان لا بد للعلم أن يقود إلى العلم ، فكيف السبيل إلى العمل بالعلم وغاية العلم لا تنتهى ؟

ومتى الوصول إلى المراد حتى يبدأ بالعمل ؟ والعلم محيط واسع ، وبحر شاسع ، وكلام الله تعالى لا تكتبه مداد البحار وإن امتدت ، ولا أقلام الأشجار وإن سطرت ، ولا تشبع منه البلغاء ، ولا يستكفى منه العلماء ، فيقال : كل هذا حق وصحيح ، ولكن على المؤمن أن يعمل بما علم ، فالعمل يتجزأ وفق العلم ، لأن العلم قابل للتبعيض ، أي أنه من أجزاء وأقسام ، وكل قسم يتجزأ بدوره

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي . (٢) أدب الدنيا والدين ٥٨ .

إلى أقسام كالبحر الذى تؤخذ منه القطرة ، وقد يؤخذ منه الإناء ، وقد يؤخذ منه الرافد الدفاق ، وهكذا العلم قد تؤخذ منه المسألة كما يؤخذ منه الباب ، وقد يتبحر المرء فى الفن منه ، كما يكون فيه الفقيه البارع ، وفى هذا يقول المصطفى ﷺ :

« بلغوا عنى ولو آية . ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

(والآية تطلق على ثلاثة معان : العلامة الفاصلة ، والأعجوبة الحاصلة ، والبلية النازلة ... ويجمع بين هذه المعانى الثلاثة أنه قيل لها آية لدلالتها وفصلها وإبانتها ، وقال فى الحديث ـ ولو آية ـ أى واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآى ولو قل ليتصل بذلك جميع ما جاء به النبى ﷺ) (٢) .

والنص واضح فى ضرورة تبليغ العلم مهما قل ، ولا حجة لأحد بترك العلم ، بل لا عذر لأحد من ترك الأمر بالمعرف والنهى عن المنكر قدر الاستطاعة ، لأنه ما من مؤمن إلا وقد حفظ الفاتحة ، والفاتحة تتضمن سبع آيات محكمات ، فما يضير المؤمن أن يعمل بها ، وأن يبلغها للناس ، وتبعض العلم ـ وإمكان تقسيمه ـ لا يسهل عملية العمل به فقط ، وإنما تبليغه للناس أيضاً فهو يبلغ مسألة بعد

---

(١) رواه البخاري في (كتاب الأنبياء) . (٢) فتح الباري ٦ / ٤٩٨ .

أخرى ، وفناً بعد آخر ، حسب الحاجة إليه ، وظروف الدعوة ، وإمكان الاستجابة ، بل وإن التعمق فى فهم النصوص والاجتهاد فى المسائل لا يكون أيضاً إلا بمراحل ، ولا يتم إلا بالتجزئة ولذلك قيل :

« الاجتهاد ليس أمراً لا يقبل التجزيء والانقسام ، بل قد يكون الرجل مجتهداً فى فن أو باب أو مسألة دون فن آخر ، أو باب ، أو مسألة ، وكل أحد فاجتهاده بحسب وسعه » (١) .

أما الاستشهاد فى تبليغ العلم كأجزاء فليس أدل على نزول القرآن منجماً حتى يعمل به آيات بعد آيات ، والله أعلم بالصواب .



(١) ابن تيمية في الفتاوي ٢٠ / ٢١٢ .



(٥) ترويحة على طريق العلم

ثلاثيات .. ورباعيات

في واحة الانطلاق قد يشعر المسافر ببعض الضيق ، مما هو مجبول عليه بالفطرة ، فلا بد من استراحة ، وقد روى عن الرسول ﷺ : «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلت عميت » ، وفى استراحة العلم هذه قد يحتاج المؤمن لبعض الاسترواح بشم باقة من الزهور من واحة العلم ، وقد تحتوى الباقة على الزهرة أو الزهرتين ، أو فوق ذلك ، وقد اخترت لك باقات من الزهور ، بعضها ثلاثية الأوراد ، وبعضها رباعية ، لعلك تأنس بها .

فمن الثلاثيات :

قال عبد الله بن المبارك : « من بخل بالعلم ابتلى بثلاث :إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينسى ، أو يتبع السلطان » [١] .

وعن ابن عمر رضى الله عنه : « لا تتعلم العلم لثلاث ، ولا تتركه لثلاث ، لا تتعلم لتمارى به ، ولا ترائى به ، ولا تباهى به ، ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضاء بجهالة » [٢] .

---

(١) تدريب الراوي للسيوطي ١ / ١٤٦ .

(٢) رواه البيهقي .

(قد يضجر الإنسان بسبب ثلاثة : الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته ، وطول الأمل فى التوفر عليه عند نشاطه ، وفساد الرأى فى عزيمته)[1] .

(أقسام العلم ثلاثة : صلب العلم ، وملح العلم ، وما ليس من صلبه ولا ملحه) .

علامات العالم ثلاثة : العلم بما علم ، وملازمة الشيوخ ، والتأديب معهم)[2] .

ومن الرباعيات :

(أربعة تفيد العلم هن من كسب العبد : كمعرفة الكتابة ، واللغة والصرف ، والنحو) .

(وأربعة من عطاء الله تعالى : الصحة ، والقدرة ، والحرص ، والحفظ) .

(وإذا صحت هذه الأشياء هانت عليه أربع : الأهل ، والولد ، والمال ، والوطن) .

(وقد يبتلى بأربع : شماتة الأعداء ، وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهلاء ، وحسد العلماء) .

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ٦٥ .
(٢) الموافقات للشاطبي ١ / ٧٧ ، ٩٣ .

(فإذا صبر على طلب العلم أكرمه الله فى الدنيا بأربع : بعز القناعة ، وهيبة اليقين ، وبلذة العلم ، وبحياة الأبد) .

(وأثابه فى الآخرة بأربع : بالشفاعة فى إخوانه ، وبظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ، ويسقى من حوض المصطفى ﷺ ، ويجاور النبيين فى أعلى الجنة) (١) .

(الرجال بالنسبة للعلم أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك ناس فذكروه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه) (٢) .

وهيا بنا ـ إذن ـ إلى المزيد من النظر فى بعض خصائص العلم التى لا غنى للمسافر معنا عن معرفتها .

لا حياء فى العلم

صح عن المصطفى ﷺ أن الحياء كله خير ، والحياء شعبة من الإيمان ، ولكن استثنى من ذلك شيء واحد فقط وهو العلم ، وقد سألت أم سلمة النبى ﷺ حول احتلام المرأة ولم يمنعها الحياء من ذلك ، فترجم البخارى للحديث بما يلى :

(١) أدب الدنيا والدين ٨٤ . (٢) يروي هذا القول للبخاري كما في تدريب الراوي ٢ / ١٥٨ .

« الحياء فى العلم ، وقال مجاهد : لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر ، وقالت عائشة : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين » .

(إن الحياء من الإيمان ، وهو الشرعى الذى يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر، وهو محمود ، وأما ما يقع سبباً لترك أمر شرعى فهو مذموم ، وليس هو بحياء شرعى ، وإنما هو ضعف ومهانة ، وهو المراد بقول مجاهد : لا يتعلم العلم مستح .. وكأنه أراد تحريض المتعلمين على ترك العجز والتكبر لما يؤثر كل منهما من النقص فى التعليم) [١] .

وبناء على هذا ، فعلى المتعلم أن لا يستحى من سؤال من هو أعلم منه مهما كان نوع السؤال ، وعلى الكبير أن لا يستحى من التعلم من الصغير ، وعلى كبراء القوم من أشراف الناس وأمرائهم أن يتواضعوا لطلب العلم ، فالحياء فى العلم يمنع الكثير من الخير ويفوت العظيم من المعروف .

وللنساء .. نصيب

دأب الإعلام المعاصر على أن يجعل ركناً للمرأة فى المجلات أو

(١) فتح الباري ١ / ٢٢٩ .

الصحف أو الإذاعة ، وفى نفس الوقت يتهمون الدين بالتفريق ، والواقع أن عملهم هذا ـ بحد ذاته ـ تفريق فإذا اختصت المرأة بركن ، فهذا يعنى أن الأركان الأخرى ليست لها ، بينما كان الخطاب الشرعى عاماً للمكلفين ذكوراً وإناثا ، ولا يصرف النص التكليفى إلى النساء فقط ، أو الرجال فقط إلا بقرينة ـ كما قال علماء الأصول ـ وهذا مما لا يكون إلا فى مجال يختص بالرجل أو المرأة ، ولهذا فكل ما قيل عن العلم يخص الرجال والنساء معا ، ولكن لخوف الفتنة كان العلم والوعظ من الرسول ﷺ يبلغ لهن عن طريق الرجال ، ومع هذا فقد طالبن بحقهن فى الاستماع ، وأن رسول الله ﷺ : « خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع فوعظهن وأمرهن بالصدقة .. » [(١)] .

وترجم له البخارى بقوله : « عظة الإمام النساء وتعليمهن » ، فعقب ابن حجر ـ رحمه الله ـ (نبه بهذه الترجمة على أن ما سبق من الندب إلى التعليم من قوله: وأمرهن بالصدقة ..) [(٢)] .

وفى حديث آخر للبخارى :

(قالت النساء للنبى ﷺ غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن ...)

(١) رواه البخاري .
(٢) فتح الباري ١ / ١٩٢ .

وبالتـالـى ، فـالنسـاء شـقـائـق الرجـال ، وطلب العلم عـليـهن فريضة ، وعليهن بمتابعة المحاضرات ، وسـمـاع التسجيلات ، كما أن على أهل العـلـم أن يجـعلوا جـزءاً من أوقـاتهم ودروسـهم للنسـاء ، بشرط الالتزام بضوابط الشرع وتوجيهاته .

والتدرج ضرورة

إن العلم مـراتب ، وأجزاؤه مـرتبة تـرتيبـاً ضرورياً ، وبعـضهـا طريق إلى بعض ، وكل فن من الفنون كـالبناء ينبنى على بعض ، ولا يمكن التدرج فى سلم درجـاته إلا بعد الانتهـاء من الدرجة الأوطأ ، وهذا التـدرج هو أس التربيـة المنهـجيـة ، فلكل عـمر مـعين مناهجـه الخاصة ، كمـا أن المساقات المدرسية والجامـعية تترتب ترتيبـاً بعضها بعد بعـض ، والأخذ بهذه العـملية منهج ربانى ، أراده الله تـعالى فى تعليم العلم الـشرعى ، ولهـذا قـال ابن عـباس رضى الله عـنهـمـا : « كونوا ربانيـين حكماء فـقهـاء .. ويقال: الرباني الذى يربى بصـغار العلم قبل كباره » [١] .

(والمراد بصـغار العلـم ما وضح من مـسـائله ، وبكباره مـا دق منهـا ، وقيل : يعلمـهم جزئياتـه قبل مقـاصده ... وكـذا تعليم العلم يجب أن يكون بالتدريج لأن الشىء إذا كان ابتداؤه سهلاً حبب إلى

(١) صحيح البخاري (كتاب العلم) .

مـن يدخـل فيـه ويتلقاه بانبساط ، وكـانت عـاقبته غـالباً بخلاف ضده ...) [1] .

ويتضح من هـذا النص ضرورة ملاحظة هذا الجـانب فى تبليغ العلم الشرعى وتدريسـه ، وعدم محاولـة ضخ الكم الهائل من العلم الشرعى فى فترة زمنية قصيرة ، بحيث ينسى بعضه بعضا .

ولكن هذه القاعدة قد تنتقض بالأمور الهامة جداً التى يجب أن تقدم على غيرها وإن كانت أصعب كتـعلم الموازين الشرعية الدقيقة وفهم قواعد التصور الإسلامى ، أو مسائل التوحيد ، فعندئذ لا تردد فى تعلمها وتعليمها ، ولا مـجاملة ولا تسويف ، وإنما البت فيها من أول طريق المسافر إلى الله تعالى ، ولا أنصاف حلول فيـها ، ولا بد من القـضاء الحاسـم فيهـا ، أما مـا سوى ذلك فـإن تعلمهـا هو الذي يجب أن يكون وفق القاعدة الأساسية فى التدرج فى العملية العلمية والتربوية .

وتحول الموعظة .. من الربانية

وقـد يتحـمل المرء العلم سواء فى تـعلمه أو تعليـمه، ومـستـواه يتلاءم مع مقدار العلم نوعاً وكماً ، ولكن القلوب لها إقبال وإدبار ، والعـقول لهـا أوقات وأوقـات ، والنفـوس تتغـير رغـبتـهـا بين فتـرة

---

(١) فتح الباري ١ / ١٦٢ .

وأخرى ، ولذلك كان تعلم العلم وتعليمه يجب أن يكون وفق الهمة والرغبة ، ووفق طاقة الأشخاص ، ولا بد من استراحات ومواقف بين الدرس والدرس ، وبين الأسبوع والأسبوع ، وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قوله :

«كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا » (١) .

(ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة فى الجد وفى العمل الصالح خشية الملال ، وإن كانت المواظبة مطلوبة لكنها على قسمين : إما كل يوم مع عدم التكلف ، وإما يوماً بعد يوم فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثانى بنشاط ، وإما يوماً فى الجمعة ، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط) (٢) .

والموعظة والتذكير يقاس عليهما العلم والتدريس ، وكلها تحتاج إلى تخول لأن الاستمرار والكثرة تؤدى إلى الملال والضجر ، وبالتالى لا تؤثر فى النفوس بل قد تعتاد النفوس عليها فلا تعد تتأثر بالموعظة ، والله أعلم بعباده .

---

(١) رواه البخاري .　　　(٢) فتح الباري ١ / ١٦٣ .

(وقال عبد الله بن مسعود : حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم ، وأقبلت عليك قلوبهم ، فإن انصرفت عنك قلوبهم فلا تحدثهم ، قيل : وما علامة ذلك ؟ قال : إذا التفت بعضهم إلى بعض ، ورأيتهم يتثاءبون فلا تحدثهم) .

التخصيص

ومن المعاني الضرورية ، إدراك أن العلم ليس مشاعاً بكل أنواعه ، وذلك لاختلاف المفاهيم والمدارك ، والتجارب والممارسات ، مما قد يؤدى بالبعض عند سماعه لنوع من العلم إلى فهم خاطئ ، أو قد يوقعه فى تأويل باطل ، بل قد يحمل الكلام أكثر مما يحتمل ، أو يبينه على أساس واه ، وفى بعض الحالات قد يكون ظاهر الحديث أو المقال ــ بسبب الفهم الخاطئ ، أو عدم الإدراك الكامل ــ قد يقوى على البدعة ، أو يقود إلى المعصية ، بينما أصل المعنى ليس على ذلك ، ومنها ما ورد عن الرسول ﷺ عندما قال لمعاذ ــ رضى الله عنه : « من لقى الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة . قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا ، إنى أخاف أن يتكلوا » .

قال البخارى : « من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، وقال على : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله

ورسوله » (١) .

أما الإمام مسلم ، فقد اعتبر ذلك قاعدة منهجية فقال : « فأما عوام الناس الذين هم بخلاف معانى الخاص من أهل التيقظ والمعرفة ، فلا معنى لهم فى طلب الكثير وقد عجزوا عن معرفة القليل » (٢).

ولذلك كان لا بد للمؤمن المسافر مع ركب الدعاة الانتباه لهذه القاعدة فى التعليم ، وأن يتذكر قول الإمام الشاطبى ـ رحمه الله ـ :

(إن عليك فى علمك حقاً ، كما أن عليك فى مالك حقاً ، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل ، ولا تمنع العلم أهله فتأثم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك) (٣) .

لا تتحدث إلا بالخير

لما كان غاية العلم الخير ، صار من الضرورة النظر إلى غاية العلم ، فإن كان العلم حقاً ، والغاية منه شراً كان التحديث به من الشر ، ولذلك ينبغى النظر إلى أثر تبليغ علم ما على السامع فقد

(١) صحيح البخاري (كتاب العلم) . (٢) مقدمة صحيح مسلم .
(٣) الاعتصام للشاطبي ٢ / ١٤ .

يكون للسامع هوى فى نفسه ، أو بدعة يدعو لها ، فيكون تحديثه بما تميل إليه نفسه إعانة على بدعته ، أو مساعدة فى بلوغ هواه .

(قال ابن مسعود : ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

قال الخطيب : ويتجنب (أى العالم) فى روايته للعوام أحاديث الرخص وما شجر بين الصحابة والإسرائيليات)[1] .

(وممن كره التحديث ببعض دون بعض ـ الإمام أحمد ـ فى الأحاديث التى ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك فى أحاديث الصفات ، وأبو يوسف فى الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين ، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة فى سفك الدماء بتأويله الواهى ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة ، وظاهره فى الأصل غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب)[2].

ولذلك وجب وعظ الأغنياء بالزهد ، وأن يوعظ البخلاء بالإنفاق ، والكسالى بالجد والنشاط ، وعموماً لا بد أن يكون

---

(١) تدريب الراوي للسيوطي ٢ / ١٣٨ .   (٢) فتح الباري ١ / ٢٢٥ .

الوعظ متناسباً مع من يوعظون به من أجل المزيد من الخير ، وليس لتبرير أخطائهم وعيوبهم .

المسابقة العلمية .. سنة نبوية

قد تظن ـ أخي القارئ ـ أن المسابقات العلمية طارئة على المنهج الإسلامى ، وأنها من روح العصر ، ولكن الحق أن العلماء كانوا ـ على مر العصور ـ يستعملون الألغاز والأحاجى فى تدريس العلم ، وخصوصاً عند الاستراحات ، وبين الدروس المتعددة ، بل وألفوا فيها الكتب والمصنفات ، وهم فى ذلك يتبعون الهدى النبوى

إذ جلس النبى ﷺ بين أصحابه يوما فقال ملغزاً لهم : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، حدثونى ما هى ؟ قال ـ أى راوى الحديث عبد الله بن عمر ـ فوقع الناس فى شجر البوادى .. فوقع فى نفسى أنها النخلة ، ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة) [1] .

(وفى الحديث غير ما تقدم امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى مع بيانه لهم إن لم يفهموه .. وأما ما رواه أبو داود .. عن النبى ﷺ أنه نهى عن الأغلوطات (أى صعاب المسائل) .. فإن ذلك

(١) متفق عليه . رواه البخاري وترجم له بقوله : « طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم)

محمول على ما لا نفع فيه ، أو ما خرج على سبيل تعنت المسؤول أو تعجيزه ، وفيه التحريض على الفهم في العلم ...) [١] .

وهكذا ، حرصت الشريعة الإسلامية على أن يستفيد المؤمن من جميع وقته ، حتى عند استراحته وفيئته، فأجازت له اللهو المباح واللعب الجاد ، فكان من المباح للمؤمن استعمال الرمى والمناضلة ، والمسابقة على الخيل والإبل من أجل قوة البدن ، كما كان من المباح المسابقة الفكرية ، والإلغاز من أجل قوة العقل ، وفى الحالتين فلا تفريط فى الوقت ، ولا ضياع فى الجهد ، فيا للروعة ما أحرص الإسلام على وقت أبنائه .

والسمر فى العلم

قالت أم المؤمنين عائشة : « لا سمر إلا لمتعلم أو مسافر أو عروس » .

وهذا أيضاً من فضل العلم ، فالسمر (وهو الجلوس ليلاً للحديث) لا يكون إلا للطاعات والعبادة ، إذ تنتشر فيه الملائكة ، وتتنزل فيه الرحمة ، وما أكثر ما تضيع هذه الفرصة ـ هذه الأيام ـ على المؤمنين . إذ يصرفون أوقاتهم على السماع للمنكر ، ومقابلة التلفزيون لفترات طويلة ، دونما شعور بأن هذا مضيعة للعمر ،

---

(١) فتح الباري ١ / ١٤٦ .

ومجهدة للجسم وقد استحب الرسول ﷺ للمؤمنين صرف هذا الوقت ـ إن لم يكن للعبادة ـ فالسمر فى العلم استفادة من الوقت وراحة الجسم .

وقد قال عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ إن النبى ﷺ صلى بهم العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد » (١) .

فأخذ العلماء من هذا الحديث ـ ومنهم الإمام البخارى ـ جواز السمر بالليل بالعلم والموعظة ، وإن خلط العلم بالملح والنوادر مطلوب دائماً للتقوى بها على طلب العلم .

قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ روحوا القلوب ، وابتغوا لها طرف الحكمة .

(وكان الزهرى يقول لأصحابه : هاتوا من أشعاركم ، هاتوا من أحاديثكم ، فإن الأذن مجاجة ، والقلب حمض) (٢) .

فإن رغبت فى سمر الليلة ـ أخى المسافر ـ فما عليك سوى أن تعيد قراءة حلقة اليوم ، أو تنظر المصادر نفسها للاستزادة مما فيها من علم .

---

(١) رواه البخاري .　　　(٢) تدريب الراوي ٢ / ١٣٨ .

(٦) العمل الصالح

والعمل الصالح .. يرفعه

لقد سبق الحديث عن ركنين هما من خصائص السالكين إلى الله ، والمسافرين فى طريق الدعوة ، الإيمان والعلم ، والحديث هنا عن العمل الصالح ، وهو الركن الثالث الذى لا بد منه لإجازة المسير ، فالإيمان علم القلب وعمله وتصديقه ، وبالعلم تعرف مقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها ، والعمل ثمرة الإيمان ومقتضياته ، وتابع العلم ومتمماته ، وبه يكمل معنى الإيمان ، ويتحقق فضل العلم ، وعليه الحساب والعقاب ، وبه يحصل الإنسان على الأجر والثواب .

والعمل الصالح يظهر معني الشهادتين ، والآيات الكريمة تدل على اقترانه مرة بالإيمان لأنه من ثمراته ، ومرة تقرنه بغفران الذنوب وتكفير السيئات ، تأكيداً لمعنى الثواب والعقاب . **﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾** (١) . **﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾** (٢) .

---

(١) المائدة : ٩ . (٢) الرعد : ٢٩ .

وفوق الثواب الأخروى فإن العلم الصالح يؤدى إلى تحقيق سعادة الإنسان فى الحياة الدنيا ، ويحقق مصالحه المعاشية ، دون خلل أو نقص ، وبه تحكم تصرفات البشر ليتحقق لهم العيش الرغيد ، والابتعاد عن العمل الصالح إذا أراده البشر يؤدى بهم إلى المعيشة الضنك ، والحياة الشقية .

العلم ميزان العمل

لكل شىء فى الحياة ميزان يفرق بين الخطأ والصواب ، وبين فاعلية العمل الخيرة وطبيعته الهدامة ، فرب عمل لا يجنى منه سوى الدمار ، وهو ذلك العلم الذى لا ينبنى على علم من الله تعالى .

(إن العلم إمام العمل ، وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به ، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به ، فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه ، كما قال بعض السلف : من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، والأعمال تتفاوت فى القبول والرد بحسب وافقتها للعلم ، ومخالفتها له ، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود ، فالعلم هو الميزان وهو المحك قال تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور .. ﴾ [1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة ٨٨ .

أما أعـمال الكافرين التى لا تستنـد على علم شرعى ، ولم يكن الشرع إماماً لها ، فـهو العمل الذى ثـمرته فى الحيـاة معيـشة ضنك ويحضر الإنسـان بسـببه يوم القيامة أعـمى ، وكـم من عمل للإنسان لم يكن مهتديا بالهدى النبوى سبب الويلات له ، واحل فى الأرض البوار ، والأعـمال غير المهتـدية بعلم الشريعة ظاهرها جـميل وبناء ، وثمرتهـا ويل دمار ، ونهايتهـا جهنم وبئس القرار ، وهى إضـافة إلى أنها سـبب نكـد البشرية ، ودمار الإنسـان ، فهى فى الآخرة لا قيـمة لهـا ، بل كـرمـاد اشـتـدت به الريح فى يـوم عــاصـف ، وأعـمــال الكافرين ـ كذلك ـ وإن ظهـرت جميلة وبراقة ، إلا أنها (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) .

ثم تكون أعمالهم فيما بعد حسرة عليهم . فالعلم ميزان يفصل بين أعمـال الخير وأعـمال الشر ، وفـرقان بين الحق والبـاطل ، وبينما تظل الكلمـة الحق أصلهـا ثابت وفـرعـهـا فى السـمـاء ، أما أعـمـال الكافرين ، فالله تعالى يقول عنها : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً** ﴾ (١) .

بداية العمل .. مشاهدة الآلاء

إن التصـورات الذهنية لا بد أن تسـبق كل عمل ، سـواء أكان

---

(١) الفرقان : ٢٣ .

من أعمال الدنيا أم الآخرة ، ولذا كان لا بد للخواطر التى تسبق العمل الصالح أن تكون صالحة أيضاً ، وأول مواطن صلاحها الاعتراف بنعمة الله عز وجل ، ليعلم أن :

(مبدأ كل علم نظرى وعمل اختيارى هو الخواطر والأفكار ، فإنها توجب على التصورات ، والتصورات تدعو إلى الإرادات ، والإرادات تقتضى وقوع الفعل ، وكثرة تكراره تقضى العادة ، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار ، وفسادها بفسادها ، فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها ، وإلهها ، صاعدة إليه دائرة على مرضاته ومحبته ، فإنه سبحانه به كل صلاح ، ومن عنده كل هدى ومن توفيقه كل رشد ، ومن توليه لعبده كل حفظ ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء ، فيظهر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته فى آلائه ونعمه ، وتوحيده وطرق معرفته ، وطرق عبوديته ، وإنزاله إياه حاضراً معه مشاهداً له ، ناظراً إليه ، رقيباً عليه ، مطلعاً على خواطره وإرادته وهمه) (١) .

وبالتالى فإن مراقبة الله تعالى ورؤية نعمه ، أول مواطن الاستقامة ، وبداية طريق التوحيد، وإن مشاهدة الآلاء فى التوفيق

---

(١) الفوائد لابن القيم ١٩٣ .

والسداد ، بل في جلب الخواطر والأفكار الصالحة التى تقود إلى العمل الصالح بحد ذاتها عبادة ، وتدل على التوحيد ، وفوق ذلك تتضمن تمام العبودية ويكون العمل بتوفيق من الله تعالى .

أخلصه ... وصوبه

لا يقبل العمل ما لم يكن خالصاً وصائباً ، فالنية الصالحة ترفع العمل الصالح وتجعله مستجاباً ، ولكن النية وحدها لا تكفى ما لم يكن العمل صائباً بذاته ، والصواب لا يتأتى ما لم يكن العمل وفق الشريعة ، وما أكثر ما كرر السلف قولهم عن العلم (أخلصه وصوبه) ، ولما قيل للفضيل بن عياض عن معنى هذا قال :« إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة .. وذلك تحقيق قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ » (١) . وكان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول في دعائه : « اللهم اجعل عملى صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » (٢) .

---

(١) الفتاوى ١ / ٣٣٣ ، مفتاح دار السعادة ١ / ٨٢ .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١ / ٣٣٤ ، ٢٨ / ١٧٧ .

(وهذان الوصفان ــ وهما إسلام الوجه لله والإحسان ــ هما الأصلان المتقدمان ، وهما كون العمل خالصاً لله ، صواباً موافقاً للسنة والشريعة ، وذلك أن إسلام الوجه لله هو متضمن القصد والنية لله .. والعلم الصالح هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات ، وهو ما أمر الله به ، والذى أمر الله به هو الذى شرعه الله ، وهو الموافق لسنة رسوله ، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله ، وكان محسناً فى عمله ، فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب)[1] .

والمتتبع لنصوص الشرع يجدها دوماً بين الإخلاص والصواب ، وهو الطريق المستقيم الذى لا يجنح إلى فتن الشهوات أو فتن الشبهات ، بل صراط الشريعة الذى لا عوج فيه .

فرص متوفرة

ومن رحمة الله عز وجل بعباده ، أن جعل فرص العمل الصالح متوفرة دائماً ، ومتنوعة ومتباينة ، فلكل ظرف عبادة ، وفى كل حين عبادة ، وعلى كل حال هنالك عبادة ، كما أنها تتفاضل فيما بينها من حيث الأجر والثواب ، ومن حيث طلب الشرع لها ، فالفرض أولى من غيره ، والسنة أفضل من المباح ، ودفع الضرر مقدم على جلب المصلحة ، والمصالح تتفاوت بينها ، فالقطعية قبل الظنية ،

---

(١) الفتاوى ٢٨ / ١٧٥ ـ ١٧٧ .

والجماعية أولى من الفردية ، وقد تكون العبادة المعينة أفضل فى وقت دون غيره ، وفى مكان دون آخر ، والعبادة ذاتها بحق شخص معين أفضل له من نفس العبادة بالنسبة لشخص آخر ، وهكذا تكون الصلاة في وقتها من أفضل العبادات ، والجهاد فى وقته لمن قدر عليه أفضل من النوافل ، ودعوة الناس للخير أفضل من جميع العبادات إلا الفرائض ، وهكذا تتفاضل العبادات مما لا يدرك إلا بالعلم ، ولهذا كانت عبادة العالم أفضل من عبادة الجاهل لأنه أعلم بمواطن الأفضل ، وأقدر على تمييز الأولويات التى يحبها الله ورسوله .

(وهذا الباب ، باب تفضيل بعض الأعمال على بعض ، إن لم يعرف فيه التفصيل ، وأن ذلك قد يتنوع بتنوع الأحوال فى كثير من الأعمال ، وإلا وقع فيه اضطراب كثير ، فإن فى الناس من إذا اعتقد استحباب فعل ورجحانه يحافظ عليه ما لا يحافظ على الواجبات ، حتى يخرج به الأمر إلى الهوى والتعصب والحمية الجاهلية ، كما تجده فيمن يختار بعض هذه الأمور فيراها شعاراً لمذهبه .. والواجب أن يعطى كل ذى حق حقه ، ويوسع ما وسعه الله ورسوله ، ويؤلف ما ألف الله بينه ورسوله ، ويراعى فى ذلك ما يحبه الله ورسوله من المصالح الشرعية والمقاصد الشرعية ، ويعلم أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ) (١) .

(١) فتاوى شيخ الإسلام ٢٤ / ١٩٩ .

تنوع ... وتنوع

قد يتنوع الأفضل بحسب أجناس العبادات ، حيث إن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة ، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر ، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء ، وبين أفراد الجنس الواحد تفاضل ، فدعاء الله أفضل من دعاء الحاجة ، وصلاة الفرض أفضل من صلاة النافلة ، والذكر بالمأثور أفضل من الذكر بغيره وهكذا .

وقد يكون الأفضل باختلاف الأوقات ، فالقراءة ، والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة ، والذكر بعدهما أفضل من قبلهما ، وقرآن الفجر أفضل من قراءة وقت آخر ، والتهجد بعد النوم أولى من جعلها بعد العشاء ، وأشباه ذلك .

وقد يكون بحسب عمل الإنسان الظاهر ، فالذكر عند الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن ، وقراءة القرآن بعد الفاتحة في القيام هو المشروع والذكر والدعاء عند الطواف أولى من قراءة القرآن وعلى هذا يقاس غيره .

وقد يكون الأفضل بحسب اختلاف الأمكنة ، فالذكر والدعاء عند الصفا والمروة أفضل من الصلاة ، والطوا ف للقادم أولى من

الصلاة ، والعكس بالعكس بالنسبة للمكى .

وقد يكون التفاضل بالنسبة لوضع المكلف ، فالجهاد للرجل أفضل من الحج ، وجهاد النساء الحج ، وطاعة المتزوجة لأبويها دون طاعتها لزوجها ، وغير المتزوجة طاعتها للوالدين ، وهكذا ..

وتارة يكون التفاضل بحسب المقدرة ، فالعاجز والأعمى تكون العبادة فى حقه أفضل من الجهاد ، وقد يكون العمل فى حق مكلف أنفع لقلبه وأطوع لربه ، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للآخرين ، (والله بعث محمداً ﷺ بالكتاب والحكمة ، وجعله رحمة للعباد وهدياً لهم ، يأمر كل إنسان بما هو أصلح له ، فعلى المسلم أن يكون ناصحاً للمسلمين ، يقصد لكل إنسان ما هو أصلح له ، وبهذا تبين لك أن من الناس من يكون تطوعه بالعبادات البدنية ـ كالصيام والصلاة ـ أفضل له . والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النبى ﷺ باطناً وظاهراً ..) (١) .

كل يعمل على شاكلته

إن النفوس الصاعدة ، والهمم العالية ، هى التى تتطلع إلى مراتب العمل العالية ، والناس مراتب ، ولذلك كانت الأعمال

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ١٠ / ٤٢٨ .

مراتب أيضاً ، والأصل في ذلك ما في قلب الإنسان من الرغبة والرهبة ، وقوة اليقين وضعفه وعلو الهمة أو دناءة النفس ، وما يؤثر على المرء من اشتغاله بالنعمة وشكرها أو إنكارها ، وغير ذلك مما قد يجعل النفس لا ترضى بالدون لشرفها ونبلها ، أو ترضى بأخس الأشياء لدناءتها وصغرها ، وأصل الخير كله بتوفيق الله تعالى ومشيئته ، وفي دفعه عن الإنسان الموفق أن لا يغفل بالعلم عن العمل ، أو يسارع إلى الذنوب ويترك التوبة ، أو أن يغتر بصحبة الصالحين تاركاً عيوب نفسه .

وبناء على هذا فالنفوس نوعان وبينهما مراتب ، فنفس تقابل شكر النعمة بالمحبة والثناء والمراقبة له ، والطاعة ، والتعظيم والإجلال ، ونفس تقابل النعم بالمعاصي والإعراض عن الطاعات ، وشتان بين نفس عالية تتطلع إلى الأعالي ، ونفس تقنع بالدناءة .

(فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة ، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار ، فالنفس الشريفة لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ، ولا بالسرقة والخيانة ، لأنها أكبر من ذلك وأجل ، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك ، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها ، وهذا معنى قوله تعالى :

(قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) [١] ، أى على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التى تناسب أخلاقه وطبيعته) [٢] .

لا تلتفت إلى الوراء ... !!

ومن شرف النفس ، وعلو الهمة أن لا ينتظر صاحب الهمة الثناء من أحد ، بل يسارع فى الخيرات ، و يعجل إلى ربه غير ملتفت لأحد ، لأن الناظر إلى أجر البارى عز وجل وما ادخره لعباده المؤمنين لا يلتفت لأحد يعوقه ، ولا إلى ثناء آخر يغريه ، فهو من الموت كالهارب من أسد مفترس وأمامه جنة عرضها السموات والأرض ، فهو لا يلتفت إلى عوائق الطريق ، ولا إلى علائق الدروب ، فيكون الإخلاص دافعاً للركض إلى الله تعالى دون خوف أو وجل ، ودون تلبث أو اغترار ، لأن الذم والثناء قد تساوى عنده فى رحلته ، وليس فى نفسه قوة للالتفات لغير المقصود ، فكما أن الإخلاص يقود إلى ذلك ، فإن مجاهدة النفس بالمقابل تقود بذاتها إلى الإخلاص .

(لا يجتمع الإخلاص فى القلب ، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس ، إلا كما يجتمع الماء والنار ، والضب والحوت ،

---

(١) الإسراء : ٨٤ .　　(٢) الفوائد ١٩٨ .

فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فـأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فـازهد فيهـما زهد عـشاق الدنيـا فى الآخـرة ، فـإذا استـقـام لك ذبح الطمع والزهـد فى الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص) (١)

فهنيـئاً لمن عقـد العزم بكل قلبه على الـرحيل ، وانطلق لا يلوى على شىء .

ورهط الخير فى الانتظار

وأفضل الأعـمال ـ فى كل الأمور ـ مـا كان جمـاعياً فـصلاة الجـماعـة أفضـل من صلاة الفـرد ، والحج لا يكون إلا مع جـماهير المسلميـن ، والجمعـة لا تصح إلا فى جماعـة ، ومع أن المحاسـبة على الطاعـات والمعاصى فردية ، إلا أن الفضل والثـواب يزداد فيهـا عند عملها مع جماعة ، مما يدل علـى فضل الجماعة فى الإسلام ، والنظر الدقيق لجـمـيع العبادات فى الإسـلام يـجد المنحى الجـمـاعى فـيهـا واضحـاً . وأمر الجمـاعة أوسع من أن يكون فى العبـادات فقط ، بل هو سنة الله فى خلـقه ، وهو أمـر تدعـو له مصلحـة الدين والدنيـا ، ولذلك كانت الروح الجماعية واضحة فى المعاملات والعادات .

---

(١) الفوائد ١٦٨ .

(وكل بنى آدم لا تتم مصلحتهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر ، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم ، والتناصر على دفع مضارهم ، ولهذا يقال : الإنسان مدنى بالطبع ، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة ، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد ، والناهى عن تلك المفاسد) (١) .

وفوق ذلك كله ، فالعمل الجماعى مطلوب أيضاً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،أى فى أمور الدعوة إلى الله عز وجل ، ولا يسع الفرد المسلم إلا أن يعمل مع جماعة مؤمنة لإعلاء كلمة الله تعالى ، وليس أدل على ذلك من قول شيخ الإسلام :

(وروى الإمام أحمد أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم » ، فأوجب ﷺ تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة) (٢) .

ويظهر من النص أن العمل الجماعى يقتضى القوة والإمارة ، القوة التى جعلها الله تعالى بأصل الجماعة ، والجماعة أقوى دائماً من

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ٢٨ / ٦٢ .   (٢) المرجع السابق ٢٨ / ٣٩٠ .

الفرد ، وحزمة العصى أقوى من العصا ، والجماعة لا تكون إلا بإمارة ، فما أحلى من التزم بذلك ، وكانت رفقته فى السفر قافلة الدعاة ، حيث بهم يسعد ، وبحديثهم يلتذ ، وبمعاشرتهم يقوم العمل ، وبسماعهم تصح النية ، فالمسافرون معهم كتيبة الحق ، وقافلة التوحيد الذين يسمعون من الله ، يتبصرون بنور الله ، وينطقون بكلام الله ، ويسعون فى طاعة الله ، ويلهجون بذكر الله ، أولئك أئمة الهدى ، ومصابيح طريق السالكين إلى الله ، أولئك هم قادة البشرية ، وخلفاء الرسل ، أهل العلم الصائب والعمل الخالص أولو البصر واليقين ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ (١) .

فليتنافس المتنافسون

أيها السالك إلى الله ، والمسافر فى القطار مع الدعاة العاملين ، عليك بالمنافسة فى الخير وسارع إلى المعروف ، ولا تخش من ذلك ، ولتعلم أن المنافسة المذمومة هى الحسد غير المشروع ، والحسد خلق ذميم ، ونفس صاحبه ساقطة ، تحسد غيرها لعجزها ومهانتها ، والحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود : أما المنافسة الممدوحة فهى التى يطلق عليها أحياناً الحسد المشروع

---

(١) السجدة : ٢٤ .

لورودها عـن النبى ﷺ « لا حـسـد إلا فى اثنتـين ، رجل آتـاه الله القرآن ، فهـو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مـالاً ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » (١) .

وهـذا الحسـد المشروع هـو الـذى يطـلق عـليه فى الـغالب (الغبطة) أو المنافسـة المحمـودة وهى :(المبـادرة إلى الكمـال الذى تشاهد من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه ، فهى من شرف النفس ، وعلو الـهمـة ، وكـبـر القـدر ، قـال تعـالى : ﴿ **وفى ذلـك فليتنافس المتنافـسون** ﴾ وأصلهـا من الشيء النـفيس الذى تـتعلق به النفـوس طلباً ورغـبة فتنافـس فيه كل من الـنفسيـن الأخرى ، وربما فرحـت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون فى الخير ويفرح بعضهم لبعض باشتراكهم فيه ، بل يحض بعضـهم بعضاً عليه من تنافسـهم فيـه ، وهى نوع من المسـابقة ، وقـال تعالى : ﴿ **فاستبقوا الخيرات** .... ﴾ (٢) .

فيا أيها السالك إياك والاقتداء بالكسالى والمثبطين ، والنظر إلى أصحاب الدنيـا والمتكاسلين ، وشمر عن ساعد الجـد ، واحزم أمرك ، وتوكل على الله ، وركضاً ركضاً إليه .

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) الروح لابن القيم ٢٢٧ .

الجزاء المقدم

لا جزاء للعمل الصالح إلا الجنة ، ومع هذا الفضل العظيم ، فإن الله تعالى قد يقدم الأجر باللذة والسرور الذى ينتاب المؤمن ، ولطالما يشعر المؤمن بلذة العمل الصالح وطيب الوقت والنعيم الذى لا يمكن التعبير عنه ، والإشعار عليه ، ويشعر به من تفتح له الحقائق الإيمانية ، والمعارف الربانية .

كما قال بعض الشيوخ : لقد كنا فى حال أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى هذه الحال إنهم لفى عيش طيب ، وقال آخر : لتمر على القلب أوقات برقص فيها طرباً ، وليس فى الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة ، إلا نعيم الإيمان والمعرفة ، ولهذا كان النبى ﷺ يقول « أرحنا بالصلاة يا بلال » ولا يقول : أرحنا منها » [١] .

وهذه اللذة التى لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدوا أهل الطاعات عليها بالسيوف ، وهذه لذة لا يشعر بها إلا من عمل مخلصاً وجهه الله تعالى ، وما من مؤمن إلا أذاقه الله شيئاً من هذه اللذة ، ولو كانت يسيرة ليقيس بالأدنى على الأعلى ، وينشط للخير

(لذة كل أحد على حسب قدره ، وهمته وشرف نفسه ، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همة ، وأرفعهم قدراً من لذته فى

١) فتاوى ابن تيمية ٢٨ / ٣١ .

معرفه الله ومحبته والشوق إلى لقائه ، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه ، فلذته فى إقباله عليه وعكوف همته عليه ، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله .. وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن ، فهو يتناول لذاته المباحة علي وجه لا ينقص حظه فى الدار الآخرة ، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والأنس بربه ...) (١) .

وأخيراً أيها المسافر :

نرجو أن تكون قد شعرت بهذه اللذة فإن تكن كذلك ، فأبشر بلذات .



(١) الفوائد ١٦٨ .



(٧) التأهب للمسير

زاد الطريق

إن مما تدركه العقول بالفطر السليمة ، أنه لا بد لأي مسافر من زاد يتقوي به علي وعثاء الطريق ، ومشقة البعاد ، وتجاوز العقبات والوهاد ، والزاد مادي إن كان السفر بالجسم ليتقوي به لأنه من جنسه ، فكذا مسافر الروح والقلب يحتاج إلي الزاد الذي من جنس الأمر ، والمفرط الخاسر من لم يتزود لسفره :

(عجباً لراحل مات ، وما تزود للرحلة ، ولمسافر ماج وما جمع للسفر رحله ، ولمنتقل إلي قبره لم يتأهب للنقلة ، ولمفرط في أمره لم يستشر عقله ...

إخواني .. مر الأقران علي مدرجة ، وخيول الرحيل للباقين مسرجة ، سار القوم إلي القبور هملجة ، وباتت أرواح من الأشباح مستخرجة ، إلي كم هذا التسويف والمجمجة ، بضائعكم كلها بهرجة ، وطريقكم صعبة عوسجة ، وستعرفون الخبر وقت الحشرجة ....) [١] .

---

(١) المدهش لابن الجوزي ٢١١ .

إنه لحق أن يتزود المؤمن لآخرته بما يعينه علي تجاوز الحساب والعقاب ، ويحمل من المؤونة ما يجلب له المغفرة وتجاوز الصراط ، ففي اليوم الآخر لا يقبل من المرء مال ولا بنون ، ولا بيع ولا خلال ، وإنما تقبل فيه القلوب السليمة ، والأعمال الصالحة ، فابن آدم يموت ويرجع كل شيء ويبقي معه العمل الصالح .

ومثل ذلك ـ علي وجه التخصيص ـ سفر الداعية في قافلة ، إذ عليه التزود بالزاد الملائم للرحلة من النية الصالحة ، وطلب الثواب .

تزودوا للقاء الله وانطلقوا   لنصرة الحق والتقوي هي الزاد

وأن يتزود كذلك بالعلم الصحيح من القرآن والسنة ليعلم بذلك الصواب من الخطأ ، وأن يعرف الواقع الذي يدعو فيه فتقع الكلمة في مواضعها من القلوب ، ويملك النفس العالية التي تتصاغر عندها المشاكل والمتاعب ، وأن يتزود بالهمة العالية التي تدفع به للخير ، وهو في كل ذلك ـ ككل جهاز مادي أو بشري ـ محتاج إلي طاقة الدفع وطاقة المسير ، والداعية يجد من إيمانه ويقينه ، وما يتقوي به هذا الإيمان من عبادة صحيحة ، ومجاهدة حقة الطاقة الكبري لدفعه في قطار العطاء .

ومن بركات السفر إلي الله تعالي مع قافلة الدعاة ، ما يتم به من إسباغ النعمة علي العبد ، وما قد يفتح الله تعالي علي عباده من

أبواب الفضل ، وخزائن النعم ، وما يتفضل به علي عباده من الرحمة التي لا تخطر علي بال بشر إلا من عاش لذتها ، وارتشف من معينها ، ولا يتذوق حلاوة هذه الرفقة ، ولذة هذا العيش إلا من كان له نصيب من معرفة الله وتوحيده ، وعاش حقائق الإيمان ، وجرب هذه اللذة في عالم الواقع بالخلطة مع أهل اليقين ، وخلان الوفاء ، والمؤمن بهذا يميز بين هذه الخلطة الإيمانية التي تجلب الاطمئنان والسعادة ، وتدعو إلي الغبطة والحبور ، وبين الخلطة مع أهل الجاهلية والمعاصي وما تجلب من التعاسة والكدر ، وما تسببه من النفرة والضجر .

« فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله ــ سبحانه وتعالي ــ وتوحيده والإيمان به ، وانفتاح الحقائق الإيمانية ، والمعارف القرآنية ، كما قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حالة أقول فيها : إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب ، وقال آخر : لتمر علي القلب أوقات يرقص فيها طرباً » (١) .

(ويقول الآخر مع فقره : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا بالسيوف ...) (٢) .

---

(١) فتاوي ابن تيمية ٢٨ / ٣١ .   (٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٣٦ .

فهنيئاً لمن خالط الأبرار ، وسعد مع قافلة الأخيار ...

لذة المسافر

وفوق لذة المسافر هذه بطيب الرفقة ، وفرحة النفس وما يشعره بالفوائد الإضافية ، والمكاسب الزائدة ، فإن الله تعالي يقذف في قلبه حب السفر إليه والهجرة في سبيله ، كحب مسافر الدنيا لخلق الله في الأرض ، ولذة السفر الدعوي مع قافلة الدعاة هي في معرفة الله ومحبته ، والشوق إلي لقائه ، والعمل في سبيله ، والتردد إليه بالعمل الصالح ، والتقرب لمرضاته بتطبيق سنة نبيه ، ولذات كل إنسان علي « حسب قدره ، وعلي علو همته ، أعلي مقدار شرف همته ، وفي كل ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله ، فمن الناس من تنتهي لذاته إلي أقذر الأمور وأخس الأشياء ، ومنهم من تسمو لذاته إلي أفضل الأمور ، وزعلي الطاعات ، والدعاة إلي الله تعالي جمعت لهم لذة الدنيا والآخرة ، وجمعت لهما علي أكمل وجه ، وهم أيضاً في ذلك مراتب :

(وأكمل الناس لذة من جمع لذة القلب والروح ولذة البدن ، فهو يتناول لذاته المباحة علي وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والأنس بربه ، فهذا مما قال تعالي فيه :

﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**

قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ ، وأبخسهم حظاً من اللذة من تناولها علي وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ...) (١) .

الاستعانة بالمباح

وفوق لذة المسافر فله أن يستعين بالمباح ، بل وقد يستعين بالمستحب ويشهد المنافع لنفسه ، وقد يكون المباح مما تأنس النفس به ، ويرتاح القلب إليه ، فيكون الداعية المسافر فوق ما يحصل عليه من الأجر الأخروي ، فإنه يلتذ بالحلال من الخير من أنس ومزاح ، أو لهو مباح ، أو لعب بريء .

(وكما أن العقوبات شرعت داعية إلي فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، فقد شرع أيضاً كل ما يعين علي ذلك ، فينبغي تيسير طريق الخير والطاعة ، والإعانة عليه ، والترغيب فيه بكل ممكن ، مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح ، من مال أو ثناء أو غيره ، ولهذا شرعت المسابقة بالخيل ، والإبل ، والمناضلة بالسهام ،وأخذ الجعل عليها ، لما فيه من الترغيب في إعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله ..) (٢) .

---

(١) الفوائد لابن القيم ١٦٩ .

(٢) فتاوي ابن تيمية ٢٨ / ٣٧٠ .

ولهذا كان الترويح عن القلوب بالمباحات يقوي الاستعدادات للطاعة ، بل المباح طاعة بحد ذاتها إذا أدي المزيد من الطاعة ، ولأن ما في إتيان الحق من مغالبة الهوي ، ودفع الشهوات به ، فيتقوي المؤمن علي ذلك بشيء مما تألفه النفس .

(وكان عمر بن عبد العزيز يقول : والله إني لا أريد أن أخرج لهم المرة من الحق ، فأخاف أن ينفروا عنها فأصبر حتي تجيء الحلوة من الدنيا ، فأخرجها معها ، فإذا نفروا لهذه سكنوا لهذه ..) (١) .

وهكذا فإن الله تعالي ـــ وهو أعلم بخلقه ـــ بعلمه بطبيعة البشر ، هيأ لهم مجال الطاعة ، وطرق الاستعانة علي هذه الطاعة ، دون مشقة أو حرج ، وفوق ذلك يكسبهم الأجر الوفير في الآخرة ، مع اللذة الدنيوية التي يستشعرها المؤمن في حياته ، والتي تزداد مع كثرة انشغال العبد بأعمال الخير ، وتزداد وضوحاً عند الدعاة العاملين ، والمسافرين في قافلة الخير ، إذ يزداد أنسهم بالطريق ، ويشتد فرحهم بالرفيق ، وتتصاغر عندهم المتاعب ، وتهون عليهم الدنيا ويقل عندهم الكدر ، وتصفو نفوسهم ، حتي تكون قرة أعينهم بالصلاة ، ولذة حياتهم العبادة ، وأحلي أسمارهم في

---

(١) المرجع السابق ٣٦٤ .

مجالسة الإخوان ، وأجمل مزاميرهم في سماع القرآن ، وتكون أحلي غاياتهم الموت في سبيل الله ، وأنبل مقاصدهم رضا الباري عز وجل .

والله غايتنا

وانطلاقاً من صحة المقصد ، كان لا بد للداعية من استحضار النية وتجديدها ، والسعي إلي تخليصها من الشوائب المكدرة ، من طلب علو أو جاه ، أو الاستزادة من مكسب أو ثناء ، والتذكر دائماً لحديث المصطفي ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوي ... »(١) .

إذ إن النية التفريق بين عمل المؤمن المقبول وغير المقبول ، والنية فيصل بين العادات والعبادات ، كما أنها تميز الفرض عن المندوب ، وصلاح الأعمال لا تكون إلا بخلوص النيات ، وقد جاءت الأخبار المستفيضة أن قبول الأعما ل بصوابها وإخلاصها ، وهما مقتضي شهادة التوحيد ، فالإخلاص أن يكون العمل لله وحده ، والصواب أن يكون وفق شرعه الذي شرعه للناس .

(وقد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم هذا الحديث .. وليس

---

(١) حديث متفق عليه .

في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغني وأكثر فائدة من هذا الحديث) . واتفق بعض العلماء علي أنه ثلث الإسلام ، ومنهم من قال ربعه ، وقال بعضهم يدخل في ثلاثين بابا ، وقال الشافعي : يدخل في سبعين باباً ..

ولأن حديث النية يحدد ركن العمل الأساسي وهو الإخلاص ، ولذلك كان التذكير به لكل مؤمن لا بد منه ، وعلي الداعية أن يكون أشد تذكراً واستحضاراً لهذا الحديث ، وأن نعلم أن : « النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع ، أو دفع ضر ، حالاً أو مالاً ، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو العمل لابتغاء رضا الله وامتثال حكمه ، والنية فى الحديث محمولة علي المعني اللغوي ليحسن تطبيقه علي ما بعده ، وتقسيمه أحوال المهاجر ، فإنه تفصيل لما أجمل ... » (١) .

وبالتالي يدرك معني الاستحضار لنية القلب ، وإخلاص التوجه لله عز وجل ، وأن السفر لله تعالي بالدعوة إلى دينه ، وأمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وتعليم الناس الخير ، وإرشادهم للأعمال الصالحة ، يحتاج إلي النية الصادقة حتي يتوج العمل الدعوي بالبركة والقبول . ولقد أشار الحديث نفسه إلي الهجرة

---

(١) فتح الباري ١ / ١٣ .

كأحد معاني السفر .

(والهجرة : الترك ، والهجرة إلي الشيء الانتقال إليه من غيره ، وفي الشرع : ترك ما نهي الله عنه ، وقد وقعت في الإسلام علي « وجهين : الأول : الانتقال من دار الخوف إلي دار الأمن .. الثاني : الهجرة من دار الكفر إلي دار الإيمان ...) [١] .

وبالتالي فالسفر بمعنييه الانتقال من الدنيا إلي الآخرة ، والانتقال من حال إلي الحال الأفضل من الارتقاء بالمؤمنين من مدارج السالكين هما ضمن معاني الهجرة التي أراد لها الحديث النبوي صدق النية والتذكر بها ، فكان حريا بكل داعية وضع النية نصب عينيه ، وأن يرفع الشعار مع قافلة العاملين « الله غايتنا » .

أهداف ومراحل

وضمن الغاية الكبري ، وداخل الهدف الواسع ، تبرز أمام الداعية مع ركب الدعاة مجموعة الأهداف المرحلية المتداخلة مع بعضها ، أو التى يردف بعضها بعضاً وتظل هذه الأهداف نصب عيني العامل الداعية لا تنبثق أعماله إلا لخدمتها ، والسعي إلي تحصيلها ، فإذا كان الداعية مسافراً إلي ربه ، فالأهداف المرحلية هي

---

(١) المرجع السابق ١ / ١٦ .

مراحـل السفر التي يطويها واحدة تلو الأخري ، حتي وصوله للغاية

« العبـد من حين استقـرت قدمه في هذه الدار فـهو مسـافر إلي ربه ، ومدة سـفره هي عـمره الذي كتـب له ، فالعمـر هو مدة سـفر الإنسان في هذه الدار إلي ربه ، ثم قد جـعلت الأيام والليالي مراحل لسفـره ، فكل يوم وليلة مرحلة مـن المراحل فلا يزال يطويهـا مرحلة بعد مرحلة حـتي ينتهي السفر ، فـالكيس الفطن هو الذي يجعل كل رحلة نصب عينيه فيهتم بقطعهـا سالماً غانماً فإذا قطعها جعل الأخري نصب عـينيه ، ولا يـطول عليه الأمـد ، فـيقـسو قـلبه ، ويمتـد أمله ، ويحضـر بالتسويف والوعـد والتأخيـر والمطل ، بل يعد عـمره تلـك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعهـا بخير ما بحضرته ، فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها ، هان عليه العـمل فطوعـت له نفسه الانقياد إلي التزود .. » [١] .

وهكذا ، فالداعـية يفهـم المراحل ، ويعمل لهـدف كل مرحلة ، متزوداً لكل مـرحلة بما يعـينه عليهـا ، مـدركاً طبيعـة المراحل ، ولا تغـيب عن ناظريه طبيـعة الطريـق الذي يسلكه ، كمـا يدرك الطريق الذي يسلكه دعاة الشيطان ، فلا يسـتحث المسيـر دون سبب ، ولا يتقـاعس عن السيـر دون مبرر ، ويعلم أن (المنبـت لا أرضاً قطع ولا

(١) مفتاح دار السعادة ٢٣٥ .

ظهراً أبقي) . كما يعلم أن ساعات عمره تعد عليه ، وسوف يحاسب علي عمره فيم أفناه ، ويربأ بنفسه لتشبه بأهل الكفر والفسوق والعصيان في اللهاث السريع ، بل يصرخ ﴿ **وعجلت إليك رب لترضي** ﴾ والداعية الواعي لا يجره نسيان أصل الغاية الواسعة ، والأهداف الكبيرة وغاية السير أن يلتهي بالجزئيات ، والخلافات البسيطة ، أو أن يحرص علي مكاسب جزئية ، وبالتالي فلن يكون الداعية ممن يهزه الكسب السريع ، أو يوقفه الإغراء المؤقت ، وعليه أن لا يعيش علي أنغام المترخصين الكسالي ، وأنه لا تطريه غوغاء المتهورين العجالي ، وعليه أن يرنو ببصره دوماً إلي الأمام مشتاقاً إلي نهاية المرحلة ، حتي يندفع إلي مرحلة أخري ، حتي يصل قرير العين مطمئن القلب ، وهناك يحمد القوم السري .

معرفة الطريق

ولا بد للقاصد السفر من استجماع الهمة ، وحفظ العزيمة لاجتناب الموانع وتحدي العوائق ، وأن يأخذ من جملة الزاد الذي يحمله القوة العلمية بما تتضمنه من فقه للطريق ، ومعرفة بالدرب ، وهو للداعية معرفة الواقع الذي يعيش فيه ، لا أن يعرف الأحكام ولا يعرف تطبيقها ، ويحفظ الألفاظ ولا يدرك مراميها ، ويلهج بالأحكام ولا يغوص إلي عللها ، فالشريعة نزلت لتحكم في عالم

الواقع ، ولتحقق مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهكذا فالمسافر إلي ربه لا يتم سيره أو يعرف مقصوده إلا بالقوة العملية التي تضيء درب المسير ، وتوضح طريق المقصود .

(... وبالقوة العملية يسير حقيقة بل السير القوة العملية ، فإن السير هو عمل المسافر ، وكذلك السائر إلي ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها ، وأبصر المعابر والوهاد ، والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ..) (١) .

وعند توسعة هذه المعاني تفصيلا علي الداعية أن يعرف الواقع الذي يعيش فيه ، وطبيعة البشر ، ومدي استعداد كل إنسان للتلقي ، وأن يراعي الأعراف ، وأحسن الظروف الزمانية والمكانية ، كي تؤدي كلمته أثرها في النفوس ، وكذلك فإنه من الوعي أن يلتمس الداعية في رحلته الأولويات ، فلا تكون الوسائل علي حساب المقاصد ، ولا النوافل علي حساب الفروض ، وأن يكون مهتماً بإصلاح الجوهر أولاً ثم يزينه بالمظاهر ، ويبدأ بالأهم ثم المهم ، ويعلم الناس الموازين والقواعد ، ولا يشغلهم بالتوافه أو المرجوحات ، وكذلك عليه أن يخاطب الناس علي قدر عقولهم ، حتي لا يكون بعض الحديث فتنة لبعض ، وبهذه المعرفة

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢٣١ .

يستطيع قطع المراحل :

(فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخري واستشعر القرب من المنزل فهان عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي ، وبرد العيش عند الوصول فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمة ...) (١) .

أما الذي يشغل نفسه بصغائر الأمور ، ولا يضع الكلمة في مواطنها الصحيحة ، ولا يدرك مراتب العقول ، واختلاف المدارك ، فهيهات له الوصول ، وقد يقضي زمانه دون أن يقطع مرحلة من الطريق ، لانشغاله بالبسيط دون الأمر الجلل ، مثله كمثل المسافر الذي ينشغل الانشغال الكبير بإعداد الطعام ، أو الاستراحة الطويلة حتي تفوته دابة السفر .

وعوائق أخرى

ومن العوائق في طريق المسافر إلي الله ، ما قد يكون علي القلب من درن الشبهة أو المعصية ، والإنسان بين فتنتين ، أحدهما : فتنة الشبهات التي سببها قلة العلم فينحرف إلي صراط الضالين ، والأخري : فتنة الشهوات التي سببها قلة العمل فينحرف إلي صراط

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢٣٢ .

المغضوب عليهم ، ولكل فتنة درجات ومراحل ، وكلها تعوق السير إلي الله تعالي ، وقد تقسم أيضاً إلي ثلاثة أقسام ، فيقال عن العوائق أنها : « أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها ، فإنها تعوق القلب عن سيره إلي الله ، وتقطع عليه طريقه ، وهي ثلاثة أمور : شرك ، وبدعة ، ومعصية ، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد ، وعائق البدعة بتحقيق السنة ، وعائق المعصية بتصحيح التوبة، وهذه العوائق لا تبين للعبد حتي يأخذ في أهبة السفر ، ويتحقق بالسير إلي الله ، والدار الآخرة ، فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره ، وتجرده للسفر ، وإلا فما دام قاعداً لا يظهر له كوامنها وقواطعها » (١) .

والمؤمن المرهف الحس ، والداعية الراحل مع القافلة يدرك بالبصيرة والتجربة كيف أن السيئة تعرقل الخطوات ، والمعصية تجذب عن السير ، بينما الطاعة تجلب الهمة ، والهمة تجلب طاعة أخري ، فتتدفق الطاعات ، كما يسلسل الماء الزلال .

والعادات قاتلات

فكما أن المسافر ـ علي وجه الحقيقة ـ يخالف بعض عاداته من المأكل والملبس ، ويترك بعض عاداته في المنام والأعمال ، فإن بعض

---

(١) الفوائد لابن القيم ١٧٣ .

العادات قد استولت علي الناس ونشأوا عليها واتخذوها سنناً ، فعم بها المصاب ، وهجر لأجلها السنة والكتاب ، حتي أصبحت بعض العادات تحول بين العبد وبين طاعة ربه ، وسببت الخذلان ، وكانت من أعظم الحجب عن معرفة الحق واتباع السبيل القويم ، بل وقد تصبح العادات المنكرة ، عند البعض من أعرف المعروف ، والخروج عنها من أنكر المنكر ، ولهذا فالمسافر إلي ربه لا بد له من هجر العوائد ، وما ألفه الناس من الرسوم والعادات .

(فالعوائد : السكون إلي الدعة والراحة ، وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع ، بل هي عندهم أعظم من الشرع .. فالمعروف عندهم ما وافقها ، والمنكر ما خالفها ...) (١) .

والداعية المنصف من نفسه ، عليه أن لا يجعل من العادات والأعراف المخالفة لما شرعه الله حاجزاً يمنعه من المعروف ، ومانعاً يصده عن الخير ، فلا يبالي بأعراف أهله وذويه ، ولا يهتم لعادات مجتمعه وما يحويه ، ما دام مخالفاً لشرع الله تعالي ، بل عليه أن يكون الداعية الذي يصد التيار ، ويقاوم المنكر ، ويحارب البدعة ، وفوق ذلك يكون القدوة الذي ينشئ المعروف ، ويقيم السنة ،

---

(١) الفوائد ١٧٢ .

ويكون المثال الذي يحتذي ، فيكون له أجر العاملين ، وأجر المقتدين به .

والعلائق .. من العوائق

« وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها ، وصحبة الناس والتعلق بهم ، لا سبيل له إلي قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلي ، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع ، فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه ...) (١) .

ونظير هذا في مسافر الدنيا كمن ملك الزاد والراحلة ، واشتاق للسفر ومباهجه ، ولكنه تعلق بخيط يشده من زوجة لا يريد فراقها ، أو ولد يعز عليه تركه ، أو تجارة لا يريد مبارحتها ، فكذلك الداعية المسافر إلي ربه ، قد يملك زاد الرحلة وكفاية العمل ، كما يملك إخلاص النية ووضوح الطريق ، ولكن علائق الدنيا ، وثقلة الأرض وجاذبية الحياة ، تشده إليها ، فيبرر القعود بالتمسك بالتعود ، وترك النهوض إلي معالي الأمور ، فيجذبه النوم الهادئ الرغيد ، وتقعده الوظيفة المسترخية ، وتتزين له الدنيا ببهرجها

---

(١) الفوائد ١٧٣ .

وزينتهـا ، وينسي أن الدنيا كلها لا تساوي عند الله جنـاح بعوضة ، وأنه تعـالي ادخر لعباده مـا لا أذن سمـعت ولا عين رأت ، وأن الله تعالي أعد للمتقين جنات عرضها كعرض السموات والأرض .

والداعية الهمام يدرك أن الوصول للغاية المحبوبة يتضاءل عندها كل مـا يبذل لأجلهـا ، ويضع نصب عيـنيه النعـيم الخالد ولا يتـعلق بأهداب الدنيا التافهة التي يتكالب عليها الناس ومصيرهم جميعاً إلي القـبـور ، وتاركين وراءهم جـمـيع المألوف والمحبـوبات ، فـإذا مـا أدرك الداعـيـة المؤمن ذلك ، فـقـد قطع العـلائق بين قلبـه وجـواذب الأرض ، وراح مسـرعاً لطلب رضـا الله عز وجل (ركـضاً إلي الله بغير زاد ..) .

عليك بحفظ الهمة

والتخلص من العوائد والأوضاع التي استحدثها الناس ، وهجر العوائق التي تصد عن قطع الطريق ، والتـجرد عن علائق القلب التي تحول بين الداعية المسافر ومبـتغاه ، وتحول بين قلبه وبين تجريد التعلق بالهـدف ، لا بد له من ترك الفـضـول ، والأخذ بالعـزيمة ، والسـعي للأهم ، ويترك ما يشغله عن المقصود من الطعام والشراب ، وفضول الخلطة والسأم ، ويأخذ من زاد السفر ما يعين علي الطلب ، ويرفض ما يقطع عـنه الأخذ ، وترك الأمور الثـلاثة مدار ها علي أمـرين هما

النية والهمة ، وبهما يحصل المطلوب الأعلي ، فكانت النية بداية زاد المسافر ، وهمته أولها .

(المطلب الأعلي موقوف حصوله علي همة ونية صحيحة ، فمن فقدها تعذر الوصول إليه ، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره ، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب ، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته) (١) .

أى أن الطريق أوله نية صحيحة ، وهمة عالية ، وآخره مقصد صادق ، وغاية سامية ، والداعية بين النية والهمة يتوضح له الطريق المطلوب ، ويتخلص من كل العوائق التي تمنعه من السير في ركاب الخير ، واللحاق بقافلة الأبرار .

(.. ومن لا تنهض همته إليها فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً ، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدراً منكوساً ، وقد أسام نفسه مع الأغنام راعياً مع الهمل واستطاب لقيمات الراحة والبطالة ، واستلان فراش العجز والكسل ، لا كمن رفع له علم فشمر إليه وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلي الله ورسوله ، ومقتت نفسه

---

(١) الفوائد : ١٦٢ .

الرفقاء إلا ابن السبيل يرافقه في سبيله) (١).

وهكذا يكون الفرق واضحاً بين المؤمن القاعد الذي استسلم للسكون ، ورضي باليسير ، وأقنع نفسه بالقعود ، وبين الداعية الهمام الذي لا يرضي إلا بمعالي الأمور ، ولا يقنع إلا بقيم المحاسن ، وهنا كان لا بد له من الهمة العالية التي تصعد به إلي المعالي وتسمو به إلي القمم ، وهذ الهمة هي كما قيل عنها :« الهمة العالية لا تزال حالمة حول ثلاثة أشياء : تعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة ، وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها شكراً وطاعة وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية ، فإن تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات ..

إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ، ونام الليل كله ، فمتي يصل إلي مقصده » (٢) .

فهنيئاً لك أيها الداعية في رحلتك نحو الهدف ، وأنت تقطع المفاوز عبر المفاوز ، وأنت بينهما بين نية صحيحة وهمة عالية .



---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٤٦ .

(٢) الفوائد : ١١٣ .



(٨) رفقة الطريق

خيرية الركب

وكما أن المسافر ـ على وجه الحقيقة ـ لا بد له من رفقة الطريق ، فكذلك المسافر إلى الله تعالى فى طريق الدعوة ، أو السائر إلى الآخرة ، لا بد له من الجماعة التى يأنس بها ، وتذهب عنه وحشة التفرد ، وتصحح له الأخطاء ، وتوضح له عقبات الطريق ، وبهذا أمر الإسلام ـ كما جاء فى النصوص الشرعية ـ إذ حث على الرفقة حتى فى أسفار الدنيا ، فكيف بأسفار الآخرة ، والتى فيها يكون المؤمن أشد حاجة إلى المعين الصالح ، والمشارك الموافق ، الذى يكون مع شريكه كاليدين تغسل إحداهما الأخرى .

وإن لرفقاء درب الآخرة خصائص ومواصفات لا بد منها ، فرفقاء الطريق الدعوى هم الذين علت هممهم ، وصفت نياتهم وصح سلوكهم ، حتى سبقوا الناس وتركوا السكون ، وتزاحموا على ركوب القافلة ركضاً إلى الله تعالى ، وتسارعاً إلى مرضاته ، فلم يوقف لهم على رسم ، ولم يلتزموا باسم ، ولم ينتظروا أن يشار إليهم بالأصابع ، أو ترفع لهم الأعلام ، فقد علت منهم الهمة التى لا تقف دونها حركة السفر ، ولا يرضى صاحبها بغير الخالق عوضاً ،

كما صفا منهم القصد الخالص من الشوائب حتى لا تعوق عن المقصود ، وكان منهم التجرد التام للمعبود ، وعلامة أخرى لرفقاء الطريق هؤلاء ، ألا وهى صحة السلوك السالم من الآفات والعوائق والقواطع والحجب ، والذى لا يصح إلا بثلاثة أشياء : هى تمام خصائص إخوان الدرب وخلان الطريق .

(أحدها : أن يكون الدرب الأعظم ، الدرب النبوى المحمدى ، لا على الجواد الوضعية .. الثانى : أن لا يجيب على الطريق داعى البطالة والوقوف والدعة .. الثالث : أن يكون فى سلوكه ناظراً إلى المقصود ..) (١) .

وحشة التفرد

ولعل من أبرز ما يستدل له فى فضل الجماعة فى السفر الحقيقى ما ورد عنه ﷺ « لو يعلم الناس ما فى الوحدة ما أعلم ، ما سار راكب بليل وحده » رواه البخارى .

ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا ما كان لضرورة ، ومصلحة كما ورد فى حديث آخر مروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « قال ابن المنير : السير لمصلحة الحرب أخص من السفر والخبر ورد فى السفر فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر

---

(١) تهذيب مدارج السالكين : ٥٧٠ .

منفرداً للضرورة ، والمصلحة التى لا تنتظم إلا بالانفراد والكراهة لما عدا ذلك » [١] .

بل إن الراكب وحده شيطان ،كما ورد فى الحديث الشريف :

« الراكب شيطان والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب) [٢] .

فإذا كان هذا الأمر فى عمل دنيوى كالسفر ، فكيف بالسفر المعنوى ، كالأمر بمعروف أو النهى عن منكر ، والعمل فى سبيل الله والسعى للعمل الصالح ، والقيام بحقوق الناس ، والجهاد فى سبيل الله ، ففى كل هذه الأمور قد ينفرد الشيطان بالإنسان وحده ، وكلما ازداد عدد الجماعة ، كلما كان فضح الشيطان أسهل ، وسد المنافذ عليه أيسر ، وقد ورد فى حديث المصطفى ﷺ أنه قال : « .. فمن أراد منكم بحبحة الجنة ، فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد .. » [٣] .

والإمارة شرط

والجماعة لا تتحقق إلا بأمير أو قائد ، وقد جرت سنة الله تعالى فى كل خلقه ، بذلك ، فلو نظر الإنسان إلى قطعان الماشية لرآها تنقاد خلف واحد منها ، ولو أبصر أسراب الأسماك فى الماء ،

---

(١) فتح الباري ٦ / ١٣٨ . (٢) مالك ، أبو داود والترمذي .

(٣) أحمد واللفظ له .. والترمذي والحاكم .

والطيور فى الهواء لرآها زرافات وأسراباً، اقتضاء لتطبيق حكمة الله تعالى ، لأن مصالحها لا تتم إلا بهذا الاجتماع ، فهو الذى يشكل منها قوة تحمى بها نفسها ، وبالجمع تتآلف ، وبه تتم مصالحها من إحضار القوت ، وأداء العمل وتكامل المهمات ، وفوق ذلك حفظ النسل والنوع ، وقد وجه الله تعالى أنظار البشر للتفكر فى ممالك النحل والنمل ، وكيف تجرى سنته فى إجراء مصالحها وهى فى جماعاتها وأسرابها .

وما تجرى به سنة الله تعالى فى هذه الخلائق تجرى على البشر بكل أجناسهم ومذاهبهم ، إذ لا بد لهم من التعاون والتناصر ، والذى لا بد له من أمر ونهى اللذين هما ركن الإمارة ومقصد التأمير .

(كل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهى ، ولا بد أن يأمر وينهى ، حتى لو كان وحده لكان يأمر نفسه وينهاها ، إما بمعروف وإما بمنكر ، كما قال تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء ... وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض ، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن أمر ، ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة اثنين ، كما قيل : « الاثنان فما فوق جماعة » .. وأما الأمور العادية ففى السنن أنه ﷺ قال : لا

يحـل لثـلاثة يكونـون فى سفـر إلا أمـروا أحـدهم عليهم ...) [(١)]

والمتبصر بالنصوص يدرك كيف حث الإسلام على الجماعة فى الأمور الدنيوية ، كالسفر وأمثاله ، لأجل التعاون على جلب المنافع ، ودفع المضار ، وما يرتبط بالعمل الجماعى فى إمارة لا بد منها تحقيق المصالح ودرء المفاسـد ، وإن هـذا الأمـر قـد فطر عليه بنو آدم لأن (الإنسـان مـدنى بالطبـع) . وكذلـك فالأمـور الـدينيـة ــ وحتى العبادة ــ فـإنهـا تتحـقق بالشكل الأفـضل وتؤدي إلي الأجر الأوفـر عندمـا تؤدى جمـاعة ، فـصلاة الجـمـاعة أفـضل من صلاة المنفـرد ، والحج لا يؤدى إلا مع ركـب من المؤمنين ، وصـيـام رمـضـان مع مجـموع المسلمين فرض ، بينمـا النافلة فيه تؤدى مـنفردة ، وهكذا فالأمر مطـرد فى جميع الشؤون الدينيـة فكيف إذاً والدعوة إلى الله تعـالى من أهم الواجـبات التـى أمر الشـرع بهـا ، وهى من نوع أداء الأمانة للأمة .

لـذا كان لزاماً للسـائرين إلى الله بالدعـوة الدينية ، من سـلوك طريق الجمـاعـة (ولهذا أمر النبى ﷺ أمته بتوليـة ولاة أمور عليهم ، وأمـر ولاة الأمـور أن يردوا الأمـانات إلى أهلهـا ، وإذا حكمـوا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، وأمرهـم بطاعة ولاة الأمور فى طاعة الله

(١) فتاوى ابن تيمية : ٢٨ / ١٦٨ .

تعالى ، ففى سنن أبى داود ... أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .. فإذا كان قد أوجب فى أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك ..) [1] .

التحزب للحق .. من المعروف

والإمارة باعتبارها من أركان الجماعة ، تشهد لها العقول الصحيحة بالاعتبار ، كما تشهد لها النقول الصحيحة بالصحة ، وبالإمارة وما تتضمنه من القادة والجنود الذين يسعون إلى هدف واحد ، يتحقق التعاون على البر والتقوى ، ويكون التحزب الذى يرضاه الله عز وجل لتحقيق المصالح الشرعية .

(وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التى تتحزب ، أى تصير حزباً ، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، وإن كانوا قد زادوا فى ذلك ونقصوا ، مثل التعصب لمن دخل فى حزبهم بالحق أو الباطل ، والإعراض عمن لم يدخل فى حزبهم ، سواء كان على الحق أو الباطل ، فهذا من التفرق الذى ذمه الله تعالى ورسوله ، فإن الله ورسوله قد أمرا بالجماعة والائتلاف) [2] .

---

(١) المرجع السابق : ٢٨ / ٦٥ .

(٢) فتاوي ابن تيمية : ١١ / ٩٢ .

وهذه الفتوى وأمثالها ، وما سبق من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ، تشهد للعمل الجماعى بالصحة ، وفوق ذلك كله ، فإن صراع الباطل اليوم بأحزابه وجماعاته الظالمة ، ليؤدى إلى ضرورة تلاحم المسلمين بكل قوة للعمل الجماعى للإسلام ودعوته ، حتى تكون موازين الصراع متكافئة ، وتتحقق الوسائل المتماثلة ، فإن الله عز وجل قد شرع الأخذ بالقوة ، وإعدادها بما يتناسب مع وسائل أهل الباطل ، والداعية الفقيه يدرك من بين جماهير المسلمين ضرورة هذا الأمر ، فكان لزاماً عليه الانضمام إلى قافلة الدعاة والسير معها فى طريق السائرين على درب الخير حتى يقوى معسكر الحق فيزاحم معسكرات الباطل .

فعلى الطريق قوافل وقوافل ، السباق طويل ، وأهل العصيان والكفر على استعداد ، وركب المؤمنين ينتظر من يشمر عن ساعد الجد ويلحق بهم .

واحذر الآفات

ومع فضل الجماعة ، وقدر الترابط ، إلا أنه لا بد من التحذير ،فإن مع كل مصلحة شائبة قد تحولها إلى المفسدة ، أو تغيرها من الخير إلى الشر ، ما لم تؤخذ الأمور بضوابطها ، وتحدد المسائل بشروطها ، فليعلم الداعية أن : (الاجتماع بهم على التعاون

على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ، ولكن فيه ثلاث آفات :

إحداها : تزين بعضهم لبعض .

الثانية : الكلام والخلطة أكثر من الحاجة .

الثالثة : أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود) [1] .

فإن تزين البعض للبعض يدخل الرياء والنفاق ، ويفوت المصالح ، وتكون الرفقة لأجل الإثم والعدوان ، أو أن يكون التحزب لذاته فتضيع المبادئ على حساب الأفراد ، كما أن الخلطة الزائدة عن الحاجة تؤدى إلى اللهو غير المباح ، فتضيع الأوقات ، وتهدر الطاقات ، ويتشتت الخير .

كما أن الاجتماع قد يصبح شهوة لذاته ، فتفوت به الطاعات ، ويصد عن المعروف ، وتختلف بسببه الأولويات ، فتضيع الأهداف من أجل الوسائل ، وتهدر المقاصد من أجل الأساليب ، وعندما يصبح رجوع الداعية لنفسه ــ بعض الوقت ـ أولى ، لا يستوحش من كثرة القاعدين ، بل يأنس بالقلة من العاملين

---

(١) الفوائد : ٦٠ .

ويستبشر بالمضى مع قافلة المؤمنين ، ويسعى :

(... ليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها ، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها ، وشرابها ودواءها ، ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره ، ولا يفتر بكثرة المنقطعين فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هى من عوارض الطريق ..) (١) .

وليعلم الداعية المسافر مع ركب الدعاة أن طريقه طويل وشائك ، والسعيد من قطعه ووصل به شوط النهاية ، ولا يهتم بكثرة الذين يستصعبون ركوب المركب الصعب ، أو الذين يتساقطون من البداية ، أو أولئك الذين يقطعون بعض مراحل السير ، فإن الناس همم مختلفة ولا يزال البعض يختلف عن بعض ، وصاحب الهمة العالية هو الحداء الذى يتبعه الآخرون ، وهو الذى يصمد أمام كل عقبات الطريق ، ولا يتكاسل عن بعد الشقة ، ولا يتعب من مخاطر وحشة التفرد ، بل ينتظر يرنو ببصره ، مع اشتعال قلبه بالأشواق للهدف ، وعلو همته للوصول للغاية ، وسمو روحه إلى النهاية ، وهذا كله لا يتحقق إلا بنية صادقة ، وعزيمة صحيحة

---

(١) طريق الهجرتين : ٢٣٢ .

تجعله فى ركض إلى الله دونما التفات إلى الوراء ، ورحلة مع السائرين دونما شوق إلى الدعة والهدوء جعل كل شيء وراءه إلا من الرجاء فى الغاية التى أوقف نفسه عليها .

والطاعة .. أصل الجماعة

لا معنى لفكرة الجماعة بدون إمارة ، ولا مبرر للإمارة ما لم يكن لها طاعة والطاعة فى الشريعة لا تكون إلا فى المعروف ، ولقد جاءت الأحاديث مستفيضة فى وجوبها سواء أكانت فى السفر الحقيقى كما وردت وتقاس عليها الأعمال الدعوية لتحقيق طاعة الله تعالى أم ما ورد فى غيره حتى تجرى جميع الأمور على نسق واحد ورأى واحد ، ومع هذا فقد وردت الآيات والأحاديث أيضاً فى وجوب طاعة الأمير صراحة فى الأعمال الدعوية ـ وهى مقتضى السفر بمعناه المجازى ـ وقد أردف الله تعالى هذه الطاعة بطاعة الله ورسوله ، فقال عز وجل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ .

(وأولو الأمر : أصحاب الأمر وذووه ، وهم الذين يأمرون الناس ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام ، فلهذا كان أولو الأمر صنفين : العلماء والأمراء ، فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس ، كما قال أبو بكر الصديق ـ رضى

الله عنه ـ للأحمسية لما سألته : ما بقاؤنا على هذا الأمر ؟ قال: « ما استقامت لكم أئمتكم » ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان ، وكل من كان متبوعاً فإنه من أولى الأمر ، وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه ، وعلى كل واحد ممن عليه طاعته أن يطيعه فى طاعة الله ، ولا يطيعه فى معصبة الله ..) (١) .

وقيل فى أولى الأمر أنهم الأمراء ، وهو قول الجمهور ، بل والراجح عند الإمام البحارى والقرطبى ، وهناك رأى آخر أنهم العلماء ولا خلاف بين الرأيين إذ إن الأصل فى رأى الأمراء أن يكون وفق أقوا العلماء ، والمقصود من الرأى الثانى التأكيد على شرط العلم فى خصائص الأمير ، وإذ المفترض فى الأمير العلم ، وإذا التزم الأمير بالعلم فقد ارتفع الخلاف ومن الأحاديث قوله ﷺ : « من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات ليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » (٢) .

ويتوضح من النقل والعقل أن الطاعة أمر لا بد منه ، لكل جماعة تريد العمل الدعوى لتحقيق الأهداف ، ولكى تصبح الأعمال بأعلى كفاية . وتكون الوسيلة الأنجح للوصول إلى

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ١٧٠ .

(٢) رواه مسلم

المقاصد ، كما يتحقق الوصول إلى الهدف المكانى بشكل أفضل للجماعة المسافرة .

شروط ثلاثة

والعمل الجماعى مظهر من مظاهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولهذا لا بد له من ثلاث خصائص ، تؤدى إلى تحقيق الشروط الثلاثة وهى : العلم وررالرفق والصبر ، فالآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لا يكون عمله صالحا إلا بعلم وفقه يميز بهما المعروف عن المنكر ، وقواعد الأمر بالمعروف ، وأن يتعرف على أحوال المأمور والمنهى ، وأن يتوصل إلى مبتغاه بالمعروف ، ولا يقع فى المنكر ، ويصل إلى المقصود بأحسن الوسائل وأقرب الطرق ، وكذلك لا بد للداعية من الرفق الذى لا يكون فى شىء إلا زانه ، بحيث يكون صبوراً على الأذى ، ويحلم إن أصابه ، حتى لا يفسد أكثر مما يصلح ، وكذلك حتى يكون أمره بالمعروف معروفاً ، ونهيه عن المنكر غير منكر .

(فلا بد من هذه الثلاثة : العلم والرفق والصبر .. العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه ، والصبر بعده .. وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً فى جميع الأحوال ..) [١] .

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ١٣٧ .

والصبر .. نصف الإيمان

ولقد علم أن الإيمان نصفان : نصفه شكر ، ونصفه صبر ، وهو دليل ثبات باعث الدين فى مقاومة الهوى ومشتهيات الطبع .

(وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه ، وعقد اللسان عن الشكوى ، والمكابدة فى تحمله ، وانتظار الفرج) [١] .

وكما هو مشاهد ـ فى الحياة العملية ـ حاجة المسافر للصبر ، فإن الداعية فى سفره أيضاً فى قافلة الدعاة بحاجة إلى صبر أخص من صبر المؤمن ، فهو يحتاج إلى مراتب أعلى من الصبر الاعتيادى إذ هو بحاجة إلى الصبر على عموم التكاليف والسعى فى مصالح الإسلام ، والتنازل عن الكثير من حقوقه ، وأن يصبر على رغائب النفس وشهوات الهوى ، وعلى انحراف طبائع الناس وغرورهم وأثرتهم والتوائهم ، ويصبر على وقاحة الطغيان ، وانتفاشة الباطل ، وقلة المعين ، مع طول الطريق وكثرة العقبات ، ووسواس الشيطان ، وكذلك الصبر على هداية الناس ، وعلى الابتلاء والفتن ، وعلى التكذيب بالدعاة ، والصبر على مشقة الالتواء والعناد ، ومشقة إمساك الناس عن الخير وترددها ، وفوق ذلك كله ، فالداعية يحتاج

---

(١) فتح الباري : ١١ / ٣٠٢ .

إلى الصبر حتى مع أقرانه من الدعاة ، إذ إنهم من البشر لا يخلو أحدهم من جفوة ، وانقطاع ود ، وقلة الإنصاف غالبة فى طبع البشر ،مع أن الداعية لا بد له من الخلطة والصبر عليها ، وقد قيل : (لا يزهدنك فى رجل حمدت سيرته ، وارتضيت وتيرته وعرفت فضله ، وبطنت عقله ، عيب خفى تحيط به كثرة فضائله ، أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله ..) [(١)] .

ولهذا كله أخبر الله تعالى مبيناً هذا النوع من الصبر بقوله : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ...** ﴾ [(٢)] .

بين الجندية والقيادة

ومن الصبر ، صبر القادة وما به من صبر على الأتباع ، وما يظهر منهم من متاعب وأذى ، والصبر على حاجتهم ومطالبهم ، والصبر على استعجال الجنود وإلحاحهم ، والصبر على المداراة والرفق ، والصبر على متاعب الطريق ، وصبر على التكاليف ، إذ إن القدوة أو القائد من الدعاة قد يطلب منه ما لا يطلب من غيره من حسن العشرة ، وطيب التعامل ، وأداء الحقوق ، والسعى فى حاجات الناس ، وكل ما يشكل عليه عبئاً إضافياً ، وهو بشر محدود

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى : ١٧٤ .

(٢) الكهف : ٢٨ .

القابليـة ، ومحدود القدرة ، ومـحدود الطاقة ، وبحكم كـونه قدوة قد تكبـر منه الهفوة ، وتضخم منه الزلة ، ويتـعرض إلى قالة الغـيبة ، وحكايات الألسن ، بل قد يناله من الأذى الشيء الكثير ، ما يدعوه إلى المزيد من الصبر ، ولهـذا تحمل الرسـول ﷺ الكثيـر وهو أعدل الناس وأشفقهم ، ومع هذا فقـد أوذى حتى قال : « قد أوذى موسى بأكثر من ذلك فصبر » [١] .

(إن أهل الفضل قد يغضبهم مـا يقال فيهـم مما ليس فيهم ، ومع ذلك يتلقون ذلك بالصبر والحلم ، كما صنع النبى ﷺ اقتداء بموسى عليه السلام) [٢] .

ومن جهة أخرى قد يحتاج الداعية نفسه إلى الصبر على أمير ، وما قد يلحقه منه مما يكره بسبب الحدة فى الطبع ، أو الاستئثار ، أو الحـزم المتشـدد ، أو غلظة فى القـول ، أو تخشـين فى النصح ، مما لا يخلو منه الـبشر ، ولا يتـجرد عـنه القـادة ، وأحـيـاناً يكون سـبب الكراهة من التابع لحساسية فى طبـعه ، أو سوء فى فهمه ، ومما يعذر الأمـيـر فيـه ، كل هذه الملابسـات بين التـابع والمتبـوع ،مما يحـصل بسبب الطبيعة البشرية ، والتى تحصل فى كل مجموعة عمل معاً ، لا بد لها من الصبر ، ولهذا أوصى الرسول ﷺ به فقال : « من رأى من

---

١) الأدب المفرد للبخاري . (٢) فتح الباري : ١٠ / ٥١٢ .

أميره ما يكره فليصبر عليه ، فإن من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية » (١) .

وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر

لما كان الصبر مع الرفق والعلم من قواعد العمل الجماعى ، ولا بد له من رفقة الطريق كان التذكير به مهماً ، والتواصى به لا بد منه ، وكانت سورة العصر التى كان الصحابة يفترقون بالتعاهد عليها ، تضع من أهم أسباب عدم خسارة الإنسان بعد الإيمان والعمل الصالح وهو التواصى بكل من الحق والصبر ، والتذكير بهما ، ولقد علم من سورة العصر أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبتان ، والتواصى بالحق والصبر مرتبتان أيضاً .

قال ابن القيم ـ رحمه الله : « .. وتواصوا بالحق : وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً ، فهذه مرتبة ثالثة ، وتواصوا بالصبر : صبروا على الحق ، ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال ، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً فى نفسه مكملاً لغيره ، وكماله بإصلاح قوتيه العملية والعلمية .. » (٢) .

---

(١) رواه البخاري .   (٢) مفتاح دار السعادة : ١ / ٥٦ .

ومن التواصى بالحق النصح لجماعة المسلمين وإمامهم ـ كما ورد فى الحديث الشريف ـ وهو علامة الإخلاص ، ودليل منافاة الغش والحسد ، وهى من علامات الخير فى الجماعة المؤمنة :

(فإن النصيحة لا تجامع الغل إذ هى ضده ، فمن نصح للأئمة والأمة فقد برئ من الغل .. ولزوم جماعتهم هذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل والغش ، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ، ويسوؤه ما يسوؤهم ، ويسره ما يسرهم ، وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم ، والذم لهم) [١] .

وما دمت ـ أخى القارئ ـ قررت السفر ، وقبلت الانضمام للركب المسافر من قافلة الدعاة ، فإليك المزيد من خصائص الدعاة الخلقية والنفسية ، وما عليك الآن سوى امتطاء دابة السفر تالياً قوله تعالى : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ .



(١) المرجع السابق : ١ / ٧٢ .



(٩) بداية الطريق

لا ينفك الداعية من سفر إلى الله تعالى . متخذاً إياه وحده هادياً ومعبوداً ، وغاية ومقصوداً ، فلا يطمئن قلبه إلا بذكره ، ولا تسكن نفسه إلا إليه ، فبه يسمع ، وبه يبصر ، وإن بطش بطش بالله ، وإن مشى مشى بالله ، ويتخذ من رسوله ﷺ وحده دليلاً وإماماً ، وقائداً وزعيماً ، ويفرده بالمتابعة والاقتداء ، ويتخلق بأخلاقه وآدابه وهو ـ بهذا السفر بمعانيه الحقيقية والمجازية ـ له في كل وقت هجرتان :

(هجرة إلى الله : بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل ، والإنابة والتسليم ، والخوف والرجاء ، والإقبال عليه ، وصدق اللجوء ، والافتقار في كل نفس إليه ..)

(وهجرة إلى رسوله : في حركاته وسكناته ، الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه ، الذي هو تفصيل محاب الله ومرضاته ..) [١] .

وهاتان الهجرتان من جملة معاني السفر القاصد في قطار

(١) طريق الهجرتين : ٤ .

الدعوة ، وبهما يتوضح الطريق ، إذ إن كل الطرائق مسدودة ، إلا لمن اقتفى سنة المصطفى ﷺ فى اتباع أحكام الشريعة ، دونما غلو أو تقصير ، وبهذا الطريق تتحقق السعادة التى تدور نفياً وإثباتاً ، مع ما أراده خالق النفوس العالم بها ، وجدير بالداعية أن يجعل لحظات عمره كلها ، تدور فى الاستعداد للرحيل ، والتشمير فى العمل مع القافلة ، ومعرفة أبعاد الطريق ، وأن يتنافس مع المتنافسين فى التشمير عن الهمة ، التى يسعى لها السابقون ، حتى تقر عينه ، وتأنس وحشته ، وبسلوك الطريق الصائب ، يذهب عن المسافر الخوف ، ويرفع عنه الحزن ، ويطمئن به القلب ، فتسكن نفسه إلى الله وحده ، وتخلص محبته لله وحده ، ويقتصر خوفه عليه ، حتى ينال رضوانه .

الرفيق قبل الطريق

ولا بد للمسافر ـ فى عالم الحقيقة ـ من رفيق يحفظ له الود ، ويحمل عنه بعض مؤونة السفر ، ويخفف عنه المتاعب ، إذ لا يخلو السفر عن الخطر ، وبعض ضيق الصدر ، وفى الجماعة أمن من الخوف ، ولقد اعتبر الفقهاء ، الرفقة من آداب السفر ،. فقال الإمام الغزالى موصياً المسافر :

« أن يختار رفيقاً ، فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق ،

وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين ، فيذكره إذا نسى ، ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . » [1]

والمعنى مأخوذ من قوله ﷺ : « لو يعلم الناس ما فى الوحدة ، ما سار راكب بليل وحده » [2] .

لقد ورد القول مراراً فى أن العمل الدعوى ، وما يتفرع عنه من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، سفر مجازى ، يقاس على سفر الحقيقة ، فكان لا بد من شروطه ، أن يكون مع رفقة الخير ، وبالتالى فإن قطار الدعوة ، أو قافلة الدعاة ستجمع الأخيار ، وتنتقى الأبرار ، قبل اختيار الطريق ومناهجه ، وما هذا الانتقاء إلا وفق ما شرعه الله ورسوله ﷺ ، وهو الذى يقى مصارع الفتن ويحمى من لأواء التفرق ، ومن متاعب التشتت ، وبه يقصر السفر ، وتتحقق الأهداف .

ولا بأس ـ هنا مرة أخرى ـ من التذكير بأن الرفقة لا بد لها من إمارة ، يكون فيها الأمير على درجة أعلى فى خصائص الأخلاق ، ومميزات الأخوة ، وأخذاً من القياس على السفر ، يستدل على ذلك بما قاله الإمام الغزالى : « وليؤمروا أحسنهم أخلاقاً ، وأرفقهم بالأصحاب ، وأسرعهم إلى الإيثار ، وطلب الموافقة ،

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢ / ٢٥٢ .

(٢) فتح الباري : ٦ / ١٣٨ .

إلى الأمير ، لأن الآراء تختلف فى تعيين المنازل والطرق ، ومصالح السفر ، ولا نظام إلا بالوحدة ، ولا فساد إلا بالكثرة ، وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكون واحد » (١) .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (٢) .

ومتى كان المدبر واحداً انتظم أمر التدبير ، وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور ، فى الحضر والسفر ..

فلهذا وجب التأمير ، ليجتمع شتات الركاب . وإذا كان مسافر الحقيقة يسلم نفسه كلية لقائد القافلة ، أو أمير السفر ، أو قائد المركبة ، ـ مهما كان نوعها ـ وهو مطمئن إليه ، فما أحوج الداعية إذن إلى أن يسلك نفس الأمر ـ فوق ما يشارك فيه من نصح وشورى ـ فى أمور الدعوة حتى يصل الركب إلى المقصود.

جماعة .. ودعوة

والسفر إلى الله تعالى بأفضل أنواعه ، والذى به يكمل التقرب إليه ، ما كان مع جماعة المؤمنين هذه ، والذين هم أدلاء الركب ، ورفقاء الطريق ، وبهم يأنس المسافر ، ويذهب عنه السوء والفحشاء ، وتخلص نفسه من الغش والغل والبغضاء ، وذلك

---

١) الإحياء : ٢ / ٢٥٢ . (٢) الأنبياء : ٢٢ .

بسبب الإخلاص الذى يدفع عنه أسباب السوء ، وبالنصح لكل أئمة المسلمين الذى يدفع عنه الغل والحسد ، وبلزوم الجماعة التى تصحح الأخطاء ، وتقوم الاعوجاج ، وتوضح الطريق ، وتنبه على الأخطار ، وتجتاز معه موانع السير ، وعوائق الطريق وذلك لقوله ﷺ كما فى سنن الترمذى وغيره : « .. ثلاثة لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم .. » .

(وقوله : ولزوم جماعتهم : ـ هذا أيضاً ـ مما يطهر القلب من الغل والغش ، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ، ويسوؤه ما يسوؤهم ويسره ما يسرهم ، وهذا بخلاف من انحاز عنهم ، واشتغل بالطعن عليهم ، والعيب والذم لهم .

وقوله : فإن دعوتهم تحيط من ورائهم : هذا من أحسن الكلام ، وأوجزه وأفخمه ، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم ، المانع من دخول عدوهم عليهم ، فتلك الدعوة التى هى دعوة الإسلام ، وهم داخلوها ، لما كانت سوراً وسياجاً عليهم ، أخبر أن من لزم جماعة المسلمين ، أحاطت به تلك الدعوة ، التى هى دعوة الإسلام ، كما أحاطت بهم ، فالدعوة تجمع شمل الأمة،

وتلم شعثها ، وتحيط بها ، فمن دخل فى جماعتها أحاطت به وشملته ..) [(١)].

فلينظر إلى المعنى الجميل فى رفقة الدعاة الأبرار ، والتحزب معهم ، فهو تحزب لله ، وفيه ولاء لجماعة المسلمين ، وهو فى الوقت نفسه يلم شمل الأمة لا يفرقها كما يدعى أهل الباطل ، ولكن الذى يفرق الأمة هو أحزاب الباطل وجماعات الشيطان ، لأن لكل منهم راية ، ولكل جماعة فيهم سبيل ، والناس إن لم يجمعهم الحق ، تفرقهم شعب الباطل ، والخلق إن لم يجتمع على راية الخالق فكيف يجتمع على رايات المخلوقين ؟!

ولينظر إلى قول الفقيه العارف ، ودعوته للانضمام إلى قافلة الخير ، وهو يصرح من قرون مضت :) فالدعوة تجمع الأمة ، وتلم شعثها) ، بينما صرخات الباطل تفرقها ، ولتسمع دعوته وهو يصرخ من زمن : (فمن دخل فى جماعتها أحاطت به وشملته) فى دعوة صريحة واضحة من عالم أدرك مرامى التشريع ، واستقى من كوثر المصطفى ﷺ كيف يدعو للدخول مع جماعة الدعوة ، حتى تحيطه دعوة الإسلام ، ويحرسه سياج الإيمان ، ويقوى معسكر الحق فى منع العدو من الولوج إليه ، ويدعم كتائب التوحيد

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٧٢ .

فى رد الهاجمين عليه .

منازل السائرين

وهذه الجماعة المؤمنة هى التى استلانت ما استوعره المترفون ، وأنسوا ما استوحش منه الجاهلون ، وقد سلكوا طريق الآخرة ، مخالفين للشهوات والأهواء ، راكبين على متن الإخلاص والتقوى ، لا يهابون وعورة الطريق ، ولا يخشون بعد الشقة ، يسهل عليهم ارتقاء العوالى ، وهبوط الأودية ، لا يخلدون إلى الراحة والدعة ، بل يؤثرون الآجل على العاجل ، يعلمون أن الدنيا دار ممر لا دار مستقر ، ويعرفون أن الحياة منزل عبور ،لا مقعد حبور ، وكلهم « قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله ، وإلى دا السلام ، وهم ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله ، وهؤلاء كلهم مستعدون للسير ، موقنون بالرجعى إلى الله ، ولكنهم متفاوتون فى التزود ، وتعبئة الزاد ، واختياره ، وفى نفس السير ، وسرعته وبطئه » .

فالظالم لنفسه : مقصر فى الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل، لا فى قدره ، ولا فى صفته .

والمقتصد : اقتصد من الزاد على ما يبلغه .. ولم يتزود ما يضره فهو سالم غانم ، لكن فاتته المتاجرة الرابحة ، وأنواع المكاسب

الفاخرة .

والسابق بالخيرات : همه في تحصيل الأرباح ، وشد أحمال التجارات ، لعلمه بمقدار الربح الحاصل ، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ، ولا يتجر منه .. » (١) .

ومن هؤلاء الدعاة الذين ارتضوا ـ فوق ذلك ـ الانضمام إلى القافلة ، وركوب متن قطار الدعوة إلى الله عز وجل ، فكانوا قائمين بحجة الأنبياء في الأمة ونفذوا إلى حقيقة أمر الخالق ، وعاينوا ببصائرهم ما غمض عنه الآخرون ، فواصلوا العمل ، وشمروا للسفر ،وباشروا باليقين الحركة ، لعلمهم بالنهاية السعيدة ، وسمعوا نداء الإيمان فاستجابوا له ، واستبقوا الخيرات ، وزهدوا فيما رغب فيه الجاهلون ، وعلموا أن الدنيا خيال طيف ، أو سحابة صيف ، أو أنها ظل زائل ، وحلم زائف ، فصاروا وقد ولت عنهم الدنيا مدبرة ، كما جاءت الآخرة إليهم مقبلة ، فجاءوا إلى قطار الدعوة مسرعين ، وإلى قافلة الدعاة مهرولين ، «... فامتطوا ظهور العزائم ، وهجروا لذة المنام ، وما ليل المحب بنائم ، علموا طول الطريق ، وقلة المقام في منزل التزود ، فسارعوا في الجهاز ، وجد بهم السير إلى منازل الأحباب ، فقطعوا المراحل ، وطووا المفاوز ، وهذا كله من ثمرات

---

(١) طريق الهجرتين : ٢٣٦ .

القلب ، فإن القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله ، وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ، ويعلم أنه إذا زال الحجاب ، رأى ذلك عياناً ، زالت عنه الوحشة التى يجدها المتخلفون ، ولان له ما استوعره المترفون .. » .

فإذا ما وصل الدعاة بقطارهم إلى هذه المنزلة ، فإنها منزلة أول مراتب اليقين ، ثم تليها بعدها ، عند مواصلة السفر (عين اليقين) ثم بعدها (حق اليقين) . فهنيئاً لمن شمر عن ساعد الجد ، وصبر وجاهد حتى الوصول .

نية محركة

والدعاة فى حالتهم الدنيا ، يفترض فيه أنهم من المقتصدين ، وإلا فهم من السابقين بالخيرات ، ومن أجل هذا السبق سارعوا للجد فى السير ، والرحيل مع القافلة ، وما قنعوا بالجلوس الساكن ، ولا اللبث الدائم ، وإنما شمروا عن همة السير مع قطار الدعاة ، كى يستبقوا الخيرات ، ولهؤلاء السالكين ، خصائص وصفات ، فوق صفات المؤمن المقتصد ، أولها نية صادقة محركة للأفعال لا ترضى بالدون ، ولا تقنع بالسكون ، تركض إلى المنايا ، ولا تغرها الأمانى ، فهى نية تصاحبها همة ، ويسبقها عزم ، ويدعمها تصميم ويحدوها أمل .

(ولما كان العمل لا بد فيه من شيئين ؛ النية والحركة ، كما قال النبى ﷺ . « أصدق الأسماء حارث وهمام » فكل أحد حارث وهمام له عمل ونية ، لكن النية المحمودة التى يتقبلها الله ، ويثيب عليها : أن يراد الله بذلك العمل ، والعمل المحمود : الصالح ، وهو المأمور به) [1] .

ولذلك صارت هذه أول الخصائص المهمة للسابقين المسافرين فى قطار الدعوة ، من الذين لا يرضى أحدهم أن يحيا للطعام والشهوات فقط ، ولا يسيم نفسه مع الأنعام ، ولا يرضى لذاته الرعى مع الهمل ، ولا يستلين فراش العجز ، بل يرفع علم الحركة ، ويشمر للسعى والمثابرة ، هاتفاً من أعماقه « ركضاً إلى الله » .

خصائص ومميزات

ولهؤلاء الركب خصائص أخرى لا بد منها لرفقة الطريق :

أولاها : خصائص فردية تمكن الفرد من العيش والعمل ، وتحمل المشاق ، وصحة التوجيه ، كالعلم ، والحماسة ، وغيرها من مجمل صفات المسلم المقتصد الاعتيادية .

والثانية : خصائص ملائمة للحياة الاجتماعية ، تمكنه من

---

(١) فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢٨ / ١٣٥ .

العيش مع جماعة ، حتى يتفاعل معها ،ويؤثر في مسيرتها ، كالأخوّة ، والطاعة ، والصبر والإيثار .

وثالثها : خصائص جهادية ،تمكنه من تحمل السفر الطويل ، والأخذ بالعزائم ، والمرونة في التعامل والشجاعة والتضحية .

ويختلف الدعاة بقدر اختلافهم ، فى تحصيل هذه الخصائص التى يوفق الله لها من يشاء ، ويمنعها عمن يشاء ، وهى لا تنال إلا بالتعب والمشقة ، والصبر والمصابرة ، مع بذل الوسع ، وصدق التوجه ، لأن هذ الخصائص هى التى تؤدى إلى السعادة ، إذ لولاها ساد الناس كلهم فيها ، وتساوى صاحب الهمة العالية والكسلان ، والله أراد أن تكون السعادة ، بما تقود إليه من مقعد صدق ، ومقام كريم ، منوط بالمكارم والخصائص الحسنة ، والتى هى بدورها لا تتحصل إلا بمشقة الرواحل ، « فالمكاره منوطة بالمكاره ، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة ، فلا تقطع مسافتها إلا فى سفينة الجد والاجتهاد .. » (١) .

والعلم .. أولا

ولا بد ــ أولاً ــ للداعية المسافر من العلم النافع بالطريق ، لأنه

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٠٩ .

به يعرف المكان السهل من الطريق الوعر ، ويميز إشارات الطريق ، وكذلك يكشف العوائق ويعرف التخلص منها ، كما أنه يتبين مواطن النزهة ، ومناطق البهجة فيتمتع بها ، وهكذا العلم الشرعى يميز به بين العمل الصالح والطالح ، وبه يعرف ما يؤجر عليه ، كما يستدل به الداعية على أولويات العمل ، وأى الأعمال أكثر أجراً ، فى الزمان والمكان ، وكذلك يتعرف على مواطن الخلل ، وأماكن الزلل ، فيبتعد عنها ، ويعرف مسالك الشيطان ، فيتجنبها ، وطرق الرحمة ، فيلج فيها ، ومن أجل ذلك كله ، كان العلم أساس السفر فى معنييه الظاهر والباطن .. « لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها ، وفاضلها من مفضولها ، وراجحها من مرجوحها ، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال ، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة ، فهو يحتمل المشاق ، وإن كان ما يعانيه مفضولاً ورب عمل فاضل ، والمفضول أكثر مشقة منه ..

إن العلم إمام العمل وقائد له ، والعمل تابع له ومؤتم به ، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به ، فهو غير نافع لصاحبه ، بل مضرة عليه .. »[1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٨٢ .

روابط الأخوة

وأخوة الطريق لها روابط ، كالحبال التى تربط إبل القافلة لتجعلها قطاراً ، أو قل كأواصر الحديد ، التى تربط عربات المسافرين لتجعل منهم القطار الحديث ، وفى كليهما تتحقق أداة السفر ، التى يلجأ إليها السالكون إلى الله تعالى ، ويتحقق فيهم وصف المسافرين فى قافلة الدعاة .

وأولى هذه الأواصر ، أو تلك الروابط ، بل وأساسها : (رابطة العقيدة) إذ جعلها الله تعالى بنص القرآن الكريم بقوله : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « .. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ... » [١] ... « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ... » [٢] .

ومقتضى هذه الروابط ، المعاملة بالعدل والإحسان ، والحمد على الحسنات ، والنهى عن السيئات ، وأن تكون الموالاة والمعاداة ، وفق القرب والبعد من الشريعة ، وأن تكون وفق ما أمر الله ورسوله به ، ويكون الحب فى الله ورسوله ، كما تكون البغضاء فى الله ورسوله .

---

(١) حديث متفق عليه .

(١) متفق عليه ، والرواية لمسلم .

أما الرابطة الثانية للمسافرين إلى الله تعالى فهي : (رابطة الفكرة) ، فإن للعقول تجانساً بينها ، فوق تجانس القلوب ، فإذا ما انضم إلى رابطة العقيدة ،رابطة التشابه الفكرى ، فى الإيمان بالإسلام كعقيدة ونظام ، ودين ودولة ومصحف وسيف ، وأنه لا بد من العمل الجماعى ، لنصرة الدين ، وإعزاز الإسلام ، فسيكون هذا التجانس الفكرى وسيلة أقوى ، لربط الجماعة المهاجرة إلى ربها ، ويقوى العلائق بينها ، ويزيدها قوة واندفاعا .

أما الرابطة الثالثة فهي : غاية السفر ، وهدف الرحلة ، وهو ما يطلق عليه (أخوة العقد) ، أو (رابطة التنظيم) ، مما يجعل السفر أحسن إعداداً ، وأقل مشقة ، وأسهل مؤونة ، وبه تقل متاعب الطريق ، ويمكن تجاوز العوائق ، وبواسطته يقرب الهدف ، وتمهد السبل ، ولا بد أن تكون من الوفاء بها من قبل كل داعية ، لأنها عقد كبقية العهود .

« وبالجملة ، فجميع ما يقع بين الناس من الشروط والعقود والمحالفات ، وغيرها ، ترد إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فكل شيء يوافق الكتاب والسنة يوفى به .. » [1] .

وبهذا تضاف رابطة العهد ، والتعاقد على الأمر بالمعروف

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ١ / ٩٧ .

والنهى عن المنكر كعقد يلزم الوفاء ، وبه تتم الروابط الثلاث للجماعة المؤمنة ، وتكون قافلة الدعاة كأقوى ما يمكن أن تكون ، ويصبح قطار الدعوة كأصلب ما يمكن ، فيندفع بسرعته القصوى ، وطاقته العظمى ، نحو الهدف السامى ، بتوازن وثبات ، متجاوزاً العقبات وقاطعاً المفاوز ، لا يخشى من زعزعة العواصف ولا تخلخل الصف ، ولا تفكك الأجزاء ، وهذا سر قوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ...** ﴾ .





(١٠) إخوان الطريق

تشكل الدعوة الإسلامية ــ بمعناها الرحب ــ إحدى دعائم المجتمع الإسلامى ، بل أحد أركان الجماعة المسلمة ، وهى سر قوتها فى كل زمان ومكان ، فهى الآصرة التى تشد الأفراد بعضهم إلى بعض ، وهى روح الإيمان ، ولباب الشعور الفياض التى تجعل بناء الجماعة راسخاً لا تنال منه الفتن ، ولا تعصف به الأهواء ، وبالأخوة الإسلامية يصبح الأفراد كأغصان الدوحة الواحدة ، لا تكاد تؤثر فيهم عواصف الأعداء ، أو رياح الأهواء ، إلا كما تنال الرياح اللينة من أغصان الشجر التى تبقى معلقة بالشجرة السامقة الثابتة ، والجماعة تبقى بذلك كشجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، لأنها متمسكة بأصل التوحيد ، ومرتبطة بخالقها وبارئها .

ولما كانت الأخوة ثمرة اللقاء على العمل فى سبيل الله ، بل إنها أساس له ، ولا يستقيم العمل إلا بها ، فيجب أن تكون الولاية بين المؤمنين لله ورسوله ، ونتيجة لولاء العقيدة لا لغيرها ، ولهذا كانت النتيجة أن الله تعالى يجازى بالأخوة كأحد أهم الأعمال الصالحة التى يؤجر المرء عليها : « سبعة يظلهم الله فى ظله ، يوم لا

ظل إلا ظله .... ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه .. » [١] .

كما أن الأخوة فى الله هى طريق إسعاد البشرية بوجه عام ، بناء على أخوة الإيمان ، ولكنها فوق ذلك ، يجب أن تكون أقوى وأشد للجماعة المسلمة ولقافلة الدعاة ، على الطريق ، بل إنها ملازمة للإيمان ، وهناك قاعدتان أساسيتان ، لا بد منهما لكى تستطيع الجماعة المسلمة أن تضطلع بالأمانة الضخمة ، والرسالة العظيمة .

« هاتان القاعدتان المتلازمتان هما : الإيمان والأخوة ، الإيمان بالله وتقواه ومراقبته فى كل لحظة من لحظات الحياة ، والأخوة فى الله ، تلك التى تجعل من الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة ، قادرة على أداء دورها العظيم فى الحياة البشرية ، وفى التاريخ الإنسانى ، دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الحياة على أساس المعروف ، وتطهيرها من لوثة المنكر .. » [٢] .

وهذان الأمران مأخوذان من تلازمهما فى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم

---

(١) متفق عليه .

(٢) في ظلال القرآن : ١ / ٤٤١ .

إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . ﴾ (١) .

المؤاخاة بالعهد

ومع الأخوة الإيمانية ، تأتى رابطة المؤاخاة الأخص ، التى تزيد من أخوة الطريق ترابطاً ، كما يترابط المسافرون لغرض واحد فى سفر الدنيا ، فيزداد الدعاة فى قطار الدعوة تماسكاً وقوة ، ورابطة المؤاخاة بمعانيها الشرعية الثابتة ، أقرها الفقهاء امتداداً لفكرة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، (والمؤاخاة العهدية) على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا شك فى صحتها ، وما أنكره بعض الفقهاء لعقد المؤاخاة ، فهو إنكار لما حصل فى بعض القرون الإسلامية من وضع عقود مؤاخاة مخالفة للشريعة ، كإيجاب الميراث للمتآخيين ، مما هو منسوخ بأصل التشريع ،أو المؤاخاة على ما ينكره الشرع ،كتبادل شرب الدماء المحرم ، أو الإغاثة على الباطل ، أو التعاهد على ما لا يملك ، كالتعاهد على أن من دخل الجنة من المتآخيين يدخل صاحبه معه ، وغير ذلك مما يعرف بطلانه شرعاً ، ومن أقوال العوام وجهلة المسلمين ، وأهل البدع .

أما المؤاخاة على الخير والمعروف ، فهو من حق المؤمنين ، يزيده التعاهد بينهم رسوخاً ، ويكون الوفاء به ملزماً كالوفاء ببقية العقود

---

(١) آل عمران : ١٠٢ ــ ١٠٣ .

الشرعية ، قال شيخ الإسلام : « وأما عقود الأخوة بين الناس في زماننا ، فإن كان المقصود منها التزام الأخوة الإيمانية التي أثبتها الله بين المؤمنين بقوله : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « المسلم أخو المسلم » ، وقوله : « لا يبع أحدكم على بيع أخيه » ، وقوله : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » ، ونحو ذلك من الحقوق الإيمانية التي تجب للمؤمن على المؤمن ، فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، والمعاهدة عليها على ما أوجب الله ورسوله ، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن ، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة ... »[1] .

أما المؤاخاة التي فيها إثبات أحكام خاصة ، فهي أيضاً جائزة عند أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد ، أما مالك والشافعي وأشهر الروايتين عن أحمد أن ذلك منسوخ ، وهو الأرجح ، ولكن أقوال الفقهاء القائلين بالنسخ هذا إنما هو منصب على نظم المؤاخاة في أزمانهم ، لما تتضمنه من إثبات أحكام منسوخة ، كنظام التوارث ، وغيره من العقود الفاسدة ، أما التآخي على الخير والمعروف ، فهو من المجمع على

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ١١ / ١٠٠ .

صحته ، إذ لو لم يثبت قياساً على مؤاخاة المهاجرين والأنصار فإنه يصح على أنه عقد من العقود الشرعية ، يلزم صاحبها بالوفاء كعقود البيع والشراء ، والأقضية المختلفة ، قال الإمام الغزالى رحمه الله : « فإذن الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب » (1) .

إذ إنها أولي من العقود الأخري التي عليها مصالح المعاش فقط والعقد علي التعاون الدعوي غايته المصالح الدينية والجماعية الراجحة .

السلام .. والقيام

وأول مقتضى معاملة إخوان الطريق البدء بالسلام ، فهو من أدب الإسلام الرفيع ، وفيه معانى الود والتواضع والرحمة ، أو الاحترام والمحبة والتدبير ، وللسلام قاعدة وميزان وصفه الرسول ﷺ بقوله : « يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير ... »

وغيرها مما هو معروف ، وأصبح مشتهراً فى الأعراف ..

« إذا تلاقى ماران راكبان أو ماشيان .. يبدأ الأدنى منهما

---

(1) إحياء علوم الدين : ٢ / ١٨٥ .

الأعلى قدراً فى الدين إجلالاً لفضله ، لأن فضيلة الدين مرغب فيها الشرع .. وقال ابن العربى : حاصل ما فى الحديث ، أن المفضول بنوع ما يبدأ الفاضل وقال المازرى وغيره : هذه المناسبات لا يعترض عليها بجزئيات تخالفها ،لأنها لم تنصب نصب العلل والواجبة الاعتبار حتى لا يجوز العدول عنها .. » (١) .

أما غير ذلك من الأحكام ، فتؤخذ من العادات الغالبة ، كما أنها ليست ملزمة ، إذ الأصل فى السلام إشاعة المودة ، والحب ، والاحترام بين الجميع ، وقد يصحب السلام القيام ، وقد يكره إذا قصد منه التعظيم ، ويجوز القيام أيضاً لأصحاب الفضل كما قال ﷺ للأنصار عند قدوم سعد : « قوموا لسيدكم .. أو قال : خيركم ..» .

وخلاصة رأى الفقهاء فى القيام ما ذكره الإمام النووى بقوله : « وأما القيام فالذى نختاره أن مستحب ، لمن له فضيلة ظاهرة ، من علم أو إصلاح ، أو ولادة أو ولاية مصحوبة بصيانة ، ويكون على وجه البر والإكرام لا للرياء والإعظام ، وعلى هذا استمر عمل الجمهور من السلف والخلف .. » (٢) .

ولا بد أن يترافق مع السلام والقيام ــ كأحد حقوق الأخوة ــ

---

(١) فتح الباري : ١١ / ١٦ .

(٢) الروضة للنووي : ١٠ / ٣٦ .

التوقير والاحترام ، وعدم المماراة ، والسؤال عن النفس والأهل ، والسعى فى الحوائج وحسن الاستماع والإنصات ، وأن لا يتشاغل المرء بنفسه ، وبأحد أعضائه عند الحديث مع أخيه ، وأن لا يسارع فى الرد ، أو الاعتراض إلا بحجة واضحة ، وأن لا يقاطع المتكلم طمعاً فى إثبات معرفة ،أو سبق إلى معلومة ، ونظائر ذلك مما يعرف بالشرع أو العرف .

ويلتحق بالأمر كذلك الزيارة التى تتعلق فيها بعض هذه الأخلاق ، فهى من السنن الواضحة .

« ويسن زيارة الصالحين والإخوان .. وإكرامهم وبرهم وصلتهم ، وضبط ذلك يختلف باختلاف أقوالهم ومراتبهم وفراغهم ، وينبغى أن تكون زيارتهم على وجه يرتضونه ، وفى وقت لا يكرهونه .. »[١] .

أى لا بد من التوسط فى الزمان والوقت والموعد المناسب ، من غير إقلال يؤدى للهجران ، ولا زيادة تقود إلى الملال ، والضابط فى كل ذلك أيضاً عدم التكلف المذموم .

من حقوق الصحبة

ومن مقتضى حقوق الأخوة ، واجبات الصحبة ، وهو

(١) الروضة للنووي : ١٠ / ٢٣٧ .

مجموعة الحقوق بين أهل الأخوة الإيمانية ، تزداد وتتأكد عند رفقة الطريق بأخوة العقد ، والتعاهد على الدعوة فى سبيل الله ، ومن هذه الحقوق باختصار :

القيام بالحاجات مع البشاشة والاستبشار ، ولها مراتب أدناها القيام بذلك عند السؤال ، وأوسطها القيام بها دونما سؤال ، وأعلاها تقديمها على حوائج النفس .

السكوت عن ذكر المعايب ، والمماراة والجدل المذموم معه ، وعدم سؤاله فيما يحرجه ، وكتمان سره ، وأن لا يقدح فيه ، أو فى أهله وأحبائه .

السكوت عن كل ما يكرهه ، فالمؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب الزلات ، مع ترك إساءة الظن ، وستر العيوب ، والتغافل عنها .

التودد باللسان ، وفقد الأحوال ، ويظهر انشغال قلبه به ، ويبدى السرور بما يفرحه ،والثناء عليه عند غيره ، وذب الغيبة عنه .

الدعاء للأخ فى حياته ، وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك .

الوفاء والإخلاص ، والثبات على الحب إلى الموت والإحسان لأهله وأصدقائه بعد الموت ، وأن لا يتغير على إخوانه عند حصول

نعمة كبيرة له .

التخفيف وترك التكلف والتكليف ، فلا يكلف أخاه بما يشق عليه ، ولا يكلف التفقد لأحواله والقيام بحقوقه ، ويستأنس بلقائه ، ويقوم بحقوقه .

التوقير من غير كبر ، والتواضع من غير ذلة ، ولقاء الآخرين بوجه الرضا من غير ذل لهم ، ولا خوف منهم .

الإحسان إلى من يقدر أن يحسن إليه ما استطاع ، والشفاعة لمن له حاجة عند من عنده منزلة ، والسعى فى قضاء الحوائج .

ونظائر ذلك مما هو مبسوط فى (آداب الأخوة والصحبة) فى كتب المواعظ الرقائق [١] .

اختلاف .. وائتلاف

لقد خلق الله تعالى الناس فى تباين ، وجبلهم على اختلاف فى المدارك والعقول ، والنفوس والطبائع ، فجاءت قدراتهم وطاقاتهم ونفوسهم متباينة كذلك ، وقد أدرك الناس بفطرتهم هذا المعنى ، بل وأدرك البشر من كل ملة ، أن هذا التباين يحقق مصلحة البشر ، فإن عطاء البعض يكون فى عقولهم ، والبعض الآخر

---

(١) انظر تفصيلاً في إحياء علوم الدين الجزء الثاني ، مختصر منهاج القاصدين .

بقوة سواعدهم ، وآخرين بشيء من هذا وشيء من ذاك ، مع تفاوت في الطاقات النفسية والروحية ، واختلاف في السمات والخصائص ، وقد قالت العرب بهذا المعنى أيضاً فجاء في أمثالها السائرة « لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فإن تساووا هلكوا » (١) .

إذ ربما تندفع نقيصة هذا بفضيلة ذاك ، ومن اختلاف المواهب تتحقق المقاصد ، (ومن رام إخوانا ، تتفق أحوال جميعهم ، رام متعذراً ، بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه ، إذ ليس كل واحد من الإخوان يمكن الاستعانة به في كل حال ، ولا المجبولون على الخلق الواحد ، يمكن أن يتصرفوا في جميع الأعمال ، وإنما بالاختلاف يكون الائتلاف) (٢) .

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ (٣) .

(لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد ، نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنويع فيها ، وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على الأرض ،

---

(١) مجمع الأمثال للميداني .   (٢) أدب الدنيا والدين : ١٧٠ .

(٣) هود : ١١٨ .

وليست طبيعة هذا المخلوق البشرى الذى استخلفه الله فى الأرض .. ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته ، وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه ، وأن يختار هو طريقه ويحمل تبعة الاختيار ، ويجازى على اختياره للهدى أو الضلال .. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته ...) [١] .

إن اختلاف الناس في خصائصهم ومميزاتهم هو سبب عمارة الأرض ، واستمرار الحياة إذ إن فى التنوع تكاملاً يقود إلى درء النقص ، وسد الثغرات ، وتوازن الحياة ، إذ تتكامل خصائص البشر فيما بينها لتؤدى المهام المتباينة فى الحياة ، والمقاصد المختلفة فى العيش ، وبذلك تتم مسيرة الحياة وفق توازن وفى ثبات ، يتحقق فيه استمرار الحياة كما أراد خالقها .

ومن منطق هذا الاختلاف ، سيكون الدعاة ـ رغم وجودهم فى جماعة واحدة ، وينطلقون إلى هدف واحد ـ بينهم من الاختلاف الشىء الكثير ، ومرد هذا الخلاف إلى اختلافهم فى التفكير والأداء وفى الدوافع والسلوك ، وإلى اختلاف القابليات الفطرية ، والكفايات المكتسبة ، مما قد يؤدى إلى النفور والتباعد ، لولا أن الله تعالى تكفل للجماعة المؤمنة بوحدتها ، إذا سلكت

---

(١) الظلال : ٤ / ١٩٣٣ .

سبيل المنهج الإسلامى فى العمل ، وأخذت بالأخلاق الإسلامية فى التعامل .

﴿ .... لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ [1] .

التسامح : سر الألفة

ومن الأخلاق الإسلامية التى لا بد للدعاة من التحلى بها ، وجعلها نصب أعينهم حتى تتمكن القافلة من السير المستمر ، وتكون كفاية القطار فى السير أعلى ما تكون ، دونما انشغال بالخلاف ، أو مضيعة جهد بالجدال ، الأخذ بمبدأ التسامح ، إذ إن التسامح من مقتضيات الأخوة ، والأولى بالعبد مسامحة أخيه فيما أساء به إليه ، فمن سامح أخاه سامحه الله ، ومن تجاوز عن سيئات أخيه تجاوز الله عنه ، ومن استقصى استقصى عليه ، والله عز وجل يعامل العبد فى ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد بقية الناس فى ذنوبهم معه .

(.. فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان ، فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان ، ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة

---

(١) الأنفال : ٦٣ .

للإنسان ، لم تعظم عنده إساءة الناس إليه ، فليتأمل هو حاله مع الله كيف هي مع فرط إحسانه إليه ، وحاجته هو إلى ربه ..) [١] .

ولو تبصر كل إنسان بهذه القاعدة لصفت نفوس ، وحلت مشاكل ، وتصاعدت همم ، وأينعت أشجار الإيمان ، وتفتحت أزهار الأخوة ، ولكن الإنسان ظلوم جهول يطلب المغفرة على كثرة ذنوبه ، ولا ينسى إساءة غيره إليه ، وقد قيل : « لو أنصف الناس لاستراح القاضي » .

احتمال الغضب

ومن مقتضى الصحبة والأخوة بعد التسامح ، احتمال غضب الأخ وحدته وسوء طبعه ، ورغم أن الغضب صفة مذمومة ، وفيها بعض من خلق إبليس ، ومن صفات النار التي خلق منها . وخصوصاً إذا كان الغضب لذات المرء أو دفاعاً عن النفس ، وليس غضباً لله ورسوله ، كما كان الغضب يظهر أحياناً على رسول الله ﷺ انتصاراً لدين الله تعالى ، وحرصاً منه على محارم الله عز وجل ، أو ما كان يظهر منه أحياناً إثباتاً لأهمية أمر ما ، ومع ذلك كله ، فقد يظهر الغضب على بعض البشر ، بل لا يكاد إنسان يخلو منه أحياناً ، ولا يبرأ

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٢٩٢ .

منه أحـــد ، فـلا ينبغى على إخـوان الدين أن يقـدح أحـدهم فى أخـيـه بسـبب غـضـب طـارئ ، أو حـدة طبع مفـاجئـة ، بل عـليه الـصـبر حـتى ذهاب الغـضـب عنه ، ورجـوع الهـدوء إليه ، وأن لا يعـان الشـيطان عـلـى الأخ ، بل يـعـان الأخ عـلـى الشيـطان ، ثم يوعـظ بعد ذهاب الغـضـب بالحكمة والموعظة الحسنة

« قـال الإمام الشـافعى : قـيل لسـفيـان بن عـيينة ، إن قـوماً مـا يأتونـك من أقطار الأرض تـغـضـب عليـهـم ، يوشك أن يـذهبـوا ويتركوك ، قال : هم حـمقى إذن مثلك أن يتركوا ما يـنـفعهم لسوء خلقى » [1] .

فلينظر إلى حكمـة هذا العالم الجـليل الذى يرفـض لتـلامـيذه أن يتـركوا أخـذ العـلم منه لسـوء خـلقـه ، وهكذا يجب أن يكون الدعاة على درجـة من الحكمة ، ولا يتركـوا أخـاهم ضحية الغضب الطارئ ، وفريسة إغواء الشـيطان ، كما تجب ملاحظـة أن ظروف الحـيـاة ومتـاعب العيش ، وكـثرة الأعـمـال ، وضيق الوقـت ، قد يؤدى بعضـهـا إلى ضيق فى الـصـدر ، وخصـوصـاً عند التقصـير فى تلاوة القرآن ، أو قلة الذكـر ، وهذه الأمور ليسـت تبـريراً للغضـب ولا دعوة إليه ، بل إنما تذكـير فحسب بأنها تـصلح لأن تكون أسباباً

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي : ١ / ١٥٦ .

يعذر صاحب الغضب بها ، ومما قد يجعل أصحاب الخير من الدعاة أكثر تحملاً له ، وتسامحاً معه ، ورفقاً به . إن قواعد الإنصاف تقتضى أن لا يترك الخير لما قد يصاحبه من الغضب ، وأن لا يهجر إخوان القافلة بسبب تلبسهم بالحدة ، لأن مثل هذا الأمر فيه تفويت للمصالح ، وإهدار للخير .

تخفيف الأثقال .. يسهل الاستماع

عند الحاجة إلى النقد أو الرد ، والنقاش أو الحوار ، لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال على استعداد لذلك ، ولعل من أول مراتب الاستعداد تخفيف الأثقال ، فأنى للإنسان أن يسمع والهموم تثقله ، ولهذا قيل عن حقوق الأخ : (فأول حقوقه اعتقاد مودته ، ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير محرم ، ثم نصحه بالسر والعلن ، ثم تخفيف الأثقال عنه ، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة ، أو يناله من نكبة فإن مراقبته في الظاهر نفاق ، وتركه في الشدة لؤم ..) [1] .

وهكذا تقع النصيحة من المنصوح موقعها ، ويتقبل الرد ، ويستقبل الاعتراض ، وكلما كانت نفس الإنسان أكثر صفاء ، والقلب في أحسن حالاته ، كلما كان استقبال الموعظة حسناً ، واستماع النصيحة يسيراً ، أما إذا كانت النفس متكدرة ، والقلب

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ١٧٧ .

منشغلاً بهموم أخرى كهم قاطع ، أو شغل مانع ، كمرض جسدى ، أو تعب نفسى ، أو انشغال بمريض فى الأسرة ، أو انهماك فى مشكلة فى العائلة ، فإن كل ذلك يمنع الاستماع ، ولا بد من تخفيف بعض العلائق ، وإزالة شىء من العوائق ، بالمودة والانبساط حيناً ،وتخفيف الأثقال حيناً ، حتى تفتح ثغرة فى القلب ، ومنفذاً إلى النفس تصل منها الموعظة ، ويتسرب منها النصح ، فيكون الرد هيناً ، وسبيل الحوار مفتوحاً ، وينساب النقد هادئاً مؤثراً .

وفى المعاتبة خير

قال أبو الدرداء : « معاتبة الأخ خير لك من فقده ، ومن لك بأخيك كله » .

إنها كلمة حق وصدق ، فعدم المعاتبة مع بقاء صفاء القلب أولى ، ولكن إذا قلت النفوس من هذه المنزلة ، وتراكمت فى القلب آهات وأنات ، وازدحمت فى النفس حسرات وزفرات ، وشعر الإنسان أن فى نفسه ضيقاً ، وفى قلبه كدراً مما قد يتحول إلى وحرٍ وغلٍ ، أو حسد وحقد ، فعندئذ لا بد من غسل الدرن ، وهذا لا يكون إلا بالمعاتبة ، ولاً يتفرغ إلا بالمصارحة ، ولذلك فلا بأس بها حتى مع كبار المراتب وأهل الفضل ، واستعمالها من باب الضرورة التى لا بد منها ، التى تدرأ مفسدة أكبر.

ولكن تشترط المعاتبة بعدم الإكثار منها حتى لا تتحول إلى ملامة ونقد ، وإنما المقصود منها القدر اليسير الذى يزيل ما علق فى النفوس ، وينكس بقايا مشاعر التقصير فى القلوب ، والضرورة دائماً يستعمل لها الحد الأدنى .

(فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة ، واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق ، وقد قيل : علة المعاداة قلة المبالاة ، بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ، ويستصلح بالمعاتبة ، فإن المسامحة والاستصلاح إذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ، ولم يبق معهما وجد ...) [1] .

كما يتوضح من النص أن من صالحية المعاتبة ليس تقليلها فقط ، وإنما تعاقبها مع المسامحة ، فمرة هذه ومرة هذه ، وهذا المنهج ـ عند أصحاب الخلق ـ لا يلبث معه النفور ولا يبقى معه صدود ، بل تصبح فترات الملامة تقوية المحبة، وأوقات الصدود تنمية الوداد فتعود القلوب بعد ذلك أصفى ، والأواصر أقوى .

حسن التصرف .. نبذ التكلف

قد يظن البعض أن حسن المعاملة ، هو المبالغة فى

---

(١) أدب الدنيا والدين : ١٧٩ .

المجاملة ، والتملق بالتكلف ، والتصديق على كل قول ، وعدم الاعتراض ، والمشاركة بالتبسم إذا ابتسم ، وإظهار الألم إذا تألم ، وكل ذلك من التصنع المذموم ، والتكلف المكروه .

(فإن الملق مصايد العقول ، والنفاق تدليس الفطن ، وهما سجيتا المتصنع ، وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ، ولا صلاح يؤمل ، ولأجل ذلك قالت الحكماء : اعرف الرجل من فعله لا من كلامه ، واعرف محبته من عينه لا من لسانه ..)(١) .

إنما الأصل حسن التصرف ، مع القناعة القلبية التامة ، دون تكلف وتصنع ، وأن يكون تصرف الإنسان طبيعياً يأخذ حظه من الحديث والمشاركة ، وتظهر على محياه علائم الغضب والرضا دون إخفاء ، ويكون ظاهره كباطنه ، وكل هذا لا يتم إلا مع صدق النية مع الله تعالى ، والثقة بالنفس .

ولا يستثنى من ذلك إلا ما كان لأجل مصلحة عامة ، حيث يبذل الرجل وجهه لأجل ذلك كطلب مال للدعوة ، أو شفاعة لمؤمن ، أو لمصلحة دينية غالية ، وقد ضرب مثل لذلك ما يستحب في التملق لشيوخ العلم والتجربة لاستخراج ما عندهم ، والتحايل

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ١٦٦ .

على معرفة علومهم ، وقد اعتبر الإمام الغزالى هذا المنحى كأحد شروط المتعلم فأمر المتعلم بأن يلقى للمعلم :(زمام أمره بالكلية فى كل تفاصيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . . .)(١)

وأخيراً .. ميزان الإنصاف

ولا بد من جمع كل الأمور تحت قاعدة العدل التى هى من موازين الشريعة ، والعدل يقتضى الإحسان والإنصاف ، والإنصاف معناه النظر إلى جانبى كل أمر دون إفراط أو تفريط ، ودونما بخس أو شطط ، وهكذا ينبغى النظر إلى خصائص إخوان الطريق ، ورفقاء السير ، حيث ينظر إلى جانبى الحسنات والسيئات ، وأيهما أغلب فى الشخص ، بل وأيهما أكثر دوماً ، حتى لا تضيع حسنات إخوانهم ، ولا يبخس الناس أشياءهم .

(إن من كثرت حسناته وعظمت ، وكان له فى الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث .. وهذا أمر معلوم عند

---

(١) إحياء علوم الدين : ١ / ٥٠ .

الناس مستقر فـى فطرهم . إن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ، حتى إنه ليختلج داعى عقوبته على إساءته ، وداعى شكره على إحسانه ، فيغلب داعى الشكر لداعى العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد

جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً

فأفعاله اللاتى سررن كثير) (١)

ولو خلا كل داعية لنفسه وأنصف مع إخوانه ، لشاهد بعين البصيرة والإنصاف ، أن كل واحد منهم قد غلبت حسناته سيئاته ، وأنهم نعم رفقاء السير ، وإخوان الطريق .

امنع التعصب

ومن قواعد العدل الذى هو أساس الشريعة ، عدم المبالغة فى المديح ، والإطراء بالثناء فإن نتائجه ونتائج التجريح سواء ، وكلاهما

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٧٦ .

تجاوز للعدل والإنصاف ، وفيهما خروج من العدل إلى الظلم ، وذلك لأنه قد يتطور الوصف إلى حد الخروج عن أصل الوصف إلى نمط آخر مخالف ، وبعدها يتحول التجريح في المسائل إلى الاستزادة في دواعي التمادي والإصرار ، ويكون إبداء المحاسن لأحد الناس غضباً ـ من طرف خفي ـ ممن يعانده بالرأي ، فيتعصب أصحاب القائل بالرأي الآخر ، ويبالغون هم أيضاً في المدح ليقللوا من شأن صاحب الرأي الأول ثم يتحول الموضوع من الترجيح إلى نوع من التعصب للأفكار حتى يترسخ في أذهانهم بغض من خالفهم فيتفرقوا شيعا . بعد أن كانوا جماعة واحدة ، فيضيع الأصل والمنهج من أجل الصراع على الوسيلة ، وما أروع ما شرح الشاطبي ـ رحمه الله ـ هذه المسألة وإن كان أصل تفسيره على الخلاف بين أهل المذاهب ، ولكنها مشاهدة عياناً في صفوف الدعاة وهم داخل إطار جماعة واحدة ، فاسمعه يقول : « فبينا نحن نتتبع المحاسن صرنا نتتبع القبائح ، فإن النفوس مجبولة على الانتصار لنفسها ومذاهبها وسائر ما يتعلق بها ، فمن غض من جانب صاحبه ، غض صاحبه من جنبه ، فكان المرجع لمذهبه على هذا الوجه غاضاً من جانب مذهبه ، فإنه تسبب في ذلك ، كما في الحديث « إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه » .. يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » فهذا من ذلك ، وقد منع الله أشياء من الجائزات

لإفضائها إلى الممنوع .. فالترجيح بما يؤدى إلى افتراق الكلمة وحدوث البغضاء ممنوع) وما ذكره الشاطبى وغيره نتيجة واحدة من نتائج المبالغة فى المديح والإطراء ، ومعها نتائج أخرى يدركها الحس السليم بالمعرفة والتجربة ، أما إذا اقترن المدح بطعن وتقبيح فهذا أشد وأنكى .

(إن الطعن والتقبيح فى مساق الرد أو الترجيح ، ربما أدى إلى التغالى والانحراف فى المذاهب ، زائداً إلى ما تقدم فيكون ذلك سبب إثارة الأحقاد الناشئة .. قال الغزالى فى بعض كتبه :

(أكثر الجهالة إنما رسخت فى قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق ، وأظهروا الحق فى معرض التحدى والإدلاء ، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء ، فثارت فى بواطنهم دواعى المعاندة والمخالفة ، ورسخت فى قلوبهم الاعتقادات الباطلة ، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها ..) [1] .

فإذا كان الثناء حتى فى مجال الترجيح والرد قائداً إلى مفسدة ، ففى مواضع أخرى ستكون مفسدته أكبر ، وخصوصاً إذا اقترنت بالأهواء والتعصب .

---

(١) الموافقات : ٤ / ٣٦٤ .

وهكذا تكون المودة والأخوة بين رفقاء الطريق ، مع الحب الجامع لإخوانهم المسلمين ، دون تعصب ولا هوى ، فتزداد الألفة فوق الألفة ، وتكثر المحبة مع المحبة ، وتصفو القلوب فوق صفائها ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً .

فهنيئاً لمن كان فى القافلة ، واستزاد من الخير حتى وصل مرتبة الإحسان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [١].



---

(١) العنكبوت : ٦٩ .



(١١) أشواك على الطريق

إنه لمن الخطأ الفادح الظن بأن جمهور الدعاة بمعزل عن ارتكاب الأخطاء أو الاعتقاد أن ما يتصف به هؤلاء الدعاة من خلق رفيع ، أو إيثار كبير ، وتواضع جم ، يدفع بهم إلى المثاليات العالية ، ويحلق بهم فى خصائص العصمة ، لأن مثل هذا الأمر خروج عن خصائص الإنسانية التى جبلت على الخطأ وكان من سنتها ارتكاب الزلل .

ولكن أخطاء الدعاة السائرين فى قافلة الدعاة ستظل هى الأقل فى كميتها ، والأضعف فى نوعيتها ، وما هى إلا كأشواك الطريق التى لا بد منها للمسافر على قدميه ، ولا بد لكل قافلة من تجاوزها ، بل اقتضت سنة الخالق أن العسل لا يحصل عليه إلا بلسع النحل ، والأزهار تحاط بالأشواك ، والثمار الصالحة لا تنال إلا ببعض الجهد ، وما كان للإنسان أن يحصل على ما يفيده فى المعاش والمعاد إلا بشىء من المكابدة والعسر .

« .. وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة ، فالنفس موكلة بحب العاجل ، وإنما خاصة العقل : تلمح العواقب ، ومطالعة الغايات ، وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك

بالنعيم ، وإن من رافق الراحة حصل على المشقة وقت الراحة فى دار الراحة ، فإن على قدر التعب تكون الراحة ..) [1] .

أشواك وأشواق

وأخطاء الدعاة بما لها من أثر على المجتمع ، وما تؤديه من نتائج نظرة الناس لقافلة الخير ، وما قد تؤدى به تلك الأخطاء البشرية إلى تصدع داخل القافلة ذاتها ، لا بد من معالجتها وتقليلها إلى الأقل الممكن ، ولكن لا بد من النظر إليها كحقيقة بشرية يجب مواجهتها بالمعروف ، ومعالجتها بالحكمة ، وأنها مظهر من مظاهر الابتلاء والمحن ، وأنه الجسر المعترض الذى لا بد للقافلة من عبوره .

« .. وكان ذلك الجسر الذى لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه ، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج فى حقهم والكرامة ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطنه فيه الرحمة والنعمة ، فكم من نعمة جسيمة ، ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان .. » [2].

ولا بد أن يدرك الدعاة أهمية عبور هذا الجسر ، وتجاوز عقبته ، وأن تكون قلوبهم صافية لا تهتم بإساءة الغير ، ولا يوقفها زلل

---

(١) تهذيب مدارج السالكين : ٣٥٩ .   (٢) مفتاح دار السعادة : ١ / ٢٩٩ .

الآخرين ، وهذا لا يتم إلا بصدق نية الداعية مع الله ، وتيقنه التام بمعنى التوحيد .

« فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله ، والإخلاص له ومعاملته ، وإيثار مرضاته ، والتقرب إليه، وقرة العين به ، والأنس به ، واطمأن إليه ... وفنى بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه ، عن كل ما سواه ، فإنه لا يبقى فى قلبه متسع لسهود أذى الناس له البتة ، فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلب الانتقام والمقابلة ..» [(١)] .

وبهذا تكون الأشواك مترادفة مع الأشواق إلى الله ، فلا يظهر أثرها ولا يحس الداعية بغرزتها ، لتعلق قلبه بما هو أسمى .

ومع هذا ، فلا بد للدعاة من معرفة بعض الموازين فى النظر إلى الأخطاء وعلاجها .

الخطأ .. سنة البشر

إن أول الموازين فى النظر لأخطاء الدعاة الاعتقاد الجازم واليقين التام أن الخطأ من سنة البشر ، وأن الدعاة مهما كان لهم من الفضل فهم من البشر ، وبالتالى فإن النظر لهم لا بد أن يكون بنفس

---

(١) تهذيب مدارج السالكين : ٤٢٥ .

الميزان ، ولا ينظر إليهم كملائكة يسيرون على الأرض ، وبالتالى تكون الهفوات المنظورة منهم كبيرة على الرائى والمشاهد ، والبشر ـ بحسب فطرتهم ـ لا بد من جريانهم على الخطأ (فكل ابن آدم خطاء) ، وكل أحد من أهل الفضل لا بد أن تترك تربية أهله ، وطبيعة مجتمعه ، وجينات وراثته ، بصمات واضحة عليه ، لا يستطيع منها فكاكاً مهما جاهد نفسه ، أو حاول التملص من تلك البصمات التى تخفى وراءها العيوب الخلقية كما تخفى الخصائص الجسمية والنفسية ، وهذا المنطق الصحيح يجب أن لا يبالغ فيه أحد إلى حد ينفى عن الإنسان محاولاته لإصلاح نفسه ، إذ إن فى هذا الأمر وقوعاً فى بدعة الجبرية ، ولكن المؤمن يصارع القدر بالقدر ، ويبحر بسفينة القدر فى بحار القدر ، ويهرب من قدر الله إلى قدر الله ، ولكن المقصد أن الإنسان مهما حاول ، فسوف تبقى فيه بقية من عيوب ، ورواسب من أخطاء ، لكى يتم وعد الله تعالى فى كتابة الخطأ على ابن آدم ، ويجرى عليهم ما جرى على الأنبياء والمرسلين .

(وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ألقى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى النبى ﷺ وقال : شاب بعث بعدى يدخل من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى ، وأخذ بلحية

هارون وجره إليه وهو نبى الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذى قام به موسى ، والعدو الذى برز له ، والصبر الذى صبره ، والأذى الذى أوذيه فى الله تعالى ، أمر لا تؤثر فيه مثل هذه الأمور ..) (١) .

وما صدر عن موسى ـ عليه السلام ـ من الأخطاء فقد صدر مثل ذلك من غيره من الأنبياء والمرسلين ، ومثل ذلك حصل لصحابة رسول الله ﷺ كما حصل لحاطب رضى الله عنه ، والرسول ﷺ يقول لعمر رضى الله عنه : « لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم » . وقال لعثمان رضى الله عنه عندما أخرج الصدقة العظيمة : « ما ضر عثمان ما فعل بعدها » ، وقال لطلحة رضى الله عنه لما صعد على ظهره على الصخرة : « أوجب طلحة .. » وغير ذلك .

وهكذا قد تجرى الأخطاء ، فى قافلة الدعاة ، وفى قطار الدعوة ، وعلى قادتها وزعمائها ، ولا مفر من ذلك ، والبحث عن الكمال نادر ،والقناعة بالدعاة إذا غلبت حسناتهم سيئاتهم هو المطلوب ، بل إن ميزان الآخرة هكذا ، فإن الله سبحانه وتعالى يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١٦٧ ـ وانظر كذلك تهذيب المدارج : ١٨٦ .

التأثير له ، فيفعل بأهل الحسنات الذين آثروا مرضاته ومحبته ، وعملوا صالحاً ، وبذلوا جهدهم بالخير والفلاح ، وإن غلبتهم بعض الشهوات بدواعى طبعهم، فيعفو عنهم بمنه وكرمه ، ويسامحهم عن هفواتهم ، فإذا كانت هذه سنة الخالق فى الآخرة ، ألا تكفى الخلق أن تكون سنتهم فى الدنيا .

وإذا كان هذا الميزان لا بد منه للناس فى النظر لأخطاء الدعاة ، فهو فى الوقت نفسه لا بد منه للدعاة فى نظرتهم للناس ، وإنزالهم منازلهم ، وعدم بخس الناس أشياءهم ، وأن يحاولوا جهدهم فى الاستفادة من محاسن الغير ، وتجنب عيوبهم ، إن لم يقدروا على معالجتها ، وغنى عن القول كذلك ، أن ميزان العدل هذا يأخذ أولوية التطبيق فى نظر الدعاة بعضهم لبعض .

الضرر يزال

والاعتراف بأن الخطأ من سنة البشر لا يعنى التساهل معه ، أو التجاوز عن إصلاحه ، لأن من أصول الشريعة قاعدة (الضرر يزال) والأخطاء من الأضرار التى يجب إزالتها والتنبيه لها هو أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى المخطئ إذا زل أن يحسن إسراع الفيئة ويتدارك ما فرط فيه ، ويداوى جروحه ، وعلى الداعية أن يكون أكثر بصراً من غيره بعيوبه وأخطائه ، وأن يكون مثله

كمثل الطبيب البصير الحاذق الذى يزول عنه مرضه أسرع مما يزول عن الجاهل ، لأنه أعلم الناس بأسباب المرض وعلله ، وطرق علاجه ، بل وأحرص الناس على إزالته وكذلك على الدعاة أن لا يتشبه أحدهم فيما يرى من ظاهره أنه هفوة ، وعليهم أن يأخذوا دائماً بالعزائم ، وأن لا يكون التشبه بأحد من الخلق إلا بالمصطفى ، لأن كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ ، وأهم من هذا الأمر أن لا يتشبه الداعية بأخطاء الغير من العلماء أو الأقوياء فى الدين ، أو أن يقتدى ببعض تساهلاتهم فإن لهم من نقاط القوة ما يدرأ عنهم نقاط الضعف ، ولهم من الحسنات ما ترد به السيئات ، ومن تتبع الرخص لم يصب من الخير شيئاً ، بل على الداعية أن يتشبه بالغير فى أحسن ما عندهم ، وخير ما يتصفون به ، ومنع الداعية من التشبه بضعيف أو أخطاء أفعال الغير ، كمنع المبتدئ فى العلم من التشبه بكبار العلماء فى لين ورخص أقوالهم وأفعالهم ، لما فيه من الخطر والمجازفة .

(ومنع المبتدئ عن التشبه يضاهى منع الحديث العهد بالإسلام من مخالطة الكفار ، ويندب الشجاع له ، ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف

الضعفاء) [1] .

وتشبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقى الأوساخ اليسيرة فى كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه الأوساخ قد تلقى فى البحر ، والبحر أعظم فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز ، ولا يدرى المرء أن البحر بقوته وكتلته يغير الأوساخ ويحيلها عن صفاتها الأصلية ، بينما تكون الأوساخ هى الغالبة فى الكوز الصغير ، ونص الإمام الغزالى يغنى عن الاستطالة ، فالقاعدة أن على المبتدئ والطالب الاقتداء بنقاط القوة من الأفاضل ، لا أن يقتدى بنقاط الضعف .

والنقد .. ضرورة

والسكوت عن الأخطاء ، أو الغض عن الهفوات ، لمصلحة راجحة لا يمنع من ممارسة النقد ، والذى هو من مظاهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل إن عملية النقد بذاتها هى الطريقة المثلى لتصحيح الأوضاع إذا كانت وفق منهجها الصحيح ، وإذا تمت بشكل منهجى وطريقة تحليلية ، والمقصود بالنقد هنا بشكله الموضوعى هو مراجعة الأشخاص والأفكار والأنشطة ، ثم محاسبتها أو تحليلها وفق القواعد والأسس المتفق عليها ، سواء

(١) إحياء علوم الدين : ١ / ٥١ .

أكانت شرعية، أو تم الاتفاق عليها وفق تفكير عقلي ، والنقد يحرر الأجواء العقلية من التعصب ، ومن أجواء المشيخة ، ويجدد الآراء ، ويصنع المنهجية التي تتوسط بين الإفراط في تبني آراء أشخاص معينين واعتبارها أشبه بالمقدسة ، وبين التفريط في تلك الأفكار ورميها في سلة المهملات . ولذلك فالدعاة عموماً مدعوون إلى إيجاد حرية الرأي ، والتعبير والتعود على وجهات النظر المختلفة لأن هذا يدفع بالعمل الإسلامي إلى الأمام ، ويحقق الخصوبة الفكرية ، ويفتح مجالاً لتبادل الآراء ، ولكن كل هذا يجب أن يتم خلال الأجواء الصحية ، ووفق ضوابط تمنع عند عملية النقد الشطط والانحراف .. ومن هذه الضوابط :

أن تكون عملية النقد مشروطة بقواعد المنهجية ، وأسس الحوار الموضوعي .

أن تكون وفق الأساليب الشرعية ، وضمن قواعد الأدب التربوي في الحوار والنقد .

أن يكون النقد من الأكفاء جهد المستطاع دون منع الآخرين من ذلك .

أن تكون العملية النقدية في أوساطها الخاصة ، وبين العقول التي تقدر العملية النقدية .

أن يترافق مع النقد الأدلة الثابتة للمسائل ، مع طرح البدائل الممكنة للمشاكل .

أن تكون عملية النقد ضمن قنواتها بحيث تكون المصالح راجحة على المفاسد .

أن يختار الناقد الأجواء والظروف المناسبة حتى يحقق النقد غايته الصحيحة ، وغير ذلك مما هو مبسوط فى غير هذا الموضوع .

النسبية .. من موازين النقد

والنسبية صفة كونية ، ومن القوانين والسنن فى الكون والحياة ، وهى تنتقل إلى أمور الحياة كذلك ـ ما لم يكن الحق مطلقاً من الله عز وجل فلا نسبية فيه ـ وبناء على هذا فإن كل فرد مسلم تمتزج فيه الطاعات والمعاصى ، فيكون النقد له نسبياً على قدر تلك الطاعات أو المعاصى ، وعلى أساس تلك النسب تتحقق له الموالاة والمعاداة ، والداعية المسلم عليه أن يبغض فى الله ، ويحب فى الله ، وقد يتلازم الحب والبغض للشخص الواحد ، ويترشح أحدهما بالغلبة ، فيظهر التباعد والتقارب وفق ذلك ، وتكون كذلك المخالفة أو المباعدة وتكون النتيجة إما موالاة أو معاداة ، وقد تشكل النتيجة أحياناً ، فيكون الميزان النسبى آنذاك والذى يوضحه الغزالى رحمه الله بقوله :

(وإنما الشكل إذا اختلطت الطاعات والمعاصي فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان ؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة ، والموالاة والمعاداة ؟ وأقول : ذلك غير متناف فى حق الله تعالى ، كما لا يتناقض فى الحظوظ البشرية ، فإنه مهما اجتمع فى شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه ، وتبغضه من وجه ..) [١] .

والحب بالطبع يقتضى تصرفات المعاملة الطيبة ، كما أن البغض لبعض الخصائص يقتضى بعض التصرفات كالنقد وفق شروطه وضوابطه ، وبعض التخشين والتغليظ ، أو بعض الانقباض والتوحش ، وكل ذلك يتم وفق موازين العدل والإنصاف ومن موازين العدل والإنصاف أيضاً الموالاة والمعاداة حسب الجهة التى يميل إليها من حيث الحق والباطل حسب مقياس الشريعة .

فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال ، وبين الإقبال والإعراض وبين التودد والتوحش عنه .. ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية ، وتارة إلى طرف المجاملة والإكرام عند غلبة الموافقة ، فهكذا ينبغى أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ، فيتعرض لرضاه مرة ولسخطه مرة [٢] .

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢ / ١٦٦ . (٢) إحياء علوم الدين : ٢ / ١٦٧ .

وهذا الأمر فيما هو بمقياس الشـريعة ، أما الهفوات والصغائر ، فالأصل فيها الستر والإغماض ، وكـذلك الأمور الاجتهادية البحتة والآراء الشخـصية ، والخصـائص الذوقية مـا لم تكن لها آثار كبيرة على المصالح العامة ، ومسيرة العـمل الإسلامى فى صفوف الجماعة المسلمة .

والخلاصـة أن الحب والبغض ، أو الموالاة والمعاداة إنما يقـوم بها الداعية المؤمن بسبب الصفات والخصائص التى يتمثلها الأشخاص لا بسبب ذواتهم .

هفوات الدعاة

أمـا منهج النظر إلى الزلات والـهفـوات من الدعـاة فـهـو على مراتب ثلاث :

أولاً : عدم تتبع الزلات ابتداء . وثانيتها : عدم إشهار الزلة عند معرفتها . والثالثة : العفو عن الزلات ، مع التنبيه لها وعلاجها .

وما هذه المراتب إلا من نتائج المحاسبة للنفس ، إذ ينشغل المؤمن بمحـاسبة نفسـه دون النظر إلى زلات الآخـرين وكـذلك تدل هذه الأمور على صفاء نفس المؤمن ، وأخـذه بظواهر الأعمال من إخوانه دون ريبة أو ظنون ، وإذا كان ذلك واجباً من واجبات الأخوة ، فإن

الأمر أكثر وجوباً فيما يخص العلماء وأهل الإيمان ، ولذلك قيل في قواعد معاملتهم :

(ليس لأحد أن يتبع زلات العلماء ، كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل ، فإن الله تعالى عفا للمؤمنين عما أخطأوا .. وأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا وألا نتبع من دونه أولياء ، وأمرنا أن لا نطيع مخلوقاً في معصية الخالق ، ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .. وهذا أمر واجب على المسلمين في كل ما يشبه هذه الأمور . ونعظم أمر الله تعالى بالطاعة لله ورسوله ، ونرعى حقوق المسلمين : لا سيما أهل العلم منهم كما أمر الله ورسوله ، ومن عدل عن هذه الطريق فقد عدل عن اتباع الحجة إلى اتباع الهوى في التقليد ، وآذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فهو من الظالمين ، ومن عظم حرمات الله وأحسن إلى عباد الله كان من أولياء الله المتقين ، والله سبحانه أعلم) (١) .

وإذا كان الله تعالى عفا للمؤمنين عما أخطأوا ، فإن هذا المنهج يسع عباده أيضاً ، وخصوصاً بالنظر إلى الدعاة ، وكذلك العلماء والأمراء والقادة ، دون طاعتهم بما يخالف أمر الله ورسوله ، وطاعتهم فيما أمر الله به ورسوله ، والاستغفار لهم ، والإيمان بأن

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ٣٢ / ٢٣٩ .

طاعتهم أو الاقتداء بأفعالهم الحسنة هو من طاعة الله تعالى .

وهذا المنهج الصواب هو عمل الأبرار والأخيار من أهل العدل والإنصاف ، أما أشرار الأمة فهم الذين يتلذذون بذكر معايب الناس ويتتبعون الزلات .

(الأشرار يتتبعون مساوئ الناس ، ويتركون محاسنهم ، كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة في الجسد ، ويترك الصحيح منه) (١)

وقد ورد في الحديث الشريف : « .. ومن قفى مسلماً بشيء يريد شينه به ، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » (٢)

أشرعة .. ليست للنشر

ومع عدم التتبع المفروض ، ينبغي على الدعاة الإنصاف ،فلا يسارعوا إلى نشر الزلة ، لأن إشهار الزلات من خصائص الأشرار ، وليس من شعار أهل المروءات ، وأن أهل البغي والاستطالة هم الذين يسارعون إلى إشاعة ونشر الفاحشة ، ولكن مقتضى الإيمان والمروءة والأخوة السكوت عن الإشهار ، وغض النظر عن التشهير ، والشريعة الإسلامية نهت عن التشهير كما ورد في قوله ﷺ : « .. ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة .. » متفق عليه .

---

(١) لباب الألباب : ٤٤٨ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

كمـا أن إشهار الزلات فى الجماعة المسلمة أمر خطير ، لذلك قال الله تعالى مشيراً لحادثة الإفك : ﴿ **إن الذين يحبـون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ (١) .

(إن إشاعة أخبار الأفراد السيئة ، أو تجريحهم يترك المجال واسعاً بعد ذلك لتجريح كل أفراد الجماعة ، فتصبح الجماعة بمجموعها ذات سمعة ملوثة ، وكل فرد فيها مهدد بالاتهام ، وفوق ذلك فإن اطّراد التهم يوحى بأن جو الجماعة ملوث ، وصفها غير نظيف ، وجوها آسن ، وبعد ذلك تهون التهم فى حس الأفراد ، وتقل بشاعتها بكثرة الترداد ، والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخيص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التى كانوا يستقذرونها ، ويظنونها ممنوعة فى الجماعة أو نادرة .. وفوق الآثار التى تترتب عليها فى حياة الناس ..) (٢) .

لذا كان من أشد واجبات الدعاة وجوباً عدم الترخص فى نشر زلات بعضهم إلى بعض ، والتستر على المعايب ما لم يكن فى كشفها مصالح راجحة وعامة ، ويؤدى سترها إلى مفاسد واضحة ،

---

(١) النور : ١٩ .   (٢) في ظلال القرآن : ٤ / ٢٤٩١ .

وكذلك الميزان فى النظر إلى عيوب بقية الناس .

العفو عن الزلات

وعلى فرض وجود النقص ، أو ظهور الزلة ، وخصوصاً إذا لم تكن صفة دائمة ، أو علة مستديمة ، أو لم يكن لها أثر عام يفوت مصلحة عامة ، أو يجلب مفسدة قطعية ، فإن العفو عن الزلات أولى ، والسكوت عن النقائص أجدى لأنها إعانة على الشيطان ، وتشجيع على إسراع الفيئة ، وفتح المجال واسعاً للتوبة ، مع الإبقاء على مودة القلب وصفاء النفس .

قال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى .

وقال النخعى : « لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه ، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا » (١) .

والالتزام بهذا المنهج هو دليل صدق النية مع الله ، وحب الخير للناس ، وتقريبهم للطاعة ، وهو دليل على محاربة الشر ودفع كيد الشيطان ، وتفويت طرق الغواية وهو كذلك علامة الإيمان ومظهر الإحسان ، فى انتظار العودة ، ومسارعة الفيئة ، وهو مظهر من

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢ / ١٨٢ .

مظاهر الرفق بالعباد وإدراك لطبيعة النفس البشرية فى تقلبها بين الخير والشر ، ومن يرحم عبيد الله بهذا النهج سيهيئ له الرحمن من يواسيه عند الانحراف ، ويأخذ بيده إلى الاستقامة عند الشطط ، ويفوت عليه مزالق الشيطان ، ويعوضه الله تعالى بفعله بمن يأخذ بيده عند الزلة .

ودفع التهمة .. من الوفاء

وفوق المراتب الثلاث ضرورة الرد عن عرض المسلم ، لقوله ﷺ : « ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله ، أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا هذه الآية : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (١) .

ودفع التهم من عليا مراتب حقوق الأخوة ، وفيها درء مفيد عن الجماعة المسلمة ، وتأليف القلوب حولها ، ويؤخذ هذا المعنى أيضاً حادثة الإفك إذ يستنبط منها :

* (جواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ، ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس ، إذا تضمن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكى إذا كان بريئاً عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع من

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره .

سبق ، وإن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير فى الإثم أولى من تركه يقع فى الإثم ، وتحصيل الأجر المدفوع عنه ..) .

* (وفيه ذب المسلم عن المسلم خصوصاً من كان من أهل الفضل ، وردع من يؤذيهم ولو كان منهم بسبيل ...) .

* (وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع ، وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه ، هل وقع منه قبل ذلك ما يشبه أو يقرب منه ، واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفاً بالخير ، إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك ...) (١)

وإذا كان دفع التهم عن الأقران من الوفاء ، فإن دفعه عن الدعاة وأفاضل المسلمين ومما لا يعرف عنه تهمة سابقة ، أو خطأ هين يضيع فى فضل كبير أولى بدفع التهمة عنه ، وإزالة ما علق به .

وبدفع التهم لتظل أجواء الثقة فى قافلة الدعاة نظيفة صافية ، كما تظل القافلة برمتها سامية فاضلة تهتف بالناس للحاق بها .

إقالة ذوى العثرات

ولعل هذا الأدب من عموم قاعدة الأعضاء عن الهفوات ، نشر الزلات ، ولكنه أكثر تخصيصاً بالأكابر أصحاب القدر من الجاه

---

(١) فتح الباري : ٨ / ٤٧٩ .

والشرف والسؤدد ولا يشترط من إقالة عثراتهم أن يكونوا أصحاب فضل فى الدين والشرع ، بل يكفى فى ذلك ما خصهم الله تعالى به ففى الحديث الذى روته عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنه ﷺ قال : « أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود » [١] .

وقد يستدل به أن المقصود أهل المعاصى ، أو الذين دامت طاعتهم فزلت أقدامهم بعض الأحيان ، ولكن هذا التعبير غير معهود فى كلام المصطفى ﷺ و إنما المقصود به ما نحن بصدد الاستدلال له ، وعلى هذا جمهرة المحققين ومنهم ابن القيم ـ رحمه الله ـ حيث قال : « والظاهر أنهم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد ، فإن الله تعالى خصهم بنوع تكريم وتفضيل على بنى جنسهم ، فمن كان منهم مستوراً مشهوراً بالخير حتى كبا به جواده ، ونبا عضب صبره ، وأديل عليه شيطانه ، فلا تسارع إلى تأنيبه وعقوبته ، بل تقال عثرته ما لم يكن حداً من حدود الله .. » [٢] .

ويقاس على ذلك أصحاب الزلات النادرة إذا كثر منهم الخير واستطاب ، أو أصحاب السلطان فى سلطانهم ، وكذلك من كان لهم نسب شريف أو فضل ظاهر فى مجتمعهم ، وكذلك للذين لهم

---

(١) رواه أبو داود وأحمد وغيرهما .　　　(٢) بدائع الفوائد : ٣ / ١٣٩ .

سابقة دينية ، أو بطولة إسلامية ، مما هو معروف فى كل مجتمع وبلد إذ إن فى الستر على هؤلاء مروءة من جهة ، وتشجيع على التحلى بالفضائل ، وإتيان المواقف الحسنة من جهة أخرى إضافة إلى روح الإبقاء على القدوات ليتأسى الناس بصالح أعمالهم .

والمروءة : زيادة فضل

ومن مقتضى الابتعاد عن الأخطاء أو معالجتها الالتزام بالمروءة وهى صفة لا بد للداعية منها ، فوق صفات المسلم الجيدة الكثيرة ، فكما أن المسافر لا بد له من طاقة عقلية واسعة ، وعزيمة جادة صادقة ، وقوة فى البدن عالية ، وهمة فى النفس أبية ، تجعله قادراً على السفر ومهماته ، وبعد الطريق ومشقاته ، وعلائق الدرب وعوائقه ، وإلا كان عبئاً على غيره ، وحملاً على عاتق سواه ، فكذلك مسافر الدعوة لا بد له من صفة زائدة تجعل الأقدر على الدعوة ، والأشد فى حمل عبئها ، والأجدى فى الانتساب إليها ، وكذلك يصبح الدعاة بمجموعهم الأعلم بأخطائهم ومعالجتها .

والمروءة جملة من الخصائص ، قيل عنها :

(اجتناب الأمور الدنيئة المزرية به ، كالأكل فى السوق يعنى به الذى ينصب مائدة فى السوق ثم يأكل والناس ينظرون .. أو يمد رجليه فى مجمع الناس ، أو يتمسخر بما يضحك الناس

به أو يخـاطب .. بحضـرة الناس بالخطاب الفاحش ..)[١] .

وقيل عن صاحب المروءة أيضاً :

« أن يكون صادق اللهجة ، ظاهر الأمانة ، عفيفاً عن المحارم ، متوقياً المآثم ، بعيداً عن الريب ،مأموناً فى الرضا والغضب ، مستعملاً لمروءة مثله فى دينه ودنياه ..

فمن ترك المروءة ، لبس ما لا يليق بأمثاله ، بأن يلبس الفقيه القباء والقلنسوة ، ويتردد فيها فى بلد لم تجر عادة الفقهاء بلبسها فيه .. ومنه المشى فى السوق مكشوف الرأس والبدن .. وكذا مد الرجل بين الناس والأكل فى الأسواق .. أو يكثر من الحكايات المضحكة ، أو يخرج عن حسن العشرة مع الأهل والجيران والمعاملين ، ويضايق فى اليسير الذى لا يستقصى فيه .. ومنه أن يتبذل الرجل المعتبر نفسه بنقل الماء والأطعمة إلى بيته إذا كان ذلك عن شح ، فإن فعله استكانة ، واقتداء بالسلف التاركين للتكلف ، لم يقدح فى المروءة ، وكذا لو كان يلبس ما يجد ، ويأكل حيث يجد لتقلله وبراءته من التكلف المعتاد ، وهذا يعرف بتناسب حال الشخص فى الأعمال والأخلاق ، وظهور مخايل الصدق فيما يبديه .. » [٢] .

---

(١) المغني لابن قدامة :٩ / ١٦٩ . (٢) الروضة للنووي : ١١ / ٢٣٢ .

ويلاحظ من هذين النصين وغيرهما كيف أن المروءة صفة زائدة عن مجمل الأخلاق الإسلامية ، ومرتبة متقدمة منها ، ومنزلة متفوقة فيها ، تزداد الحاجة إليها عندما يعمل الداعية مع رهط من الدعاة فى إطار جماعة واحدة ، فتكون عندئذ من مقتضيات الأخوة تماماً ، كالمسافر الذى لا يمكن له الانسجام مع بقية المسافرين إذا ما شذ بسلوك مخالف ، أو حاد من عرف مشترك ، أو استأثر بأذواق شاذة ، ولهذا كانت المروءة صفة يمتاز بها أخيار الرجال ، وأهل الفضل والمعروف ، وفى هذا يقول الشافعي ـ رحمه الله ـ :

« لو أن الماء البارد يفسد مروءتى ما شربت إلا ماء حاراً » (١).

وبناء على هذه الصفة ، وانطلاقاً منها يكون الداعية مع القافلة أقل أخطاء ، وأقوى فى معالجة أخطائه ، كما يكون كيساً ولبقاً فى معالجة أخطاء غيره ، وبالتالى يصفو كدر الصف ، وتزداد نقاوة الجماعة ، فيصلب عودها ، ويسهل طريقها ، وهيهات أن يتوفر هذا الخير لجماعة أخرى أرضية ، وذلك لأن : « من لا مروءة له يؤثر ما يهواه وإن أدي إلي هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدين ، ومن لا مروءة له يؤثر ما يهواه وإن ثلم مروءته أو عدمها لضعف ناهى المروءة ، فأين هذا من قول الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ لو علمت

---

(١) لسان الميزان : ٦ / ٦٧ .

أن الماء البارد يثلم مروءتى لما شربته .. » (١) .

ومن المروءة ..اتهام النفس

وتتفرع عن المروءة جملة أخلاق وخصائص تميز ركب الأخوة عن غيره ، وبها تتباين قافلة الدعاة عن سواها ، ومنها حسن الظن بالآخرين ، والاعتذار عنهم ، وطيب الخلق الذى ترشد إليه الألفة . ولهذا كانت المروءة تستدعى أن الداعية إذ ما أسيء إليه أن يعتذر فى نفسه للآخرين ،بل يقال له : « ينبغى أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً ، فإن لم تقبله فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك : ما أقساك !! يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله ، فأنت المعيب لا أخوك ... » (٢) .

وهكذا يكون أمر الاعتذار ، وهو من أجل دواعى الإنصاف ، وأن لا يكون الداعية ممن يرى القذى فى عين أخيه ، ولا يرى الحصى فى عينه والمروءة بهذا الوصف من مظاهر الإخلاص لله تعالى ، والوفاء ، بواجب الأخوة الحقيقية ، وبالتالى تتميز الجماعة المسلمة بأحلى صورة فى الوجود ، وتتميز قافلة الدعاة عن قوافل الجاهلية ، ويسمو قطار الدعوة عن غيره ، ويشكل الدعاة بأواصر الأخوة ، ورابطة العقد الإيمانى ، جيلاً إيمانياً يتمم ركب اللاحقين

---

(١) روضة المحبين : ١ / ٤٧٠ . (٢) إحياء علوم الدين : ٢ / ١٨٥ .

والجميع عبر الأجيال يحملون نفس الشارة ، ويعملون لنفس الغاية ، فتصفو النفوس ، وتسمو القلوب ، وتصل الأجيال إلى هدفها النهائى ، ويكون للسابق أجر اللاحق ، ويذكر المؤمن أخاه المؤمن فى إعزاز وكرامة ، يسير الجميع فى صف واحد ، وفى كتيبة واحدة ، تحت راية السماء ، تغذ السير صعداً إلى الأفق الكريم ، كما تغذ السير قدماً إلى الهدف النبيل .



(١٢) أخطاء العلماء

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من صلصال من حمإ مسنون ، ومن نفخة من روح الله تعالى ، ولهذا سيظل الإنسان دوماً يملك صفات الطين اليابس الذى يصلصل عند نقره ، ومن روح الله التى تنقل هذا التكوين إلى الأفق الإنسانى الكريم ، بحيث يستحق أن يرتفع بمستواه عن خصائص الطين المجرد ويمنح الخصائص الإنسانية ، التى تميزه عن كل الكائنات الحية .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون *فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ (١) .

« .. هذه النفخة التى تصله بالملأ الأعلى ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، وللتلقى عنه ، ولتجاوز النطاق المادى الذى تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدى الذى تتعامل فيه القلوب والعقول ، والتى تمنحه ذلك السر الخفى الذى يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات ، وألوان من التصورات غير محدودة فى بعض الأحيان ... » (٢) .

---

(١) الحجر : ٢٨ - ٢٩ .　　(٢) في ظلال القرآن : ٤ / ٢١٣٨ .

ومع هذا ، فسيظل هـذا الإنسان بثقلة الطين فى طبعـه ، فينتابه الضـعف والقصـور ، والزلل والخطأ ، كمـا أن له المقدرة على اتـباع الزلل بالتـوبـة ، والخطأ بالصـواب ، ولن يتـخلـى عن طبـيـعـة أحـد عنصريه ، فلن يكون ملكاً يملك خصـائص الكمال الملائكى ، كما أنه لا يطلب منه أن يكـون حيـواناً يتـرك طاقاته الروحيـة ، إذ إنه إذا فعل ذلك فسيخرج عما يريد الله تعالى له ، فيدمر نفسه وغيره .

طرفان .. ووسط

إن خصائص الطين فى ابن آدم هى التى جعلته مرتكباً للأخطاء ويتعـرض للزلل ، والدعاة .. باعتـبارهم بشراً ـ لا بد لهـم أن يقـعوا فى الأخطاء أو الذنوب ، بقصد أو بدون قصد ، وهذه الأخطاء هى بعض الأشـواك فى طريق المسـافـرين فى قـطار الدعـوة ، والتى على الدعـاة معـرفـتهـا وإزالتـها ، ولكـن هناك جـملة أخـرى من الموازين والقواعد التى يجـب على الداعيـة الالتزام بها عند النظر إلى أخطـاء العلمــاء أو الآمـرين بـالمعـروف ، وأهــل الفـضل إذ إن لهـم مكانة خـاصة ، تقـتـضى بعض الموازين التى تحـفظ المصالـح الراجـحـة عند الأخذ بها .

إن هذه الموازين تطبـق على مـدى واسع من الأخطاء تتـفـاوت بين طرفين ، فهنالك أخطاء كبرى تخالـف أصـول العقيدة ، وقواعد

التشريع لا بد من إنكارها بكل الوسائل ومحاولة إزالتها وهناك أفعال وأقوال بسيطة ظاهرها الخطأ ، أو أنها مما تختلف فيه الأذواق والأساليب ، فهذا مما يتنزه عنه الداعية فى أن يخوض فيها أو يحاسب عليها ، أما ما كان بينهما ، فهو مما يخضع بجملته للموازين والقواعد التالية ، حتى يكون الطريق معداً للسير دون أذى الأشواك والعوائق التى مصدرها العلماء والأمراء وأهل الفضل ، ودون تعطيل لعملية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الخطأ .. سنة البشر

لما كان العلماء والفقهاء من البشر ،فلا بد من وقوعهم فى الأخطاء أيضاً ، ولا تزال سنة الله جارية فى ذلك ، وما من فقيه إلا وله فتاوى شاذة يعجب المرء منها ، وكأن الله تعالى شاءت قدرته ذلك ليستدل البشر علي أن العصمة لله وحده ، ولولا أن تتبع أخطاء العلماء ليس من الموازين الشرعية ، ولا فائدة من ذكرها لذكرنا طرفاً منها ، بل لقد صنف العلماء فيها تآليف ، ونكتفى بذكر ما أخطأ فيه ابن حزم على غزارة علمه ، وتبحره فى أقوال السلف حيث فضل نساء النبى ﷺ على العشرة ، فقال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : « وبالجملة ، فهذا قول شاذ لم يسبق إليه أحد من السلف ، وأبو محمد مع كثرة علمه

وتبحره ، وما يأتى به من الفوائد العظيمة ، له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه ، كما يعجب مما يأتى من الأقوال الحسنة الفائقة ، وهذا كقوله : إن مريم نبية ، وإن آسيا نبية ، وإن أم موسى نبية » (١) .

ونظائر هذا كثيرة ، حتى إن بعض العلماء أفرد كتباً وأبواباً فى (أخطاء العلماء) ، ولم ينج من ذلك حتى الصحابة ، إذ ورد عن بعضهم فتاوى ردت من قبل الصحابة الآخرين ، وما ذلك إلا ليجرى أمر الله تعالى من أن كل شخص يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ .

ولكن مثل هذه القناعة لا يجب أن تؤدى إلى القناعة بالخطأ وعدم معالجته ، فخطأ العالم أو الأمير يحاسب عليه دون إجحاف ، ويلزم بتطبيق المبادئ والآراء الصائبة ، ويشار عليه ويحاط بالنصيحة والإرشاد ، ويوعظ على مدار الأيام والليالى ، ثم بعد ذلك كله ، يتجاوز له عن الخطأ الذى لا مفر منه ويطاع فى اجتهاده الذى وصل إليه .

(أما العالم فلا ينبغى أن يقلد فيما زل فيه ، إذ إن الدين لا يؤخذ بالخطأ .

---

(١) الفتاوي : ٤ / ٣٩٦ .

وأن العالم قد يزل ولا بد ، إذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله ، وينزل قوله منزلة المعصوم ..) [1] .

ومعاتبة الداعية أو العالم ومحاسبته يجب أن تكون أيضاً على مقدار العيب ، أو حجم الخطأ فهنالك من الأخطاء ما يجب أن تكون المحاسبة عليها شديدة ، وهى ما كانت تتعلق بأمر دينى ، أو أنها تقود الجماعة المسلمة للخطر ، ومنها ما هو فكرى مما يكون ضرره محدوداً ، ومنها أخطاء ذوقية ضررها على الشخص ذاته ، فيجب أن لا يبالغ فى المحاسبة ، أو يشدد فى الوعظ ، لما فى ذلك من قتل لروح الإبداع وتثبيط للهمة ، إضافة إلى أن مثل هذه الأخطاء من نتائج الاجتهاد المقبولة .

ومع تطبيق هذا الميزان مع القادة والمشايخ ، فهو أولى بالتطبيق بين الأقران فى قافلة الدعاة ، حيث يكون التنبيه على الزلل وفق الآداب الشرعية ، وضمن قواعد الشريعة ، والإعذار فيما كان الاجتهاد فيه سائغاً .

التنازع بين العلماء

وينبغى النظر كذلك فى ميزان آخر ، أن التنازع بين أهل

---

(١) إعلام الموقعين : ٢ / ١٧٢ .

الفضل أمر جار ، ولا يخرجهم عن الفضل لأسباب كثيرة ، وكذلك التنازع بين العلماء ، ولم يسلم من ذلك حتى صحابة رسول الله ﷺ إذ جرى النزاع بينهم فى مسائل عديدة :

فمنها : إنكار ابن عباس على زيد مخالفته للقياس فى مسألة الجد والإخوة .

ومنها : رده على أبى هريرة فى الوضوء من حمل الجنازة ، ومن أكل ما مسته النار .

ومنها : ما أنكرته عائشة أم المؤمنين على بعض الصحابة حتى صنف فيه الزركشى كتاباً أسماه (الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة) .

ومنها : اختلاف الصحابة فى بعض مسائل المواريث كالمشتركة والعمريتين وغيرهما .

ومنها : خلاف عمر لأبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ فى سبى أهل الردة وأرض العنوة ، وأشباه ذلك مما يطول ذكره .

ولعل الخلاصة فى ذلك قول ابن القيم رحمه الله :

(إن أهل الإيمان قد يتنازعون فى بعض الأحكام ، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان ، وقد تنازع الصحابة فى كثير من

مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين ، وأكمل الأمة إيماناً . .)

فإذا كان الأمر هكذا بين الصحابة ، فما جرى بين بقية علماء الأمة أكثر ، وإذا كان كل هذا قد جرى فى مسائل لها نصوص شرعية فإن ما يجرى بين القادة والأمراء ، وفى أمور اجتهادية بحتة ليس مستغرباً ، بل الغرابة فى أن لا يحصل .

احذر التقليد

ويبنى على زلة العالم ، والتنازع بين العلماء ، ضرورة أن لا يقتدى المكلف بالخطأ ويقاس على ذلك أن لا يقتدى الداعية بأخطاء القادة ، وعيوب المسؤولين ، فهو ــ وإن كان واجبه الطاعة ــ إلا أن الطاعة فى المعروف ، وسوف يحاسب العبد عن نفسه يوم القيامة ، وإنما الاقتداء بالخير والحسنة .

(قال عمر رضى الله عنه : يفسد الزمان ثلاثة : أئمة مضلون ، وجدال بالقرآن ــ والقرآن حق ــ وزلة عالم . . .

وقال معاذ ــ رضى الله عنه ــ : وأحذركم زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . . .)

وكذلك ليس على الداعية ــ بحجة الطاعة ــ التعصب للقادة

والرؤساء وإن أخطأوا الخطأ الفاحش ، فهذا من التعاون على الإثم والعدوان ، وإنما عليه الإحسان إذا أحسن الآخرون ، وتجنب الإساءة إن أساءوا ، وعليه بالاقتداء بأفضل ما عند القادة ، فإنه إن تتبع الاقتداء بنقاط الضعف عن القادة ، فهو فى ذلك كمن تتبع رخص العلماء ، وبالتالى فهو فى هذه وتلك لم يصب من الخير شيئاً .

وإذا كان هذا موقف الداعية ممن هو أعلم منه ، أو أرفع منه شأناً ، مع تأدية واجبه بالنصح والإرشاد ، والموعظة الحسنة ، فعليه فى الوقت نفسه ألا يشغل نفسه كثيراً بما جرى بين الأئمة والعلماء من الخلاف ، إذ إنه بهذا الأمر يضيع جهده ، ويصرف وقته دون طائل ، ويضيع عليه سبل الاستفادة .

(ينبغى لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين ، وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم فى بعض ، إلا إذا أتى ببرهان واضح ، ثم إن قدرت على التأويل وحسن الظن فدونك ، وإلا فاضرب صفحاً عما جرى بينهم .. فاشتغل بما يعنيك ودع ما لا يعنيك ...) (١) .

وهذا هو الأصل فى تصرف المسترشد مع علماء الأمة ، وتصرف طالب العلم مع العلماء ، وكذلك تصرف الداعية تجاه

---

(١) طبقات الشافعية لابن السبكى : ٢ / ٣٩ .

خلاف القادة ، ونهج المستجد أمام خلاف القدماء ، وسبيل الاتباع عند اختلاف الأمراء ، إن الغاية الاشتغال بما يعنى ، والاستغناء عما لا يعنى ، ففى ذلك الأجر والمثوبة ، وفى عكسه الفتنة والبلاء .

زلة العالم

ولذلك لزم أن يكون الحذر شديداً من زلة العالم ، والتحوط كثيراً من خطأ القائد ، وعلى التابع لهما أخذ الانتباه التام واليقظة الكبيرة من الاقتداء بخطإ هذا وزلة ذاك ، (وكان معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ يقول فى خطبته كثيراً : إياكم وزيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة ، وقد يقول المنافق الحق ، فتلقوا الحق عمن جاء به ، فإن على الحق نوراً ، قالوا : وكيف زيغة الحكيم ؟ قال : هى كلمة تروعكم وتنكرونها ، وتقولون : ما هذه ؟ فاحذروا زيغته ، ولا تصدنكم عنه ، فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق ...) .

وكان أحد التابعين يقول عن الاقتداء بالحسن البصرى ، وابن سيرين ، وهو يوصى ابنه (إن أخذت بشر ما فى الحسن ، وبشر ما فى ابن سيرين اجتمع فيك الشر كله).

أما الإمام الغزالى فقد حذر من ذلك أيضاً ، وقال : إن ذنوب العالم قد تكون صغيرة إلا أن ضررها قد يكون كبيراً ، ثم

أردف قائلاً :

(فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم أياماً متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه) [1] .

ويبنى على وجود زلات العلماء عدم اعتبارها من الدين ، أو من المسائل الشرعية التي يؤخذ بها اعتبارها اجتهاداً ، وإنما هي آراء مهدرة لا قيمة لها ، وكذلك ليس المقصود هنا بالآراء الاجتهادية التي تصدر عن القادة ، والواجبة الاتباع على أساس الطاعة الشرعية فيما لا يتعارض مع نص شرعي ، وإنما المقصود عدم الاقتداء بالأكابر في الزلات والعيوب والنقائص التي يعرف من الشرع أنها زلات وعيوب ونقائص ، والأصل في التابع طالباً كان أو داعية تجاه العالم أو القائد أن يتبع القاعدة التالية ... وهي :

(إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة ، ولا الأخذ بها تقليداً له .. كما أنه لا ينبغي أن يُنسب صاحبها على التقصير أي : إذا بذل غاية وسعه واجتهاده ـ ولا أن يشنع عليه ، ولا ينتقص من أجلها ، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتاً ، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين) [2] .

---

(١) الموافقات للشاطبي : ٤ / ١٦٩ .   (٢) الموافقات للشاطبي ٤ / ١٧٠ .

وهذا المنهج الصواب عند السلف الذى لا بد للدعاة من استيعابه فى معاملة العلماء والنظر إلى أخطائهم .

التماس الأعذار .. بالأسباب

يتعرض الإنسان ـ ومنذ طفولته ـ إلى تركيبة متشابكة من العوامل والمؤثرات التى تؤدى إلى تكوين مجمل خصائصه الذاتية ، ومن هذه العوامل مجموعة الخصائص الفطرية كالذكاء والموهبة ، وقابلية الذاكرة ، والاستيعاب اللغوى ، وسرعة الإدراك ، والقدرة العددية ، ونظائرها ، وكذلك مجمل الخصائص والقدرات الآلية كدقة التحكم ، وتوقيت رد الفعل ، وسرعة الاستجابة وأشباه ذلك ، ومجمل الخصائص الإبداعية كالتفكير التباعدى ، والتقويم ، والإدراك ، وأشباه ذلك ، ويضاف إلي الخصائص الفطرية مجموعة العوامل البيئية كالحضارة والبداوة ، وحياة المدينة والريف ، والغنى والفقر ، والعلم والجهل ، وطريقة تربية الوالدين ، ثم يأتى دور العوامل الاجتماعية كنمط الحياة ، والعزلة والخلطة ، وهل للشخص أشقاء أم لا ، وطبيعة أساتذة كل مادة خلال حياته الدراسية ، ثم بعد ذلك المجموعة المتشابكة من العوامل المكتسبة من تأثره بالمحيط والأفراد والأجواء والعائلة ، والثقافة الذاتية ونوعها وكميتها ، ثم طوارئ الحياة كالفتن والزواج والطلاق والمشاكل السياسية وطبيعة

البلد ، وغير ذلك مما يشكل إحصاؤه صعوبة واضحة ، والإنسان بعد ذلك كله نتيجة لمثل هذه المؤثرات فى خصائصه وصفاته وقدراته .

إن إدراك هذه الحقيقة تجعل المنصف يعذر أخطاء وعيوب أهل الفضل والأكابر ، كما أنه لا يبالغ فى مدحهم والثناء على عبقريتهم ، فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجد كل هذ الأسباب ليخلص الإنسان بخصائص ومميزات ومواهب معينة ، ولا بد من الناظر لميزات كل إنسان أن يسارع إلى التماس العذر له عند رؤية بعض النقائص لأن المنظور إليه إنسان قد تعرض لأسباب النقص ، فكم من قائد ملهم يفتقد الخطابة والكتابة لعجز فطرى ، وغير ذلك مما يمكن القياس عليه ويعتذر به عن النقص عند أهل الفضل والمعروف ، رغم أن هذا ليس تبريراً يمنع أهل المعروف من الاستزادة من الخير ، والصعود فى سلم المعروف ، والارتقاء فى المعالى ، ودفع النقائص ، وقبول النصائح ، ولكنها حقيقة حياتية يجب أن لا تهمل فى النظر إلى الناس ..

اختلاف الفهوم

ومن التماس العذر ، أن يعلم الداعية أن العقول تتفاوت فى مداركها ، وتتباين فى أفهامها ، إضافة إلى عوامل الفطرة والبيئة

وجملة العوامل المكتسبة ، مما يجعل بعض الدعاة يفهم شيئاً ويقصر في فهم أشياء كما أنه يعلم أشياء وقد يجهل أبسط الأشياء :

(وما أكثر تفاوت الناس في الفهوم ، حق العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الأصول والفروع ، فترى أقواماً يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحس ..) (١) .

وقد ثبت في الدراسات التربويه المعاصرة ، أنه لو حضر جمع من الناس يستمعون إلى محاضرة عامة غير تخصصية فإن الثلث منهم فقط يستوعب معظم المحاضرة ، والآخرون يكون استيعابهم على درجات متفاوتة ، وتقل النسبة كلما كانت المحاضرة أكثر تخصصاً ، إضافة إلى أن معظم المعلومات قد تنسى بعد بضعة أيام ، كما أن ما يفهمه الشخص أول الأمر هو الذى يستقر في الذهن ، غالباً ، حتى ولو تفهم الإنسان فيما بعد خطأ ذلك ، ما لم يكن على درجة كبيرة من الوعي والانتباه ، وغير ذلك من الأمور التربوية ـ التي يطول ذكرها وشرحها ـ مما له أثر على درجة الفهم والاستيعاب ، ولكن تذكر هذه الحقيقة هنا لاستفادة المربين والقادة منها في جعل أفكارهم وأقوالهم في منتهى الوضوح والصراحة ، وبأوضح الأساليب وأبسطها وأن تقدم المعلومات لأهلها فقط ، ولا بأس بتكرار الفكرة بأساليب متعددة ، وغير ذلك مما هو مبسوط

(١) صيد الخاطر : ٤٠٢ .

فى غير هذا الموضع (منها مثلاً شروح أحاديث البخارى من كتاب العلم) .. وكذلك يستفيد من هذه الحقيقة عموم الدعاة والأتباع فى النظر إلى أقوال أهل الفضل وأعمالهم من القادة والأمراء . فقد تختلف عليهم بعض الأفكار وتلتبس عليهم بعض المفاهيم ، خصوصاً إذا كان مستوى صاحب الفضل على درجة عالية من الكفاءة اللغوية أو المقدرة العلمية ، وكذلك لا بد من الانتفاع من هذه الحقيقة حتى فى مخاطبة الأكابر وأهل الفضل ، فقد يكون فضلهم فى جانب ، ولكن فيهم ضعف فى جانب آخر .

ولذلك وجب مخاطبة الناس على قدر أفهامهم - حتى ولو كانوا أصحاب فهم وفضل - فى المسائل التى لا يمكن لهم إدراكها لضعف فى الفهم ، أو لقلة فى التجربة حتى لا تكون فتنة لقول ابن مسعود : « ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تدركه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » . لذا كان إعطاء العلم على قدر إدراك الأكابر له .

وأما ما يجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم ومعرفتهم وحاجتهم وما أمر به أعيانهم فلا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم ، أو عن فهم دقيقة ما يجب على القادر على ذلك ..) (١) .

---

(١) الفتاوي لابن تيمية : ٣ / ٣١٢ .

وهذه قاعدة أخرى في إيراد الأفكار وإصدارها مما له علاقة بمعاملة الأفاضل ، مما يحقق المصلحة المطلوبة من عملية أداء الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ومن ترتب مفسدة عليها ، ويحقق وحدة الصف ، وقوة الرابطة ، دون حصول فتنة ، أو غلبة هوى .

وجود الأخطاء .. مظنة التواضع

إن كل ابن آدم خطاء ، كما أخبر عن ذلك المصطفى ﷺ ولذلك جرى الخطأ على ابن آدم بل ووقع ذلك على الأنبياء أيضاً ، ولكن الله عز وجل يصحح بعد ذلك الخطأ ، ليثبت العصمة لأنبيائه ، وتبقى عدم العصمة على غيرهم ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تجرى سنة الخطأ على اجتهادات الصحابة ، كما تجرى على علماء الأمة ، ولذا كان من المعلوم في أبواب العلم ، وأقوال السلف أنه ما من إمام إلا وله زلات واضحة ، أرادها الله تعالى حيث يثبت الصواب من جهة أخرى . وقد كرر شيخ الإسلام الذهبي هذه القاعدة عند إيراد الجرح والتعديل لكثير من الأئمة ، ومنها ذكره لقول أبي موسى المديني :

(أشار بهذا إلى أنه قل إمام إلا وله زلة ، فإذا ترك لأجل زلته ترك كثير من الأئمة ، هذا لا ينبغي أن يفعل) [1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٠ / ٨٨ .

كما وأن وجود الزلة لأى عالم مظنة تواضعه لاعتقاده أنه مهما بلغ من العلم والفضل فسوف يقع فى الخطأ ، ولعل ذلك من حكمة الخالق عز وجل ، وحتى لا يؤخذ العلم من شخص معين ، أو أن يقدس شخص ما ، مهما بلغ من العلم أو الزهد ، وأن يتجه المسلمون دوماً إلى المنبع الصافى ، والمورد العذب ، وأن يكون استقاء العلم فى كل زمان ومكان من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، كما أن الاقتداء لا يكون إلا بالمصطفى ﷺ حتى يكون الخير مستمراً فى أمته حتى قيام الساعة .

إن شعور العالم بجريان الخطأ عليه ، وإحساس العامل بحصول المعصية منه ، وتوقع الأمير ظهور العيب فيه ، وتأمل القائد صدور الغلط عنه ، سيقود كل ذلك إلى تواضع كل منهم ، وطلب النصح من الغير ، والانتباه إلى النفس ، والاستشارة المستمرة ، والتعاون مع الآخرين لطلب النصح ، وفوق ذلك كله طلب الإعانة من الله عز وجل للتوفيق وسداد الرأى ، واستخارته فى كل الأمور ، وكذلك فإن العالم يستزيد من العلم لدرء النقص ، ويستكثر العامل للخير من العمل لتغطية الخطأ ، ويشمر الزاهد عن ساعد الجد ليدرأ الرياء ، ويجتهد القائد فى أداء الواجب وحفظ الحقوق خوفاً من حصول الضعف ، وهكذا يشمر أهل الفضل ، والمعروف للاستزادة من كل خير بسبب مظنة الخطأ والضعف والزلل ، وبالتالى فإن سنة

الخطأ من حكمة الله تعالى ، ومن تمام فضله على البشر .

رب العزة يتجاوز عن الخطأ

إن الله عز وجل فى عليائه قد تجاوز عن خطأ المجتهد سواء فى المسائل العلمية أو العملية ، لعلمه بأن الخطأ جار على البشر ، والتهديد بالعقاب يعطل عملية الاجتهاد التى لا بد منها لأمور المعاش والمعاد ، ولذلك جرت المسامحة لكل مجتهد ـ كما قال شيخ الإسلام ـ حتى ..

(ولو كان قد أخطأ خطأ مخالفاً للكتاب والسنة ، ولو عوقب هذا لعوقب جميع المسلمين ، فإنه ما منهم من أحد إلا وله أقوال اجتهد فيها ، أو قلد فيها وهو مخطئ فيها ، فلو عاقب الله المخطئ لعاقب جميع الخلق ، بل قد قال تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ...** ﴾ الآيات ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ : « إن الله استجاب هذا الدعاء » ، ولما قال المؤمنون : ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ ، قال تعالى : « قد فعلت » ، وكذلك فى سائر الدعاء ، وقال النبى ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .. فالمفتى والجندى والعامى إذا تكلموا بالشيء بحسب اجتهادهم ، اجتهاداً أو تقليداً قاصدين لاتباع الرسول بمبلغ عملهم لا يستحقون العقوبة

بإجماع المسلمين ، وإن كانوا قد أخطأوا خطأ مجمعاً عليه ..) [١]

فإذا كان الله عز وجل يسامح العلماء على اجتهادهم فى دينه ، فإن المجتهد فى الأعمال والآراء التى لا تستند على نصوص أولى بالمسامحة ، وأقرب إلى مغفرة الله وحفظه ، بل وإن سعة رحمته تعالى تثيب على هذا الاجتهاد ، ولو كان خاطئاً ، وإذا كان الأمر كذلك ، أفلا يسع الناس كف ألسنتهم وتصفية قلوبهم ، وتحسين معاملتهم عند النظر إلى اجتهاد أصحاب الفضل والعمل والعطاء .

غنم بلا غرم

إن الأصل أن كل مكلف محاسب عما يفعله أو ينطق به يوم القيامة ، ولن يضيره خطأ الآخرين ، ولما كانت غاية المسافر إلى ربه أن يصل سالماً وغانماً ، فعليه الاستفادة من الآخرين بمقدار ما ينتفع منهم فى آخرته ، ولذلك فإن النصح للغير من أجل الأجر المترتب على ذلك مع الاستفادة من الغنم ، فما على المكلف شيء من الغرم ، بل وما عليه بعيب الأكابر إذا أرشدوه إلى الخير ، وما يضيره نقص الأماثل إذا أبعدوه عن الشر فهو كمن (... يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه ، لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سباع النار بالجهل بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع ،

(١) فتاوي شيخ الإسلام : ٣٥ / ٣٧٨ .

فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ، ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان ..) (١) .

فلينظر الداعية إلى حسن التشبيه ، فمن يهرب من النار أو السباع هل ينظر إلى من هو الناصح ؟ ومن يدلك على الطريق فهل يهمك أن يكون سالكاً معك أو لا ، فكيف بمن يدلك على طريق الجنة ، ويحذرك من طريق النار ، أو ليس من سنن الحياة أن العسل لا يجنى إلا وقد يصاب المرء بشيء من لسع النحل وشذى الزهور لا يشم إلا بآلام الأشواك إذ إن حلاوة العسل مشوبة بإبر النحل ، وأريج الورود محاط بأشواك الحماية ، ولكل جمال شائبة تظهره ولكل تمام نقص يبديه .

حياء الخور

قد يظن البعض أن تطبيق الموازين السالفة ، تقتضى السكوت عن واجب النصح ، وتبليغ الموعظة ، وهذا فهم خاطئ فالميزان الآخر أن على الداعية وغيره أن يجعل عدم النصيحة من باب الحياء ، فهذا من الخور والضعف ، والحياء خلق رفيع ، كما أن النصيحة واجبة ، ولا تعارض بينهما ، والقاعدة فى ذلك ، ما قاله النووى رحمه الله :

(١) إحياء علوم الدين : ١ / ٥٠ .

« فيجب على الإنسان النصيحة ، والوعظ ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر لكل صغير وكبير ، إذا لم يغلب على ظنه ترتب مفسدة على وعظه ، قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن ..** ﴾ (١) .

وأما ما يفعله كثير من الناس من إهمال ذلك فى حق كبار المراتب وتوهمهم أن ذلك حياء فخطأ صريح ، وجهل قبيح ، فإن ذلك ليس بحياء ، وإنما هو خور ومهانة وضعف وعجز ، فإن الحياء خير كله ، والحياء لا يأتى إلا بخير ، وهذا يأتى بشر ، فليس بحياء ، وإنما الحياء عند العلماء الربانيين والأئمة المحققين ، خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق) (٢) .

وإبداء النصيحة بشروطها وضوابطها ، واجب شرعى لا بد من الأخذ به ، وإلا ضاعت الموازين ، وتبددت القواعد وانتشرت الأخطاء بل ويصبح كبار المراتب من القادة والأمراء أسرى لأفكارهم وتصوراتهم اعتقاداً منهم أنهم على الصواب الدائم ، وموقف الاحتجاج بالحياء فوق أنه ضعف ومهانة ، فهو مظهر من مظاهر حب الذات والخوف عليها من النقد والملامة ، ودليل علي

---

(١) النحل : ١٢٥ .   (٢) الأذكار للنووي : ٢٧٠ .

الاعتزاز بالنفس والشفقة عليها من العتاب والرد ، فالمؤمن الربانى واثق وشجاع ، يقدم النصيحة مع الاحترام والنقد مع الشفقة ، والرد مع المودة ، وكل هذه الأمور من المعروف لا يمكن أن تتعارض مع الحياء ، لأن الحياء من الخير أيضاً ، ولا تعارض بين خيرين ..

(وأما كون الحياء خيراً كله ، ولا يأتى إلا بخير ، فقد يشكل على بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد يستحى أن يواجه بالحق من يجلّه فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف فى العادة ، وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة منهم أبو عمرو بن الصلاح ـ رحمه الله ـ أن هذا المانع الذى ذكرناه ليس بحياء حقيقة بل هو عجز وخور ومهانة ، وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف ، أطلقوه مجازاً لمشابهته الحياء الحقيقى ..) [1] .

ولابد من مراعاة التوسط عند النصح ، حتى تتحقق الغاية منها ، وإلا فالإنقاص منها يجعلها غير مفهومة ، والزيادة عليها تفوت المصلحة منها .

(وإنما يلزم من حق الإخاء بذل المجهود فى النصح ، والتناهى فى رعاية ما بينهما من الحق ، فليس فى ذلك إفراط وإن تناهى ، ولا

(١) شرح صحيح مسلم للنووي : ٢ / ٥ .

مجاوزة حد وإن كثر وأوفى ، فتستوى حالتهما فى المغيب والمشهد ولا يكون مغيبها أفضل من مشهدهما وأولى ، فإن فضل المشهد كرم واستواءهما حفاظ ...) (١) .

و أخيراً .. عليك نفسك

لما كان هدف السالك إلى الله تعالى الوصول إلى الهدف بالحصول على رضا الله تعالى ، فيجب أن لا يلتفت إلى العوائق المثبطة ، أو العلائق المؤخرة ، بل يرنو ببصره إلى أمام لا يلوى على شيء ، ويعجل إلى ربه ليرضى ، ويسارع إلى جنة عرضها السموات والأرض ، ولما كانت إطالة النظر فى معايب الناس من عوائق السير إلى الله تعالى ، كان تركها والبحث عن مساوئ النفس أولى ، فعلى المتعلم أن يأخذ من العالم علمه دون إشغال نظره بعيوبه ، وعلى التابع أن يتبع القائد بالمعروف احتساباً للأجر دون البحث عن نيته ، وعلى الداعية إبلاغ دعوته أداء للواجب دون استقصاء لنقائص الأمير ، وعلى التلميذ التقليد فى المحاسن وتعلم الفضائل طمعاً فيما عند الله تعالى دون صرف الفكر فى زلات مربيه ، وهكذا الأمر كحال التلميذ فى المدرسة مع أستاذه ، يبذل همه وجهده لفهم الدرس ، وتذوق حلاوة النتيجة دون الاهتمام

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ١٧٨ .

بهندام الأستاذ ومظهره .

إن هذه المنزلة فى مدارج السالكين إلى الله هى منزلة المحاسبة ، وبدايتها مقايسة الذنب مع نعمة الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة التفاوت ، ويعلم العبد فيها عظمة الربوبية ورحمة الخالق ، وحاجته إلى مغفرته مما ينسيه قصور الناس ، ومعايب الآخرين ، بل إن المحاسبة تذكره بفضل الله عليه ومنته دون غيره من العباد ، وأن لولا هداية الله لما زكت نفسه ، ثم تدعوه المحاسبة إلى إساءة الظن بنفسه ، ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها ، ومن أحسن الظن بنفسه فهو أجهل الناس بنفسه ، بل عليه أن يفرق بعين العلم بين نعمة الإحسان واللطف وبين النعمة التى فيها الاستدراج ، وهذه المحاسبة تدعوه أيضاً إلى التمييز بين ما عليه لله ، وما له ، ومن تمام هذا التمييز ، أن يعلم أن رضا العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه ونسيان عيوبه ، مما أدى به فراغه ورضاه عن نفسه إلى الاشتغال بعيوب الآخرين ، وهكذا تفعل المحاسبة الحقة فى نفس العبد وأنه إذا عرف نفسه انشغل بها عن غيره ، ومن رأى عمله عرضة لكل آفة ونقص رأى تفوق غيره عليه ، وخشى على نفسه .

(ولا يكمل هذا المعنى إلا بأن تربأ بنفسك عن تعيير المقصرين فلعل تعييرك لأخيك بذنبه أعظم ذنباً من ذنبه، وأشد من معصيته ،

لما فيه من صولة الطاعة ، وتزكية النفس وشكرها ، والمناداة علها بالبراءة من الذنب ، وإن أخاك باء به ، ولعل كسرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع ، والإزراء على نفسه ، والتخلص من مرض الدعوى ، الكبر والعجب ، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب ، أنفع له وخير من صولة طاعتك ، وتكثرك بها ، والاعتداد بها والمنة على الله وخلقه بها ، فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله وما أقرب هذا المدل من مقت الله فذنب تذل به لديه أحب من طاعة تدل بها عليه ، وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً ، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً ، فإن المعجب لا يصعد له عمل ، وإنك إن تضحك وأنت معترف ، خير من أن تبكى وأنت مدل ، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر ..) [١] .



(١) تهذيب مدارج السالكين : ١٢٠ .

(١٣) من آداب الطريق

لقد قيل : إن للسفر آداباً تبتدئ من رد المظالم وإعداد النفقة وتنتهى بآداب الرجوع بما تتضمنه من ذكر ودعاء ، أو جلب الهدايا للأطفال والنساء ، وبينها جملة آداب كثيرة ، منها :

(.. طيب الكلام .. وإظهار مكارم الأخلاق فى السفر ، فإنه يخرج خبايا الباطن ، ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر وقد يصلح فى الحضر من لا يصلح فى السفر ... والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه فى الضجر فهو الحسن الخلق ... وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكارى ، ومعاونة الرفقة بكل ممكن ، والرفق بكل منقطع .. وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة فى بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية ..) (١) .

ولا يخلو ـ كذلك بالمثل ـ سفر الدعاة فى القافلة الميمونة ، ورحلتهم فى قطار الدعوة من الحاجة لبعض هذه المعانى أو كلها ، فبين سفر الحقيقة وسفر المجاز تداخل وتشابه ، يدل على وحدة الكون ، ووحدانية الخالق ، ومن هذا التشابه ما خلقه سبحانه وتعالى

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢ / ٢٥١ .

مما يحتاجه البشر من الأخلاق وسائر الأحوال ، فاقتضت حكمته أن تكون الأخلاق فى الأعمال الظاهرة من سفر الحقيقة ، مشابهة ومناظرة لأعمال الباطن التى يمثلها سفر المجاز برحلة الدعاة فى قطار الدعوة ، إذ يمكن أن يقال عن آداب سفر الدعاة : إنهم فى سفرهم بحاجة إلى طيب الكلام ، وحسن المعاملة مع الخلق ، كى ينضموا لإعطاء الصورة الوضيئة أمام الناس للحاق بهم ، بل هم أحوج إلى أخلاق الأخوة ، وآداب الصحبة بينهم كى يتم سفرهم براحة وأمان ، ويصلوا إلى مقصودهم بنجاح ، ومن صلح للسفر مع الدعاة فى قطار الدعوة صلح للعيش مع الخلق ، وللقيام بنصحهم وإرشادهم ، فقد يكون المؤمن صالحاً فى نفسه ولكنه لا يصلح للحاق بركب الدعاة .

من تمام خلق الداعية ـ قياساً على سفر الحقيقة ـ الإحسان إلى قائده للخير بالمعروف ، والدعاء لمعلميه بالتوفيق ، والإحسان إلى كل من قام بواجب إرشاده لقافلة الدعاة ، وكذلك معاونة إخوانه فى الدعوة ، والرفق بالمنقطعين عن القافلة ، والحديث معهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يعرفوا الحق وأهله ومن تمام هذه الأمور كلها الرفقة المستمرة مع الأحباب كلهم بحسن الخلق ، وتمام الوفاء ، ومقتضى المروءة ، وكل ما هو مشهور متداول من أخلاق المسلم .

ومع نظائر هذه الأخلاق التى تؤخذ بالقياس ، فهناك آداب على الطريق لها خصوصية لا بد منها للداعية السائر فى الركب .

تعاريف العارفين

(علم الأدب : هو علم إصلاح اللسان والخطاب ، وإصابة مواقعه ، وتحسين ألفاظه ، وصيانته عن الخطأ والخلل ، وهو شعبة من الأدب العام) [(١)] .

هذا هو الأدب ، وسمى بالعلم لأنه يؤخذ بالاكتساب والمعرفة ، ويعلمه المرء بالتعلم ، وإن كان كل إنسان جبل على بعض الآداب بالفطرة ، وما على كل مسلم إلا أن يكتشف ما جبل عليه ، ويحمد الله على ما وهبه من ذلك ، وتقويم بعضها حتى يصل إلى مرضاة الله تعالى .

تيه الجاهلية ـ ومرفأ الإسلام

وخلاصة الأمر أن الأدب عند علماء الأمة وسلفها ، ما اصطلح عليه فيما بعد بالأخلاق ، وقد تاهت عقول الفلاسفة فى إدراك طبيعة الأخلاق وماهيتها ، ومصدرها وقياسها ، فمنه من جعلها مطلقة وآخرون قالوا بنسبيتها ، ومنهم من فصلها عن الغايات ،

(١) تهذيب مدارج السالكين : ٤٤٥ .

وآخرون جعلوها جزءاً من المفاهيم والسلوك ، ومن الفلاسفة من ساوى بين البشر والأنبياء ، ومنهم من أنزل البشر إلى عالم البهائم ، وهكذا كان التخبط من عصر أفلاطون وأرسطو ، وحتى راسل وديوى ، مروراً بكانت ودور كهايم .

والعقيدة وحدها ميزت معنى أخلاق المسلم وحددت مصدرها وأوضحت طبيعتها ، فكانت فى النهاية هى الأدب الذى يحاول المسلم أن يصل إلى المستوى السامق فيه ، ويتمثل بحقيقته :

(وحقيقة الأدب : استعمال الخلق الجميل ، ولهذا كان الأدب : استخراج ما فى الطبيعة من الكمال ، من القوة إلى الفعل ، فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التى جعلها فيه كامنة كالنار فى الزناد ، فألهمه ومكنه ، وعرفه وأرشده ، وأرسل إليه رسله ، وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التى أهله بها لكماله إلى الفعل ، قال الله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾ .

فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام ، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى .. ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها ، ورفعها بآدابه التى أدب بها رسله وأنبياءه ،

وأولياءه ، وهى التقوى ..) (١) .

فإلى معرفة بعض هذه الآداب ليتمثل بها الدعاة :

مودة وألفة

ومن آداب الطريق الألفة مع الركب لأن الله بنافذ قدرته ، وبالغ حكمته ، قد خلق الناس بتدبيره ، وفطرهم بتقديره ، فكان من لطائف التقدير ، أن جعل البشر محتاجين لبعضهم ، ليكون الخالق وحده بالغنى منفرداً ، وبالقدرة مختصاً ، فكان كل إنسان محتاجاً لأخيه ، ولا بد له من الاستعانة بغيره ، وإن كان هذا الأمر فى أمر الدنيا محموداً ، فهو فى أمور الدين أكثر وجوباً .

والألفة لا تتم إلا بعدل الداعية مع غيره ، إذ لا بد أن يحمل نفسه على المصالح ، ويكفها عن القبائح ، ويقف مع إخوانه دونما تجاوز أو تقصير ، فإن التجاوز جور ، والتقصير ظلم ، وهذا العدل لا يتم إلا بقلة الطمع ، وزيادة الورع ، والداعية إن لم يكن آلفاً مألوفاً قد يؤذى من قبل الغير إما حسداً لنعمته ، أو عدواناً عليه ، فهو بالألفة ينتصر على حاسديه ، ويمتنع من شانئيه ، وبالألفة تجتمع عليه القلوب ، ولا تنفض عنه النفوس ، وبها يجتمع الشمل ، ويزول

---

(١) تهذيب مدارج السالكين : ٤٤٨ .

الذل .

والألفة تتم بالمؤاخاة الصادقة فى طريق الدعوة ، فإن إخوان الصدق زينة فى الرخاء ، وعصمة فى البلاء ، وإن أخوة الطريق إذا تقوت روابطها بما هو مكتسب كالتعارف والائتلاف ، والتشاكل فى الفكر والقناعة ، والانبساط والمؤانسة ، وخلوص المودة والثقة ، والمعاضدة والصداقة ، والمحبة والاحترام ، حتى تصل مراحل الألفة إلى أقصاها .

(وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ، ولا حالة محدودة ، لأنها تؤدى إلى ممازجة النفوس ، وإن تميزت ذواتها ، وتفضى إلى مخالطة الأرواح وإن تفارقت أجسادها ، وهى حالة لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها ...) [١] .

وبدون الألفة يقل الترابط ، وإذا ضعف الرباط ، صعب المسير وبعدت الشقة ، ولذلك جعل دعاة هذا العصر (الأخوة) من شروط بيعتهم ، وقالوا عنها :

(أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة ، والعقيدة أوثق الروابط وأعلاها ، والأخوة أخت الإيمان ، والتغرق أخو الكفر ،

---

(١) أدب الدنيا والدين : ١٦٤ .

وأول القوة قوة الوحدة ، ولا وحدة بغير حب ، وأقل الحب سلامة الصدر ، وأعلاه مرتبة الإيثار ..) [١] .

المبادئ .. لا الرجال

ومن مقتضى الألفة ، المودة والاحترام ، وعدم تحزب البعض للبعض ، فالدعاة هم معلمو الناس الخير ، فلا ينبغى لهم التحزب للآراء ، والتعصب للرجال ، وإنما خدمة المبادئ السامية ، وأداء واجب الأخوة بينهم ، والتعاون مع كل صاحب فضل لأداء واجب النصيحة للناس ، وتبليغ الدعوة لهم ، وإشاعة روح التعاون والوحدة ، ومنع التصدع والفرقة ، وبالتالى أن لا يكون حب الناس لداعية ما ، وما فتحه الله عليه من التفاف الناس حوله ، مبرراً لتحزيب الخلق حول شخصه ، وتجميع الناس حول ذاته ، بل أن يعاون غيره من أجل أداء الواجب ، وواجب الدعاة تعليم الخير .

ولعل كذلك من الحرص على الألفة ، وما تؤدى إليه من التناصر والتعاون ، أو الانتصار للرجال ، بل أن يكون الانتصار للحق وحده ، والتحزب لأهل الخير إنما هو للخير الذى فيهم ، وكراهية أهل الباطل إنما هو لسبب الباطل الذى يدعون إليه ، وكل إنسان ينظر إليه بمقدار الخير الذى فيه فيوالى فيه ، وإلى قدر الشر

---

(١) رسالة التعاليم .

الذى فيه فيعادى عليه .

وقياس الناس والأفكار والمواقف لا بد أن يكون بميزان الإسلام ، ووفق المبادئ يقاس الرجال ، ولا بد من الأخذ بالمنهج الإسلامى عند النظر إلى الأشخاص والمواقف ، وإن أقدار الرجال تقاس بمقدار الاقتراب أو الابتعاد عن المبادئ والشريعة باعتبارها عقيدة التوحيد البعيدة كل البعد عن الشرك ، أما أن تقاس المبادئ بالرجال ، فذلك فى الأفكار الجاهلية والمبادئ الأرضية ، بل وعند بعض أصحاب البدع ، تكون صحة الآراء تبعاً لمنزلة الأشخاص ، وتقاس قدسية المبادئ بالطبقة التى ينتمى إليها القائل ، إلا أن أهل التوحيد قالوا :

(اعرف الحق تعرف أهله) ، (اعرف الرجال بالحق ، ولا تعرف الحق بالرجال) .

وإن كان هذا المبدأ من قواعد الشريعة ، ومبادئ التوحيد ، فسوف تظل المبادئ والأفكار الصحيحة هى الأساس الذى يقاس عليه الناس ، والأصل الذى يرجع إليه ، والقاعدة التى يبنى عليها ، وسوف يظل الرجال ـ مهما بلغوا ـ على طرفى خط الاستقامة ابتعاداً وقرباً ، زيادة أو نقصاً ، فلا يجرى منهم الكلام ، ولا يتوقع منهم التمام ، إلا المثل الأعلى المتمثل بالمصطفى ﷺ وعلى كل داعية

أن ينظر إلى الأمام ، ويضع المنهج الربانى نصب عينيه ، ولا يلتفت للعبيد ، ولا لأخطاء العبيد ، ولا لمحاسن العبيد ، ما دام القياس الصحيح أمامه موجوداً ، والمثل الأعظم رائداً .

إفراط المحبة .. تفريط

ومع الألفة المطلوبة ، فإن المبالغة فى المحبة إفراط لا ينسجم مع قواعد العدل ، بل قد يدعو لتجاوز العدل والإنصاف ، ثم التعصب والانحياز ، فكما أن الشريعة قد نهت عن التفريط في الذم ، فقد نهت عن الإفراط في المدح والشريعة تنهى عن التطرف فى كل أمر ، وإن أمر الله تعالى عدل وقسط بين الإفراط والتفريط ، وما ضاعت الشريعة ، أو ظهرت البدع إلا بالتقصير فى بعض المسائل أو الغلو فى بعضها الآخر .

ومع القول بحسن الأخوة ، وبضرورة الألفة ، فإن الإفراط معاكس للعدل الذى أمرت به الشريعة ، وما العدل إلا التوازن ، لأن الإفراط فى المحبة داع إلى التقصير فى حق الغير ، أو أنه مظهر من مظاهر التزلف والتكلف ، وكل زائد عن الحد يغلب انقلابه إلى الضد .

(وينبغى أن يتوقى الإفراط فى محبته ، فإن الإفراط داع إلى التقصير ، ولئن تكون الحال بينهما نامية ، أولى من أن تكون

متناهية ...) (١)

والإفراط فى المحبة قد يعنى أحياناً إعجاباً حقيقياً ، وليست من التكلف ، ولكن هذا الأمر خاطئ أيضاً فليس هنالك شخص بهذه القدسية ، ولكل شخص أخطاء ، وقد تكون خفية ، ولكنها إذا ظهرت وبانت فإن أول ضحايا الإعجاب هو المعجب نفسه لما يصيبه من خيبة الأمل .

العدل : ميزان الشريعة

والخلاصة : أن ميزان الشريعة هو العدل فى كل الأمور ، فبالعدل قامت السموات والأرض ، ولأجل العدل أنزلت الشرائع ليقوم الناس بالقسط ، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ، أو من الحكمة إلى العبث ، أو من المصلحة إلى المفسدة ، فهى ليست من شريعة الله ، وإن أدخلت بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه ، وحكمته الدالة عليه ، ولذلك كان من العدل النظر إلى ما يملكه الإنسان من الخير والشر ، والبر والفجور ، والحسنات والسيئات ، وأن لا يبخس الناس أشياءهم لأن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وكل مؤمن لا يخلو من الخير الكثير .. بل يجب أن يتعدى هذا الميزان لأهل البدع

---

(١) الماوردي : ١١٧ .

والأهواء ، ما داموا موحدين من أهل القبلة ، فيجب أن يمدحوا بما هم عليه من الخير ، ويذموا بما هم عليه من الشر ، وانظر إلى قول إمام الجرح والتعديل الذهبى ، لما لاحظ أن الغلاة فى كل مذهب :

(قد ماجت بهم الدنيا وكثروا ، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء ، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد ، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع ، ونحب السنة وأهلها ، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحمية ، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ ، وإنما العبرة كثرة المحاسن ..) (١) .

فإذا كان العدل والإنصاف يقتضى النظر حتى إلى محاسن أهل البدع ، مع إنكار بدعتهم ، والبراء إلى الله تعالى مما هم فيه ، لأن الأصل إنكار المنكر والاعتراف بالخير ، وما الولاء لأهل الخير والبراء من أهل الشر لا بقدر ما عندهم من الخير والشر ، وأصحاب المعروف ، ولا يكون قليل الشر تبريراً لنسيان كثير الخير .

وتواصوا بالحق

وميزان العدل قد لا يتحقق إلا بالتواصى بالحق فى الجماعة

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٠ / ٤٥ .

المسلمة ،حيث يوصى كل داعية أخاه بالمعروف ، وينبهه إلى الخير ، ويأمره باجتنباب النواهى ، والمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، ولا بد من أن يأخذ التواصى بالحق مظهر الحوار البناء ، والنقاش المثمر ، والنقد الموضوعى لجميع الأعمال الشخصية منها أو الجماعية ، وبالتالى يظل الصف نظيفاً باستمرار ، وتتعرض الجماعة للإصلاح الدائم ، وتجلب القافلة البركة للمسافرين فيها ، إذ ستكون أخطاؤهم فى حد أدنى مما لو كانوا خارجها ، ولهذا كان حرص الحكماء دوماً على أخوة الطريق التى تنبه على الخير، فهذا عبد الملك بن مروان مع فقهه ، وسعة ملكه يقول : (كل لذات الدنيا قد بلغت ، فلم يبق إلا أخ يسقط عنى مؤونة التحفظ) [١] .

ورويت عنه أيضاً : (وقد قضيت الوطر من كل شىء إلا من محادثة الإخوان فى الليالى الزهر ، على التلال العفر) [٢] .

والحوار ـ فوق أنه مفيد ومثمر للعمل الدعوى ـ فهو مما يحتاجه الداعية ، تماماً كحاجة المسافر لحديث رفيق السفر ، لقطع الملل ، ودفع الضجر ، وتهوين البعد ، لأن الداعية هو الآخر بحاجة إلى من يدفع عنه كلل النفس ، ومتاعب العمل ، ونصب البدن ،

(١) الزهرة لأبي بكر الأصفهاني : ١ / ٤٠ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان : ١ / ٢٦ .

ومن جميل ما قيل قول سليمان بن عبد الملك :

(قد ركبنا الفاره .. ولبسنا اللين ، وأكلنا الطيب حتى أجمناه ، وما أنا اليوم إلى شىء أحوج منى إلى جليس يضع عنى مؤونة التحفظ ، ويحدثنى بما لا يمجه السمع ، ويطرب إليه القلب ..) .

(.. وهذا أيضاً حق وصواب ، لأن النفس تمل ، كما أن البدن يكل ، وكما أن البدن إذا كل طلب الراحة ، كذلك النفس إذا ملت طلبت الروح ، وكما لا بد للبدن أن يستمد ويستفيد بالجمام الذاهب بالحركة الجالبة للنصب والضجر ، وكذلك لا بد للنفس أن تتطلب الروح عند تكاثف الملل الداعى إلى الحرج ..) (١) .

ومن مقتضى الحوار فى الجماعة المؤمنة النقد البناء من أجل معالجة الأخطاء ، ووضع العلاج المناسب لكل خطأ ، ومعرفة العيوب ودراسة أسبابها وعللها ،ثم القضاء على تلك الأسباب والعلل ، فتكون النتيجة المزيد من صفاء الفرد ثم صفاء الجماعة ، ورقيها وسعيها نحو الكمال .

الرد لا يقتضى الخصومة

وقد يفهم بعض الدعاة أن الرد أو النقض مقتضاه الخصومة ،

(١) المرجع السابق : ١ / ٢٧ .

وأن الحوار معبر للخلاف ، وهذا منهج مخالف للفطرة البشرية من جهة ، ومن جهة أخرى لا تقره قواعد الشريعة ، فلا يزال البشر يختلفون لاختلاف الفهوم والعقول ، وتباين المعرفة والتجارب ، وتنوع الأذواق والنظرات ، فكان لا بد من الخلاف ، ولا بد من اتخاذ المواقف من الآخرين فيما يظنه الشخص أمراً غير صائب ، وبالتالى لا بد من النقد أو الملامة ، وكذلك الرد والمناظرة ، وقد أجازت الشريعة ذلك ، بل وندبت إليه لضرورته فى تبيان الحق ، وإيضاح السبيل ، ولكن هذا النقد وذلك الرد يجب أن لا يقود إلى الخصومة ، ولا أن يؤدى إلى الكراهية ، بل الأصل بقاء المودة والألفة ، ما دامت النية لله تعالى ، والمقصد تبيان الحق ، والوصول إلى الخير ، وقد قيل عن صحابة رسول الله ﷺ أنهم :

(كانوا يتناظرون فى المسألة مناظرة مشورة ومناصحة ، وربما اختلف قولهم فى المسألة العلمية والعملية ، مع بقاء الألفة والعصمة ، وأخوة الدين) (١) .

وعلى هذا المنهج سار العلماء والمفتون ، ورد بعضهم على بعض ، ولعل من أجمل الأمثلة فى ذلك مراسلات الإمام الليث بن سعد مع الإمام مالك ، والتى نقتبس قليلاً من بعض رسائل الليث

---

(١) الفتاوي لابن تيمية : ٢٤ / ١٧٣ .

خشية الإطالة ، حيث كتب إليه رداً على كتاب منه .. فقال :

(قد بلغني كتابك تذكر فيه صلاح حالكم الذى يسرني ، فأدام الله ذلك لكم .. وذكرت نظرك في الكتب التى بعثت بها إليك ، وإقامتك بها إليك ، وإقامتك إياها .. وقد أتتنا فجزاك الله عما قدمت خيراً .. وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضوع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً ..) .

ثم ذكر له أجوبة عن بعض المسائل الشرعية ورأيه فيها ، وقبول النصح في بعضها ، ثم ذكر سبب خلافه مع ربيعة ، ومع ابن شهاب الزهرى .. فقال فيهما :

(وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك ، فكنتما من الموافقين ، فيما أنكرت تكرهان منه ما أكرهه ، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حسنة في الإسلام ، ومودة صادقة لإخوانه عامة ، ولنا خاصة .. وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه .. فربما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها

بعضاً ، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك ...) [١] .

كدر الجماعة ... خير

والحوار بين الدعاة مهم ، لأنه تلقيح للأذهان ، وتجديد للآراء ، وفيه تقويم للخطأ ، وإصلاح للزلل ، وتعاون على المعروف ، والعلم النظرى لا يصل إلى مرحلة الكمال ما لم يتزين بالعقل ، فالعلم مضرة على الأحمق ، والعقل لا يأتى إلا بتربية الرجال ، ولقد سئل الشافعى ـ رحمه الله ـ عن العقل هل يولد به المرء ؟! ...

(فقال : لا ، ولكن يلقح من مجالسة الرجال ، ومناظرة الناس) [٢] .

وهذا الخير قد لا يحصل عليه المرء إلا بشىء من نصب المجالسة ، وتعب المدارسة ، وما قد يحصل من آلام الخلطة ، وكوادر الرفقة ، ولكن النفع مع الجماعة ـ كثير رغم الكدر ـ ولقد قيل عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما :

(قضم الملح فى الجماعة ، خير من أكل الفالوذج فى فرقة) [٣] .

---

(١) إعلام الموقعين : ٣ / ١٠٧ ، ١٠٩ .
(٢) حلية الأولياء : ٩ / ١٢١ .
(٣) المرجع السابق : ١٠ / ٣٠٥ .

كما روى عن الإمام على ـ رضى الله عنه ـ قوله : « كدر الجماعة خير من صفاء الفرد » . فالأجر من مخالطة الناس ، ودعوتهم للمعروف مع الصبر على المكابدة والأذى ، أفضل بكثير ، وأكبر أجراً عند الله تعالى من العزلة التى تورث الخطأ ، وتقلل العمل ، وتزين الشهوات ، وبالرغم مما تورثه من صفاء ظاهر ، وبعد عن المشقة ، وتخلص من آفات الخلطة مع الناس ، فهنيئاً لمن كان مخالطاً على سنة المرسلين .





(١٤) وآداب أخرى

لقد سبق الكلام عن جملة من مجموعة آداب يجب أن يتحلي بها الداعية في قطار الدعوة ، مع إخوانه من جهة ، ومع أهل الفضل والخير في مجتمعه من جهة أخري ، وخصوصاً بعد التعرف علي (أشواك الطريق) ، وعلي موازين النظر إلي (أخطاء العلماء) ، حتي تتحقق المنهجية الإسلامية في التعامل ، فتؤدي إلي نظافة الصف المؤمن وتماسكه ، وتقود إلي وحدته وصفاالمدئه ، مما يجعله قادراً علي أداء مهماته ، وتنفيذ أهدافه ، ويجمع كل ذلك حسن الخلق ، ولقد أمرنا رسول الله ﷺ بحسن الخلق ، فإنه كان يقول : « إن خياركم أحسنكم أخلاقاً » .

« قال القرطبي في (المفهم) : الأخلاق : أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره ، وهي محمودة ومذمومة ، فالمحمودة ـ علي الإجمال ـ أن تكون مع غيرك علي نفسك فتنصف منها ، ولا تنتصف لها ، وعلي التفصيل العفو ، الحكم ، والجود ، والصبر ، وتحمل الأذي والرحمة ، والشفقة وقضاء الحوائج ، والتوادد ولين الجانب ، ونحو ذلك ... » [1] .

---

(١) فتح الباري : ١٠ / ٤٥٦ .

وحسن الخلق ـ عند الداعية ـ يسهل عليه الأمور ، ويقرب له القلوب ، ويقل به الأعداء ، ويكثر بالخلق الأصفياء ، وتثمر الكلمة الطيبة ، ويسامح عن الزلل ، فلا بد إذن ـ للداعية ـ من طيب الخلق ، وسهولة العريكة ، ولين الجانب ، وطلاقة الوجه ، وقلة النفرة ، والتبسم دون تكلف ، والمزاح دون تبذل ، والكف والانقباض في مواطنه ، والمشاركة في الألم والحزن ، وغير ذلك دون إفراط وتفريط .

« فإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدود مقدرة ، ومواضع مستحقة ، فإن تجاوز بها الحد صارت ملقاً ، وإن عدل لها عن مواضعها صارت نفاقاً ، والملق ذل والنفاق لؤم ، وليس ممن وسم بهما ود مبرور ، ولا أثر مشكور ..) [١] .

وحسن الخلق بعد تقوي الله تعالي أكثر ما يدخل الناس الجنة ، وقد يبلغ به المسلم درجة الساهر بالليل ، والظامئ بالهواجر .

والبر حسن الخلق

وحسن الخلق معني جامع لكل أنواع البر لما قاله ﷺ « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » [٢] .

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ٤٥٦ .

(٢) رواه مسلم .

فيدخل في حسن الخلق أخذ العفو ، امتثاله لقوله تعالي :

﴿ **خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (١) .

(أي خذ الميسور من أخلاق الناس ، ولا تستقص عليهم ، وقال عبد الله بن الزبير ... أمر النبي ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس ..) (٢) .

ومن حسن الخلق ، أن لا يحقر المرء من المعروف شيئاً ، ولو أن يفرغ من دلوه في دلو أخيه ، ويتبسم في وجهه ، ويحسن الاستماع إليه ، ويبدأه بالسلام ، ويبادر بالسؤال عنه وعن أهله وأولاده ، ويشاركه في الأفراح ، ويحزن لحزنه ، ويأخذ بلين الجانب مع المؤمنين ، ويسهل انقياده في أمور الدنيا ، يحسن الاستماع كما يحسن الكلام ، قليل الفطنة في الشر ، والبحث عنه ، يجيد التغافل عن أخطاء الآخرين ، ولا يتبع الزلات ، ومنه أيضاً أن يسعي المسلم في حاجة أخيه ، وأن يشفع في شفاعة حسنة ، وألا يعين الشيطان عليه ويأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، ويسدي إليه النصح دون شماتة أو تغيير ، ومن حسن الخلق الذي لا غني للداعية عنه الانبساط إلي الناس ، دون إفراط أو تفريط ، فالتجهم والعبوس منهي عنه ، والإفراط يشغل عن ذكر الله تعالي ، ويقود إلي قسوة القلب ،

---

(١) الأعراف : ١٩٩ .

(٢) شرح السنة : ١٣ / ٧٦ .

وسقوط المهابة والوقار ، والاعتدال في الانبساط يقود إلي تطييب نفس المتحدث إليه ، ومؤانسته ، وإزالة الوحشة عنه ، فيسهل الإنصات للمتحدث ، وينشرح الصدر إليه ، وتبلغ الكلمة مقصودها ، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : « خالط الناس ، ودينك لا تكلمنه » ، وعنه بلفظ « خالقوا الناس ، وزايلوهم في الأعمال » .

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ مثله ، وقال : « وانظروا ألا تكلموا دينكم » (١) .

والمعروف من البر

وأول سجايا الخلق التعامل بالمعروف في ركب الدعاة ، والمعروف مع الصلة هما ركنا البر الذي يوصل إلي القلوب ألطافاً ، ويقوي الأخوة محبة وانعطافاً ، وبه أمر الله تعالي وقرنه بالتقوي ، ﴿ **وتعاونوا علي البر والتقوي** ﴾ .

والمعروف نوعان ، قولي وعملي ، أما ما كان بالقول فهو طيب الكلام ، وحسن البشر ، والتودد دون مداهنة ، والمداراة دون ملق ، ورقة طبع دون نفاق ، وحزم وجد دون غلظة ، فيها يقرب الناس ببشر وتقريب ، وتدفع الصنيعة بأيسر مؤونة ، وتكتسب الأخوة

---

(١) النصوص من فتح الباري : ١٠ / ٥٢٦ .

بالبذل اليسير ، مع التخفيف عن النفس ، والتقليل من الكدر ، أما الجانب العملي ، فهو بذل الجهد ، والمساعدة بالنفس ، والمعونة في النوائب ، والسعي في الحاجات ، والإيثار في الأوقات ، وليس لهذه الأعمال حد ، وليس فيها إسراف ، فالأجر يزداد بها ، والثواب لا ينقص بتجاوزها ، « فينبغي لمن يقدر علي ابتداء المعروف أن يجعله ، حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم إمكانه ، ولا يهمله ثقة بقدرته عليه ، فكم واثق بقدرة فاتت ، فأعقبت ندماً ، ومعول علي مكنة زالت ، فأورثت خجلاً .. ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفظ من عواقب مكره ، لكانت مغانمه مذخورة ، ومغارمه مجبورة ... » (١) .

ولا بد من مسارعة كل داعية إلي المعروف لأخيه ، دون انتظاره من غيره ، ولا يكمل المعروف لا بالإسراع به ، وستره عن إذاعة يستطيل لها ، وإخفائه عن إشاعة يستدل لها ، وكذلك تصغيره حتي ولو كان كبيراً ، وتقليله ولو كان كثيراً ، من دونما امتنان به أو إدلال ، وإيذاء للغير أو إذلال ، وأن لا يحتقر من المعروف قليلاً ، إذا كان الكثير .

« ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيئاً ، وإن كان قليلاً

---

(١) أدب الدنيا والدين : ٢٠٢ .

نزراً ، إذا كان الكثير معوزاً وكنت عنه عاجزاً ، فإن من حقر يسيره فمنع منه ، أعجزه كثيره فامتنع عنه ، وفعل قليل الخير ، أفضل من تركه » (١) .

ومن المعروف ، رد المعروف ، وإسلاف الشكر ، وتعجيل الحق وعدم ستر الإنعام ، وإجحاد النعمة أو جحد الصنيعة ، وقبح الرد .. وبهذه الأخلاق والآداب ، تسود الألفة ، وتدوم الأخوة ، وفوق ذلك كله حصول المقصود بطلب الأجر ، لقوله ﷺ « كل معروف صدقة » (٢) .

من أسباب التغير

وقد يتغير حسن الخلق لأسباب عارضة ، منها يعذر الداعية فيه ، ومنها ما لا يعذر به ، فلا بد من التذكير بالخلق الحسن ، والوعظ الدائم بالنهي عن الخلق السيئ ، وفي الوقت نفسه لا بد للدعاة ـ في ركب الدعوة ـ من النظر إلي المربين وأهل الفضل عند التغير إلي هذه العوامل ، والإعذار في بعضها ، والنصح عند غيرها .

فمما يعذر فيه المرء ـ إذا ما تغير بعض خلقه ـ زيادة الهموم التي تذهب اللب ، أو تشغل القلب ، وليس كل النفوس تقدر علي

---

(١) المرجع السابق : ٢٠٤ .   (٢) متفق عليه ، فتح الباري : ١٠ / ٤٤٧ .

الاحتمال ، ولا كل القلوب تقوي علي الصبر ، ومنها علو السن ، وحدوث الهرم ، إذ به تعجز النفس عن الاحتمال ، وتضيق عن الشقاق ، ومنها الأمراض التي تخرج المرء عن الاعتدال ، ولا يقدر معها علي الاحتمال ، وإن كان بعض أقوياء النفوس ، وأصحاب الهمم لا تؤثر فيهم هذه الظروف ، ولا تغير من أخلاقهم هذه العوامل .

أما ما لا يعذر المرء به ، ويقتضي النصيحة ، ومما يربأ الداعية أن تؤثر عليه وأن يبقي علي سجاياه من الخلق الطيب ، حدوث نعمة عليه من ولاية دينية أو دنيوية ، أو التغيير إلي الغني بعد الفقر ، فإن ذلك مما تتغير أخلاق اللئيم به بطراً ، وتسوء به صفاته أشراً ، وكذلك قد تتغير أخلاق البعض عند ذهاب النعمة كعزل عن ولاية دينية أو دنيوية ، أو تحول من الغني إلي الفقر ، فتضيق صدورهم لشدة الأسف ، أو لقلة الصبر ، تأسفاً علي فوات الاستدامة ، أو أنفة من ذل الاستكانة .

والداعية المؤمن يتقلب بين خوف الله ورجائه ، وينبغي له التقلب بين الشكر ، والصبر ، فلا يتحسر علي ما فات ، ولا يفرح بما هو آت ، بل يصبر علي الأول ، ويشكر علي الثاني ، وفي الوقت نفسه يحسن إن أحسن الآخرون ، ويتجنب الإساءة عندما يسيء الآخرون

وإذا كان هذا هو الخلق العام ، فتطبيقه علي الأفاضل والأماثل من المربين وأهل الخير أولي .

الستر واجب

لقد سبقت الإشارة إلي كبار المراتب من العلماء والأمراء بالمعروف ، أن لا يستثنوا من واجب أداء النصيحة لهم ، دون خوف أو تملق ، إضافة إلي واجب الستر علي زلاتهم وهفواتهم ، كما أن قواعد حسن الخلق ، والمروءة تقتضي ذلك ، وعلي الداعية المنصف الالتزام بذلك ، وفي الوقت ذاته عليهم هم الستر علي أنفسهم فيما إذا كان اجتهادهم غريباً ، ولا يقر به جمهور الناس أو فيه خفاء لا تدركه إلا عقول الخواص ، وعلي العالم أو القائد أن يكتم ما كان أمره غريباً ، وأن يغلق باب الفتنة علي نفسه ، ويسد أبواب القالة عليه ، أو أن يوضح سبب تصرفه ، أو جواز قوله بما يدفع عنه الفتنة ، أو يجلب لنفسه الغيبة ، وفي اتباع هذه القاعدة جلب لمصالح عدة ودفع لمفاسد ظاهرة ، ينبغي للقائد أو غيره أن يأخذ بها

قال النووي :

(اعلم أنه يستحب للعالم والقاضي والمفتي ، والشيخ المربي وغيرهم ممن يقتدي به ، ويؤخذ عنه : أن يتجنب الأفعال والأقوال والتصرفات التي ظاهرها خلاف الصواب وإن كان محقاً فيها ، لأنه

إذا فعل ذلك ترتب عليه مفاسد من جملتها : توهم كثير ممن يعلم ذلك عنه أن هذا جائز علي ظاهره بكل حال ، وأن يبقي ذلك شرعاً وأمراً معمولاً به أبداً ، ومنها : وقوع الناس فيه بالتنقص ، واعتقادهم نقصه ، وإطلاق ألسنتهم بذلك ، ومنها : أن الناس يسيئون الظن به فينفرون عنه ، وينفرون غيرهم عن أخذ العلم عنه ، وتسقط رواياته وشهادته ، ويبطل العمل بفتواه ، ويذهب ركون النفس إلي ما يقوله من العلوم ، وهذه مفاسد ظاهرة ، فينبغي له اجتناب أفرادها ، فكيف بمجموعها ؟ فإن أظهره أو ظهر ورأي المصلحة في إظهاره ليعلم جوازه وحكم الشرع فيه ، فينبغي أن يقول : هذا الذي فعلته ليس بحرام ، أو إنما فعلته لتعلموا أنه ليس بحرام إذا كان علي هذا الوجه فعلته ، وهو كذا وكذا ، ودليله كذا وكذا ...) (1) .

وفي مقالة النووي هذه من الخير الكثير الذي يجب أن يعض عليه بالنواجذ ، والله المعين .

المفضول فاضلاً

والقول بستر النفس وستر الآخرين ، عندما يكون الخطأ أو الزلل يقيناً ، ولكن في بعض الأحيان ، ينظر الغير إلي الدعاة أو إلي

---

(1) الأذكار للنووي : ٢٧٦ .

أهل الفضل بشكل سلبي ، ويكون الاعتراض بسبب بعض أقوالهم أو أفعالهم الصحيحة ، ولكنها مفضولة أو مرجوحة ، مع وجود الراجح والأفضل ، وفي الوقت نفسه يجهلون اجتهاد صاحب الأمر في المسألة ، فمن المعلوم من قواعد الشريعة أيضاً (أن المفضول قد يصير فاضلاً لمصلحة راجحة ، وإذا كان المحرم كأكل الميتة قد يصير واجباً للمصلحة ودفع الضرر فلأن يصير المفضول فاضلاً لمصلحة راجحة أولي ..) (١) .

(فالعمل الواحد يكون فعله مستحباً تارة ، باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية ، والمسلم قد يترك المستحب إذا كان فعله فساداً راجحاً علي مصلحته .. وكذلك لو فعل الأفضل لأجل بيان السنّة وتعليمها لمن لم يعلمها كان حسناً ..) (٢) .

ولهذا استحب الإمام أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو الأفضل عنده ، ويفعل المفضول تأليفاً لقلوب المأمومين ، كأن يوصل الوتر مثلاً وعنده الفصل أولي ، أو يجهر بالبسملة وعنده السر أفضل ، وهكذا يكون الواجب بأن يعطي الإمام ومثله العالم والقائد كل ذي حق حقه ، ويوسع ما وسعه الله ورسوله ، ويؤلف ما ألف

---

(١) الفتاوي : ٢٢ / ٣٤٥ .

(٢) المرجع السابق : ٢٤ / ١٩٥ .

الله بينه ورسوله ، ولذلك وجب علي الأتباع أيضاً عدم المسارعة بالإنكار لخفاء اجتهاد القائد عليهم من جهة ، كما أن عليهم الرضا بالمرجوح ، والقناعة بالمفضول من جهة أخري بناء علي هذا الأصل في تأليف القلوب ، والتوسعة علي الناس ، أو قد يكون لاجتهاد القائد مصلحة راجحة .

حدود الاعتراض

ومع تبيان واجب أداء النصيحة حيناً ، والسكوت حيناً آخر لغياب معرفة حجة الاجتهاد المرجوح ، فهنالك ـ أيضاً ـ حق الاعتراض ، وفق حدود معينة ، فمن أخطاء الصوفية اعتبارهم الاعتراض علي الكبراء زلة لا تقال ، بل زعم القشيري أن التوبة من المعترض لا تقبل ، لأن الاعتراض قاض بامتناع الفائدة مبعد بين الشيخ والمريد ، وهذا فاسد يأباه الإسلام ، وما سار عليه السلف ، ومما يؤسف له أن الشاطبي استند علي مقالتهم بالاحتجاج علي عدم الاعتراض علي الأكابر ، والحجة بحد ذاتها تحتاج إلي الدليل ، كما أنه احتج ـ رحمه الله ـ بما أنكره ﷺ في رد موسي علي الخضر عليهما السلام ، وفي اعتراض الملائكة عليه عز وجل ، وفي اعتراض اليهود علي موسي ـ عليه السلام ـ ، واعتراض بعض الصحابة علي النبي ﷺ وكل هذه الأدلة لا يسلم بها ، ولا يؤخذ بها لأن

الأنبياء مؤيدون بالوحي ، وأني للكبراء والعلماء والقادة ذلك مهما بلغوا من العلم والفضل .

ولكن يمكن أن يقال : إنه لا تصح المبالغة في الاعتراض علي الأكابر دوماً ، ودونما حجة ، والأصل التأني معهم والسؤال عن حجتهم أولاً ، والسكوت عن الاعتراض عن المسائل التي لم تفهم منهم ، وعدم اللجاجة في الاعتراض ، أو الاعتراض بقصد التعنت والإفحام ، أو الاعتراض بجهل وتكذيب روايتهم ، أو التجني عليهم ، وأشباه ذلك .. ولعل هذا هو مقصد الإمام الشاطبي ــ رحمه الله ــ ورغم سلوكه طريقاً بعيداً ، فهو يقول في خاتمة المسألة بما يشهد لصحة الاستنباط ، وليس منع الاعتراض مطلقاً .

الاستفادة من المحاسن

لما كان مقصد كل عمل من المكلف وجه الله تعالي ، فالأفضل في حقه الاستفادة من محاسن كل شخص ، فإن عيوبه عليه ، ومحاسنه لغيره ، والمكلف ــ أياً كان طالباً أو متعلماً أو داعية ــ إذا أراد الإنصاف لنفسه ، فعليه الاستفادة من محاسن غيره ، فالربح له والخسارة علي غيره ، ومن جميل القول ما ذكره ابن القيم ــ رحمه الله ــ واصفاً كتابه للقارئ ... فإما شمس منازلها بسعد الأسعد ، وإما خود تزف إلي ضرير مقعد ، فاختر لنفسك إحدي الخطتين ،

وإنزالهما فيما شئت من المنزلتين ، ولا بد لكل نعمة من حاسد ، ولكل حق من جاحد ، ومعاند ، وهذا وإنما أودع من المعاني والنفائس رهن عن متأمله ، ومطالعه له غنمه ، وعلي مؤلفه غرمه ، وله ثمرته ومنفعته ، ولصاحبه كَله مشقته ، مع تعرضه لطعن الطاعنين ، ولاعتراض المناقشين ، وهذه بضاعته المزجاة وعقله المكدود يعرض علي عقول العالمين ، وإلقائه نفسه وعرضه بين مخالب الحاسدين .. فلك أيها القارئ صفوه ، ولمؤلفه كدره وهو الذي تجشم غراسه وتعبه ، ولك ثمره ..) (١) .

فلينظر إلي قوله : إن للقارئ الصفاء وللمؤلف الكدر ، وعليه عناء التعب والغراس وللقارئ الثمر ، وهكذا يجب أن يكون أمر الاتباع مع أهل الفضل وأصحاب النظر ، ويكون ميزاناً للتعامل بين الدعاة أنفسهم.

وفي السؤال .. آداب

ومن آداب الطريق أيضاً ، آداب الحوار بين الدعاة ، وقد يظن البعض أن الآداب في المعاملة فقط ، أو في الرفق بالأصغر ، لكن أمر الآداب في جميع الأمور ، ومنها ما ينبغي حتي عند السؤال ، فلو رام الداعية أن يسأل غيره في أمور الدنيا والآخرة

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٤٧ .

فعليه بآداب السؤال ..

ومن آداب السؤال التلطف حتي عند السؤال عن الاسم حتي روي عن بعضهم أنه سأل محدثاً (أحب المعرفة ، وأجلك عن المسألة) (١) .

وسؤال الأكابر وأهل الفضل لا بد منه سواء من الأقران أو ممن هم دونهم في الفضل أو السن عن أمر مجهول ، أو رفع أشكال ، أو تذكر ما يخشي عليه من النسيان ، أو شبه ذلك مما هو معتبر شرعاً ، ويكون السؤال بلطف واحترام ، وتواضع وإجلال ، دون إكثار وإملال ، ودون متابعة للسؤال بالأبحاث النظرية ، أو التفريع المذموم عليه ، ويكره السؤال في عشرة مواطن :

السؤال عما لا ينفع في الدين والدنيا .

السؤال بعد ما يبلغ من العلم حاجته .

السؤال من غير احتياج إليه في الوقت .

السؤال عن صعاب المسائل وشرارها .

السؤال عن علل الأحكام التعبدية .

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي : ٢ / ١٢٧ .

السؤال حتي درجة التعمق والتكلف .

السؤال الظاهر في معارضة الكتاب والسنة بالرأي .

السؤال عن المتشابهات .

السؤال عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم .

سؤال التعنت والإقحام وطلب الغلبة في الخصام (١) .

وأدب الاستماع

وهناك آداب الاستماع توخذ من آداب طالب العلم مع المحدث ، وقد جعل الخطيب في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع باباً في منهج طالب الحديث ترجم له بأدب السماع ، ويصلح أن يكون قاعدة أدبية لكل تلميذ مع شيخه ، أو داعية مع مربيه ، ويقاس عليها ما يصلح لجعله من أدب السماع من أهل الفضل ، ويمكن اختصارها والتصرف في عبارتها بما يصلح لهذا المقام :

★ الصمت والإصغاء عند الحديث دون تشاغل عن المحدث .

★ خفض الصوت عند الاستماع إلي الشيخ أو المربي ، وأن لا

---

(١) ملخصة من الموافقات للشاطبي : ٤ / ٣٢١ .

يعلو صوته علي صوته .

★ إذا طلب رفع الصوت فليكن ذلك بتلطف ومودة .

★ عدم التكرار لما فهم .

★ الإقبال بالوجه علي المحدث .

★ أن لا يتكلم في المجلس مع غيره .

وأخيراً ليعلم أن الاستماع والإنصات فن ، كما أن الحديث فن ، والاستنصات جائز أيضاً فقد روي البخاري عن جرير أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع : (استنصت الناس ..) (١) .

(قال ابن بطال : فيه أن الإنصات للعلماء لازم للمتعلمين ، لأن العلماء ورثة الأنبياء . . .) (٢) .

ولقد يشاهد من مظاهر الحياة أن بعض الناس من أثقل القوم رغم ما في لسانهم من رونق القول ، وتزويق اللفظ لعدم إتقانهم فن الاستماع للآخرين ، وكم من شخص يقال عنه : إنه من أحسن الناس حديثاً ، وهو قليل الكلام ، وما ذاك إلا لحسن استماعه للآخرين ، وفتح قلبه لهم ، ومشاركته لمشاعرهم .

---

(١) حديث متفق عليه .   (٢) فتح الباري : ١ / ٢١٧ .

الدين النصيحة

وجماع آداب المعاملة النصح لله ورسوله ، وما يترتب علي ذلك من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وما ينبغي أن يصاحب النصح من أخلاق وآداب ، سواء أكانت النصيحة بين الأقران ، أم بين أصحاب المراتب المختلفة ، ولقد نص الحديث النبوي الصحيح علي أن الدين النصيحة ، فقال ﷺ : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، لله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » (١) .

وما يخص المبحث من هذا الحديث هو معني النصح لأئمة المسلمين ، وهو اقتضاء الواجب نحوهم ، فقال عن معني هذا النصح الإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ :

(فمن نصيحتهم بذل الطاعة لهم في المعروف ، والصلاة خلفهم ، وجهاد الكفار معهم ، وأداء الصدقات إليهم ، وترك الخروج عليهم بالسيف إذا ظهر منهم حيف ، أو سوء سيرة ، وتنبيههم عند الغفلة ، وأن لا يغروا بالثناء عليهم ، وأن يدعي بالصلاح لهم ، وقد يتأول ذلك في الأئمة الذين هم علماء الدين في نصيحتهم قبول ما ردوه إذا انفردوا ، وتقليدهم ومتابعتهم علي ما

---

(١) رواه مسلم .

رووه إذا اجتمعوا ...) [1] .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في معني النصح للأئمة ، ومن في طبقتهم : « إعانتهم علي ما حملوا القيام به ، وتنبيههم عند الغفلة ، وسد خلتهم عند الهفوة ، وجمع الكلمة عليهم ، ورد القلوب النافرة إليهم ، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن ، ومن جملة أئمة المسلمين أئمة الاجتهاد ، وتقع النصيحة لهم ببث علومهم ، ونشر مناقبهم ، وتحسين الظن بهم ..) [2] .

والمقصود بالأئمة كل صاحب ولاية دينية أو علمية ، مما يصح قياس قادة الدعوة عليه ، وأصحاب الفضل فيها ، وأشراف الناس في المجتمع ، وقد أوضح النووي ذلك بقوله :

(... وهذا كله علي أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور الممسلمين من أصحاب الولايات ، وهذا هو المشهور) [3] .

وهذا جماع الأمر ، وإلا ففي كل كلمة تفصيل ، ولكل واجب مقال ، كما أن للنصح ضوابط لا بد من الأخذ بها ، وهي

---

(١) شرح السنة للبغوي : ١٣ / ٩٣ .
(٢) فتح الباري : ١ / ١٣٨ .
(٣) شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٨ .

باختصار شديد :

★ أن يكون النصح علي قدر الطاقة ، بحيث لا يقود إلي مفسدة ، أو يسبب ضرراً للناصح .

★أن لا تكون النصيحة علي وجه التوبيخ أو التعيير ، أو يقصد بها الاستعلاء .

★ أن تكون بالسر ما أمكن ، ويتجنب التشهير ، أو المفاخرة فيما بعد بأداء النصيحة .

★ أن لا يلجأ الناصح إلي التصريح إذا كان التلميح كافياً ، والإشارة قبل العبارة .

★ أن لا يكون في النصح رد لاعتبار شخصي ، أو مظهر من مظاهر الانتقام والمناكفة .

★ أن يتوخي في النصح أجمل العبارات ، وأسهل الألفاظ ، وأحسنها موقعاً .

★ أن لا ينتظر الناصح قبولها ، وإنما عليه أداء الواجب ، دون العتاب علي عدم الأخذ بها .

ولا يعوز الصادق في نصيحته معرفة آداب النصيحة .

وما ينطبق مع أهل الفضل ، ينطبق بين الأقران وكلما ازداد الإخلاص في النصيحة ، كلما ارتفع سمو الدعاة في مراتب الإيمان .



(١٥) والصبر فى الطريق

وبعد جملة الآداب ـ التى مر ذكرها ـ تأتى صفة من أهم صفات الركب السائر إلى الله تعالى ، وهى صفة لازمة مع التواصى بالحق ، ولا بد منها ، كما أنها صفة المؤمنين الذين استثناهم الله تعالى من الخسارة فى سورة العصر ، ألا وهى صفة الصبر ، فالصبر إحدى دعائم الإيمان ، وقد ذكر فى القرآن الكريم فى نحو تسعين موضعاً ، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له ، وهو يعنى : (حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش) [1] .

وللصبر أسماء تتجدد ، والصبر على ضربين :

أحدهما : بدنى كتحمل المشاق بالبدن ، وكتعاطى الأعمال الشاقة فى أعمال دينية أو دنيوية ، والثانى : نفسانى ، كالصبر عن مشتهيات الطبع ، ومقتضيات الهوى .

(وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن سمى عفة ، وإن كان الصبر فى قتال سمى شجاعة ، وإن كان فى كظم غيظ

---

(١) تهذيب المدارج : ٣٥٣ .

سمي حلماً ، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة صدر ، وإن كان في إخفاء أمر سمي كتمان سر ، وإن كان في فضول عيش سمي زهداً ، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة) [١] .

وبهذا يظهر أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر ، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات ، ولهذا قيل : الإيمان نصفان : نصفه شكر ، ونصفه صبر ، فالإنسان يشكر على السراء ويصبر على الضراء ، وكلاهما اسمان من أسمائه الحسنى إذ سَمّى نفسه صبوراً ، وشكوراً .

وإذا اقتصر على ذكر الصبر ، فالمقصود به ما هو على المصيبة ، وهو المقصود ـ هنا ـ في مبحثنا .

خير الصبر

خيره وأفضله **الصبر الجميل** وهو : صبر بلا شكوى ، قال يعقوب عليه السلام : « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله » مع قوله : « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » ، (فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل) [٢] ، وهناك أقوال كثيرة لخير أنواع الصبر ، ولكن تسمية السلف لخيرها منبثق من الآية ، رغم

---

(١) مختصر منهاج القاصدين : ٤ / ٦٦ .　　　(١) الفتاوى : ١ / ٦٦٦ .

اختلافهم فى تبيانه .

(ولكن مهما تنوعت العبارات فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن أظهر معانى الصبر : حبس النفس على المكروه ، وأنه أصعب المنازل على العامة ، وأوحشها فى طريق المحبة) (١) .

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة ، فهى دعوة إلى الله .. فكل ما يلقاه فيها فهو فى سبيل الله .

وقد يأخذ الصبر مظاهر متعددة ، فمن أشكاله :

(١) صبر بالله : وهو الاستعانة به فى التصبر ، فهو المعين على ذلك .

(٢) صبر لله : فهو الباعث على الصبر ، والتقرب إليه به ، لا للرياء وإظهار التصبر للخلق .

(٣) صبر مع الله : وهو دوران العبد مع مراد الله الدينى منه ، وهو صبر الصديقين (الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء) (٢) .

قال ﷺ : « .. ما يكون عندى من خير لا أدخر عنكم ، وأنه من يستعف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه

(١) تهذيب المدارج : ٣٥٦ .   (٢) إحياء علوم الدين : ٤ / ٨٠ .

الله ، ولن تعطوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر » وقال عمر : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » [١] .

والصابرون أقسام :

(١) **أهل التقوى والصبر** ، لأنهم جمعوا بين أفضل العبادات وذلك لأنه (لا بد للإنسان من شيئين : طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور ، فالأول : هو التقوى ، والثاني: هو الصبر) ولذلك كان العلماء يأخذون بهذه الأصول (المسارعة إلى فعل المأمور ، والتقاعد عن فعل المحظور ، والصبر والرضا بالأمر المقدور) [٢] .

(٢) **الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر** ، كالذين يمتثلون لما عليهم من العبادات ، ويتركون المحرمات ، ولكنه إذا ابتلى بمصيبة عظم جزعه ، وظهر هلعه ، بل قد رأينا الكثير من هؤلاء من الدعاة والعباد .

(٣) **قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى** ، (كالفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم كاللصوص ، والقطاع .. وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع الأذى التي

---

(١) البخاري (كتاب الرقائق) : ١١ / ٣٠٣ .   (٢) الفتاوى : ١٠ / ٦٦٨ .

لا يصبر عليها أكثر الناس ..) [١] .

وليس أدل على هذا مما يتحمله أصحاب الباطل ، ورجال الأحزاب ، والطغاة من الحكام من أنواع المشاق دون شكوى أو تبرم

(٤) قسم لا يتقون إذا قدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ، (فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا ، وإن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك ، وحابوك واسترحموك ، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً ، وأقلهم رحمة وإحساناً وعفواً ، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد ...) [٢] .

وهذا التقسيم للناس بالنسبة للصبر ، سلفي المنهج لأنه مأخوذ من مجمل النصوص الشرعية ، والجامعة ـ عند الثناء ـ بين الصبر والتقوى ، ولهذا فقد أخذ به شيخ الإسلام رحمه الله ، وقد اخترناه هنا دون غيره لضرورته للداعية المربي ، وحتى يجد نفسه بين هذه الأقسام ، كما يطبقها على فئات أخرى عند إجراء الجرح والتعديل .

أنواع الصبر

قيل : إن الصبر ينقسم إلى صبر عن المعصية ، وصبر على

(١) الفتاوى : ١ / ٦٧٤ .   (٢) الفتاوي : ١٠ / ٦٧٤ .

الطاعة ، وصبر على المصيبة .

ومن حيث علاقته بالهوى ، فالصبر على نوعين :

(١) الصبر على ما يوافق الهوى :

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : « ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » (١) .

وبهذا يشير الصحابي الجليل إلى ضرورة الصبر على البأساء والضراء ، وقد أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ (٢) .

(إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح ، هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة ، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء ، وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء ، ويربطه بالله في حاليه ، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء ، ولا ينتفخ ويتعالى عندما تعمره النعماء ..) (٣) .

---

(١) مختصر منهاج القاصدين : ٢٧٠ . (٢) هود : ٩ - ١١ .
(٣) الظلال : ٤ / ١٨٦٠ .

(وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور ، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها ، والانهماك فى ملاذها المباحة منها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان) [١] .

(٢) الصبر المخالف للهوى :

ا ـ **الصبر على الطاعات** : ويحتاج المرء فيها الصبر قبل العبادة بتصحيح النية والإخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، وصبر فى نفس العبادة ، بالابتعاد عن الكسل والفتور والصبر على ما بعد العبادة حيث لا يتظاهر فيها ، ولا يسقط فى الرياء ، ويصبر على عدم إفشائها .

ب ـ **الصبر على المعاصى** : وبها تخلص الطاعة ، ويصح الدين ، ويستحق الثواب (وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع ، وشدة الخوف ، فإن من خاف الله عز وجل وصبر على طاعته ، ومن جزع من عقابه ، وقف على أوامره) [٢] .

جـ ـ **ما لا يدخل تحت الاختيار** : كالمصائب فى البدن والأموال ، والصبر على ما يقتضيه ذلك من خسارة وضعف فيهما ، (والصبر على ذلك أعلى المقامات لأن سنده اليقين) [٣] .

---

(١) الإحياء : ٤ / ٦٩ .　　(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي : ٢٧٧ .
(٣) مختصر منهاج القاصدين : ٢٧١ .

والصبر على هذه الأمور (يعقبه الراحة منها ، ويكسبه المثوبة عنها ، فإن صبر طائعاً ، وإلا احتمل همّاً لازماً ، وصبر كارهاً آثما) ، وقال الإمام على رضى الله عنه : « إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور) .

الصبر العام

ومن أنواع الصبر التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها :

الصبر على الماضى : وهو (الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة ، وأعوز نيله من مسرة مأمولة ، فإن الصبر عنها يعقب السلو منها والأسف بعد اليأس خرق) (١) .

وهذا النوع من الصبر يبعد المؤمن عن تذكر الماضى ، وعن الندم ، وإضاعة وقته بالتحرق والأسف ، وعليه باستشراق المستقبل والعمل له ، وكذلك الصبر فيما يخشى حدوثه، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها ، فلا يتعجل هماً ما لم يأت ، فإن أكثر الهموم كاذبة ، وإن الأغلب من الخوف مدفوع .

وهذا يدفع المؤمن لزيادة الهمة ، وعدم وقوعه أسيراً للتشاؤم ،

---

(١) أدب الدنيا والدين : ٢٧٨ .

وأن يضرم فى قلبه بريق الأمل ، وروح التفاؤل ، فهى الدافعة للعمل والبناء ، والاستزادة من الخير .

وصبر التوقع : وهو الصبر (فيما يتوقعه من رغبة يرجوها ، وينتظر من نعمة يأملها فإنه إن أدهشه التوقع لها ، وأذهله التطلع إليها ، انسدت عليه سبل المطالب ، واستفزه تسويف المطامع ، فكان أبعد لرجائه ، وأعظم لبلائه وإذا كان من الرغبة وقوراً ، وعند الطلب صبوراً ، انجلت عنه عماية الدهش ، وانجابت عنه حيرة الوله ، فأبصر رشده ، وعرف قصده) (١) .

وأخيراً الصبر على النوازل وهو: « الصبر على ما نزل من مكروه ، أو حل من أمر مخوف ، فبالصبر فى هذا تنفتح وجوه الآراء ، وتستدفع مكايد الأعداء ، فإن من قل صبره ، عزب رأيه ، واشتد جزعه ، فصار صريع همومه ، وفريسة غمومه ..) وما يدريه أن بعد العسر يسراً ، وأن بعد الكرب فرجاً ، وبعد الهموم سعادة ، وأن الأيام دول ، والأولى به تحمل ما ابتلى به حتى يفرج الله عنه .

صبر الدعاة

إن الداعية ليحتاج إلى صبر أخص من صبر المؤمن الذى لا

---

(١) المرجع السابق : ٢٩٧ .

يدعو لهذا الدين ، ولا يحتمل الصبر على تكاليف هذه الدعوة ، فالداعية ـ فوق ما يحتاجه ـ من أنواع الصبر المذكورة سابقاً باعتباره مؤمناً ، فهو محتاج إلى أنواع أخرى من الصبر ، هى من جنسه ولكنها أعلى مرتبة ، وأكبر مقاماً عند الله تعالى ، ولا يتصف بهذه الأنماط إلا صاحب اليقين ، والمتمسك بالعروة الوثقى .

وصبر الدعاة ـ هو المقصود بالتذكير هنا ـ الالتزام بكل ما ذكر من أنواع الصبر السابقة إضافة إلى أنواع أخص ، فمنها ـ مثلاً :

الصبر على التكاليف الدعوية :

وهو مظهر من مظاهر الصبر على عموم التكاليف ، ولكن للدعوة تكاليفها الإضافية ، والأخذ بأعباء الجهاد ، والسعى فى مصالح الدعوة ، والالتزام بطاعة الأمير ، والتنازل عن الكثير من الأمور الدنيوية ، التقصير فى بعض حقوق الأسرة ، وغير ذلك مما ذكرت بعضه سورة آل عمران ، وفيها الدعوة إلي الاحتمال ، والمجاهدة ودفع الكيد ، وعدم الاستماع إلى دعاة الهزيمة ، واختتمت السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة ، ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ .

والصبر : هو زاد الطريق فى هذه الدعوة ، إنه طريق طويل شاق ، حافل بالعقبات ، والأشواك ، مفروش بالدماء ، والأشلاء ، وبالإيذاء ، والابتلاء .

والصبر على أشياء كثيرة ، الصبر على شهوات النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ، وعجلتها وملالتها من قريب ، والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم ، وانحراف طبائعهم ، وأثرتهم ، وغرورهم والتوائهم ، واستعجالهم للثمار .

والصبر على انتفاخ الباطل ، ووقاحة الطغيان ، وانتفاشة الشر ، وغلبة الشهوة ، وتصعير الغرور ، والصبر على قلة الناصر ، وضعف المعين ، وطول الطريق ، ووساوس الشيطان فى ساعات الكرب والضيق ، والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله ، وما تثيره من انفعالات متنوعة ، من الألم والغيظ ، والحنق والضيق ، وضعف الثقة أحياناً فى الخير ، وقلة الرجاء ، أحياناً فى الفطرة البشرية ، والملل والسأم واليأس أحياناً والقنوط .

الصبر على المحن

ومن الصبر كذلك ، الصبر على الابتلاء والفتن والمحن ، وكذلك الصبر على الرغبة فى هداية الناس ، والأسى على ما هم فيه

من الضلال والشقوة ، وهى سنة الدعوة والدعاة على مدار التاريخ .

(إن موكب الدعوة إلى الله موغل فى القدم ، ضارب فى شعاب الزمن ، ماض فى الطريق اللاحب ، ماض فى الخط الواصب .. مستقيم الخطى ، ثابت الأقدام ، يعترض المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين ، والمتبوعين ، ويصيب الأذى من الدعاة ، وتسيل وتتمزق الأشلاء .. والموكب فى طريقه لا ينحنى ولا ينثنى ولا ينكص ولا يحيد والعقبة هى العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق ، إن نصر الله دائماً فى نهاية الطريق:

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين ﴾ (١) .

(كلمات يقولها الله سبحانه .. كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، والتأسية .. هى ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحاً ، ودورهم محدداً ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله من نهاية الطريق ، إنها تعلمهم أن سنة الله فى الدعوات واحدة ، كما أنها كذلك وحدة واحدة لا تتجزأ .. دعوة تتلقاها الكثرة بالكذيب ، وتتلقى

---

(١) الأنعام : ٣٤ .

أصحابها بالأذى .. وسنة تجرى بالنصر فى النهاية ، ولكنها تجىء فى موعدها ، لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة والأبرياء والطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب .. فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه ، ولا مبدل لكلماته ، سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم ، أم تعلقت بالأمل المرسوم ..) (١) .

والدعاة فى كل زمان ومكان ـ يدركون معنى الصبر على الفتن ، لتذوقهم إياها تجارب ومرارات ، بل هو قبل ذلك طريق الأنبياء والمرسلين ، وكان أشدهم صبراً المصطفى ﷺ ـ فلقد أوذى بعظيم الأذى من القول والفعل ، وصبر واحتمل فى الله كل ذلك ، « .. وكانت تلك المحن والابتلاءات عين كرامته ، وهى ما زاده الله بها شرفاً وفضلاً ، وساقه بها إلى أعلى المقامات ، وهذا حال ورثته من بعده ، الأمثل فالأمثل ، كل له نصيب من المحنة ، يسوقه الله بها إلى كماله ، بحسب متابعته له .. » (٢) .

إن مشقة الدعوة الحقيقية هى مشقة الصبر لحكم الله ، حتى يأتى وعده فى الموعد الذى يريده بحكمته ، وفى الطريق مشقات كثيرة ، مشقات التكذيب والتعذيب ، ومشقات الالتواء والعناد ، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه ، ومشقات افتتان الناس بالباطل

---

(١) الظلال : ٢ / ١٠٧٨ .
(٢) مفتاح دار السعادة : ١٤٩ .

المزهو فيما تراه العيون ، ثم مشقات إمساك الناس على هذا كله .. كل ذلك تصبر عليه نفس الداعية راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق ، ولا ترتاب ولا تتردد فى قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق .. وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق .

وهناك أنواع من الصبر تحتاج إلى جهد مضاعف عندما يواجه الدعاة نفوساً طال عليها الأمد ، واستمرأت حياة الذل تحت قهر الطاغوت ، ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك ، يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات ، وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات ، ويجب أن يصبر على الانتكاس الذى يفاجئه فى هذه النفوس بعد كل مرحلة ، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة .

وفوق ذلك كله ، على الداعية أن يصبر على الصبر الطويل ، ولا يتعجل انقضاء الفتن ، أو زوال المحن ، فإنها مرهونة بقضاء من أوجدها (وليس فى الوجود شىء أصعب من الصبر .. وخصوصاً إذا امتد الزمان ، أو وقع اليأس فى الفرج ، وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها) [1] ، وما هذا الزاد إلا بالتوكل على الله ، وما تباينت منازل أصحاب الهمم ، إلا بتباينهم بطول الصبر حتى نهاية

---

(١) صيد الخاطر : ١٤٩ .

البلاء ، وانقضاء أوانه .

الصبر على الأقران

إن للداعية صبراً آخر يحتاجه فى مسيرة الدعوة ، وهو الصبر على ما يظهر من إخوانه من جفوة ، أو انقطاع ود ، فهم بشر جميعاً ، والبشر لا يصفو من المعايب .

(ولست بمستبق أخاً لا تلمه

على شعث أى الرجال المهذب) [١] .

ويقول الفضيل بن عياض : « من طلب أخاً بلا عيب ، صار بلا أخ » [٢] .

إذ لا ينبغى أن يزهد الداعية فى أخيه لخلق أو خلقين ينكرهما فيه إذا رضى سائر أخلاقه لأن اليسير مغفور ، والكمال مستحيل .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وقال أبو الدرداء رحمه الله : معاتبة الأخ خير لك من فقده .

وقال بعض الحكماء : طلب الإنصاف من قلة الإنصاف .

---

(١) النابغة الذبياني .　　(٢) طبقات الصوفية للسلمي .

وقال غيره : لا يزهدنك فى رجل حمدت سيرته ، وارتضيت وتيرته ، وعرفت فضله ، وبطنت عقله ، عيب خفى ، تحيط به كثرة فضائله ، أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله ..) (١) .

وفى ذلك يحدد الرسول ﷺ المنهج العام للدعاة وأنهم أفضل من غيرهم بسبب ما يلاقونه من متاعب الخلطة فيقول : « المسلم الذى يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » أحمد والترمذى ، والبخارى فى الأدب المفرد .

ولهذا قال الجنيد رحمه الله : « مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة » (٢) .

وقال الإمام البغوى : « الاقتصار عن المظالم جائز . ولكن الصبر أجمل » (٣) .

وقبل ذلك كله ، حدد الله عز وجل هذا النوع من الصبر مع الدعاة ، وأوضح أن هذا الصبر يجب أن يقود إلى عدم تحويل الاهتمام عن الدعاة حتى طرفة عين فقال : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك**

---

(١) أدب الدنيا والدين : ١٧٤.
(٢) فتح الباري : ١١ / ٣٣١ .
(٣) شرح السنة : ١٣ / ١٦٤ .

عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ...﴾ (١) .

أى يا أيها الداعية : اصبر نفسك معك هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلمهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات ... والذى يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

وأخيراً .. الصبر دواء

واعلم أخى الداعية ، سواء أكنت قائداً أم مربياً أم جندياً أن مجمل الدواء على أنواع الصبر، وما يستعان به عليه ، لا يكون إلا بمعجون العلم والعمل ، ويكون بتقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الشهوة ، بتضعيف بواعثها وقطع أسبابها ، وتسلية النفس بالمباح من جنسها .

(أما تقوية باعث الدين فإنها تكون بطريقتن : أحدهما إطماعه فى فوائد المجاهدة ، وثمرتها فى الدين والدنيا ..

والثانى : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجياً .. حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيستجرئ عليها ، وتقوى همته فى مصارعتها ..) (٢) .

---

(١) الكهف : ٢٨ . (٢) إحياء علوم الدين : ٤ / ٧٦ .

وتفصيل ذلك منبث في كتب الرقائق ، ومنتشر في صحف المواعظ ، فاحرص على القراءة لاحتياجك إلى الإعانة ، وحسبنا هنا أن نلتمس لك بعض طرق التسهيل للمصائب ، والتخفيف للشدائد ، على أن تقارن من قلبك حزماً ، وتصادف من نفسك عزماً .

(فمنها : استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء ، وتقضي المسار ، وأن لها آجالاً منصرمة ، ومدداً منقضية ، إذ ليس للدنيا حال تدوم ، ولا لمخلوق فيها بقاء .

(ومنها : أن يتصور انجلاء الشدائد ، وانكشاف الهموم ، وأنها تتقدر بأوقات لا تنصرم قبلها ، ولا تستديم بعدها ، فلا تقصر بجزع ، ولا تطول بصبر ، وإن كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر ، ويأخذ منها بنصيب ، حتى تنجلي وهو عنها غافل .

ومنها : أن يتأسى بذوي الغِيَر ، ويتسلى بأولي العبر ، ويعلم أنها الأكثر عدداً ، والأسرع مدداً ، فيستجد من سلوة الأسى وحسن العزا ، ما يخفف شجوه ، ويقل هلعه .

ومنها : أن يعلم أن النعم زائرة ، وأنها لا محالة زائلة ، وأن السرور بها إذا ـ أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت ـ وأنها لا تفرح بإقباله فرحاً حتى تعقب بفراقها ترحاً ، فعلى قدر السرور

يكون الحزن .

ومنها : أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره ، وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره ، إذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب وتصل صاحباً بفراق صاحب ، فتكون سروراً لمن وصلته ، وحزناً لمن فارقته .

ومنها :أن يعلم أن طوارق الإنسان من دلائل فضله ، ومحنه من شواهد نبله ، وذلك لإحدى علتين : إما أن الكمال معوز ، والنقص لازم ، فإذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه .. وإما لأن ذا الفضل محسود ، وبالأذى مقصود ، فلا يسلم فى بره من معاد ، واشتطاط مناوئ .. وقلما تكون محنة فاضل إلا من جهة ناقص ، وبلوى عالم من جهة جاهل .

ومنها : ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ، ويستفيد من الحنكة ببلاء دهره ، فيصلب عوده ، ويستقيم عموده ، ويكمل بأدنى شدته ورخائه ، ويتعظ بحالة عفوة وبلائه .

ومنا : أن يختبر أمور زمانه ، ويتنبه على صلاح شأنه ، فلا يغتر برخاء ، ولا يطمع فى استواء ، ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة ، أو تخلو من تقلب واستحالة ، فإن من عرف الدنيا ، وخبر أحوالها ،

هان عليه بؤسها ونعيمها) [١] .

ومنها ـ فوق ذلك كله ـ (رجاء العوض فى الدنيا ، و.. تلمح الأجر فى الآخرة .. إلى غير ذلك من الأشياء التى يقدحها العقل والفكر ، فليس فى طريق الصبر نفقة سواها ، فينبغى للصابر أن يشغل نفسه ، ويقطع بها ساعات ابتلائه ، وقد أصبح المنزل) [٢] .

وأخيراً إذا بلغت جميع منازل الصبر ، وصلت للتقوى ، وهنا عليك بالصبر ، وعندئذ نقول : « بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى ، لا تبع عزها بذل المعاصى ، وصابر عطش الهوى فى هجير المشتهى ، وإن أَمَضّ وأرْمَض ، فإذا بلغت النهاية من الصبر فاحتكم وقل : فهو مقام من لو أقسم على الله لأبره) [٣] .

واعلم أن الله يختبر عبيده بالصبر حتى تظهر جواهرهم ، كما حصل للأنبياء (وهذا نوح عليه السلام يضرب حتى يغشى عليه ، ثم بعد قليل ينجو فى السفينة ويهلك أعداؤه ، وهذا الخليل يلقى فى النار ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة ، وهذا الذبيح يضجع مستسلماً ثم يسلم ويبقى المدح ، وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بالفراق ثم يعود بالوصول ، وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعى ثم يرقى إلى التكليم ..) [٤] .

---

(١) أدب الدنيا والدين : ٢٨١ .

(٢) صيد الخاطر : ١٥٠ .

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي : ١٣٦ .

(٤) المرجع السابق : ١٦٣ .

(١٦) من حق الطريق (١)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ما انفك قطار الدعوة ـ بفضل الله وحده ـ يسير فى طريقه المستقيم ، ودربه المرسوم ، رغم الأشواك والعوائق ، ورغم الفتن والعلائق ، ولا يزال الدعاة فيه مصممين على قطع المسار دون تردد وارتياب ، وعلى هدى من ربهم وضياء . ومن الهدى معرفة حق الطريق الوارد فى الحديث الشريف : (إن النبى ﷺ قال : « إياكم والجلوس فى الطرقات » . فقالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد ، نتحدث فيها ، فقال « فإذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه » ، قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ . قال : « غض البصر وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ») (١) .

فبين الحديث أن من حق الطريق ـ على وجه الحقيقة ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو من جملة حقوق أخرى لا بد من الالتزام بها عند الجلوس فيه ، ولهذا قيل : (فيجب على المسلم الأمر والنهى عن ذلك ، فإن ترك ذلك فقد تعرض للمعصية .. ولكل من

---

(١) حديث متفق عليه .

الآداب المذكورة شواهد في أحاديث أخرى .. وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففيهما أحاديث كثيرة ..) [1] .

وطريق القطار – في سفر المجاز – أو رحلة الدعاة في القافلة ، لا بد للدعاة فيها من إعطاء الطريق حقه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهو سياج الدين ، وبه تحفظ الشريعة ، وعليه مدار الكثير من الثواب ، بل إنه من أهم مميزات هذه الأمة ، ومقومات وجودها . وانعدام الأمر بالخير والنهي عن الشر ، يقود إلى البلاء والفتن ، حتى يدعو خيار الأمة فلا يستجاب لهم ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمتنع الشر من الاسترسال ، وترتفع رايات السنة وتموت شعائر البدعة .

(وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفَشَت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ..) [2] .

الأمر والنهي ... دعوة

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبات على كل مسلم ،

---

(١) فتح الباري : ١١ / ١٢ .

(٢) الإحياء : ٢ / ٣٠٦ .

وقدر استطاعته ، فيكون أحياناً كبقية الفروض على البعض الذين يقدرون على ما لا يقدر غيرهم على أدائه ، ويكون أحياناً فرض كفاية ، كما أن الأمر والنهى من مظاهر الدعوة إلى الله ، بل الدعوة ذاتها هى إما أمر بالمعروف أو نهى عن منكر ، والاستدلال لوجوب أحدهما ينطبق على الآخر ، سواء أكان وجوباً على الأعيان أم على الكفاية .

(وقد تبين أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ، أو نهى عن المنكر ، فإن الداعى طالب مستدع مقتض لما دعى إليه ، وذلك هو الأمر به ، إذ الأمر هو طلب الفعل بالمأمور به ، واستدعاء له ، ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله ، فهو أمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر) (١) .

ولا مبرر لكثرة الخلاف حول حكم الأمر والنهى ، أهو على الوجوب العينى أو الكفائى ، وهل تقوم به جماعة أو يقوم به فرد ، وهل هو واجب على العلماء أو الحكام دون غيرهم ، فإن تحقيق محل الخلاف يقود إلى نتيجة واحدة تجمع بين كل النصوص ، وتدرأ التعارض بين كل الآراء ، وهو أن كل مسلم مكلف، مهما كان مركزه حاكماً أو محكوماً ، عالماً أو متعلماً ، بل كل جماعة

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ١٥ / ١٦٦ .

مسلمة ، مهما كان وضعها متمكنة أو غير متمكنة ، أن يقوم كل فرد منها بأداء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قدر استطاعته وإمكانه ، وفي المجال الذى يمكن أن يؤديه فيه ، ابتداء من أداء ذلك في مجال الأسرة ، وعلى الزوجة والأولاد ، وانتهاء بالمجتمعات والشعوب ، حتى يدخل المسلم في عداد المؤمنين الذين من صفاتهم : ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر** .. ﴾ (١) .

خيرية هذه الأمة

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو الدعوة ـ على وجه الإجمال ـ من خيرية هذه الأمة ، ولذلك جعلها الله تعالى من صفاتها :

﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله** .. ﴾ (٢) .

وقد تميزت أمة الإسلام بذلك مما لم تسبقهم أمة أخرى إليه ، بل كانت أمم الأديان السابقة تجاهد لدفع عدو عنها ، أو لمقاتلة ظالم فحسب ، وبهذا الأمر ستسد أمة الإسلام الأفق يوم القيامة بكثرتها ، بينما يأتى النبى ومعه الرجل ، ويأتى النبى ومعه الرجلان ، وبه ـ

(١) التوبة : ١١٢ . (٢) آل عمران : ١١٠ .

كـذلك ـ صـار إجمـاع هـذه الأمـة حـجة ، لأنهـا لا تجتـمع على ضلالة ، وبه أيضاً صارت منزلة الأنبياء والمرسلين أفضل منازل الخلق لتبليغـهـم الرسـالة عن ربـهم ، وصـاروا من أفـضل الخلق ، وأزكى العالمين نفوساً ، وأكملهم علوماً . ومن هذا يتبـين أهمية هذا الركن من الدين ، ويظهر فضل الدعاة إلى الله عز وجل ، بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أمام بقية الخلـق ، وكيف يصيرون به خلفاء النبوة ونواب الرسل ، لأن مراتب الدعاة إلى الله بعد مراتب الأنبياء .

(فإنهم يخلفونهم على منهاجهم ، وطريقـتهم ، من نصيحتهم للأمة ، وإرشـادهم الضال ، وتعليـمهم الجاهل ، ونصـرهم المظلوم . وأخـذهم على يد الظالم ، وأمرهم بالمعـروف وفعله ، ونـهيـهم عن المنكر وتركه ، والدعـوة إلى الله بالحكمة للمستجيـبين ، والموعظة الحسنة للمـعرضين الغـافلين ، والجدال بالتى هى أحسـن للمـعاندين المعارضـين ، فهذه حال أتباع المرسلين ، وورثة النبيين ..) [١] .

ولقد جـعل الله تعالـى صفة الرسـول الكريم ﷺ المميـزة هى الأمر والنهى ، فـقال تعالى : ﴿ **الذين يتـبعون الرسـول النبى الأمى الذى يجدونـه مكتوباً عندهم فى التـوراة والإنجيل يأمرهـم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾ [٢] .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٥٧ .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

تعاريف

إن رسالة الله تعالى للخلق متكاملة للخلق ، وهى إما إخبار وإما إنشاء ، فالإخبار يتضمن التوحيد بكل فروعه من ذكر الأسماء والصفات ، ويتضمن القصص والأمثال ، وما قد يندرج فيه من الوعد والوعيد ، أما الإنشاء فيتضمن الأمر والنهى أو الإباحة ، وبالتالى فيكون الأمر والنهى من أصل الدين الذى أمرنا به ، وبه تكمل الرسالة ، فيكون المعروف كل ما أمر الله به فى كتابه ، أو أمر به نبيه ﷺ ويكون المنكر كل ما نهى عنه الله عز وجل ورسوله ، وحينئذ يندرج فى المعروف إحلال كل طيب ، ويندرج فى المنكر كل خبيث ، ولقد قال تعالى فى وصف نبيه ﷺ : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ (١) .

كما يندرج فى المعروف ، كل خلق طيب كالصدق والرجاء ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، والتعاون على الخير ، والاجتماع على أداء الطاعة ، وحتى الجهاد فى سبيل الله بكافة الوسائل ، ويندرج فى المنكر كل خلق ردىء ، وصفة ذميمة ، وما حرمه الله من الإساءة للناس ، أو أكل الأموال بالباطل ، وقطيعة الرحم ، وعقوق

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .

الوالدين ، غير ذلك .

أما الدعوة إلى الله تعالى فهى أشمل لأنها تتضمن الدعوة إلى التصديق بالأخبار ، وكل ما جاءت به الرسل ، إضافة إلى الطاعة فيما أمر الله به ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، ويكون كل من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جزءاً من الدعوة .

فالدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به ، والنهى عن كل ما نهي الله عنه ، وهذا هو الأمر بكل معروف ، والنهى عن كل منكر ، والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة ، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه ، أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر ....) [1] .

فردية وجماعية

إن كل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب ، باطناً كان أم ظاهراً ، فمن الدعوة إلى الله الأمر به ، وكل ما أبغضه الله ورسوله من أمور باطنية أو ظاهرية فمن الدعوة النهى عنه ، لهذا كانت الدعوة واجباً تلزم المستطيع إياها .

(لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ،

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ١٥ / ١٦١ .

ويترك ما أبغضه الله ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة .. إذا تبين ذلك ، فالدعوة إلى الله واجبة على كل من اتبعه ﷺ وهم أمته يدعون إلى الله ، كما دعا إلى الله ...) (١)

وبالتالى ، فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقوم به الأمة بعد الرسل الذين بلغوا الرسالة ، ويكون تبليغ الدعوة إما واجباً فردياً ، أو واجباً جماعياً ، أى أن منها ما يكون على عين المسلم ، ومنها ما يكون على الكفاية ، أى إذا قام به شخص سقط عن الباقين ، ومبنى الأمر على الاستطاعة ، فما كان باستطاعة المسلم القادر عليه من أمر ونهى صار لزاماً عليه الأمر به ، أو النهى عنه ، وما كان لا يتم إلا بجماعة صار واجباً على أفراد الأمة ، أو مجموعة منها القيام به حتى يؤدى جماعة ، فلا يصح القول بأن الدعوة إلى الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر واجب فردى على الإطلاق ، كما لا يصح إطلاق القول بأنه على الأمة فى جميع الأحوال ،أو أنه من اختصاص الحاكم أو المسؤول ، إذ إنه :

(كل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره سقط عنه ، وما عجز عنه لم يطالب به ، وأما ما لم يقم به غيره ، وهو قادر عليه ، فعليه أن

---

(١) المرجع السابق : ١٥ / ١٦٥ .

يقوم به ، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا ، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة ، وبحسب غيره أخرى ، وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ، لكنها فرض على الكفاية ، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ...) (١) .

ومن نتائج ذلك أن كل مسلم مكلف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما استطاع عليه ، ويترك ما هو خارج عن استطاعته ، وعلى المسلم ـ فى الوقت نفسه ـ التعاون مع أى مجموعة مسلمة ، أو جماعة مؤمنة للقيام بأى معروف ، والنهى عن أى منكر ، وهذه القاعدة تنطبق على الأمر بأسهل الأشياء ، كما تنطبق على القيام بالجهاد فى سبيل الله ، وإقامة شرع الله تعالى فى الأرض ، أى أن هنالك أنواعاً من الأمر ، وأنواعاً من النهى لا يمكن أن تقام إلا بواسطة سلطة تملك الأمر والنهى ، كالعمل لإعلاء كلمة الله أو القتال فى سبيله أو تحكيم شرعه فى المجالات الأوسع ، وعندئذ (فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، لا بد من سلطة فى الأرض تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، والذى يقرر أنه لا بد من سلطة هو

---

(١) المرجع السابق : ١٥ / ١٦٦ .

مدلول النص القرآني ذاته ، فهناك « دعوة » إلى الخير ، ولكن هناك « أمر » بالمعروف ، وهناك « نهى » عن المنكر . وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذى سلطان ، فإن « الأمر والنهى » لا يقوم بهما إلا ذو سلطان .. هذا هو تصور الإسلام للمسألة .. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى .. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير ، والنهى عن الشر ..) (١) .

مراتب المعروف ، ومراتب المنكر

وليعلم الداعية الذى يريد القيام بواجب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، أن يدرك أن كلاً منهما مراتب ، وليسا على درجة واحدة ، والأجر على قدر النية أو المشقة ، وقد يمكن له القيام بالجميع ، ولكن قدرة الإنسان ، وطبيعة التكليف ، وما يرتبط به الإنسان من أمور عبادية ، أو مشاغل معاشية ، وكذلك طبيعة الناس ، وظروف الحياة تؤدى كلها إلى ازدحام المعروفات ، أو تجمع المنكرات ، مما يقود بالضرورة إلى معرفة مراتبها ، حتى يقدم أعرف المعروفين ، أو ينكر أنكر المنكرين ، ويقدم الأمر بالواجب قبل الأمر بالمستحب ، وينهى عن الحرام قبل نهيه عن المكروه ، وما كانت نتائجه جماعية فالأمر به أو النهي عنه أفضل مما كانت آثاره فردية ،

---

(١) في ظلال القرآن : ١ / ٤٤٤ .

وهكذا رغم أن الأمر بالمعروف يؤدى مطلقاً كما يؤدى النهى عن المنكر من جهة النوع مطلقاً .

(وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً ، وينهى عن المنكر مطلقاً ، وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها ، ويحمد محمودها ، ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه ، ولا يتضمن النهى عن المنكر ، حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه ...) [1] .

ومبنى مراتب تغيير المنكر على الحديث المشهور : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (وذلك يكون تارة بالقلب ، وتارة باللسان وتارة باليد ، فأما القلب فيجب فى كل حال ، إذ لا ضرر فى فعله ، ومن لم يفعل فليس بمؤمن ، كما قال النبى ﷺ.. وقيل لابن مسعود : من ميت الأحياء ، فقال : الذى لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، وهذا هو المفتون الموصوف فى حديث حذيفة بن اليمان ..) [2] .

وهذه المراتب الثلاث لا تعتمد فقط على قدرة الآمر والناهى ،

---

(١) الفتاوى : ٢٨ / ١٣٠ . (٢) المرجع السابق : ٢٨ / ١٢٧ .

وإنما تعتمد أيضاً على الظروف الملابسة للأمر والنهى من ناحية الزمان والمكان ، وما يغلب على الظن الراجح من استجابة المأمور لذلك ، وفى معرفة أحواله ، واحتمال استجابته ، وكذلك فى عدم تفويت معروف أهم ، أو منكر أشد ، وكذلك لا يتم الأمر والنهى عند تفويت مصالح أرجح ، أو جلب المفاسد الكبرى .

(وقال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلم بالتى هى أحسن** ﴾ جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمستجيب القابل الذكى الذى لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة ، وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند يجادل بالتى هى أحسن ..) (١) .

فيوضح هذا النص ، أن المراتب قد لا تكون بحسب القدرة فقط ، بل إنما على مراتب الخلق . وفى بعض الأحيان ، ينزل إلى مرتبة أدنى لطبيعة المنكر ذاته ، فقد يتحول الناهى من اليد إلى اللسان ، لأن نوع المنكر ليس مما يغير باليد ، والتغيير باليد مشروط بالقدرة ، وعند تجاوز الحد المطلوب ، وأن لا يقود إلى مفسدة أكبر ، والامتناع عن الاستمرار فيه بمجرد اندفاع المنكر ، والآحاد من الناس

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٥٣ .

لا يحق لهم شهر السلاح مهما اشتد المنكر ، أما إذا وصل المنكر إلى درجة كبيرة ، ولا يُزال إلا بأعوان يشهرون السلاح ، فلا يزال إلا بسلطة تحمل الحق وتدعو إليه ، فيكون لها الإذن الشرعي بذلك .

إن بعض ما يتغير باليد أو بالقوة قد يعجز عنه الفرد فتقوم به جماعة ، وقد يعجز عنه المحكوم فيقوم به الحاكم ، وقد لا يندفع إلا بالتمكين فى الأرض فينبغى العمل من أجل ذلك ، فيسقط إثم التخلف عن إزالة المنكر بمجرد السعى لإقامة التمكين لدين الله تعالى فى الأرض .

القاعدة الذهبية

وجماع الأمر فى معرفة المراتب ، وإتيان بعضها دون البعض ، أو ترك البعض دون الآخر بل حتى السكوت أحياناً عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هى قاعدة جلب المصلحة الشرعية ، إذ إن مبنى الشريعة على جلب المصالح ، ودفع المفاسد ، والشريعة حكمة كلها ، وكل ما خرج بالعمل من المصلحة إلى المفسدة ، فهو من الفساد الذى نهى عنه الشارع ، والله تعالى لا يحب الفساد ، والمصلحة لا تقرر بفائدة الفرد من العمل ، وإنما تتحدد المصلحة بميزان الشريعة ، وهذا كله ضمن قاعدة شرعية مهمة (وجماع ذلك داخل فى القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ،

والحسنات والسيئات ، أو تزاحمت ، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد ، وتعارضت المصالح والمفاسد ، فإن الأمر والنهى ـ وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة ـ فينظر فى المعارض له . فإن كان الذى يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به ، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته ..) [١] .

ولا بد من أن يطبق كل داعية هذه القاعدة ، عن كل أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، سواءً أكان بمفرده ، أم ضمن ركب من المؤمنين ، فقد يكون الأمر بالمعروف يصلح لمكان وبيئة دون صلاحه فى مكان آخر ، وقد يؤتى النهى عن المنكر ثماره فى زمان ومكان ، وقد يؤدى إلى فساد عند تغيير الزمان أو المكان ، أما إذا اجتمع معروف ومنكر فيقال :

(إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما ، بل إما أن يفعلوها جميعاً أو يتركوهما جميعاً ، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ، ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر ، فإن كان المعروف أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل

---

(١) الفتاوي : ٢٨ / ١٢٩ .

يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى فى زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ وزوال فعل الحسنات ، وإن كان المنكر أغلب نهى عنه ، وإن استلزم ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر ، وسعياً فى معصية الله ورسوله ..) [1] .

ووفق القاعدة الذهبية من الموازنة بين المصالح والمفاسد ، ينتج عنها من قواعد فرعية فى تقديم أعرف المعروفين ، وإنكار المنكرين ، والأخذ بأهون الضررين ، وأشباه ذلك تتحقق الغاية شرع من أجلها الأمر والنهى .

وقواعد متفرعة

ومن القواعد المتفرعة الأخرى ، تقديم المصالح القطعية على الظنية ، وتقديم مصالح الجماعة المؤمنة على المصالح الفردية ، ودفع المخاطر الواقعة مقدم على دفع المخاطر المحتملة ، كما أن حفظ مقاصد الدين مقدم على حفظ مقاصد الدنيا ، والضروريات مقدمة على الحاجيات والتحسينيات ، وغير ذلك مما سيشرح فى مبحث آخر إن شاء الله ، ويكتفى هنا بذكر قاعدة أخرى فى تنوع المصلحة ذاتها حسب الظروف ، فيقال :

(١) المرجع السابق : ١٢٩ .

(المصلحة فى ذلك تتنوع ، فتارة تكون المصلحة الشرعية القتال ، وتارة تكون المصلحة المهادنة ، وتارة تكون المصلحة الإمساك والاستعداد بلا مهادنة ، وهذا يشبه ذلك ..) [1] .

بل ، وقد تكون المصلحة أحياناً فى المفاصلة السلبية ، إذ يُحارب أهل البدع أو المنافقون بالعزلة عنهم ، كنوع من إقامة الحواجز النفسية التى تمنع التأثر بهم ، وقد أدى تجهم بعض الشعوب الإسلامية فى وجوه المستعمرين إلى تفويت الفرص عليهم فى إذابة الشباب المسلم فى تيار التغريب ، ومَنَعَ أجيالاً من الفتيان من الانسياب معهم ، أو الذوبان فيهم ، ولعل هذا المعنى ما أشار إليه ابن مسعود بقوله : « جاهدوا المنافقين بأيديكم ، فإن لم تستطيعوا فبألسنتكم ، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا فى وجوههم ، فاكفهروا ..» [2] .

فيلاحظ الداعية كيف تتم المصلحة أحياناً بالسكوت والانتظار ، دون التعجل والتهور .

شروط إزالة المنكر

ولا بد عند النهى عن المنكر ، وبناء على قاعدة تحقق المصلحة ، لا بد من التحقق بشروطه حتى لا يجلب المفسدة الكبرى ، أو

(١) المرجع السابق : ١٥ / ١٧٤ .   (٢) شرح السنة : ١٤ / ٣٥٠ .

يفوت المصلحة الفضلى :

الأول : كونه منكراً ، والمنكر أعم من المعصية ، فلا يختص النهى بالكبائر ، بل ينهى حتى عن الصغائر ، إذا كان الأمر ممكناً .

الثانى : أن يكون موجوداً فى الحال ، فلا تجوز الإساءة للمسلم بالظن .

الثالث : أن يكون ظاهراً دون تجسس عليه ، إذ نهى الشارع عن تتبع زلات المسلمين ، والتجسس معصية أشد .

الرابع : أن يكون المنكر معلوماً بغير اجتهاد ، فلا إنكار على من عمل عملاً باجتهاد يعتقد أنه من الصواب ، ولا تنكر الآراء المختلف فيها بحجة شرعية .

الخامس : أن يعلم صاحب المنكر فى البدء أن هذا منكر ، فلا ينهى من كان كافراً ، إذ لا بد من دعوته للإيمان أولاً ، فالكفر أكبر من كل منكر .

السادس : أن يتم وفق مراتبه ، فيكون البدء بالنهى بالوعظ والنصح والتخويف ، ثم العنيف بالقول الغليظ ، ثم زيادة الإنكار حسب القدرة والإمكان ، حتى الوصول إلى التغيير باليد بشروطه المذكورة سابقاً .

شبهة ... وردها

قد يحتج البعض بالقعود عن الأمر والنهى ، بقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .. ﴾ [1] .

وما عَلِمَ أن هذا الاحتجاج باطل ، نعم فالمضرة لا تأتى على الفرد من ضلال الآخرين فى الآخرة فى الثواب والعقاب ، ولا يحمل المسلم وزر غيره ، ولكن المسلم فى الوقت نفسه مكلف بأداء الواجب ، كما أن المسؤولية فى الحياة الدنيا جماعية ، فالآيات القرآنية جاءت جميعها تخاطب الجماعة المؤمنة ، وركب المؤمنين ، لأن العلاقات الإنسانية مترابطة ، والإنسان اجتماعى بالطبع ، وتقصير بعض أفراد المجتمع قد يؤدى بكل المجتمع إلى الهلاك ، وقد نهى الله تعالى حتى عن مجالسة أهل الباطل ، والمشاركة فى لهوهم ، دفعاً لمفسدة التشجيع أو التأثر بهم ، فكان المؤمن محاسباً على أداء واجبه تجاه المجتمع بالأمر والنهى .

وهناك من يحتج بالخوف من السقوط فى المحنة أو الفتنة ، وما علم أن ترك الأمر والنهى ، بحد ذاته فتنة ، كما ذكر القرآن الكريم فى فتنة الجد بن قيس، عندما اعتذر بترك الجهاد ، بالخوف من

(١) المائدة : ١٠٥ .

الوقوع فى فتنة نساء بنى الأصفر ، والأصل خوفه من أداء الجهاد ، وسقوطه فى النفاق ، ويقاس على الحدث عدم الاعتذار عن أداء الواجب .

ولما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله من الابتلاء ، والمحن ما يعرض به المرء للفتنة ، صار فى الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة ، كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ (١) .

إن هذه الشبهات ونظائرها من مداخل الشيطان ، وترك الواجب بحجة وتبرير باطلين إنما هو سقوط فى إثم أشد ، لأن الأمر أصل من الأصول لا ينفك عن جبلة الإنسان ، فكل بشر لا بد له من أمر ونهى ، حتى لو كان وحده لأمر نفسه ونهاها ، لأن النفس بطبيعتها أمارة ، فقد قال تعالى : ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ فاقتضى أن يحولها المسلم إلى أمارة بالخير ، منتهية عن المنكر ، مع ملاحظة أكبر المعروفات ، والبدء بإنكار أشد المنكرات ، ومما يؤسف له أن مثل هذا التبرير يقع فيه أهل الدين ، فى كل زمان ومكان ، خدعة من الشيطان وتغريراً بهم .

---

(١) التوبة : ٤٩ .

(وهذه حال كثير من المتدينين ، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهى ، وجهاد يكون به الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتنوا بجنس الشهوات ، وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا أنهم فروا منه ، وإنما عليهم القيام بالواجب ، وترك المحظور ...) (١) .

أصناف الناس

وبعض الناس قد يقع عليهم العذاب أيضاً ـ رغم صلاحهم ـ إذا تركوا واجب الأمر والنهى ، لأن الله تعالى أوضح أن الناس ـ فى هذا المجال ـ ثلاثة أنواع : دعاة صالحون ، وصالحون بلا دعوة ، وأهل المنكر ، فقال واصفاً إياهم : ﴿ **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ (٢) .

فبيّن أن جماعة مُصْلحة تحاول أن تصلح معذرة إلى ربها ، وجماعة تنكر الدعوة لأهل المنكر ، لاعتقادها أنه لا نتيجة ترجى من دعوة الضالين المنحرفين ، ثم يقول الله تعالى ، فى الآية التالية : ﴿ **فلما نسوا ما ذكرو به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾ ، أى أن الله تعالى

---

(١) الفتاوي : ٢٨ / ١٦٧ .   (٢) الأعراف : ١٦٤ .

أنجى الدعاة من الصالحين ، وأهلك أهل المنكر ، وسكت عن الصنف الثالث إما تهويناً لأمرهم ، أو لأنهم قد مسهم شيء من العذاب البئيس في الحياة الدنيا ، والنص القرآني ـ بذاته ـ يجعل الأمر مخوفاً ، وواعظاً فترْك أمر الدعوة إلى الله تعالى ، وعدم مشاركة الدعاة في أداء واجبهم ، مهما كانت التبريرات ، قد يصيب هؤلاء بشيء من غضب الله تعالى .

أيها المسلم : احذر العقاب

ومما قد يناله المتقاعسون عن أداء الواجب بالأمر والنهي ، قد يعم الأمة كلها ، ويعاقب الله تعالى الناس بترك هذا الواجب ، حتى ليدعو الصالحون فلا يستجاب لهم ، وقد تستحق الأمة اللعنة بسبب ذلك ، كما لُعن بنو إسرائيل ، فكما أن لأمة الإسلام الخيرية بين الأمم بسبب هذا الأمر ، فقد يحل بها العذاب عند تركه ، وقد تقع عليهم من الرزايا والبلايا ما لا يمكن دفعه ، بل وثبت ـ من استقراء التاريخ ـ أن القتل والدماء والمآسي تحل بالمسلمين ـ عند تركهم لأمر الدعوة ـ أضعافاً مضاعفة مما قد يحل بهم عند أداء واجب الجهاد والدعوة ، ومما ورد في هذا ما سألته زينب لرسول الله ﷺ في جزء من حديث .

(أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر

الخبث ») (١) . وقد أردف الإمام البخارى هذا الحديث ، بأحاديث الفتن ، وما ذُكر فى أنها تدخل كمواقع القطر ، تشبيهاً لها بالمطر .

(وحسن التشبيه بالمطر لإرادة التعميم ، لأنه إذا وقع فى أرض معينة ، عمّها ولو فى بعض جهاتها ، قال ابن بطال : أنذر النبى ﷺ فى الحديث زينب بقرب قيام الساعة ، كى يتوبوا قبل أن تهجم عليه ..) (٢) .

وليس أكثر سبباً فى وجود الفتن من ترك واجب الدعوة إلى الله تعالى . ومن العقاب الذى قد يحل بسبب ذلك أيضاً زيادة الخلاف والشقاق بين الأمة ، أو بين الجماعة المسلمة ذاتها ، أو يتودع من الأمة وتهون على ربها إذا خشيت أن تقول للظالم : يا ظالم ، أو يضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ويجتلدون بأسيافهم ، أو قد يرث الدنيا شرارهم ، فيكون السيف بيد الجبان ، والمال بيد البخيل ، ولقد حذر أبو بكر الصديق الأمة من الفهم الخاطئ للآية ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ فقال :« إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا منكراً ، فلم يغيروه ، يوشك أن يعمهم الله بعذابه .. » أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم ، بل وفوق ذلك كله ، قد يعم الأمة العذاب ، ويهلك الناس ، ثم يبعث الناس على قدر نياتهم ،

---

(١) متفق عليه .   (٢) فتح الباري : ١٣ / ١٣ .

وقـد يحصـل للأمة نظيـر مـا حـصل للأمم الأخرى التى حـصل لهـا عذاب الاسـتئصال ، الذى رفع عن هذه الأمـة ببركة دعـاء نبينا ﷺ ولكن نظيـره وشـبيـهـه كـعـذاب الذلة والخـور ، وعـذاب المهـانة والاسـتذلال ، قـد يحـصل بشكل أو آخـر ، فـهل يشمـر المسلمـون للانضمـام إلى قافلة الدعوة ، وقطار الدعوة ، حت يسـهل الوصول للهدف ، وتتم المسـيرة دون الوقوع فى عـذاب الله تعالى !! . وفق الله الجميع لكل خير ، والله غالب على أمره .





(١٧) من حق الطريق (٢)

لقد سبق الحديث فى الفصل السابق عن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وخصائصه ، ووجوبه ومراتبه ، وبعض قواعده ، وشروط إزالة المنكر ، وعواقب ترك الأمر والنهى ، وفى هذا الفصل سيكون الحديث عن شروطهما ،وما يتعلق ببعض هذه الشروط .

شروط ثلاثة عامة

يمكن تعداد شروط كثيرة لمن يتصدى للأمر بالمعروف ، أو النهى عن المنكر ، ولكن كثرة الاشتراط يعطل هذا العمل ، فوق أنها لا مبرر لاشتراطها دون حجة شرعية واضحة ، إلا إنه يمكن القول أن هناك شروطاً ثلاثة على وجه العموم ، وثلاثة على وجه الخصوص ..

أما العامة منها فالواقع أنها تنطبق على كل عمل تكليفى ، وذِكْرُ بعضِ العلماء لها ـ فى هذا المجال ـ من باب التذكير والوعظ فحسب ، أما تخصيصها بعمل آخر فلا يصح ، وهى :

النية وكل من (**القدوة أو الورع ونظائرهما**) **والاستطاعة** .

فالنية أصل كل عمل وفعل ، ولا يتقبل العمل إلا بالنية

الصادقة ، لأن الأعمال بالنيات ، وكل عملٍ مشروع ، أو بر وخير ، فلا بد له من نيّة وحركة ، والحركة بهذه الأعمال لا يُجزى المرء بها إلا بنية صادقة ، وهى التى يتقبلها الله ويثيب عليها .

أما الورع فهو درجة عالية يُسبب اشتراطه تعطيل مصالح كثيرة ، فوق أنه نسبى يتغير من شخص إلى آخر ، وحسب المواقف والظروف ، ولقد يحاسب الإنسان عند قوله ما لا يعمل إذا أدى ذلك رياء أو سمعة ، ولكن تعطيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحجة عدم توفر الورع ليس شرطاً فى أداء مهمة الدعوة ، ولكن يحرص عليه جهد الإمكان ، مع ضرورة القيام بالوعظ باستمرار ، إذ إن الورع يحسن النية ، ويوصل القلب إلى رتبة عليا تطلب فى جميع الأعمال .

إن الكلام نفسه يمكن قوله عن اشتراط القدوة ـ وهى من نتائج الورع ـ إذ إن الآمر بالمعروف يجب أن يكون ملتزماً بما يدعو إليه محافظاً على ذلك حَسَبَ قدرته واستطاعته، فإن التزامه بما يدعو إليه يقود إلى النتائج الأفضل ، ويردع غيره عن المخالفة ، وتكون دعوته مقبولة ، ولا تورث جرأة عليه ، واستهزاء به ، بينما اشتراطها للأمر والنهى بشكل أساسى فهو من لزوم ما لا يلزم .

أما **الاستطاعة** فهى أساس كل تكليف ، إذ لا تكليف إلا

بمستطاع ، ولا يُكلف الله نفساً إلا وسعها والاستطاعة من شروط كل عمل صالح ، بل إن الاستطاعة من قواعد الشريعة ، وهى صفة تتغير من شخص إلى آخر ، كما أنها تتغير وفق الظروف والأحوال والعادات ، فقد يكون بعض المعروف مما يمكن الأمر به فى مكان ، ولا يمكن الأمر به فى مكان آخر ، ويكون بمقدور شخص ولا يقدر عليه غيره ، ويمكن كذلك النهى عن منكر فى ظروف ، ولا يمكن فى ظروف أخرى ، ويمكن أداء كل من الأمر والنهى فى زمن ، ويستحيل فى زمن آخر ، وفوق ذلك كله يمكن لبعض الأوامر والنواهى أن تقوم بها جماعات ومؤسسات ، ولا يمكن أن يقوم بها الأفراد .

وهذا منهج يطبق على كل عمل ، فلا بد من التذكير به فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، دون تخصيص هذا العمل وحده بهذا الشرط ، وإنما يذكره العلماء ـ قديماً وحديثاً تذكيراً به ، ووعظاً وإرشاداً .

وثلاثة خاصة

أما الشروط الثلاثة الخاصة ، فهى التى لا بد منها ، ولها ضرورة متميزة فى مجال الأمر والنهى ، وإن كانت قد تشترط فى مجالات أخرى ، وتخصص فى هذا المجال لأهميتها ، إذ لا يتم الأمر

والنهى ـ على الوجه الأكمل ـ إلا بها ، ألا وهى :

العلم ، والرفق ، والصبر

ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله : « .. فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر ، العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه ، والصبر بعده ، وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحباً فى هذه الأحوال .. وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف .. لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه .. » [1] .

فالعلم أولاً أمر لا بد منه ، إذ كيف يمكن الأمر بشىء لا يعلم عنه أنه معروف ، أو ينهى عن أمر لا يعلم أنه منكر ، وكذلك فإن العلم قبل العمل ، والعلم شجرة ثمرتها العمل ، والعلم إمام العمل ، وقد قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ : « من عبّد الله بغير علم كان يفسد أكثر مما يصلح » .

« .. وهذا ظاهر ، فإن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلاً ، وضلالاً واتباعاً للهوى .. وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ١٣٧ .

وأهل الإسلام ، فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما ، ولا بد من العلم بحال المأمور وحال المنهى ، ومن الصلاح أن يأتى بالأمر والنهى على الصراط المستقيم ، هو أقرب الطرق ، إلى حصول المقصود ..) (١) .

إذن ، فلا بد من العلم كشرط من شروط الأمر والنهى ، ومقتضى أن العلم مقدمة لكل عمل ، ولكن ينبغى عدم المبالغة فى شرط العلم حتى لا تفوت المصالح ، فلا يشترط المقدار الكبير من العلم الذى لا يملكه إلا النخبة من البشر ، فالكمال فى الناس قليل ، وإنما المقصود ـ هنا ـ بعض العلم ، وهو المعرفة بالمأمور به ، وحدوده وضوابطه ، ومعرفة المنكر المنهى عنه وحدوده وبدائله ، مما يؤدى إلى حصول المقصود ، وعدم تجاوز حد الشرع فى ذلك ، فتتحقق المصلحة ، دون أن تجلب معها مفسدة ، أو تفوت مصلحة أخرى ، ولذلك كان من خصائص العلم المطلوب للأعمال التكليفية أنه قابل للتبعيض ، أى أن كل عمل يتقدمه جزء من العلم يختص به ، ويجعله وفق الشريعة ، ويتحقق به مقتضى صواب العمل .

زينة الرفق

وثانى هذه الشروط : الرفق الذى لا بد منه قبل الأمر والنهى ،

---

(١) المرجع السابق .

وبعدهما ، بل هو زينة العمل الصالح ، والله تعالى يعطى على الرفق ، ما لا يعطى على العنف وهو الطريق إلى القلوب . ولقد قال النبى ﷺ : « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا يُنْزَعُ من شىء إلا شانه » (١) .

وكذلك قال عليه السلام :« من حرم الرفق حُرِم الخير ، أو من يُحرَم الرفق يُحرَم الخير » (٢) .

(.. وفى هذه الأحاديث فضل الرفق والحث على التخلق ، وذم العنف ، والرفق سبب كل الخير .. وقال القاضى : معناه يتأتى به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يأتى بغيره ...) (٣) .

وهل هناك أفضل من غرض الدعوة إلى الله تعالى ، ومطلب الأمر بالمعروف ، فلا بد من الرفق الذى يتوصل به إليه ، فالعلم وحده لا يكفى فى أداء الأمر والنهى ، لأن الغضب إذا هاج فلا يكفى العلم فى قمعه ، والغضب من فيح جهنم ولا بد من الرفق الذى يؤدى إلى هدوء الطبع حتى تتمكن النفس من الاستجابة .

(ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون ؛ إذ وعظه واعظ ، وعنف له فى القول ، فقال : يا رجل ارفق ... فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأمره بالرفق ، فقال تعالى :

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه مسلم .

(٣) شرح النووي : ٦١ / ١٤٥ .

﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ ...)[1] .

ومن مظاهر الرفق التمهيد للأمر بالحسنى ، واجتناب الألفاظ القاسية ، والعبارات الجافة ، والمناداة بأحب الأسماء ، والابتعاد عن التعبير والتبكيت ، ومحاولة صرف الإنكار إلى غير معيّن إن أمكن ، والابتداء بالتلميح دون التصريح ، ومحاولة توجيه العتاب إلى النفس والتلطف في الخطاب ، ومراعاة حسن الأسلوب حسب ثقافة الأفراد وأذواقهم ، ومكانتهم ، واختيار أفضل الطرق إلى القلوب باختيار الأوقات والأماكن المناسبة ، وعدم ازدراء عقول الناس أو تسفيه آرائهم ، وأشباه ذلك مما لا يخفى ، والتذكير بالله تعالى أولاً وأخيراً ، وبثوابه وعقابه ، فإن كل ذلك مما تؤلف به النفوس الناشزة ، وترد به القلوب النافرة ، ويدنى من سماع القول الصالح ، ويقرب إلى جماعة المؤمنين . ومد يد العون ، والانبساط في الوجه ، والمداراة والتشجيع عند الاقتراب نحو الخير ، وإظهار المودة والليونة ، والعفو عند المقدرة ، والاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم ، ولقد قال الله تعالى : **﴿ فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾**[2] .

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢ / ٣٣٤ . (٢) آل عمران : ١٥٩ .

ومن الرفق .. التلطف

ومن الرفق المطلوب ، التلطف بكل الوسائل للوصول إلى المقصود ، دون تنازل ومماراة ، ودون مَلَقٍ أو مداهنة ، ويمهد للأمر المستغرب ، وتراعى أحوال المخاطبين ، فيبتعد الداعية عن الوعظ المباشر ، ولا يكشف الأستار ، ومن التلطف في الوعظ تقديمه في السر ، واختيار الوقت المناسب ، والنصح بالقليل قبل الكثير ، والتنبيه غير المباشر ، وذكر أقوال الوعاظ وهم يخاطبون نفوسهم وبذلك يصلح الناس ، ويقع الوعظ موقعه ، وما أجمل قول أبي الوفاء بن عقيل ، وأثر موعظته في غيره ، وهو يخاطب نفسه :

(.. يا رعناء تقوّمين الألفاظ ليقال مناظر .. ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء ، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر .. أفٍ لنفسي وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلم وما عبق بها فضيلة ؛ إن نوظرت شمخت ، وإن نُصحت تعجرفت .. وإن انكسر لها غرض تضجرت ، فإن أُمِدَّت بالنعم اشتغلت عن المنعم .. وغداً يقال : مات الحبر العالم الصالح ، ولو عرفوني حق معرفتي ما دفنوني ، والله لأُنادينّ على نفسي نداء الكاشفين معايب الأعداء ، ولأنوح نوْحَ الثاكلين ..) (١) .

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي : ٣٩٢ .

وهكذا يكون الوعظ العام بالإشارة ، أو بنقد الذات ، دون ذكر الأسماء ، ودون الهمز واللمز ، أما خصوصية الوعظ ـ التى لا بد منها فتقدم دون تبكيت فى السر أو إيذاء .

ومع الكبار أولى

وإذا كان الرفق مطلوباً مع الناس ، فاستعماله مع الرؤساء والحكام ، وأهل الفضل أولى ، إذا كان يقود إلى أداء المهمة ، ويحقق الاستجابة (فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعاً وعقلاً وعرفاً ، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه ، وهكذا كان النبى ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل ، وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون : ﴿ **هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر ، وقال : ﴿ **إلى أن تزكى** ﴾ ولم يقل : « إلى أن أُزكيك » فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التزكى دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء ، ثم قال : ﴿ **وأهديك إلى ربك** ﴾ أكون كالدليل بين يديك الذى يسير أمامك ، وقال : إلى ربك استدعاء لإيمانه بربه الذى خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيراً ويافعاً وكبيراً) (١) .

---

(١) بدائع الفوائد : ٣ / ١٣٢ .

فما أحرى الدعاة أن يأخذوا بالاقتداء بسنن الأنبياء والمرسلين .

والصبر .. أخيراً

وأخيراً يأتي آخر الشروط ، وهو الصبر الذى جعله الله تعالى رديفاً للقيام بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وقريناً لا ينفك عنهما ، فقال تعالى حاكياً ما قاله لقمان لابنه : ﴿ **يا بُنىَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ (١) .

حيث أمر الله تعالى رسله وأنبياءه أئمة الداعين إلى الخير ، الآمرين بالمعروف وأتباعهم من المؤمنين بالصبر ، كما وصف أهل الإيمان والعمل بالتواصى بكل من الحق والصبر كما ورد فى سورة العصر ، لأن من لا يحلم ويصبر ، إما أن يحصل له الأذى فيشق عليه ، أو أن يغضب ويخرج عن الخلق السوى ، فيفسد أكثر مما يصلح ، وليس أدل على الحاجة للصبر مما ذكره الله تعالى حيث جعله قريناً لتبليغ الرسالة ، فقال فى سورة المدثر ـ وهى من أوائل السور المنزلة ـ مذكراً رسوله الأمين ـ ﷺ : ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ ..

(.. فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة ، وختمها

---

(١) لقمان : ١٧ .

بالأمر بالصبر ، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر) [١] .

ولمّا كان الصبر مصاحباً للأمر والنهى ، وضرورياً لهما فلا بد منه لكل من الرعاة والرعية ، ومن أمراء الخير وأتباعهم ، لأن قافلة الدعاة لا بد لها من الصبر المتبادل بينهما ، والتواصى بين الدعاة على الصبر والتصبر فى الدعوة ، والصبر على ما يصابون به فى ذات الله ، لأن الأمر والنهى لا يتم إلا بالصبر ، والمصابرة على ذلك بذاتها جهاد ، حتى تتم مصلحة الأمر والنهى (وهذا عام فى ولاة الأمور وفى الرعية ، إذا أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، فعليهم أن يصبروا على ما أصيبوا فى ذات الله ، كما يصبر المجاهدون على ما يصابون فى أنفسهم وأموالهم ، فالصبر على الأذى فى العِرْض أولى وأولى ، وذلك لأن مصلحة الأمر والنهى لا تتم إلا بذلك ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ..) [٢] .

صبر .. وتصبر

وليست هذه الخصائص بالشىء السهل ، ولا بالعمل اليسير ، بل تحتاج إلى عزم وتصميم ، وإرادة وثبات ، وإيمان وثقة ، لأن هذا طريق الدعوة ، وواجب الدعاة (والدعوة إلى الخير ، والأمر

---

١) الفتاوي : ٢٨ / ١٣٧ . (٢) المرجع السابق : ٢٨ / ١٨٠ .

بالمعـروف والنهى عن المنكر ـ من ثم ـ تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم ، وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذى يكره الصعود ، وفيهم المسترخى الذى يكره الاشتداد ، وفيهم المنحل الذى يكره الجد ، وفيهم الظالم الذى يكره العدل ، وفيهم المنحرف الذى يكره الاستقامة ، وفيهم من ينكرون المعروف ويعرفون المنكر ، ولا تفلح الأمة ، ولا تفلح البشرية ، إلا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفاً ، والمنكر منكراً ...) (١) .

وفى الوقت نفسه ، فالداعية ـ المسافر فى طريق الدعوة ـ يحتاج فوق ذلك إلى أنماط أخرى من الصبر ، إذ لا بد من الصبر على التكاليف الشرعية ،وعلى ترك المطامح والمطامع ، والصبر على الملالة والعجلة ، والصبر على الجهالة وسوء التصور ، وعلى انحراف التصورات ، والالتواء ، وكل ذلك الصبر خلال القيام بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .. وقد يتعرض من خلال هذا العمل إلى مواجهة الباطل ، أو وقاحة الطغيان ، وإلى غلبة الشهوة وتصعير الغرور ، ويحتاج ـ فوق ذلك كله ـ إلى صبر يعينه على قلة الناصر ، وضعف المعين ، ومشقة الطريق ، والصبر على مرارة

(١) الظلال : ١ / ٤٤٤ .

الأمر بالمعروف ، بينما يتلهى الناس بالرغائب ، وعلي مرارة النهى عن المنكر بينما ينشغل الناس بالشهوات ، ويحتاج إلى الصبر كذلك حتى يستمر فى عمله ، فقد يشعر الداعية ـ أحياناً ـ بالحاجة أو الميل إلى الترك بحجة عدم توفر هذه الصفات ، فيقال له :

(.. وليعلم أن اشتراط هذه الخصال فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، مما يوجب الصعوبة على كثير مما يضره الأمر بدون هذه الخصال ، أو أقل ، فإن ترك الأمر الواجب معصية ، وفعل ما نهى الله عنه فى الأمر معصية ، فالمنتقل من معصية إلي معصية كالمستجير من الرمضاء بالنار ..) [(١)] .

فيصبح الداعية بحاجة إلى المزيد من الصبر الذى يواجه به الانفعالات المتنوعة ، من الألم والحسرة على الضائعين ، والحنق والضيق من المكابرين ، وضعف الثقة أحياناً فى الخير ، وقلة الرجاء من الاستجابة ، بل وحتى القنوط أحياناً ، فيحتاج إلى المزيد من الصبر حتى يضبط النفس فى ساعة القدرة والغلبة حتى لا تقع النفس فى حمأة الغرور ، ويشد العزم فى ساعة الانتصار حتى لا تقع فى دواعى الانتقام ، ويقوى الإيمان حتى يصبر على الابتلاء والشدة والمحن ، ويصبر على هداية الناس والأسى عليهم مما هم فيه ، كل

---

(١) الفتاوي : ٢٨ / ١٣٧ .

ذلك هو من صبر السائرين في قطار الدعوة اللاحب، إذ لا بد منه كي يسير في خطها المستقيم ، وسيره الحثيث ، ثابت الخطى ، لا تعيقه العوائق ، ولا تمسكه العلائق ، ولا تقطع سيره الجواذب ، ولا تحد من سرعته الأشواك ، وإن نصر الله تعالى في نهاية الطريق .

(والصبر على هذا كله ــ وعلى مثله ــ مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل .. لا تصوره الكلمات ، فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة ، إنما يدرك هذا المدلول من عاني مشقات الطريق ، وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات ..) [١] .

ولكن نهاية مشقة الطريق ، ووعورة المسالك ، وآلام الدرب المرير ، إذا ما كانت مع الصبر الجميل فهي فضل من الله ورضوان .

إضافة إلى ما يقذفه الله في قلب العبد من التلذذ بالبلوى ، والاستبشار بوعد الله تعالى ، وقوة عبودية البلاء ، والتقلب بين الخوف والرجاء ، والحصول على أجل مقامات الإيمان ، بل هو من أسباب الحصول على الكمال ، وتقوية العبد على العزيمة والثبات ، فيهون البذل والصبر في سبيل الدعوة ، وإقامة حكم الله ، فليكن الداعية من الذين صفتهم (همهم إقامة دين الله ، وإعلاء كلمته ، وإعزاز أوليائه ، وأن تكون الدعوة له وحده ، فيكون هو المعبود لا

(١) الظلال : ١ / ٥٥١ .

غيره ، ورسوله المطاع لا سواه ، فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله ، وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته ، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة ، والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء) [1] .

وقد يزف الله البشرى لعباده في الحياة الدنيا بما يحبون : ﴿ **وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾ [2]

والصبر قرين التقوى

ولمّا كان الصبر بهذه المنزلة العالية ، صار قريناً للتقوى أيضاً ، فكان كلاهما من عزائم الأمور ، ولأن بكل من الصبر والتقوى، يمكن مجابهة المحن ، وإيذاء الكفار وغيرهم عند القيام بمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر كما أصبح الصبر والنقوى من صفات المؤمنين(والمؤمنون كانوا يدعون إلى الإيمان بالله ، وما أمر به من المعروف ، وينهون عما نهى الله عنه من المنكر ، فيؤذيهم المشركون وأهل الكتاب ، وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه ، وقال لهم : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ [3] .

وقد قال يوسف ــ عليه السلام ــ :﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن**

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٣٠١ . (٢) الصف : ١٣ .
(٣) آل عمران : ١٨٦ .

الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .. فالتقوى تتضمن طاعة الله ، ومنها الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والصبر يتناول الصبر على المصائب التى منها أذى المأمور المنهى للآمر الناهى ..) [1] .

أى يستنبط من الآيات أن من الناس من يملك التقوى بلا صبر ، وهم عوام المسلمين الذين يؤدون الواجبات ولا يصبرون على جهد الدعوة إلى الله ، وهناك أناس لهم صبر بلا تقوى ، وهم الطغاة والحكام ، أو اللصوص وقطاع الطرق ، ممن لهم القدرة على التحمل ، والصبر على المكاره ، وتحمل الشدائد مما هو ملاحظ فى الحياة ، ولكن لأغراض دنيئة ، ومقاصد فاسدة ، ومن الناس الذين هم بلا تقوى ولا صبر ، ولكن المطلوب من الدعاة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر التحلى بكل من الصبر والتقوى .. ولهذا فقد أمر الله تعالى الأنبياء ـ ومِنْ بعدِهم الدعاة فى كل زمان ومكان ـ بالصبر والتقوى فى أى مرحلة من مراحل العمل ، سواء أكان فى مرحلة التمكين فى الأرض أو قبلها ، أو كان المنكر في مرحلة الإنكار بالقلب أو التغيير باليد ، بينما شبيه الصبر ـ وهو العفو والصفح ـ فقد جعل إلى غاية معلومة وهو إلى (**أن يأتى الله بأمره**) حيث يكون التمكين ، ويكون لولى الأمر سلطة فى الإلزام

---

(١) الفتاوي : ١٥ / ١٦٨ .

بالمعـروف ، أو النهى عن المنكر بكل الوسـائل الرادعة ، وهنا تفـريق لطيف ، يلزم لركاب قطار الدعوة الالتفات إليه ، ولذلك قيل :

(وأمـا الصبر فـإنه مـأمـور به مطلقـاً ، فلا ينسخ ، أما العـفـو والصفح فـإنه جُعل إلى غاية ، وهو : « أن يأتى الله بأمـره » فلما أتى بأمره بتـمكين الرسول ونصـره ـ صار قادراً على الجـهاد لأولئك ، وإلزامـهم بالمعروف ، ومنعـهم عن المنكر ـ صـار يجب عليه العـمل باليد فى ذلك ما كان عاجزاً عنه) [1] .

فرق مهم

هنالك فرق بين العمل لأداء فرضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ حـيث الالتـزام بحقيـقة التـوحيد الملزم بالتـغيـير ، ومفـارقة المنكر ، حتى ولو بالقلب ـ وبين العمل لإنزال العقوبة بالحد والتعزيز على تارك المعـروف ، أو فاعل المنكر، فالعـمل الأول من واجب كل فرد حسب قدرته واستطاعته ، وحسب قدرة وإمكانيـة كل جماعة أو هيـئة تـعمل للإسـلام ، دون اخـتصـاص أحـد أو سلطة به ،بينمـا العمل الثانى من اختصاص سلطة تنفـيذية لها الحق فى تنفيذ ما شرع الله تعـالى ، بعدمـا يتـحقق لهـا التـمكين فى الأرض . ولكن هذا لا يمنع الآمر الناهى ـ فى الحالة الأولى ـ أن يدفع عن نفسه ـ بما تيسر

---

(١) الفتاوي : ١٥ / ١٧٠ .

له ـ إذا تعرض من المأمور المنهى لبعض الأذى ، كما يدفع الإنسان عن نفسه أذى الصائل ، وله كذلك حق الصبر والحلم ، أو العفو والاحتمال ، على أن يكون العفو مع القدرة والقيام لما يجب مع نصر الحق ، لا مع إهمال حق الله وحق العباد .

أى ـ باختصار ليس المقصود بالأمر والنهى ، إقامة الحجة على الناس ، وإنما دعوتهم للخير ونهيهم عن الشر ، امتثالاً لأمر الله تعالى ، وكل شخص محاسب أمامه فى ذلك ، وما واجب الدعاة إلا لتطبيق قوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ (١) .

﴿ **وقل لعبادي يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان يَنْزَغُ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً** ﴾ (٢).

لا تيأس فى الطريق

وأخيراً ، مع مشقة الأمر والنهى ، والجهد المبذل فى الصبر والتصبر ، فعلى الداعية أن يستمر فى طريقه ، ولا يثبطه كثرة الهالكين ، وأن يبقى مع ركب الدعاة ولا يهمه براعة الخائضين ، ولا تخدعه قوة الباطل فالحق أبقى ، ولئن كانت جولة الباطل ساعة

---

(١) النحل : ١٢٥ .   (٢) الإسراء : ٥٣ .

فصولة الحق إلى قيام الساعة ، بل يقال للدعاة في كل زمان ومكان : « إنه لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود ، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة ، وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف .. ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ، ولم يقنطوا لتفتحت لهم أوصاد القلوب .. إن طريق الدعوة ليس هيناً ليناً ، فهناك ركام من الباطل والضلال ، والتقاليد والعادات يجثم على القلوب ، ولا بد من إزالة هذا الركام ، من استحياء القلوب بكل وسيلة ، ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة ، ومن محاولة العثور على العصب الموصل .. وإحدى هذه اللمسات ستصادف مع المثابرة والرجاء ، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشرى تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها .. » [1] .

بل ، وما يدرى الداعية لعل كلمة تؤت ثمارها حالاً ، ولكنها تؤتى ولو بعد حين ، وقد يدخر الله الانتفاع بكلمته ولو بعد سنين ، وقد تبلغ عنه الكلمة الطيبة فتنتقل من شخص إلى آخر ، فتلاقى قلباً واعياً ، أو تصادف أذناً صاغية ، فينتفع من كلمته خلائق لا يعلمهم

---

(١) الظلال : ٤ / ٢٣٩٤ .

ويكتب له الأجر فى ميزان حسناته .. وهكذا هو شأن الدعوة ، فهى كلمة طيبة كبذرة طيبة ، قد تدرك الأرض الطيبة ، فتنبت وتتضاعف ، وتؤتى أُكلها بإذن الله ..

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ [١] .

فما على الداعية إذن إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يفوت فرصة تفلت من يديه دون أداء هذه المهمة ، فى السفر والحضر ، وفى البيت والعمل ، وفى النزهة والشارع ، وعند الأهل والأقارب ، ومع الضيوف والأصدقاء ، لعل الله تعالى يوفقه للكلمة الطيبة ، التى تنتشر فى الآفاق ، فيكتب الله له أجرها ، وأجر من عمل بها ، وتتضاعف الحسنات حتى قيام الساعة ، فيفرح بعمله يوم القيامة ، وقد رأى العمل اليسير ، يضاعفه له رب العزة ، والله على كل شىء قدير .



---

(١) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥ .

(١٨) تنبيهات وإشارات

ومن سنة البشر فى حياتهم ، أن الطرق لا يمكن أن تُسلك إلا بعلامات للاهتداء ، وإشارات للمسير ، توضح المراحل ، وتدفع المخاطر ، وتسهل اجتياز العقبات ، وتيّسر قطع الفلوات ، وقد تكون هذه العلامات سمعية أو بصرية ، كما أنها قد تكون للتوضيح والإرشاد ، أو للتنبيه والاعتراض ، وهكذا فإن الداعية فى قطار الدعوة يحتاج إلى التوعية والتنبيه للقلب السائر فى طريق الآخرة بمواعظ هى إشارات ساطعة فى دربه الطويل ، وتنبيهات تقيه شر المنعطفات .

(السائر إلى الله والدار الآخرة ، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين قوة علمية ، وقوة عملية فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ، ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ، ومواطن العطب ، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل ، فقوته العلمية كنورٍ عظيم بيده يمشى به فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة ، فهو يبصر بذلك ما يقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد ، والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشوك ، وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضاً ، أعلام

الطريق ، وأدلتها المنصوبة عليها ، فلا يضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين ، أعلام الطريق ومعاطبها .

وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية . إن السير هو عمل المسافر ، وكذلك السائر إلى ربه ، إذا أبصر الطريق وأعلامها ، وأبصر الغابر والوهاد والطرق الناكبة عنها ، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ..) [١] .

وهذا الفصل يوضح بعض الإشارات والتنبيهات للداعية المسافر فى قطار الدعوة ، مما قد يحصل لقلب السالك إلى الله تعالى لعل فيها التبصير فى الطريق ، ومعرفة خطوات السير .

فرص متساوية

لقد اختص الله عز وجل عباده برحمته الواسعة ، وامتن عليهم بالرسالة ، وبالعقل مناط التكليف ، ثم بعد ذلك يأجرهم على العمل الصالح ، ومن رحمته أن يبتلى عباده بالخير والشر فتنة ، ويعطى لكل عباده فرصاً متساوية ليتحقق عدله فى العباد ثم يكون الحساب على العمل ، وهو المتفضل أولاً وآخراً ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾ .

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم : ٢٣١.

وهذه الفرص قد لا تكون متشابهة فى ظاهرها ، فبعضها من بلاء النعمة فيقتضى الشكر ، وبعضها من بلاء النقمة فيقتضى الصبر ، والمؤمن بين الصبر والشكر وهما نصف الإيمان ، ليتقلب المرء بينهما ، ورغم ما يبدو من ظاهر اختلاف ما يتعرض له العباد ، فإن الله جلّت قدرته يعلم ما يخفى للمؤمن من الخير ، ولو كشف الحجب لكل مؤمن لما اختار المؤمن إلا ما هو عليه ، وما على المؤمن إلا الصبر على الشر وسؤال الله العافية ، والشكر على الخير أن لا يقع تحت طائلة الغرور فيمتنع عن الاستزادة من الخير ، وأن يستصغر عمله ليطلب المزيد ، وأن لا يقع تحت طائلة التشاؤم فيقعد به الشيطان عن طلب المعالى .

تعجيل العقوبة

ومن رحمة الله بعباده المؤمنين تعجيل العقوبة بالمعصية حتى تكون تنبيهاً للمؤمن عمّا بدر منه ، فيصيبه بالغم أو الهم عند المعصية ، بل إن وقوعه فى المعصية مرة أخرى عقوبة من الله عن المعصية الأولى ، وقد تكون العقوبة على أمر من الدنيا ، كما قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : « فرب شخص أطلق بصره فحُرِم اعتبار بصيرته ، أو لسانه فحرم صفاء قلبه ، أو آثر شبهة فى مطعمه ، فأظلم سره ، وحرم قيام الليل ، وحلاوة المناجاة ... إلى

غير ذلك ، مما يعرفه أهل محاسبة النفوس » .

ولهذا نرى أن الزانى لا يلتذ بنكاح الزنا ، والسارق لا يلتذ بالمال المسروق ، ولا بد للداعية من استحضار هذا المعنى دوماً ، بل حتى ولو التذَّ بها لذة حسية مؤقتة فسرعان ما يجد بعدها هماً أو انقباضاً فى النفس يكون أضعافاً مضاعفة عن اللذة ، كما أنها قد تطرد عنه خيراً أكبر ، فقد تفوت معاصى النظر أو الزنا بركة الحصول على زوجة ترضيه ، ومعاصى تبذير المال أو الشح به تفوت بركة الاستثمار أو إرباء الصدقات ، والبخل بالأوقات فى سبيل الله يدفع بركة الاستفادة من الوقت حتى فى السعى الدنيوى ، بينما يحصل العكس إذ قد تؤدى الصدقات والحسنات والطاعات إلى انفتاح البركات فى نظائرها مما لا يراه المؤمن ظاهراً .

لذة الطاعة

وكما أن للمعصية عقوبة ، فإن للطاعة لذة لا يدركها إلا أصحاب الطاعات ، وتأتى اللذة أيضاً من الصبر على الشهوات ، وعلى ترك المعاصى ، فإن الله تعالى قد يمنح جزاء الصبر بالتعويض ، وقد يؤخر الأجر ذخيرة لعبده ، وقد يكون هذا التعويض ظاهراً وقد يكون مختفياً يعود للمؤمن بشكل آخر ، فقد يبذل المرء شيئاً من المال فلا يجد التعويض ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد عوضه بصحة

زوجته وأولاده ، وغمرهم بسعادة لا يدركون كنهها ، وقد يبخل المرء بالمال القليل ، ولكنه يضطر لدفع الأضعاف المضاعفة لأجل دفع الأمراض ، أو التخلص من المنغصات ، ومثلها ما قد يحصل للمؤمن عموماً (وللدعاة خصوصاً) من أن التضحية بالوقت والجهد للدعوة تعقب فى نفس الداعية لذة ، وسعادة فى القلب ، ومحبة فى نفوس الخلق ، بل وقد تورث الطاعة ما هو فوق ذلك من قوة فى البدن ، ونضارة فى الوجه ، ومحبة فى نفوس الخلق، فيأنس المؤمن بالجلسة البسيطة ، ويلتذ بالنكتة البريئة ، ويسعد بالجلسة الهادئة ، بل ويشعر بمنتهى السعادة بالأخوة والجماعة . مما لا يأنس به أصحاب الملايين فى لهوهم وحفلاتهم !! .

وكذلك قد يدفع البذلُ بالمال أو الوقتِ المرض والبلاء عن الأولاد والزوجة والنفس ، وقد يحصل العكس أحياناً فقد يملك المرء كل شيء ، ولا يدرى لماذا لا يشعر بالارتياح ، ولا يحس بالسعادة .. فكم من غنى يملك الملايين ولا يستطيع التلذذ بوجبة طعام لإصابته بأحد الأمراض ، وكم من غنى لا يستشعر لذة الهدوء والاستقرار خوفاً من السرقة أو الاغتيال ، وهكذا نرى أن الله عز وجل جعل مقابل كل لذة ظاهرة نقصاً يعادلها ، ومقابل كل كدح ظاهر للمؤمن لذة يستشعرها ، واللذة الآتية مع الطاعة لا تعادلها لذة ، رحمة من الله تعالى لعباده المؤمنين ، وهى لذة لا تظهر إلا

لأصحابها ، ومسكين من حرم منها . (والحلاوة التى يجدها المؤمن فى قلبه بذلك فوق كل حلاوة ، والنعيم الذى يحصل له بذلك أتم من كل نعيم ، واللذة التى تناله أعلى من كل لذة ، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : « إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش طيب » . وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز بها طرباً بأنسه بالله وحبه له . وقال آخر مساكين أهل الغفلة خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها . وقال آخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) [1] .

ولا نظنُ داعية لم يجرب مثل هذه المشاعر ، ويمر بلذة الطاعة ، ومشقة المعصية ، ولكن المهم أن يستشعر الداعية ذلك ويتذكر ويحكم على الكثير من خلال القليل ، ويبادر إلى الخير باستمرر ، ويتذكر مثل هذه المعانى ، وأن لا ينسيه الشيطان ذلك .

إن على الداعية أن يعتبر بذلك باستمرار ، إذ إن الله تعالى ينبه المؤمن بطرق مختلفة قد تكون على سمعه كالأجراس ، أو على عينه كالأضواء ، بل قل كالبوارق اللامعة تلمع لقلب المؤمن إذ قيل : إن « البرق : باكورة تلمع للعبد ، فتدعوه إلى الدخول فى هذه الطريق »

---

(١) إغاثة اللهفان : ١ / ١٩٧ .

بل هى أنوار تقذف فى قلب العبد تدعوه إلى دخول طريق الصالحين .

البرق الأول : التيار المباشر

منها الموعظة المباشرة ، وعلى المؤمن أن يتقن فن الاستماع إليها ، ولا يتكبر عليها ، ولا ينظر لها بمقياس قائلها ، فإن من تحيطه النيران ، أو تهاجمه الذئاب يشكر من ينبهه على الخطر ، ولا ينظر إلى شكله أو شخصه ، وكذلك الموعظة فيها الخير الكثير ، والإسراع فى طلب الخير ، والبعد عن المعاصى فما ضَرَّ المستمع أن لا ينظر إلى صاحب الموعظة أكان ملتزماً بها أم لا ، وكذلك فإن المؤمن لا يمل من تكرار المواعظ عليه ، فإن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، وقلب المؤمن بحاجة إلى استمرار إزالة الرين عنه حتى يبقى دائماً على صفائه ، ولا ينفك قلب المؤمن من تراكم السيئات عليه فلا تزول إلا بالحسنات ، ولا تزاد الحسنات إلا بكثرة تنبيه المواعظ ، ومثل النكت على القلوب كمثل ترسب المعادن على الألواح ، فلا تزال إلا بتيار المواعظ المستمر ، والقلوب درجات متفاوتة فى تأثرها بالمواعظ ، والسعيد من ازدادت حساسيته ، وسارع بالاستجابة لها

البرق الثانى : لاسلكى القلوب

ومنها : الموعظة العامة ، فقد يوعظ المؤمن فى حالة لم يتلبس

حينها بذنب أو معصية ، ولكن المؤمن ينتبه ، ويأخذ عموم الموعظة لينتفع بها في وقتها حيث تخزن فى ذاكرته ، ونضرب لذلك مثلاً فنقول : إن المؤمن قد يتصرف فى أمر ـ وهو متواضع فيه ـ فيوعظ فى نفس الوقت بتجنب الغرور ، فتخفى هذه الموعظة على بعض المؤمنين ، وقد يدلس عليه الشيطان على أساس أنه لم يكن مغروراً فى عين المسألة التى وُعظ بها ، فتمر الموعظة دون استفادة ، ولكن المؤمن الكيس الفطن يدرك أنه بحاجة إلى هذه الموعظة ، وما هى إلا هبة من الله تعالى ، وإن جاءت ـ فيما يظهر ـ فى غير مناسبتها ، وإنه قد يكون متلبساً بصفة تحتاج لهذه الموعظة ، ومجيئها فى غير مناسبتها قد تكون فيها حكمة خافية علينا ، فهى إمّا امتحان لعبده المؤمن كيف يستجيب للموعظة ، أو أنها رحمة به حتى يؤجر مرتين أحدهما لسماع الموعظة والأخرى بسبب صبره على سماعها دونما حاجة آنية ، أو أنها عقوبة معجلة لما يصاحبها من ألم ومعاناة لأجل ذلك العيب ، وهكذا يقاس على هذا المثال نظائره ، فقد يوعظ المرء بالبذل والعطاء حتى أثناء بذله وعطائه ، وقد يوعظ المرء بالصبر وهو فى أشد حالاته من الصبر ، ولقد ورد عن السلف الصالح أنهم يفرحون حتى بأشد حالات الإساءة لهم ، حتى من التنبيه الخفى على معاصيهم وذنوبهم ، وقد كان أحدهم إذا شاتمه أحد أو خاصمه يقول : « إن كنت من أهل جهنم فأنا أسوأ من ذلك ، وإن

كنت من أهل الجنة ما يضيرنى ما تقول » . وإنما ينتفع المرء بالعظة عندما يشعر بشدة الافتقار إليها ، ويعمى عن عيب الواعظ ، ويتذكر الوعد والوعيد .

البرق الثالث : إشارة الحر

ومنها : ما قد يأخذه المؤمن المرهف الحس من الإشارة البعيدة ، دون النظر إلى الألفاظ أو الاهتمام بها ، كما حصل للسرى السقطى ، وهو يسمع قول الحادى :

أبكى وما يدريكِ ما يبكينى

أبكى حذاراً أن تفارقينى

فكان من البكاء خوفاً من الإعراض عن الله والإبعاد ، ولم يلتفت إلى تذكير أو تأنيث .

وتأثر بعده الجنيد ـ رحمه الله ـ رغم بُعد الإشارة ، بل وإن مقصد الألفاظ غير ذلك (وما زال المتيقظون يأخذون الإشارة من مثل هذا حتى كانوا يأخذونها من هذا الذى تقوله العامه ...) [1] .

وهذا هو الحس المرهف الذى يجب أن يكون للمؤمن ، يفتعل الموعظة لنفسه من إشارة بعيدة فتؤثر فى قلبه حتى أزجال الشعراء ، وأقوال الحكماء ، ويحول المعانى البعيدة إلى معان قريبة تؤدى دورها

فى ترقيق قلبه وتصفية كدره ، والابتعاد عن المعصية ، والتلبيس بالطاعة ، ومثل الإشارات البعيدة ما يراه من تصاريف القدر ، وأخبار الناس ، وحكايات البشر ، إضافة إلى حقائق الكون ، وسنن الحياة ،ومشاهدات السنن ، فى عوالم الحيوان أو النبات المتعددة .

البرق الرابع : عبرة العثرة

ومنها : عبرة العثرة ، حيث تكون العثرة أو يكون الخطأ سبباً للتنبيه ، فإن من زلق بمطر ، أو عثر بشىء فإنه يلتفت إلى ما عثر به ، فينظر إليه بالفطرة حتى يحذر من الوقوع فى الآثام أو الذنوب التى عثر بها ، وخصوصاً وقد شعر بلذة الطاعة ، وندم المعصية ، بل وعليه أن يخاطب نفسه عند العثرة ، أو حتى عندما يتذكر شريط العثرات فى حياته :

(يا من عثر مراراً هل أبصرت ما الذى أعثرك فاحترزت من مثله ، أو قبحت لنفسك ــ مع حزمها ــ تلك الواقعة ، فإن الغالب ممن يلتفت أن معنى التفاته : كيف عثر مثلى مع احترازه بمثل ما رأى ؟ فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلانى ؟ كيف غرك زخرف تعلم بعقلك باطنه ، وترى بعين فكرك مآله ؟ كيف آثرت فانياً على باق ؟ .. آه لك ، لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يُقِلُّها ظهر ، وتنكيس رأس بعيد الرفع ، ودموع حزن على قبح فعل ما

لمددها انقطاع ..) [١] .

ومما يقاس على ذلك ما قد يحصل للمؤمنين (أو الداعية) من شحه ببعض المال ، فإذا به يصرف مالاً كثيراً فيما بعد ذلك مرغماً ، أو يضن بوقته على الدعوة والإسلام ، وإذا بالأوقات الكثيرة تضيع منه سدى ، ولا يبارك الله تعالى فى وقته ، وقد يتعاجز عن عبادة من أجل شيء طارئ ، وإذا بالعجز يصيبه من بركة الوقت ، أو عافية الصحة .... وكل ذلك مما يدركه كل مؤمن لمعاناته إياه مما لا بد أن يمر فيه برحمة الله ، ولكن أصحاب البصائر هم الذين يظل هذا المعنى عالقاً فى نفوسهم ، والسعيد السعيد من وفقه الله تعالى .

البرق الخامس : البصر بالعيوب

إن من فضل الله على خلقه المؤمنين ، ما ينقدح فى قلب المؤمن من معرفته بنفسه إنْ ترك الغرور أو كلما زادت معرفته انكشفت له أسرار النفس ، وكلما تقدم فى الطاعة كلما أبرزت له المعايب ، ومن كانت له بصيرة لم تخف عليه عيوبه ، ولكن الجاهل فقط هو الذى يرى القذى فى عين إخوانه ولا يرى الجذَعَ فى عينه ، وهذا الذى ينبه الله تعالى المؤمن على عيوبه بما يرزقه إياه من شيخ مرب يبصره

---

(١) المرجع السابق : ١٢٨ .

بعيوبه ، وطرق علاجه ، وهذا هو الرزق الجميل كما يرزق الله تعالى مريض الجسد بالطبيب الحاذق ، وقد يرزقه تعالى القرين الصادق الصدوق فيكون كالرقيب على النفس يبصره المعايب بالنصيحة دون التعيير ، والصدق دون الملامة ، وبالخفاء دون التشهير ، وإن حرم المؤمن الشيخ أو المربى ، ومن الصديق أو القرين ، فلا ينزعج من معرفة ذنوبه من خلال نقد الآخرين ـ ولو كان نقدهم تشهيراً أو تعبيراً ـ بل حتى ولو كان النقد من الأعداء والحاسدين ، فربما امتزج الباطل مع الحق ، والكذب مع الصدق فيعرف عيوبه من ألسنة أعدائه ، وعين السخط تبدى المساويا ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر أو قريب حاسد ، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن ، وانكشاف عيوب النفس أشبه بهدية جاءت من الآخرين ، وما على الإنسان أن يؤجر إذا استفاد من ذلك بينما يأثم الآخرون ...

وقد ذكر أحدهم لأبى بكر الصديق أنه سيقول فيه قولاً يدخل معه قبره فقال له ـ رضى الله عنه ـ : يدخل ـ والله ـ قبرَكَ لا قبرى وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : رحم الله امرأً أهدى إلينا عيوبنا .

والبصر بالعيوب قد يكون من التفكر والتذكر ، وكلاهما من

منازل السائرين إلى الله ، فيكون المؤمن بعدها منتفعاً حيث ينقدح فى نفسه قادح الخوف والرجاء ، فيتحرك ويعمل طالباً الخلاص من الخوف، وراجياً رحمة ربه ، ثم يزداد بفضل الله بصيرة بقوة الاستحضار .

البرق السادس : المرايا العاكسة

إن العاقل الذى يبصر عيوب الآخرين ، لا بد وأن ينعكس ذلك فى أن ينظر لنفسه ، فيكره ما يكرهه فى الآخرين ، ويبغض لنفسه التلبس بما يعيب الباقين ، وهكذا ، يستفيد من الخلطة فيجتنب ما يراه مذموماً ، وكما ينظر إلى من هو دونه فى المال فيحمد الله على الرزق ، فعلى المرء النظر إلى من هو دونه فى الخَلْقَ ليحمد الله على العافية ، من مساوئ الغير ، ولعل ذلك من معانى قوله ﷺ : « إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه فى المال والخَلْق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه » (١) .

وكذلك على المرء أيضاً فى المسائل الدينية والأخلاق أن ينظر إلى من هو فوقه أيضاً للاقتداء به ، فيحصل له الخير فى النظر إلى الأعلى والأدنى .

(هذا الحديث جامع لمعانى الخير ، لأن المرء لا يكون بحال

---

(١) حديث متفق عليه .

تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها إلا وجد من هو فوقه ، فمتى طابت نفسه اللحاق به استقصر حاله فيكون أبداً في زيادة تقربه من ربه ، ولا يكون على حال خسيسة من الدين إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه ، فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك من غير أمر أوجبه فيلزم نفسه الشكر ، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده ..) [١] .

والمؤمن يستفيد عند النظر إلى غيره ، فتكبر منه منزلة المراتب ويشعر أن الله رقيب عليه ناظر إليه ، سامع لقوله ، مطلع على سرائره ، وبالتالي يكون المؤمن واعظاً لقلبه ، مراقباً لنفسه ، فيحرص عليها بالعلم ، ويحرسها بالعمل .

البرق السابع : عاجل بشرى المؤمن

وقد يمن الله تعالى على بعض عباده بالرؤيا الصادقة وهي من الله تعالى ، والأغلب من رؤيا الصالح الصدق ؛ لقوله ﷺ : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » [٢] .

وكما ورد في صحيح مسلم : « وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً » .

---

(١) فتح الباري : ١١ / ٣٢٣ .

(٢) حديث متفق عليه .

وقـال أبو بكر بن العـربى : « رؤيا المؤمـن الصـالـح هى التى تنسـب إلى أجزاء النبوة ، ومعنى صلاحها استقامتها وانتظامها » .

وقـال القـرطبى : « المسلم الصـادق الـصالـح هو الذى يناسب حـاله الأنبياء فـأكرم بنـوع مما أكرم به الأنبـيـاء وهو الاطـلاع على الغـيب ، وأما الـكافر والفـاسق والمخـلط فلا ... » .

(إن الرؤيا خـبـر صـادق مـن الله لا كـذب فـيـه ، كـمـا أن مـعـنى النبوة نبـأ صـادق مـن الله فشابهت الرؤيا النبـوة فى صدق الخبر ..) [1] .

وهكذا قـد ينبه المسلم على خـيـره وفـضله ، أو بعض عـيـوبه ومسـاوئه بواسطة الرؤيا الصادقـة فتدفـعه لمزيد من الخيـر ، أو تقوده لدرء النقص .

البرق الثامن : نداء الموت

ومن الأجراس رؤية الذاهبين إلى القبور، وشواهدهم الشاخصة على الأحـجار والصـخـور ، حيث يتـذكـر الإنسان الـقبـر والبلى ، ويعتـبر بمصارع الغـير ، ولا يغتـر بالصحة ، ويـنسى دنو السقم ، أو يفرح بـالعافيـة والشبـاب ، وينسى قريب الألـم ، وإن الموت قادم لا

(١) فتح الباري : ١٢ / ٣٦٣ .

محالة ، ومهما طال العمر فالنزول إلى القبر لا بد منه ، ولا مفر من ضيقه وظلمته .

(من تفكر في عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر ، ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه ، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه تغلبك نفسك على ما تظن ، ولا تغلبها على ما تستيقن .. أعجب العجاب ، سرورك بغرورك ، وسهوك في لهوك ، عما قد خبئ لك...) (١) .

وأي موعظة وتنبيه أبلغ من رؤية ديار الأقران ، وأحوال الإخوان ، ورحلة النعوش ، وقبور المحبوبين ، وكثرة المحمولين ، ويعلم الإنسان أنه على طريقهم ، سيكون عبرة لغيره كما اعتبر بهم

البرق التاسع : دبيب البلى

أما إذا دبت الأوجاع ، وجاءت الأسقام فهي الإشارة الأوضح والتنبيه الأدق فوق كون هذه الأمراض والأسقام كفارة للمؤمن ، ويجازى فيها على الصبر ..

قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يصب منه » (٢) .

---

(١) صيد الخاطر : ٤٤ .   (٢) رواه البخاري .

وأحاديث هذا الباب كثيرة جداً وفيها دليل على الخير الذى يصيب الإنسان المؤمن بسبب البلاء .

(وفى هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن ، لأن الآدمى لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو همّ ، أو نحو ذلك مما ذكر ، وإن الأمراض والأوجاع والآلام ـ بدنية كانت أو قلبية ـ تكفر ذنوب من تقع له ..) (١) .

وقد يقع المؤمن فى الأمن الخادع ، وما يدرى أن السنين تسير ، والليالى تمر ، ويحسب أن العمر فى زيادة ، ما علم أنه فى نقصان ، ويحسب أنه لا يزال فى ريعان الصبا ، وعز الشباب ما دام فى صحة وعافية ، وما يشعر أن البلى يدب إليه ، والأعمار محدودة ، فما أن ينتابه مرض حتى تظهر معه بقية الأوجاع ، ويبرز ما اختبأ من الأسقام دفعة واحدة ، وعندئذ يكون الندم على تفويت الأيام والليالى ، وعلى إضاعة الصحة قبل السقم .

البرق الأخير : كفى بالشيب واعظاً

ودبيب الشيب جرس دائم ، ومن تجاوز الأربعين خطّه المشيب ، ولا يغرّنه ما يغرر به نفسه من صبغ وتجميل ، فما يحسبه زيادة عمر ما هو إلا نقصان ، وقد قال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم ما**

(١) فتح الباري : ١٠ / ١٠٨ .

يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ .

واختلف فى المراد من التعمير فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ستون سنة ، لقوله ﷺ : « أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله حتى بلغه ستين سنة » [1] .

وكلاهما حق ، فالأربعون بداية التنبيه ، وكلما بلغ الزيادة فى العمر ، زادت شدة التنبيه حتى تبلغ ذروتها فى الستين ، إذ هو معدل الإنسان ، وما يدرى فقد يسقط فى أية لحظة ، وينهار تحت أى مرض ، فيُسأل عن عمره فيما أفناه !! ، وكيف ضيع الأوقات ، وأهمل الأيام ، وإن خدع الإنسان نفسه أو غيره بالسواد أو الخضاب ، فهيهات هيهات أن تغيب الآجال عن بارئها .

الربح الأخير

وهكذا تعمل الأجراس فى القلب اليقظ الحساس ، فتختلف عنده الموازين ، وتتغير عنده المقاييس ، فيبادر إلى لذات العمل الجاد ، ويترك اللذائذ الزائفة ، وينظر إلى السعادة واللذة بمقاييسها الشرعية ، فهذا هو صهيب ــ رضى الله عنه ــ يترك ماله ويعتبر ذلك ربحاً ، فيقول له المصطفى ﷺ : « ربح البيع يا أبا يحيى ، ربح الربح يا أبا

(١) المرجع السابق : ١١ / ٢٣٩ .

يحيى » .

وهذا هو الإمام على كرم الله وجهه ، يحدد أحب الأشياء إليه إنها : « الضرب بالسيف ، والصوم بالصيف ، وإكرام الضيف » . وسيف الله المسلول لا يرى سعادته فى أمر من أمور الدنيا ، بل يقول عن نفسه : « ولأنى فى كتيبة من المهاجرين والأنصار ، فى ليلة شديدة البرد ، أترقب منها الهجوم على العدو أحب من أن تزف إلىَّ عروس » .

فإنه انتقل بنفسه من العمل الدنيوى إلى الأخروى ، قاده قلبه ببركة المعرفة والعلم إلى العمل بالفاضل وترك المفضول ، وأن يدرك الأولويات ، وأن لا يدلس عليه الشيطان ، فيلهيه بالنوافل ليترك الواجبات ، أو يقنعه بالعزلة ولذة الاستكانة تاركاً ألم الدعوة إلى الله تعالى ومرارة طريق الأنبياء فى مجابهة الخلق ، أو أن يبرر أداء واجباته تجاه بيته وأولاده تاركاً مصاعب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ..

والقلب المتيقظ : الذى يعرف أن أساس العمل الصالح علم صائب ، واقتضاء العلم الخاص عمل مثمر ، وإن الأعمال الصالحة يزداد أجرها بأثرها على العباد ، وإن منها ما تتضاعف حسناته حتى قيام الساعة ..

الأنس بالله

وأخيراً .. فالعاقل من يلازم باب مولاه ، ويتعلق بالله عز وجل إن عصى وإن طاع ، وليكن أنسه بالله عز وجل ، إن رأى الضرر والمعصية فيسأل الله إصلاح قلبه ، وعلاج مرضه ، وإن رأى الطاعة سأل الله تعالى التوفيق ، وسأله حسن النية ، ثم يسأله القبول .

ويجب أن لا يأنس إلا بالله تعالى فى كل الأوقات والأحوال : « وقد كان أرباب التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن اللجاج والسؤال ، وفى الخبرا إن قتيبة بن مسلم لما صَافَّ الترك ـ أى وقف حيالهم فى الحرب ـ هالهُ أمرهم فقال : أين محمد بن واسع ؟ فقيل : هو فى أقصى الميمنة جانح على سِيَةِ قوس يومى بأصبعه نحو السماء فقال قتيبة : تلك الأصبع الفاردة أحب إلى من مائة ألف سيف شهير ، وسنان طرير فلما فُتح عليهم ، قال له : ما كنت تصنع ؟ ، قل : آخذ لك بمجامع الطرق ..) [1] .

والأنس بالله هو القائد إلى سرور المؤمن الذى يذهب بخوف الانقطاع عن ركب الدعاة والمحبين ، ويمحو حزن ظلام الجهل بالله والغىّ والعمى ، كما أنه يزيل حزن وحشة التفرق والبعد عن مرضاة الله تعالى ، وما يجر ذلك من ألم الوحشة ، ونكد التشتت .

---

(١) صيد الخاطر : ١٢٧ .

وهذا الأنس هو الناتج عن سماع الله تعالى له وإجابته ، والإعطاء على حسب المراد وأكثر مما يزيل وحشة البعد ، ومرارة الحياة ، ثم يظهر على العباد بالفرح والسرور بسماع إجابة صاحب الفضل ..

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون ﴾ .

وبعد أن يدرك الداعية هذه الأنوار ،ويميز بين العوائق والأخطار ، ويدرك طريقه المستقيم ، وخطه الواضح ، يبين له ابن القيم رحمه الله فيقول : « وبقى الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ، ويشمر مسافراً في الطريق قاطعاً منازلها ، منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى ، واستشعر بالقرب من المنزل ، فهان عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ، ومواصلة الشد والرحيل ، وعَدَها قرب التلاقي ، وبَرْدَ العيش عند الوصول ، فيحدث لذلك نشاطاً وفرحاً وهمة ، فهو يقول : يانفس أبشرى ، فقد قَرُب المنزل ، ودنا التلاقي ، فلا تنقطعى في الطريق دون الوصول ... » (١) .

فيا سعادة من استفاد من البروق والأنوار ، واستلهم من

---

(١) طريق الهجرتين : ٢٣٢ .

الإشارات والتنبيهات ، فعـرف الطريق ، وأبصر المسـار ، وكان نعم المسافر فى قافلة المؤمنين .



(١٩) جسر على الطريق

في طريق المسافرين في قطار الدعوة جسرٌ ، لا بد من تجاوزه ، وعبوره ، إذ إن هذا شأن السالكين إلى الله تعالى ، في كل زمان ومكان ، بل وإنه من شأن الأنبياء والمرسلين ، ذلكم الجسر هو الابتلاء والمحن ، التي تصيب الداعية في دينه ودنياه ، حتى يخرج من الدنيا ، وقد صقله الابتلاء ، وأظهرت معدنه المحنة ، وليس التشبيه للمحنة بالجسر على الطريق ، بالشيء الجديد ، فلنستمع إلى ابن القيم ، رحمه الله ــ وهو يقول : « وإن تأملت حكمته سبحانه وتعالى فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات ، وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان ، وكان ذلك الجسر لكماله ، كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه ، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم ، والكرامة ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطنه فيه الرحمة والنعمة ، فكم لله من نعمة جسيمة ، ومِنة عظيمة ، تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان ... » [1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٢٩٩ .

سنة الله خالدة

إن من سنة الله فى الكون ، أن المنافع لا تجنى إلا بشىء من المتاعب ، حتى يتفاضل البشر فى الكسب ، وتكون النتائج حسب مقدار الأعمال ، فيبذل الخلق الجهد حيث تتحقق عمارة الأرض ، وهو الهدف الذى أراده الله تعالى للخلائق ، بل جعل العمل أحد مظاهر العبادة ، يتخذ عند أهل التكليف صوراً ،كما يتخذ مظهر التسبيح والإلهام عند بقية المخلوقات ، ولذلك يشاهد وفق هذه القاعدة الكونية ، أن الطعام والشراب ، والصيد والسكن لا يتحقق لبنى آدم إلا بالجهد والنصب ، وفى الوقت نفسه فهى مسخرة له ، وليس تناولها بالأمر المستحيل ، وكذلك الوصول للآخرة ؛ لا يتم إلا بنصب العمل لها ، ومشقة السعى لأجلها ، وأوضح الله تعالى لنا مظهراً آخر فالجنة لا يعبر إليها إلا بتجاوز الصراط .

وبناء على هذه السنة التى أرادها الله لعباده ، فإن الأجر الجزيل ومثوبة العمل يتوج بالمحنة التى تصيب المسلم ، وبالأذى الذى يقابل به ،سواءً من قبل الخلق ، أو ما يعانيه من مرض أو أذى فى نفسه وماله وولده .

وهذه المحن هى التى تخرج المؤمن من الدنيا نقياً ، وقد دلت على ذلك الكثير من الآثار ، بل حتى نزعات الموت ، وآلام النزع

مكفرات لذنوب المرء .

المحنة .. تمييز

(.. لكن بما اقتضته حكمته ، ومضت به سننه ، من الابتلاء والامتحان ، الذى يخلص الله به أهل الصدق والإيمان من أهل النفاق والبهتان ، إذ قد دل كتابه على أنه لا بد من الفتنة لكل من الداعى إلى الإيمان والعقوبة لذوى السيئات والطغيان ، قال الله تعالى : ﴿ **ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾ [(١)] .

فأنكر سبحانه على من يظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب ، وأن مدّعى الإيمان يتركون بلا فتنة تُميّز بين الصادق والكاذب ، وأخبر فى كتابه أن الصدق فى الإيمان لا يكون إلا بالجهاد فى سبيله ، فقال تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ [(٢)]) [(٣)] .

ولقد أجمع علماء الأمة ، وأطنبوا فى شرح آيات سورة العنكبوت ، بينوا أن الفتنة والمحنة فى الأهل والمال والدين ، أو إصابة

(١) العنكبوت : ١ ـ ٤ . (٢) الحجرات : ١٤ ، ١٥ .

(٣) فتاوى ابن تيمية : ٣ / ٣١٢ .

المسلم بالبأساء والضراء هما الفيصل بين المؤمن وغير المؤمن ، وبهما يتميز الصادق من الكاذب ، بل ورد فى النصوص أن البلاء على قدر الإيمان ، وكلما زاد إيمان المؤمن زيد له فى البلاء حتى يخرجه نقياً

وأنواع المحن والفتن التى قد تصيب النفس والمال والدين ، هى البأساء والضراء والزلزال فقد قال تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ (١) .

سنة الأنبياء

ولكن نتيجة المحن هو حسن الخاتمة فى الدنيا والآخرة ، وهكذا جرت سنة الله على الأنبياء والمرسلين ، وهم أكرم الخلق ، وأعز البشر عند الله تعالى ، وهكذا أرادهم الله تعالى بحكمته وتقديره أن يكونوا قدوة لأتباعهم .

(فتأمل حال أبينا آدم ﷺ وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ، ورفعة المنزلة ...

وتأمل حال أبينا الثانى نوح ﷺ وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها ، حتى أقر الله عينه ، وأغرق أهل

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

الأرض بدعوته .

ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء ... وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره ، وبذله نفسه لله .. إلى أن اتخذه الله خليلا ..

ثم تأمل حال الكليم موسى ﷺ وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلمه الله تكليما ، وقربه منه ..

ثم تأمل حال المسيح ﷺ وصبره على قومه ، واحتماله في الله ما تحمله منهم ، حتى رفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا ، وانتقم من أعدائه ...) (١) .

وخاتم المرسلين .. أمثلهم

وكان لا بد أن تكون سيرة خاتم المرسلين مشحونة بالمحن ، أسوة ببقية الأنبياء ، فكان حظه أكثر منهم ، وأشدهم بلاء في الله تعالى ، ففي جوانب حياته الشخصية ابتلي بفقد أولاده صغاراً ، وطلقت بنتاه رقية وأم كلثوم من ابني أبي لهب ، وماتت ابنته رقية ، وقبلها ابنها في حياته ، وفقد ابنته أم كلثوم ونزل في قبرها كما فقد زينب في حياته أيضاً ، كما عاش حياة اليتم والفقر والحاجة ، وعاني

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٣٠٠ .

من الأمـراض والعلل ، وتـلقى كل ذلك بقـلب رضى ، وحـاله فى مجال دعوة الخلق ، ليس بأقل من ذلك .

(فإذا جئت إلى النبى ﷺ وتأملت سيرته مع قومه ، وصبره فى الله واحتمـاله ما لم يحتمله نبى قبله ، وتـلون الأحوال عليه من سلم وأذى الكفـار له بسـائر أنواع الأذى من القـول والفـعل ، والسـحر والكذب ، والافـتراء عليـه والبهـتان ، وهو مع كل ذلك صـابر على أمر الله ، بل يدعو إلى الله . فلم يؤذ نبى مـا أوذى ، ولم يحتمل فى الله ما احـتمله ، ولم يعط نبى مـا أعطيه ، فرفع الله له ذكـره ، وقرن اسمـه باسمـه ، وجعله سـيد الناس كلهم ، وجـعله أقرب الخلـق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ...) (١) .

وهكذا جـرت سنة الله على أكرم خـلقه ، فـاختـبره الله تعـالى بنصفى الإيمان الصبر والشكر ، حيث صبر على البلاء ، وشكر عند الرخاء ، فاستحق المكانة العليا ، والمنزلة الرفيعة ، فكانت بذلك أمته خير الأمم ، وأتباعه أكثر الأتباع ، ولواؤه يوم القيامة أعظم الألوية .

وأمته من بعده

ومضـى أتباعـه من الصحـابة على المنهج نفسـه ، ونزلت فيـهم أوائل سورة العنكبوت ، (قـال ابن عباس وغيـره : يريد بالناس قوماً

(١) المرجع السابق : ٣٠١ .

مؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام .. فكانت صدورهم تضيق لذلك وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ، قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة ، أن هذه هى سيرة الله فى عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة .

قال ابن عطية : وهذه الآية ـ وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال ، فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية فى ثغور المسلمين ، ونكاية العدو ، وغير ذلك ، وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ، ففيه ذلك بالأمراض ، وأنواع المحن ...) (١) .

وبعد الصحابة تلقى التابعون المحن ، وإن صارت بمظاهر أخرى ، وأشكال متعددة ، منها ما هو شخصى ، ومنها ما هو جماعى ، وتوالت أجيال المسلمين على المنهج نفسه ، ويسلكون الطريق نفسه ..

ابن تيمية على الطريق

ومن النماذج التى على الطريق ما لاقاه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من سجن وتعذيب ، ومع هذا فهو يشعر بلذة المحنة ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ٣٢٣ .

فيقول فى رسالة لإخوانه :

« ونحن ولله الحمد والشكر ـ فى نعم عظيمة تتزايد كل يوم ، ويجدد الله تعالى من نعمه نعماً أخرى ، وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها ، لتقفوا عليه ..

والأوراق التى فيها جواباتكم وصلت ، وأنا طيب ، وعيناى طيبتان أطيب ما كانتا ، ونحن فى نعم عظيمة ، لا تحصى ولا تعد ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .. » (١) .

فانظر أخى الداعية إلى شعور المسلم الصادق ، حيث يكون همّه حتى فى المحنة ، ما يقدمه للإسلام والمسلمين ، ويكون فرحه بالنتاج الدعوى ، وتقدم العمل الإسلامى أكثر من أى أمر آخر ، وما أحوج الدعاة فى قطار الدعوة إلى التأمل فى رسالة شيخ الإسلام كيف يشعر ـ وهو فى السجن ـ بنعمة الله بخروج التعليمات منه ، والكتب والرسائل إلى إخوانه ليطلعوا على ما فيها .

من خصائص المحن

للمحن خصائص ومميزات تحّولها إلى طاعة وعبادة ، فكما أن

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ٤٧ .

المسلم يجب أن لا ينفك عـن عبادة ما ، مـن صلاة أو سعى فى معـاش ، فلا بد أن يـكون شعـوره بالابتـلاء هكذا ، يدوم معـه فى حركاته وسكناته ،حتى يستصحب نية الصبر على البلاء .

(.. فالمحب الصـادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحـركة اختيـارية فى غير مرضاته ، وإذا فـعل فعلاً مما أبيح له بموجب طبيـعته وشـهـوته ،تاب منه ، كـمـا يتـوب من الذنب ، ولا يزال هذا الأمـر يقوى عنده ، حـتى تنقلب مبـاحـاته كلها طـاعات فـيحتـسب نومه وفطره ، وراحته ، كـما يحتسب قومته ، وصومـه واجـتهاده ، وهو دوماً بين سراء يشكر الله عليها ، وضراء يصبر عليها ، فهو سائر إلى الله دوماً فى نومه ويقظته ...) [1] .

ولا بد من ملاحظة نوعى المحنة ، فمنها مـا هو من الضراء التى ينبـغى الصبـر عليهـا ، ومنها مـا هو فى السـراء التى تقتـضى الشكر عليها والمؤمن مـتقلب بين الخوف والرجاء ، وإن وجد ضـراء صبر ، وإن وجد سراء شكر .

وخصيصة أخرى

ومع كـون السـراء من أنواع الابتـلاء ، إلا أن على المؤمن أن لا يشعر أن ذلك حتماً على الله ، أو نتيجة عمله ، بل هو محض توفيق

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٦٠ .

وعطاء من الكريم المتفضل عليه ، إذ إن (.. قوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا** ﴾ : عافية ورخاء وغنى ، ﴿ **من بعد ضراء مسته** ﴾ : ضر وسقم وشدة وفقر ، ﴿ **ليقولن هذا لي** ﴾ ، أي : هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي ، فيرى النعمة حتماً . واجباً على الله تعالى ، ولم يعلم أنه ابتلاء بالنعمة والمحنة ، ليتبين شكره ، وصبره ....)[1] .

وهكذا أجمع سلف الأمة ، على أن من اعتقد في وجوب النعم على الله فقد وقع استدراج الشيطان له ، فالنعمة من الله محض عطاء من الخالق ، والله تعالى يبتلي عباده حسب درجاتهم ، ومنزلتهم بأنواع من النعم والنقم ، ليختبر الشكر والصبر فيهم ، ثم يتفضل بالعواقب عليهم ، ثم يمنح الأجر والثواب كيف شاء ، ومتى شاء ، بفضله وتقديره .

ليس الشديد بالصرعة

ومن خصائص المحن ، أن المؤمن ـ والداعية خصوصاً ـ يجب عليه الصبر ، وقد يجتمع في الوقت نفسه ، صبران ؛ صبر على النعمة وصبر على النقمة ، فيكون المؤمن بينهما بين منزلتي الشكر والصبر ، وينال من خيريهما ، (ولقد سبق الحديث عن الصبر) .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥ / ٢٧٣ .

كما قد يقترن أو يجتمع مع صبر المصيبة صبر آخر ، هو الامتناع عن الاستجابة لمداخل الشيطان الأخرى ، فقد يصبر المؤمن على أمر ، ولكنه يغضب ويقع في ذنوب أخرى ، فاقتضى التنبيه على هذا الأمر ، بضرورة الصبر على الغضب : (وهذا الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر الغضب ، نظير الجمع بين صبر النعمة وصبر المصيبة كما في قوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ (١) ...) (٢) .

لا نحرص على المحن

والمتابع لسنة المصطفى ﷺ وهديه يجب أن لا يحرص على المحنة طمعاً في الحصول على ثوابها ، بل والمؤمن لا ينبغي له تمني المكروه ، بل يحرص على حصول العافية ، والعافية أحب إلى المؤمن من الابتلاء ـــ وهكذا تمنى الصادق المصدوق ـ ولكن عليه بالصبر إذا ما ابتلي بشيء ما ، وهذا هو المنهج الصواب الذي سار عليه السلف ، ولا عبرة بجهل البعض الذين يقرأون قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم**

---

(١) هود : ٩ ـ ١١ .   (٢) الفتاوي : ٢٨ / ١٥٩ .

يتضرعون ﴾ [1] .

ويستدلون بها في تأديب أنفسهم بتفريق أموالهم ، وحمل أنفسهم على الجوع والعرى ، طمعاً في حصول الأجر ، قال الإمام القرطبي معقباً على فهم هؤلاء لهذه الآية : (.. هذه جهالة ممن فعلها ، وجعل هذه الآية أصلاً لها ، فهذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها ، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ، ونكافئها قياساً عليها ، فإنها المطية التي نبلغ بها دار الكرامة ، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة ، وفي التنزيل ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾ وقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم** ﴾ ... فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ، ويتجملون بها ، وكذلك التابعون بعدهم وهلم جرا ... ولو كان كما زعموا واستدلوا لما كان في امتنان الله تعالى بالزروع والجنات ، وجميع الثمار والنبات ... إلى غير ذلك مما امتن به كبير فائدة ، فلو كان ما ذهبوا إلى فيه الفضل ؛ لكان أولى به رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء ...) [2] .

وفي كلام القرطبي ما يكفي للنظر إلى الكثير من الأدلة من

---

(١) الأنعام : ٤٢ . (٢) تفسير القرطبي : ٦ / ٤٢٤ .

القرآن الكريم والسنة فيما امتن الله به على البشر ، وما كان عليه الصحابة والسلف ، وقبلهم الأنبياء والمرسلون ، ما يكفى للرد على جهالة المتصوفة وأشباههم ، وفى الوقت نفسه يستلهم الدعاة الدرس بعدم التمنى للمحن ، بل ومحاولة دفعها بالأسباب .

علاج المحن

أمّا على وجه الإجمال ، فإن استجابة المؤمن لمحنة البلاء تكون بالصبر ، ومقتضى محنة النعمة الشكر ، وكل منهما مقرون بعبادات وأذكار ، ومعاملات واعتبار فالشكر يقرن بالشعور بالتواضع ، وعدم الاستكانة لاستدراج الشيطان ، وذكر محاسن الآخرين ، والوجل من تعجيل العذاب ، وعدم الأمن من مكر الله ، والخوف من عدم تقبل الطاعة ، وسؤال الله تعالى المزيد من فضله ، والصبر يقرن كذلك بعدم اليأس أو الجزع ، أو إيذاء الغير ، وكذلك الاستزادة من الصلاة والصيام ، فبها جميعاً يتكامل الجزاء من الله (ولهذا يقرن الله بين الصلاة والصيام تارة ، وبينهما وبين الصبر تارة ، ولا بد من الثلاثة : الصلاة والزكاة والصبر ، لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك فى صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة ، فالحاجة إلى ذلك تكون أشد ، فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بنى آدم لا تقوم مصلحة دينهم ، ولا

دنياهم إلا به) [1] .

كما لا بد من اقتران السماحة بالصبر ، وعدم استعلاء الممتحن على غيره ، أو شعوره بأنه أكثر جهاداً ، وأصلب عوداً ، فيبذل نفسه أو ماله من جهة ، ويستدرجه الشيطان ليقع فى غرور العبادة من جهة أخرى ، وهى فتنة أشد ، وضررها على المؤمن أكبر ، ولا بد للداعية ـ على وجه الخصوص ـ مع ضرورة إدراكه لمعانى الخير فى المحن ، أن يتصورها باستمرار أنها جزاء سوء عمله ، وتكفير لذنوبه ، لا على أنها ، اختبار مَنَّ الله به عليه ، ليحول الامتحان والبلاء إلى تفاخر وغرور ، أو يسجل محنته على أنها مكسب للوجاهة والظهور .

ثبات الغرباء

ومما يجب أن يرتبط بالصبر ، ثبات الدعاة إلى الله تعالى على المنهج ، وعلى طريق الدعوة ، إلى الله دون ملل أو ضجر ، ودونما توان أو فتور ، فصاحب الكسب السريع ، والنية المشوبة يتعب سريعاً ، لا يستمر على مشاق الطريق ، وهكذا ، طبيعة الرسل والأنبياء ، والدعاة والمصلحين فى كل زمان ومكان ، وانظر إلى ما كتبه الإمام الشاطبى لإخوانه فى هذا الموضوع : (.. وأما سائر ما

(١) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ١٥٤ .

كتبتم به في الكتاب ، من طوارق عرضت ،وامتحانات تواترت ، واعتراضات أوردت ، فحاصله راجع إلى ضرب واحد ، وهو أن طالب الحق في زماننا غريب ، والقائل به مهتضم الجانب ، وهذا لم يزل موجوداً فيما بعد زمان التابعين إلى اليوم ، فلنا في سلفنا الصالح أسوة ، غير أنه يجب علينا أن نتأدب بما أدب الله به نبيه ﷺ ، وذلك أن نبث الحق إذا تعين علينا ، وليس علينا أن نأخذ بمجامع الخلق إليه ، إذ ليس ذلك إلينا ، بل الله وحده هو الهادى والمضل ، وقد قال ربنا سبحانه : ﴿ **إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل** ﴾ (١) ..)(٢) .

أى أن الثبات على المنهج يقتضى الثبات على الإيمان ، والاستمرار في الدعوة إلى دون التفات للوراء ، أو نظر للخلف ، أو اهتمام بقلة الأنصار ، ووحشة الطريق .

وعوامل أخرى ..

وهنالك مجموعة من العوامل ، هى من مقتضيات الإيمان أيضاً ، لكنها تزيد من قوة تحمل المحن سواء أكانت الفردية منها أو الجماعية ، والدينية منها والدنيوية ، وتمنح المؤمن المصابر رباطة الجأش ، وقوة اليقين ، للاستعانة بها في زيادة الصبر ، وشدة التحمل

(١) هود : ١٢ .   (٢) فتاوي الإمام الشاطبي : ١٨٢ .

وكل منها يتبعض ، ويزيد وينقص ، كما هو الإيمان نفسه ، وما على الداعية السائر إلى الله إلا التفكير فى كل عامل ، ومحاولة العمل على زيادته فى نفسه ، واستجلابه لذاته . ولقد قال ابن القيم : « أمّا الصبر فى المحن على أذى الظالمين ، وعند النوازل والبلاء ، فإن العبد يستجلبه ، ويستعين عليه بثلاثة أشياء :

ملاحظة حسن الجزاء : وعلى حسب ملاحظته ، والوثوق به ، ومطالعته يخف حمل البلاء لشهود العوض ، وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها ، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها .

والقصد : أن ملاحظة حسن العاقبة ، تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك ، وغير اختيارك .

والثانى : انتظار الفرج : أى راحته ونسيمه ، ولذته ، فإن انتظاره ومطالعته ، وترقبه يخفف حمل المشقة ، ولا سيما عند قوة الرجاء ، أو القطع بالفرج ، فإنه يجد فى حشو البلاء من روح الفرج ، ونسيمه وراحته ، ما هو من خفى الألطاف .

والثالث : تهوين البلية بأمرين : أحدهما : أن يعد نعم الله ، وأياديه عنده .. الثانى : تذكر سوالف النعم ، التى أنعم الله بها عليه

، فهذا يتعلق بالماضى ، وتعداد أيادى المنن ، يتعلق بالحال ... » [(١)] .

بل إن هذه العوامل فوق أنها تخفف المحن ، فهى بذاتها مكسب للمؤمن ، ومن فضل الله تعالى فى تسليط المحن على المؤمنين ، لما فيها من خير عميم يتضمن معانى من العبادة متنوعة .

الشجاعة والسماحة : شرطان

لقد سبق الحديث عن ضرورة السماحة مع الصبر ، إذ إن السماحة تدفع خطوة أخرى نحو كسب القلوب ، ورفع الغل منها ، فالصبر يمنع النفس من الغلبة والاعتداء ، ولكنه قد لا يمنع من المشاعر المكبوتة من الكره والغل أو الحسد والمعاندة ، بينما وجود السماحة يدفع إلى دفع معايب النفس ، وأمراض القلب ، وتجعله صافياً ، تهيؤه لقبول النصح والإرشاد ، والاستماع إلى نداء الخير ، فإذا انضمت الشجاعة للسماحة ، كان المؤمن مندفعاً إلى عمل الخير بشكل أشد ، إذ يملك الإيجابية فى التعبير ، ومجابهة المحن ، وتجاوز الشدائد ، إلى المزيد من البذل والعمل والتضحية ، فكان تمثل الداعية عند المحن بالشجاعة والسماحة أمراً جوهرياً (فهذه الأخلاق والأفعال يحتاج إليها المؤمن عموماً ، وخصوصاً فى أوقات المحن والفتن الشديدة ، فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ، ودفع

(١) تهذيب مدارج السالكين : ٢٥٩ .

الذنوب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم ، ويحتاجون أيضاً إلى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم ، وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه ، وإن كان يسيراً على من يسره الله عليه ...) [1] .

ويلاحظ أن ارتباط الصبر والشجاعة والسماحة ، مع مقتضى الإيمان ، وكلما قويت المحن واشتدت ، صار لزاماً اللجوء إلى عوامل تقوية الإيمان ، لتقوية مقتضياته ، وما ينتج عنه .

ورؤية المشاهد الأحد عشر

كما أن جميع أدوية المحن والبلاء رؤية المشاهد الأحد عشر :

أولها مشهد القدر الذى فيه يتيقن الداعية أن أمر البلاء مكتوب عليه ، ولا مفر منه .

ومشهد **الصبر** الذى سَلَفَ الحديث فيه .

ومشهد **العفو** عن الآخرين رجاء عفو الله .

ومشهد **الرضا** بما قسمه الله تعالى طمعاً فى ثوابه .

(١) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ١٦٥ .

ثم مشهد الإحسان : وهو أن تقابل إساءة المسىء إليك بالإحسان إليه .

ثم برد القلب : وهو من مظاهر يقين المؤمن ، ثم الأمن الذى هو شعبة عنه .

ثم الجهاد : وهو من خير المشاهد حين يعلم الداعية فضل الجهاد فى سبيل الله وثوابه .

ثم بعد ذلك كله رؤية مشهد النعمة ، وما تقتضيه المحن من إنعام الله عليه ، وحسن العاقبة .

وعاشر المشاهد (**الأسوة**) فللداعية أسوة بالأنبياء والمرسلين ، وأئمة الهدى ، والصلاح ، فهو لا ينفك عن قافلة الدعاة ، وركب المصلحين .

ثم تختتم المشاهد كلها ، بأصلها وأسها :

(المشهد الحادى عشر : مشهد (**التوحيد**) وهو أجل المشاهد وأرفعها ، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله ، والإخلاص له ، ومعاملته ، وإيثار مرضاته ، والتقرب إليه ، وقرة العين به .. واطمأن إليه ، وسكن إليه ، واشتاق إلى لقائه .. فإنه لا يبقى فى قلبه متسع لشهود أذى الناس له البتة ، فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلب

الانتقام والمقابلة ...

ولا تتم هذه المشاهد إلا بتحسين خلقك مع الحق تعالى ، بأن تعلم أن كل ما يأتى منك يوجب عذراً ، وأن كل ما يأتى من الحق سبحانه يوجب شكراً ...) (١) .

لا يمكن حتى يبتلى !

والتمكين لا بد من أن يُسبق بالمحن ، حتى يتبين الصادق من الكاذب ، وإذا كان البشر فى حياتهم الدنيا لا يتحققون من دراسة طالب ، أو تدريب مدرب إلا بالامتحان والاختبار ، فلله المثل الأعلى ، فإن أحداً لن يعجز الله تعالى ، فهذه سنته فى الخلق .

(سأل رجل الشافعى فقال : يا أبا عبد الله ، أيما أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يبتلى ؟ فقال الشافعى : لا يمكن حتى يبتلى ، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم ، وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فلما صبروا مكَّنهم ، فلا يظن أحدٌ أن يخلص من الألم ألبتة) (٢) .

والتمكين هو أحد أهداف الطريق ، إذا كان الطريق درب الآخرة ، بل هو أكبر الأهداف فى الحياة الدنيا ، وهو أجل مقامات

---

(١) تهذيب مدارج السالكين : ٤٢٥ .

(٢) الفوائد لابن القيم .

السائرين إلى الله ، وهو النعمة من الله تعالى ، فى استخلاف الذين يمن عليهم بفضله ، وينصرهم إذ ينصرونه ، والورع الحقيقى يكون بالعمل للتمكين ، وليس بمظاهر العبادة ، التى لا تقود لذلك ، ولقد بحث عبد القاهر بن عبد العزيز ـ وكان رجلاً صالحاً ورعاً ـ فى مسائل الورع ، فسأل الشافعى أيها أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين ، فأجابه بالجواب السابق ، ثم قال له : « ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكّنه وآتاه ملكاً ، والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله تعالى : ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم ..** ﴾ .. الآية) ثم علق الغزالى قائلاً : « فهذا الكلام من الشافعى ـ رحمه الله ـ يدل على تبحره فى أسرار القرآن ، واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة .. » (١) .

فانظر إلى إدراك أهل التصوف الحقيقى لمعنى التمكين ، وأنه من مقامات السائرين ، لا القاعدين ، وأن العمل له ، والعلم فيه من علوم الآخرة ، بل واعتبره دليلاً على التبحر فى أسرار الدين ، بينما

---

(١) إحياء علوم الدين : ١ / ٢٦ .

أقعد تصوف البدع والجهالات أهله عن السير .

وأخيراً .. كن على الدرب

وبعد أن عرفت أيها المسافر معنا فى قطار الدعوة ، وما أدركت بنافذ البصيرة ، والعقل الراجح ، ما هى المحن وما مقتضاها ، وما أعد الله تعالى للدعاة ، فإن هذا سيمنحك الصبر من جهة ، والتفاؤل بالمستقبل المضىء من جهة أخرى ، فإياك وأن تلتفت إلى الوراء ، وانظر بعينيك إلى الأمام ، ولا تهتم بكثرة الهالكين ، وكلما زدت تأملاً فى هذه المعانى كلما زدت يقيناً بأنك راكب فى القطار الصادق ، وسائر مع القافلة الميمونة ، وفوق ذلك ، لك أسوة بمن سبقك من العاملين المخلصين ، ولك بعد ذلك ـ بإذنه تعالى ثواب المؤمنين السائرين ...

(وهذا حال ورثته ﷺ من بعده الأمثل فالأمثل ، كل له نصيب من المحنة ، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له ، ومن لا نصيب له من ذلك ، فحظه من الدنيا حظ من خلق لها ، وخلقت له ، وجعل خلاقه ونصيبه فيها ، فهو يأكل منها رغداً ويتمتع فيها ، حتى يناله نصيب من الكتاب ، يُمتحن أولياء الله ، وهو فى دعة وخفض عيش ، ويخافون وهو آمن ، ويحزنون وهو فى أهله مسرور ، له شأن ولهم شأن ، وهو فى واد وهم فى واد ، همّه ما

يقيم به جاهه ، ويسلم به ماله ، وتسمع به كلمته ، لزم من ذلك ما لزم ، ورضي من رضى ، وسخط من سخط ..) فانظر ـ أخى الداعية ـ وقارن بين الصورتين ، فانصب إذا ارتاح الناس ، واتعب إذا سكن الناس ، ولا تغرنك الدعة وحسن العيش ، عند غيرك وأنت فى الضيق والزهد ، ولا تبتئس عند الخوف والناس آمنون ، فإنما الأعمال بالخواتيم ، وما عند الله خير وأبقى ، وكن من الذين يبتغون رضا الخالق ، « وهمهم إقامة دين الله ، وإعلاء كلمته ، وإعزاز أوليائه ، وأن تكون الدعوة له وحده ، فيكون هو المعبود لا غيره ، ورسوله المطاع لا سواه ، فلله سبحانه وتعالى من الحكم فى ابتلائه أنبياءه ورسله ، وعباده المؤمنين ، ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته .. » .

وما قصد ابن القيم فى حديثه عن الدعوة لله وحده ، إلا أن يصيح من أعماقه (الله غايتنا) وعن طاعة رسوله إلا أن يهتف (الرسول زعيمنا) وأن يكون التخلص من الابتلاء ، والصبر على المحن بشعار (الجهاد سبيلنا) ثم تكون السعادة بالوصول إلى المقام المحمود ، بتجاوز جسر المحنة ـ بعون من الله تعالى ـ « وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة ، والنهايات الفاضلة ، إلا على جسر المحنة والابتلاء .

كذا المعالي إذا ما رُمت تدركها

فاعبر إليها على جسر من التعب

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين » [1] .



(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٣٠١ .

(٢٠) استراحة المسافر

برقية من عمر

وبعد أن تجاوزنا الجسر الذى فى مسيرة قطار الدعوة ، بإذنه تعالى ، وبالاستفادة من الإشارات والتنبيهات ، نكون بحمد الله تعالى ، قد قطعنا مرحلة من مراحل السير المبارك ، وبهذه المناسبة فقد وصلتنا رسالة عبر حدود الزمان ، من أحد رواد القافلة المباركة ، والذى ما نخاله إلا وقد حطّ رحاله فى الجنة بمغفرة الله تعالى ، ذلكم الرجل هو عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضى عنه ، فلنستمع إليه وهو يكتب لأخ له فى الله عز وجل ، يخاطبه ـ بعد أن قطع مثلنا ـ مرحلة من مراحل السفر ، ويذكره بالورود على الله فيقول له :

« يا أخى : إنك قد قطعت عظيم السفر ، وبقى أقلُّه ، فاذكر يا أخى المصادر والموارد ، فقد أوحى إلى نبيك ﷺ فى القرآن ، أنك من أهل الورود ، ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج ، وإياك وأن تغرك الدنيا ، فإن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، يا أخى : إن أجلك قد دنا ، فكن وَصِيَّ نفسك ، ولا تجعل الرجال

أوصياءك .. » [١] .

فافهم ـ أخي المسافر ـ هذه الإشارة ، وأبشر بقطع بعض مفاوز الطريق ، وهلم معنا ـ في هذا الفصل لأخذ قسط من الراحة وذلك بتأصيل اللهو المباح ، ومعرفة شرعية المزاح .

الراشد المربى

رغم هذا التذكير بالآخرة من عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقد كان يعرف أن المسافر إلى الله تعالى ، لا بد له من قسط الاستجمام ، ليستعين به على إتمام المسير ، وإكمال الشوط ، لتتم النفرة ، ويتنشط البدن ، فقد كان مع ما فيه من الشدة على نفسه ، يضع منهجاً تربوياً لإخوانه ، حيث يخلط لهم الحلو مع المر ، ويحدد لهم بعض وقفات على الطريق ، ولذا فهو يقول :

« والله ، إني لأريد أن أخرج لهم المرة من الحق ، فأخاف أن ينفروا عنها ، فأصبر ، حتى تجيء الحلوة من الدنيا ، فأخرجها معها ، فإذا نفروا لهذه ، سكنوا لهذه .. » [٢] .

وليس هذا الأمر تكلفاً من الخليفة الراشد ، بل هو منهج الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في التربية ، وما منهم من أحد إلا

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي : ٢٧٠ .
(٢) فتاوي ابن تيمية: ٢٨ / ٣٦٤ .

وعبر عن حقيقة هذا المذهب التربوى ، فى أن يأخذ الداعية من الراحة فيما لا يكون حراماً ،، ليستعين به على العمل والأداء ، حسب ما تقتضيه الفطرة البشرية ، وهذا أبو الدرداء رضى الله عنه ـ يقول : « إنى استجم ببعض الباطل ، ليكون أنشط لى فى الحق » [١]

درس أبى الدرداء

ومن المعلوم أن استعمال أبى الدرداء رضى الله عنه ـ لفظ الباطل كوجه مقابل للحق ، هو من أساليب اللغة فى البلاغة والفصاحة ، والمقصود به المباح الذى لا ينافى الشرع وضوابطه ، ولكن له صورة الباطل عند الجهال ، وأهل التكلف ، ولقد أورد العبارة الإمام البغوى فى الموضع الذى أشرنا إليه ، وأوردها أيضاً شيخ الإسلام ، مع شرح وتعليل ، فقال :

(وكان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يقول : « إنى لأستجم نفسى بالشىء من الباطل ، لأستعين به على الحق » والله سبحانه إنما خلق اللذات والشهوات فى الأصل لتمام مصلحة الخلق ، فإنهم بذلك يجتلبون ما ينفعهم . . . وحرم من الشهوات ما يضر تناوله ، وذم من اقتصر عليها ، فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق ، فهذا من الأعمال الصالحة . .) [٢] .

(١) شرح السنة للبغوى : ١٣ / ١٨٤ .   (٢) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ٣٦٩ .

وما كان ينبغى الإطالة فى شرح هذه المعانى ، لولا أن غلب على بعض دعاة العصر شيء من التكلف والمبالغة ، وإفراط دعاة آخرين من جهة أخرى ، وذلك لتأثر الطرف الأول ببعض بدع الصوفية ، وانسياق الطرف الآخر خلف استرخاء المدنية ، وانتشار اللهو ، مما يقتضى التنبيه على التأصيل .

مشكاة النبوة

وما فهم الصحابة هذا الدرس ، إلا من مشكاة النبوة ، حيث أوصى الرسول ﷺ بالرفق بالنفس ، فإن المُنْبَتّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى ، وكان عليه السلام يدعو إلى الرفق فى كل أمر من أمور الحياة ، وما الاستجمام للنفس إلا من الرفق بها ، حتى ليكون الرفق من مظاهر كل أعمال الإنسان فى الحياة ، حتى ليربط الرفق بصفات الخالق الرحيم الرفيق بخلقه ، كما قال الرفيق بأمته ﷺ : « .. إن الله يحب الرفق فى الأمر كله .. » (١) .

وفى رواية مسلم : « .. إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف » .

والرفق « .. هو لين الجانب بالقول والفعل ، والأخذ بالأسهل ، وهو ضد العنف .. والمعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع

(١) رواه البخاري .

ضده .. » [1] .

فلننظر ـ أيها الداعية إلى معانى الرفق من الله تعالى ، ومن رسوله ﷺ ، فإنها ترشد إلى غاية الرحمة وإلى اللين بالقول والفعل مع النفس وإنها من لين النفس حتى بالقول والفعل ، ومع النفس ذاتها ، كما هى مع بقية الخلق ، وما الانبساط ، والمزاح وما يتبع ذلك من لين القول ، والتبسم ، وانشراح الصدر ، إلا مظهر من مظاهر هذا الرفق ، كان لا بد من النظر إليه ، والأخذ به ، حتى لا يقع المرء فى الحرج ، وينفى عن نفسه المشقة .

الانبساط .. هدى الرسالة

ولعل أشهر ما ورد عنه ﷺ فى مزاحه ما أورده البخارى فى باب (الانبساط إلى الناس) ومسلم حديث : « يا أبا عمير ما فعل النغير » كمزاح مع غلام صغير إيناساً له ، وانبساطاً لأهله ، وقد مزح الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع المصطفى ﷺ وكان من أشهرهم نعيمان بن عمرو بن رفاعة ، المشهور بقصصه ودعاباته ، وهو صحابى جليل :

(شهد بدراً ، وكان من قدماء الصحابة وكبرائهم ، وكانت فيه دعابة زائدة وله أخبار ظريفة فى دعاباته .. وكان نعيمان

---

(١) فتح الباري : ١٠ / ٤٤٩ .

مضحكاً مزاحاً ..) [١] .

وعلى منهج الصحابة سار السلف ، في جعل المزاح استراحة المحارب ، فلا تكاد تجد كتاباً يخلو من ملح وطرائف لشيخ التابعين الإمام الشعبي ــ رحمه الله ــ وكذلك :

(كان ابن سيرين يمزح ويضحك حتى يسيل لعابه .. وقيل : ان ابن سيرين كثير الضحك بالنهار ، كثير البكاء بالليل) [٢] .

لماء الأمة على المذهب

وإيراد ما ورد عن التابعين وسلف الأمة يطول ، وجميعهم على لذا المذهب في جواز المزاح ، وفق ضوابطه الشرعية ، بل واستحبابه ى بعض المواطن ، ولا يزال ركب العلماء والفقهاء على هذا المنهج ، دون نظر لأهل التكلف ولا أهل السفاف من الأمور ولعل من المناسب ذكر ما قيل في تراجم بعض العلماء ، فقد قيل عن صالح بن عمرو بن حبيب مثلاً ، وهو محدث الشرق ، ومن أقران الإمام البخاري ، روى عنه مسلم وغيره ، « .. الإمام الحافظ الكبير الحجة ، محدث الشرق .. حدث عنه مسلم خارج الصحيح .. وكان ثقة حافظاً غازياً .. ذا مزاح ودعابة مشهوراً بذلك » [٣] .

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٤ / ١٥٢٦ . (٢) شرح السنة : ١٣ / ١٨٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء : ١٤ / ٢٤ .

وبمثل ذلك ما قيل عن صاحب تاريخ دمشق ، القاسم بن على المعروف بابن عساكر .

(الإمام المحدث الحافظ العالم الرئيس .. وكتب ما لا يوصف كثرة ، بخطه عديم الجودة ، وأملى وصنف ، ونعت بالحفظ والفهم ذكره العز النسابة ، فقال : كان أحبّ ما إليه المزاح ..) (١) .

وفى كتب الطبقات والتراجم الشيء الكثير ، يكفى ما أورد منها .

ولكن .. احذر الإفراط

ومع هذا التأصيل للمزاح ، يصبح لزاماً لكل مسألة من مسائل الحياة أن تحفظ وفق ضوابطها ، دون إفراط أو تفريط ، حيث إن التوازن هو العدل الذى جاءت به الشريعة ، وفى الضوابط منع الإسفاف والإفراط فيه ، والذين ينافى المروءة ، ويخالف منهج الإسلام فى جدية العمل والتفكير ، وقد يقود إلى حقد وإحن .

فهذا عمر بن عبد العزيز نفسه ، يكتب إلى عدى بن أرطأه :

(أن انْهَ مَنْ قِبَلَك عن المزاح ، فإنه يذهب المروءة ، ويوغر الصدر ..) (٢) .

---

١) المرجع السابق : ١٤ / ٤٠٧ .

(٢) شرح السنة : ١٣ / ١٨٤ .

وحول عبارة أخرى له أن « اتقوا المزاح ، فإنه حمقة تورث ضغينة » .

قال الماوردى محللاً لها وشارحاً ، وموضحاً علة الأمر وسببه :

(أن للمزاح إزاحة عن الحقوق ، ومخرجاً إلى القطيعة والعقوق ، يصم المازح ، ويؤذى الممازَح ، فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ، ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء ، وأمَّا أذية الممازَح ، فلأنه معقوق بقول كريه ، وفعل مُمِضّ ، إن أمسك عنه أحزن قلبه ، وإن قابل عليه جانب أدبه ، فحُقَّ على العاقل أن يتقيه ، وينزه نفسه عن وصمة مساويه ..) (١) .

الميزان الثابت

ولا شك أن الإفراط قائد إلى أمور تنافى مقاصد الشريعة ، ومراتب المروءة ، وتتعارض مع المقامات السامية ، كما أنها قد تكون حسنة بذاتها ولكنها تقود إلى مفسدة ، ولذلك فمع هذه البداية فى نقد المزاح ،فإن منهج الإسلام الوسطية ، ولقد قال الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فى توضيح هذا الميزان وتثبيته :

« خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يرجع إليهم الغالى ، ويلحق بهم التالى » (٢) .

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ٢٩٨ . (٢) عيون الأخبار : ١ / ٣٢٦ .

ومن هنا صار المزاح سنة ، وفق ضوابطه وحدوده ، دون إفراط أو تفريط ، حتى لا يخرج عن أحد حديه ، ويظل التوازن بحاجة إلى من يتقن أداءه حتى قيل لسفيان بن عيينة : المزاح هُجنة ؟

(قال : بل سنَّة ، ولكن الشأن فيمن يحسنه ، ويضعه مواضعه) (١) .

فكان لا بد من العلم الموصل إلى معرفة الموازين والضوابط التى تضع المزاح فى وضعه المناسب ، وتحقق ثمرته ، وتقود الداعية إلى إتقان تنفيذه ، وحسن تأتيه ومما قيل فى موازين النهى :

(المنهى عنه ما فيه إفراط أو مداومة عليه ، لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكر فى مهمات الدين ، ويؤول كثيراً إلى قسوة القلب والإيذاء والحقد ، وسقوط المهابة والوقار ، والذى يسلم من ذلك هو المباح ، فإن صادف مصلحة مثل تطييب نفس المخاطب ومؤانسته فهو مستحب) (٢) .

والتبسم .. صدقة

ومما يرتبط بالمزاح أيضاً ـ كمظهر من مظاهر استراحة المسافر ـ الضحك والتبسم ، وقد يرافقه غالباً ، أو يكون نتيجة له ،

---

(١) شرح السنة : ١٣ / ١٨٤ .   (٢) فتح الباري : ١٠ / ٥٢٧ .

ونهى عما كان منه عن استهزاء أو سخرية ، أو استخفاف أو تهكم ، ولكن المباح منه ما قد يكون عن تعجب أو إعجاب ، ويكون مستحباً ما كان عن ملاطفة ، وتحبب ، أو إدخال السرور على قلب آخر ، وهكذا كان خلق المصطفى ﷺ كما روى جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ « ما حجبنى النبى ﷺ منذ أسلمت ولا رآنى إلا تبسم فى وجهى » (١) .

وما قاله عبد الله بن حارث : « ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ » (٢) .

والتوازن .. مرة أخرى

وتنطبق قاعدة التوازن فى التبسم أيضاً ، كما على المزاح ، فما كان الرسول ﷺ يستجمع ضاحكاً حتى ترى لهواته ، وإنما كان يبتسم ، وكان أقصى ضحكه أن تبدو نواجذه ، ولم يكن يتكلفه أو يتصنع التجهم ، وإنما الأمر على سجيته ، والأمر يختلف باختلاف الأشخاص ، وقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام يعيش بين الصحابة وفيهم المتجهم الحازم ، وفيهم صاحب الدعابة الذى يستلقى على قفاه ، ولم ينكر على أحد منهم ، ولكنه ـ نفسه ـ كان وسطاً لأنه وسط فى خصائصه بين العباد ، والأصل هو فى إنكار

---

(١) البخاري ومسلم .

(٢) أحمد والترمذي .

الضحك المتكلف فى القهقهة ، أو الضحك فى مواطن الجد ، أو الإفراط فيه .

(وقد سئل ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال : نعم والإيمان فى قلوبهم مثل الجبل ، وقال بلال بن سعد : أدركتهم يشتدون بين الأغراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا كان الليل كانوا رهباناً ..) (١) .

وهكذا ظل الصحابة أوفياء للمنهج النبوى ، دون أن يؤثر المزاح على جدية العمل ، أو على تطبيق السنن ، أو على تفويت المصالح ، على أقدار متفاوتة فيما بينهم حسب اختلاف الطبائع الفطرية ، والعادات المكتسبة ، وطبيعة المجلس والظروف العامة والخاصة .

« .. الذى يظهر من مجموع الأحاديث أنه ﷺ كان فى معظم أحواله لا يزيد على التبسم ، وربما زاد على ذلك فضحك ، والمكروه من ذلك إنما هو الإكثار منه ، والإفراط فيه ، لأنه يذهب الوقار) (٢) .

إذ إنه ﷺ هو المثل الأعظم ، وهو فى قمة التوازن النفسى ،

---

(١) شرح السنة : ١٢ / ٣١٨ .
(٢) فتح الباري : ١٠ / ٥٠٥ .

فهـو كما وصف نفسـه (الضحوك القـتال) كما أنه (نبى المرحـمة ونبى الملحمة) فكان قدوة لأمته حتى فى مثل هذه الأمور .

ضوابط وكوابح

ومن ذلك كـان لا بد للداعيـة فى قطار الدعـوة ، من ضـوابط يحكم بهـا مزاحه ، كى تكون استـراحتـه شـرعيـة ، تؤدى دورها الصحيح ، ومجمل ضوابط المزاح ، وما يتفرع منه :

★ أن لا يكون إلا حقـاً وأن لا يفتعـل المزاح افتعـالاً ، أو يمزح بكذبة أو كـذيبـة ، أو يدلس فـيـه ، فـعن أبى هريرة قـال : « قـالوا يا رسول الله : إنك تداعبنا ، قال : لا أقول إلا حقاً » (١) .

★ أن لا يداوم المرء عليه ، بحيث يكون صفة لازمة ، لأن الجد من سـمات العـاملين ، وما المـزاح إلا رخصـة وفسـحة ، لاسـتمـرار النفس فى أداء واجبـها ، وأن لا يشغل عن ذكر الله تعـالى ، والتفكر فى مهمات الدين ، وأمور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(قال الغزالى : من الغلط أن يتخذ المزاح حرفة) (٢) .

ويؤخـذ من ذلك أن اتخـاذ مـهنة إضـحـاك النـاس نوع من السفاهات !!

---

(١) الترمذي وأحمد . (٢) فتح الباري : ١٠ / ٥٢٧ .

★ أن لا يكون المزاح إلا مع الأقران ، لأن المزاح مع الأعلى يؤذيه ، ومع الأقل يؤدى إلى الجرأة على المازح ، وكذلك ينبغي البعد عن ممازحة الأعداء ، لما يقود إلى مفسدة تؤذى الداعية فى دينه ودنياه ، قال الماوردى :

« وليحذر أن يسترسل فى ممازحة عدو ، فيجعل له طريقاً إلى إعلان المساوئ هزلاً وهو مجد ، ويفسح له فى التشفى مزحاً وهو محق ، وقد قال بعض الحكماء : إذا مازحت عدوك ، ظهرت له عيوبك » (١) .

★ أن لا يشتمل المزاح على مساوئ الأخلاق ، ومعايب الكلام وآفات اللسان مما ينكره الشرع ، أو يمجه الطبع ، أو يلفظه الذوق ، كاستعمال الألفاظ النابية ، أو الخروج عن مقتضى العرف ، أو مخالفة غالب العادات ، أو أن يخالطه شيء من الغيبة أو القدح أو الاستهزاء ، أو أن يكون مما يسقط الوقار ، والهيبة ، ولعل القاعدة الجامعة ، ما حددها الإمام النووى بقوله :

(المزاح المنهى عنه هو الذى فيه إفراط ويداوم عليه ، فإنه يورث الضحك وقسوة القلب ، ويشغل عن ذكر الله تعالى ، والفكر فى مهمات الدين ، ويؤول فى كثير من الأوقات إلى الإيذاء

---

(١) أدب الدنيا والدين : ٣٠٢ .

ويورث الأحقاد ، ويسقط المهابة والوقار ، فأما ما سلم من هذه الأمور فهو المباح الذى كان رسول الله ﷺ يفعله فإنه ﷺ إنما كان يفعله فى نادر من الأحوال لمصلحة ، وتطييب نفس المخاطب ومؤانسته ، وهذا لا منع منه قطعاً ، بل هو سنة مستحبة إذا كان بهذه الصفة .. فاعتمد ما نقلناه عن العلماء ، وحققناه .. فإنه مما يعظم الاحتياج إليه ، وبالله التوفيق .) [١] .

ما عدمنا خيراً

والمزاح الهادف ، مع التبسم المتوازن ، إذ إن له عند حدوده ممن يحسنه دلالات وأسباب ، تقدر بقدرها إذا توافرت ـ بالطبع ـ مظاهر الإيمان ، وقرائن السلوك .

فهو مظهر من مظاهر صفاء القلب ، وبعد النفس عن التكلف والتقعر ، وخلوها من الغلظة ولقد قال الرسول ﷺ : « ينظر إليكم الرب قنطين فيظل يضحك ، يعلم أن فرجكم قريب ، فقال له أبو رزين العقيلى : يا رسول الله أوَ يضحك الرب ؟! قال : نعم قال : لن نعدم من رب يضحك خيراً .. » [٢] .

فانظر ـ أخى المسافر ـ كيف ربط الأعرابى بين ضحك

---

(١) الأذكار للنووي : ٢٧٩ .

(٢) الحديث رواه الآجري في الشريعة ص ٢٧٩ والإمام أحمد ٤ / ١١ .

الخالق ، والخير المحصل منه ، مع ضرورة الانتباه ـ أيها القارئ ـ إلى ضرورة إدراك معنى الحديث ، ونفي التشبيه عن الخالق ، فلله تعالى المثل الأعلى ، وإنما يؤخذ منه ما أدركه الأعرابى ، فقال مقالته وحول ذلك قال شيخ السلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ معلقاً على استنباط الأعرابى : « فجعل الأعرابى العاقل ـ بصحة فطرته ـ ضحكه دليلاً على إحسانه وإنعامه ، فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود ، وأنه من صفات الكمال ، والشخص العبوس الذى لا يضحك قط هو مذموم بذلك ، وقد قيل فى اليوم الشديد العذاب : إنه (يوماً عبوساً قمطريراً) .

(والإنسان حيوان ناطق ضاحك ، وما يميز الإنسان عن البهيمة صفة كمال ، فكما أن النطق صفة كمال ، فكذلك الضحك صفة كمال ، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يضحك أكمل ممن لا يضحك ، وإذا كان الضحك فينا مستلزماً لشيء من النقص فالله منزه عن ذلك) [1] .

★ وهو كذلك يلحق المرء بأحرار الناس البعيدين عن التكلف ، وصنعة الرياء ، وادعاء الوقار ، والتصنع المذموم ، بل وفيه الاقتداء بسلف الأمة ، وهم أطهر الناس قلوباً .

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ٦ / ١٢١ .

(وكتب بعض الكتاب إلى صديق له .. ونحن نحمد الله إليك ، فإن عقدة الإسلام في قلوبنا صحيحة .. ولقد اجتهد قوم أن يُدْخِلوا قلوبنا من مرض قلوبهم ، وأن يلبسوا يقيننا بشكهم .. ولنا بعدُ مذهب في الدعابة جميل ، لا يشوبه أذى ، ولا قذى يُخرج إلى الأنس من العبوس ، وإلى الاسترسال من القُطوب ، ويلحقنا بأحرار الناس وأشرافهم ، الذين ارتفعوا عن لبسة الرياء والتصنع) (١) .

★ وفيه إيناس للمصاحبين ، وطرد الوحشة ، وتأليف القلوب ، ومظهر من مظاهر الأخوة والوفاء ، وفي هذا يقول سعيد بن العاص لابنه :

« اقتصد في مزاحك ، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء ، ويجرئ عليك السفهاء ، وإن التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ، ويوحش منك المصاحبين .. » .

فانظر - أيها الداعية - إلى هذا الميزان الدقيق ، بل لقد اعتبر بعض الفقهاء ، المزاح وفق ضوابطه ، وفي أوقاته من المروءة ، والتقصير فيه من خوارم المروءة وشددوا في ذلك في السفر ، وفي هذا يقول ربيعة الرأي : إن المروءة ست خصال : ثلاثة في الحضر ، وثلاثة في السفر .

---

(١) عيون الأخبار : ١ / ٣٢٥ .

(والتى فى السفر ، فبذل الزاد ، وحسن الخلق وكثرة المزاح من غير معصية) [١] .

وفيه طرد السأم والهم ، والابتعاد عن مشاغل الدنيا ، وترويح للنفس إذ لا بد للمصدور أن ينفث ، وللمهموم أن يزفر ، ولا بد للدنيا من مواقف ، تتجدد فيها الطاقة ، وتبعث فيها الهمة ، لأن القلوب إذا كلّت عميت ، بل إن ذلك قد يكون مظهراً من مظاهر الرجولة فى البيت ، ومع الزوجة والأولاد ، إذا كان دون سرف أو جنوح ، لا كما يظن البعض أن الرجولة بالتكلف والتصنع ، واسمع قول بعض الصحابة : « قال عمر : إنه ليعجبنى أن يكون الرجل فى أهله مثل الصبى ، ثم إذا بغى منه ، وجد رجلاً ..

وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس فى بيته ، فإذا خرج كان رجلاً من الرجال) [٢] .

ولذلك فليس من خلق الداعية التبسم والمزاح خارج البيت ، وتصنع الغلظة والجفوة فى بيته ، ولا يخفى أن عكس الأمر من التكلف المذموم أيضاً .

وفى الوقت .. زيادة حسن

وأجمل ما قد يكون المزاح بعد صلاة الفجر ، ودليله ما رواه

(١) شرح السنة : ١٣ / ١٨٤ . (٢) المرجع السابق : ١٣ / ١٨٣ .

سماك بن حرب قال : « قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس النبى ﷺ ؟ قال : نعم ، كثيراً ما كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس ، فيضحكون ويبتسم » [١] .

وفى رواية النسائى وأحمد زيادة « ويتناشدون الشعر » .

ومن الأوقات أيضاً بعد صلاة العشاء ، أى السمر فيه ، والسمر يعنى الحديث قبل النوم ، وأورد البخارى حديثين ذكرهما فى (باب السمر فى العلم) واستنبط منهما جواز السمر فى العلم ، والقياس على ذلك فى المؤانسة مع الأهل ، وفى هذا يقول ابن حجر :

« فالجواب أنه يلحق به ، والجامع تحصيل الفائدة ، أو هو بدليل الفحوى ، لأنه إذا شرع فى المباح ففى المستحب من طريق الأولى .. » [٢] .

ويقال : إذا كانت المؤانسة تصح من الأهل ، فهى تصح مع الإخوان والخلان ، ويزيد استحبابها إذا كانت لمصلحة الدعوة فى بذل النصح ، وتقريب القلوب ، وزيادة المودة ، وإزالة الكدر ، وإيجاد أجواء الحب والتعارف ، وقد نستريح مرة أخرى بعد قطع مرحلة أخرى من الطريق ، فى واحة أخرى ، حيث يكون الحديث

---

(١) رواه مسلم .
(٢) فتح الباري : ١ / ٢١٣ .

فى تأصيل المباح من اللهو واللعب ، أو من المسابقة والمناضلة ، أو فى المسامرة والحديث .





(٢١) من وعثاء الطريق (١)

لقد استعاذ رسول الله ﷺ من وعثاء السفر ، الذى لا بد منه لكل سفر فى الدنيا ، إذ لا يخلو السفر من مشقة معنوية أو بدنية ، ولا ينقضى السفر بدونها ، ويحتاج المسافر فيه إلى مكابدة ومشقة ، تتحول فيما بعد إلى لذة ومنفعة ، بل ومما يشاهد أن الأسفار ذات المشقة هى التى تبقى لذتها فى النفس ، وتغمر الإنسان السعادة عندما يتذكرها ، ويجعلها المادة المسلية لذكرياته ، لأن الإنسان قد طُبع بِجِبِلَّته على حب السلامة وإيثار الفوز والنجاة ، فإذا ما تحقق له هذا الأمر بعد كدّ ونصب ، فإنه يشعر بمزيد من اللذة بالفوز والفلاح ، وأن ما ينطبق على سفر الدنيا ، ينطبق على سفر الآخرة ، وبالأخص للداعية المسافر فى قطار الدعوة ، إذ لا مفر له من مجابهة الكثير من وعثاء سفره الدعوى ، والناتج عن بعض الفتن فى حياة الدعاة .. وهو ما سوف يتحدث عن بعضه فى هذا الفصل .

معنى الفتنة

والفتنة لفظ أُطلق فى القرآن الكريم بمعنى الامتحان إذا كان اللفظ عاماً ، وقد يطلق على الامتحان الذى مؤداه الفتنة بمعناها الخاص ، وهو الانحراف ، أو السقوط ، بل والكفر حيناً ، كما فى

قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ . وقوله : ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ .

كما أنه قد يطلق على الامتحان الذى لا يؤدى إلى فتنة السقوط أو الانحراف ، بل على نوع من الاختبار الذى يتميز صاحبه بعده ، بالثبات والرسوخ ، وسواء أكان بالثبات على العقيدة والمحجة البيضاء دون زيغ أو زلل ، أم بالثبات على الدعوة والمنهج ، دونما تغيير أو فتور ، أم بالثبات مع ركب المؤمنين على الطريق والسنن دون ضرار أو انشقاق ؛ وكل أنواع الثبات هذه ما هى إلا من مظاهر قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، ونفاسة المعدن ، وأصالة التفكير ، ولقد أثنى الله تعالى على عباده الذين نجوا من الفتنة ، ومَنَّ بها على رسله ، فقال جل جلاله لموسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وفتناك فتوناً** ﴾ .

وكذلك قد تطلق الفتنة على الأمرين معاً ، كما قال موسى مخاطباً ربه تعالى : ﴿ **إنْ هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء** ﴾ . ويقصد بها البلاء والامتحان ، الذى يضل الله بعدله من وقع فيها ،ويهدى برحمته من نجا منها .

وهذا الاشتراك فى المعانى ، لأن الأصل اللغوى مشترك يعنى الاختبار للشيء ، كما قال الراغب الأصفهانى : « أصل الفتنة :

إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته ، ويستعمل فى إدخال الإنسان النار ، ويطلق على العذاب ، كقوله : ﴿ **ذوقوا فتنتكم** ﴾ ، وعلى ما يحصل من العذاب كقوله تعالى : ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ وعلى الاختبار كقوله : ﴿ **وفتناك فتوناً** ﴾ وفيما يقع للإنسان من شدة ورخاء) (١) .

فى الفتنة .. تمييز

ومن النوع الأخير « حيث المَعْنَيَيْن العام والخاص » أوائل سورة العنكبوت التى يتوضح منها أن الفتنة هى الفيصل بين صاحب اليقين ، والمتلبس بشيء من النفاق ، أو هى المميز بين الصادق والكاذب ، فقال من هو أعلم بخلقه : ﴿ **الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ (٢) .

ولقد أوضح أصدق القائلين ، كيف تميز الفتنة بين الحقيقة والتدليس ، وذلك لأن (الإيمان ليس كلمة تقال ، إنما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء ، وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال ، فلا يكفى أن يقول الناس « آمنا » . وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة ، فيثبتوا عليها ،

---

(١) فتح الباري : ١٣ / ٣ .

(٢) العنكبوت : ١ ـ ٣ .

ويخرجوا منها صافية عناصرهم ، خالصة قلوبهم ، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب) [١] .

وبذلك يرتبط المعنى القرآنى بالمعنى اللغوى ، وتعطى اللغة ظلالها وإيحاءاتها ، والله تعالى ، أعز وأحكم من أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، ويوذيهم بالفتنة ، وإنما هو الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة الثقيلة ، والصياغة التامة لإنجاز المتطلبات ، إذ لا بد من إقامة منهج الله فى الأرض ، ودعوة الخلق للهداية ، من صياغة نفسية وعملية ، تتمكن النفس بها من الصبر على الآلام ، وتحمل مشقة الطريق ، والاستعلاء على الشهوات .

تخطى الفتن .. طريق الأنبياء

والفتنة لا بد منها ، حتى يكون الجزاء من جنس العمل ، وتكون مقدار النتائج ، على مقدار الجهد ، ولا يعرف الإيمان ومقداره ، ولا اليقين وشدته ، إلا بالفتنة وتجاوزها .

(فالعبد فى هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة ، وشيطانه المغوى المزين ، وقرنائه وما يراه ويشاهده ، مما يعجز صبره عنه ، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين ، وضعف القلب

---

(١) الظلال : ٥ / ٢٧٢٠ .

ومرارة الصبر ، وذوق حلاوة العاجل ، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا ، وكون العوض مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها ، وفيها نشأ ، فهو مكلف بأن يترك شهواته الحاضرة الشاهدة لغيب طُلب منه الإيمان به) [1] .

ولهذا كان طريق الجنة صعباً ، وطريق الدعوة بالفتن أصعب ، وأشدُّ الدعاة ابتلاء بالفتن الأنبياء ، والمرسلون ، فكان لا بد للداعية في قطار الدعوة التأمل في قسوة الطريق ووعثاء السفر ، ويخاطب عندما يحب الراحة والدعة :

(أين أنت والطريق تعب فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، ورُمي في النار الخليل ، وأضجع للذبح إسماعيل ، وبيع يوسف بثمن بخس ، ولبث في السجن بضع سنين ، ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضر أيوب ، وزاد على المقدار بكاء داود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ تزهو أنت باللهو واللعب ..

فيا دارها بالحزن إن مزارها
قريب ولكن دون ذلك أهوال) [2] .

وما هذا المزار إلا الجنة التي دونها أهوال الفتن ، ومرارة الصبر

---

(١) إغاثة اللهفان : ٢ / ١٦٤ .   (٢) الفوائد لابن القيم : ٤٩ .

فتنة بعض ببعض

والفتنة ـ مع هذا ـ تعم جميع الخلق ، ولا مفر للإنسان منها ،ولكن شتان بين من يسقط فيها ، وبين من يتجاوز العقبة ، وشتان بين من ينجو ليكسب الأجر ، وبين من تكون وزراً عليه ، وجميع الخلق كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه ، ومن الناس من يكدح ليلاقى العذاب فيكون كدح الدنيا كالجنة عنده ، وبين من يكدح ليتضاءل كل كده وكدحه أمام ثواب الله تعالى ورضوانه ، والخلق لا بد أن يُمتحن بعضهم ببعض ، ولقد كتب الله ذلك على خلقه : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ ، فيفوز أصحاب الفلاح ، ويبوء الآخرون بالنار ، وبينهما منازل ومدارج .

(وهذا عام فى جميع الخلق ،امتُحن بعضهم ببعض ، فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق ، والصبر على أذاهم ، وتحمل المشاق فى تبليغهم رسالات ربهم ، وامتحن المرسل إليهم بالرسل ، وهل يطيعونهم وينصرونهم ،ويصدقونهم ، أم يكفرون بهم ، ويردون عليهم ، ويقاتلونهم ؟ .

وامتحن العلماء بالجهال هل يعلمونهم ، وينصحونهم ، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم وإرشادهم ، ولوازم ذلك ؟ . وامتحن الجهال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم ؟ ..

وامتحن الرجل بامرأته ، وامرأته به ، وامتحن الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، والمؤمنون بالكفار ، والكفار بالمؤمنين ، وامتحن الآمرون بالمعروف بمن يأمرونهم ، وامتحن المأمورون بهم ..) [1] .

فانظر ـ أيها المسافر ـ إلى فتنة البلاء في الأمر بالمعروف والمحنة فيه ، من تحمل المشقة والبلاء ، والصبر على الأذى وتحمل التكاليف ، فهل أنت صابر على هذه الطريق ، ومتحمل لوعثاء هذا السفر ، حتى تفوز بالوصول إلى الهدف ، أم أنك تستوعر هذا الطريق ، فتظل مع القاعدين .

فتنة الناس

وإذا كان لا بد من معرفة الفتنة ليُتقى منها ،كما فعل حذيفة بن اليمان ، حيث كان يسأله ﷺ عن الشر ، بينما كان الناس يسألونه عن الخير ، صار لزاماً في عصر الفتن وملامحها ، أن يتعرف دعاة اليوم عليها ، ليتقوا بعضها ، ويتجاوزوا عقباتها ، فكل امرئ متلبس بها ، لهذا قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : « لا يقولن أحدكم : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من

---

(١) إغاثة اللهفان :٢ / ١٦١ .

مُضلات الفتن » (١) .

ومن ضرورات التعرف عليها ، معرفة أنواعها ، ولعل أشدها صعوبة فتنة الناس ، سواءً بطلب المنفعة منهم ، أم درء المفسدة عنهم ، بل والأشد من ذلك طلب ثواب متوقع ، أو انتظار الناس جميعاً في الفتنة بسببها للمفاضلة بينهم ، لأنها تفرق بين الصادق والكاذب ، والمستقيم والمتذبذب ، والخبيث والطيب ، والمؤمن والمنافق ، وجميعهم متعرض لها ، متأثر بها .. وجماع الفتنة بأمر الناس قوله تعالى: ﴿ .. **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً** ﴾ (٢) . قال القرطبي في تفسيرها ، مما يوضح أنواع الفتن بالناس :

(أي أن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد الله أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنة للفقير ، والفقير الصابر فتنة للغني ، ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فالغني ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ، ولا يسخر منه ، والفقير ممتحن بالغني ، عليه ألا يحسده ، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق .. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف

---

(١) تفسير ابن كثير في سورة الأنفال .

(٢) الفرقان : ٢٠ .

الناس من الكفار فى عصره ، وكذلك العلماء وحكام العدل ، ألا ترى إلى قولهم :﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ .

فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى ، ويحقر المعافى المبتلى ، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن البطر ، وذاك عن الضجر ..) (١) .

وهكذا ابتلى الصحابة بالكفار ، وكان إيمانهم فتنة للكفار أيضاً ، وافتتن المشركون بفقراء المهاجرين ، كما ابتلى الفقراء بما يحصل للأغنياء ، وكان الصبر من المؤمنين رحمة لهم ، وجزع الكفار فتنة وبلاء ، وكان فى الصبر النجاة من فتنة أشد ، وفى عدمه الوقوع فى الفتنة الأكبر .

فتنة الشبهات

وحقلا الفتن مجالان ، فتنة الشبهات ، وهى أعظمهما ،والأخرى فتنة الشهوات ، وقد وقع النصارى فى الأولى ، كما وقع اليهود فى الثانية ، ولا تزال أمة محمد ﷺ على الطريق المستقيم ، ولكن المسلم قد يقع فى شىء من هذه ، أو شىء من تلك ، وقد يزيد الانحراف حسب ضعف الإيمان ، وما انفك كل مؤمن يقع

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ١٨ .

فى شىء من الزيغ بالشبهات أو يميل نحو الشهوات ، ولكن من المؤمنين من يظل قريباً من خط الاستقامة ، ومنهم من يبتعد حتى يقع فى المحظور فيكون فيه شبه من النصارى ، ومنهم يقع بشهواته فى شبهٍ من اليهود ، حتى يصل بعضهم ـ والعياذ بالله ـ إلى أن يقع معهم ، ولا يبالى الله به أمات يهودياً أو نصرانياً ، ولذا كان من فضل الله تعالى على الأمة ، أن يطلب المسلم ـ على الأقل فى كل يوم سبع عشرة مرة ـ بتلاوته للفاتحة ـ من ربه أن يهديه الصراط المستقيم ، ويجنبه فتن الشهوات بتجاوز صراط المغضوب عليهم ـ وهم اليهود ـ وفتن الشبهات بتجاوز صراط الضالين ـ النصارى ـ وأن يبقى على الصراط المستقيم ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ .

سبب الشبهات .. قلة العلم

وفتنة الشبهات تنتج عن قلة العلم، ولا سيما عند اقتران ذلك بفساد القصد ، واتباع الهوى ، وعندئذ تكون البلية العظمى ، والمصيبة الكبرى ، حيث يضل الهوى عن سبيل الله ، ومال هذه الفتنة إلى البدعة والشطط ، بل وتقود إلى الكفر والنفاق ولهذا فلا يزال يُشاهد ويُرصد قديماً وحديثاً أن المرتدين والخارجين عن الدين ، غالباً ما يكونون من أهل البدع ، أو من بيئة كثرت فيها البدعة ،

وعم فيها الجهل ، ولا تزول هذه الفتن عن المسلم ، إلا باتباع القرآن والسنة ، والبحث عن دليل الشرع ، وتحكيم الشرع فى كل أمر من أمور الحياة ، صغيرها وكبيرها ، فى العقيدة والشريعة ، وفى الإيمان والسلوك ، وفى العمل والأداء ، وفى نطاق الفرد أو الجماعة ، والهدى دائر على اتباع النص ، وما خرج عنه فهو ضلال ، (وهذه الفتنة تنشأ تارة عن فهم فاسد ، وتارة عن نقل كاذب ، وتارة من حق ثابت خفى على الرجل ، فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهو متبع ، فهى من عمى فى البصيرة ، وفساد فى الإرادة) [١] .

وفى إطار الجماعة المؤمنة ، تقود قلة العلم إلى بعض الشبهات ، والتى تسبب انحرافاً ليس بالضرورة أن يكون انحرافاً فى الفكر والعقيدة ، وإنما شططاً فى الأسلوب والعمل ، قد يؤدى إلى فتنة الخلاف ، أو فتنة التأخر عن المقصود ، أو تقديم المهم على الأهم ، أو ما قد يسببه قلة العلم من اختلاف فى الصف ، أو قصور فى الفهم ، أو اختلاط فى الإدراك مما يعطل المسيرة ، ويعوق البناء .

وليس من المبالغة بمكان ، أن يكون سبب معظم أسباب الخلافات فى العمل الإسلامى المعاصر ، وتباين سبل عمل الجماعات الإسلامية ، مَرَدُّهُ إلى عدم الرجوع إلى النصوص الشرعية ، واتباع

---

(١) إغاثة اللهفان : ٢ / ١٦٦ .

المنهج السليم بالعودة إلى منابع الشريعة الغراء ، وبالتالى التحاكم إلى الله ورسوله، واتباع الطريق الصائب ، والمحجة البيضاء ، والسبيل القويم .

إن درء الفتن ، ووحدة الصف ، ونبذ الخلافات لا تتم جميعها إلا بالعودة الرشيدة إلى نصوص القرآن الكريم ، والأحاديث الصحيحة ، ثم مناهج السلف ، واختيار أقرب أقوال علماء الأمة إلى دلالة النصوص ومقتضاها .

فتنة الغرائب

ومما يتفرع من هذه الفتنة ،ويدخل فى نطاقها ، الثقافة النظرية، أو التثقيف ببعض غرائب المسائل ،وهذه المسألة أصل فى فتنة التحريف والتأويل ، وقد تقود إلى التشكيك ثم الابتداع ، ولذلك نهى الشرع عنها ، وهدد عمر ـ رضى الله عنه ـ بالدِّرَّة من تتبعها ، وعاقب كذلك على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وسار أئمة السلف على ذلك ، ونصوصهم كثيرة ، منها ما قاله أبو بكر الأنبارى مثلاً :

(.. وقد كان الأئمة من السلف ، يعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف والمشكلات فى القرآن ، لأن السائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البدعة ، وإثارة الفتنة ، فهو حقيق بالنكير ، وأعظم التعزير ،

وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب ، إذ أوجد للمنافقين الملحدين فى ذلك الوقت سبيلاً إلى أن يقصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل فى تحريف القرآن عن مناهج التنزيل ، وحقائق التأويل ..) [1] .

ويؤخذ بالمقياس النسبى ــ من نصوص السلف ــ عدم ابتغاء غرائب المسائل فى العمل الدعوى ، أو التركيز على الثقافة النظرية ، أو تتبع الشبهات والشكوك ، فهى فى مسائل الدين تقود إلى تحريف مناهج التنزيل ، أو حقائق التأويل ، كما أنها فى مسائل الدعوة تقود إلى الانحراف عن مناهج العمل ، أو ثوابت الحركة .

استباق النضج

ومنها ، ما يقع ــ على جميع المستويات ــ تبعاً للجهل بالأولويات ، كالمسارعة إلى الإفتاء والتعالم ، أو ادعاء المعرفة ، أو مناقشة الأمور بين غير الأكفاء ، أو إشراك من هم دون الوعى بموضوع المناقشة ، مما قد يقود إلى الفتن ، كما هو معروف ومشاهد فى حياة الدعاة ، ولقد سبق إلى فهم هذه الحقيقة الحياتية كل من عبقرى الأمة ، وترجمان القرآن ، فلقد روى ابن عباس هذه الرواية صحيحة السند قال :

---

(١) تفسير القرطبي : ٤ / ١٤ .

(.. قدم على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ رجل ، فجعل عُمَرُ يسأل الرجل عن الناس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا ، فقال ابن عباس : .. والله ما أُحب أن يسارعوا يومهم هذا فى القرآن هذه المسارعة ، قال : فزجرنى عمر ، وقال : مَه ، فانطلقت إلى منزلى كئيباً حزيناً ، فبينا أنا كذلك ، إذ أتانى رجل فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرنى ، فأخذ بيدى فخلا بى ، وقال : ما الذى كرهت مما قال الرجل آنفا ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين : متى ما يسارعوا هذه المسارعة يَحْتَقوا ومتى ما يحتَقُّوا يختصموا ، ومتى ما يختصموا يختلفوا ، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا ، قال : لله أبوك ، والله ،إن كنت لأكتمها الناس ، حتى جئت بها ..) [1] .

فاسمع ـ أيها الداعية ـ هذا النص الثمين ، كيف أدرك عمر وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن المسارعة فى المناقشة فى القرآن الكريم ، تقود إلى الخلاف ، ثم القتال ، ولا يزال القرآن طرياً فى قلوب الصحابة ، وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، فكيف بما هو دون ذلك من مسائل الاجتهاد ، كمناهج العمل ، أو فروع الفقه .

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٣ / ٣٤٨ .

ولعل من أكبر فتن العاملين للإسلام هذه الأيام ، المسارعة إلى مناقشة أمور تقصم ظهور الرجال ، قبل بلوغ العلم الكافى ، ولا المعرفة الكافية ، وترى من هم من أول الطريق ، ولّما يبصروا بعد مواقع الأقدام من الطريق يناقشون اختلاف الفقهاء ، وأحاديث الآحاد ، وحكم خلافة المرأة ، ويقيمون الأحكام على الجماعات والمواقف والرجال ، وهم لا يزالون فى أول الطريق فكراً ، وفى بداية الشوط عملاً ، وما مثلهم ، إلا كراكب أدرك القطار بالكاد ، وينبغى له أن لا يفوته السفر ، فهو معلق بآخره ومع هذا فهو يريد الاستفصال عن هندسة القطار وآلاته ، ويبحث عن طبيعته ومميزاته ، كما يسأل عن ركابه ومشكلاتهم ، وعن حوارهم ومسائلهم وهو لّما يركب بعد ..

مراتب قبل الأوان

ومن الفتن التى أساسها العلم الناقص ـ فى ركب المسافرين ـ إلحاح البعض بطلب المراتب العالية من الآخرين ، وسلوكه وإياهم غير طريق الوعظ الدقيق ، والذى غالباً ما يأتى بالنتائج الإيجابية ، وإنما بسلوك طريق الأخذ بالشدة ، وبالتعنيف والتبكيت ، بل ويريد بعض هؤلاء من الآخرين النسج على منوالهم فى الأخذ بالأحوط ، وينسى أن الله تعالى خلق الناس مراتب ، كما أن مظاهر العبادات

تتنوع ، والطاعات تتباين ، وتدرأ مثل هذه الفتن ، باتباع الطريق الصحيح ، بل لقد اعتبر الشاطبى أن مثل هذا السلوك الخاطئ يجرى مجرى البدع ، فقال : « قد يكون أصل العلم مشروعاً ، ولكنه يصير جارياً مجرى البدعة من باب الذرائع ، ولكن على غير الوجه الذى فرغنا من ذكره ، وبيانه : أن العمل يكون مندوباً إليه ـ مثلاً ـ فيعمل به العامل فى خاصة نفسه على وضعه الأول من الندبية ، فلو اقتصر العامل على هذا المقدار لم يكن به بأس ، ويجرى مجراه إذا دام عليه فى خاصيته غير مظهر له دائماً ، بل إذا أظهره لم يظهره على حكم الملتزمات من السنن والرواتب ، والفرائض واللوازم ، فهذا صحيح لا إشكال فيه ، وأصل ندب رسول الله ﷺ لإخفاء النوافل والعمل بها فى البيوت .. » [١] .

ومن هنا يتبين ضرورة أخذ المربى للدعاة بالحسنى ، وتكليفهم بما يطيقون ، وتشجيع الأفراد كلٌّ فى مجال همته ونشاطه ، دون أن يمنع ذلك من تصعيد الهمم ، وإذكاء النشاط بالوعظ والإرشاد ، والمداراة والتشجيع ، وأن يأخذ من يشاء بالعزائم فى خاصية نفسه دون إلزام للآخرين بالمراتب العالية .

---

(١) الاعتصام للشاطبي : ١ / ٣٤٤ .

علم لا يستضاء به :

ومن فتن العلم ، حمله دون وعى ، أو النطق به دون عقل ، فصاحبه كمن يحمل مصباحاً أو مشعلاً دون أن يستضىء به ، لأن العلم الذى فيه نجاة للعبد ، هو ذلك العلم الذى يؤدى إلى خير القلوب فيحيلها إلى الربانية ، أو على الأقل النجاة من العذاب ، أما إذا أدى إلى ترديده دون وعى ، أو بفهم خاطئ فنتيجته الريبة والشك ، أو السقوط فى متاهة الزلل ، أو الوقوع فى التأويل الفاسد ، وكفى بهذا العلم فتنة لصاحبه ، ولغيره ، ولا تزال القلوب فى استقبال العلم ، أوعية مختلفة ، فعن على ـ رضى الله عنه ـ قوله : «إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة ؛ فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .. أفٍّ لحامل حق لا بصيرة فيه ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارضٍ من شبهة ، لا يدرى أين الحق ، إن قال أخطأ ، وإن أخطأ لم يدر ، مشغوف بما لا يدرى حقيقته ، فهو فتنة لمن فتن به ... » (١) .

والتبرير فتنة

ومن أشد فتن العلم ، قدرة المتعلم على التبرير ، حيث يتعلل

---

(١) المرجع السابق : ٢ / ٣٥٨ .

المتعالم الذى لم يخالط علمه بشاشة القلب ، بترك الكثير من المأمورات ، أو إتيان بعض الأعمال المفضولة ، ويَجدُ لها من الأسانيد الشىء الكثير ، ويحاول تصيد الرخص ، أو أقوال الفقهاء الضعيفة ، وقد لا يكون هذا التبرير أمام الناس ، ولكنه ليقنع نفسه بالأمر ، فيوقعه الشيطان فى الزلل ، أو يمنعه من بلوغ المراتب العالية وبالتالى يسقط فى حبائل الشيطان من ثغرة العلم ، وهو لا يدرى ..

(ولما كان فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة ، صار فى الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأن يطلب السلامة من الفتنة كما قال تعالى فى المنافقين : ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ (١) » (٢) .

إذ تدل هذ الآية على أحد مظاهر التبرير ، وهو ترك الجهاد لطلب السلامة من الفتنة ، وما علم صاحب التبرير أن ترك الجهاد أو الواجب بحد ذاته فتنة ، وسبب نزول الآية قول الجد بن قيس لرسول الله ﷺ أن يأذن له بترك الغزو خوفاً من فتنة نساء بنى الأصفر ، وفى الواقع رغم أنه من المنافقين ، إلا أن فتنة التبرير قد يقع فيها كل صاحب علم بأسلوبه الخاص ، ولو بمراتب متفاوتة ، قد

---

١) التوبة : ٤٩ .　　　(٢) فتاوي ابن تيمية : ٢٨ / ١٦٦ .

توقع في بعض مظاهر نفاق العمل ، مما يستدعى الحذر الشديد لصاحب العلم من أن يؤتى من ثغرة لا ينتبه إليها ، ويكون فيها هلاكه ، بحيث لا ينتفع من عمله .

ولا يزال كثير من علماء الأمة الذين جمعوا بين علم الشريعة ، وتزكية القلب ، فحصلوا على ثمرة العلم ،ينبهون على هذا المعنى ، ومنهم شيخ الإسلام حيث يقول : « وهذا حال كثير من المتدينين يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد ، يكون به الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا لئلا يفتنوا بجنس الشهوات ، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه ، إنما الواجب عليهم القيام بالواجب ، وترك المحظور ، وهما متلازمان ، وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً ، أو تركهما جميعاً ، مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال ، وشهوات الغي ، فإنه إن فعل ما وجب عليه من أمر ونهي ، وجهاد وإمارة ، ونحو ذلك فلا بد أن يفعل شيئاً من المحظورات .. » [1] .

فانتبه ، وحذار ، أيها الداعية من أن يستزلك الشيطان بترك العمل بحجة التواضع ، أو ترك مسؤولية ـ إذا وجبت عليك ـ بحجة الزهد ، أو ترك الدعوة بحجة الحذر ، أو ترك الأمر بالمعروف

---

(١) المرجع السابق : ٢٨ / ١٦٨ .

بتبريرات العقلانية ، أو ترك الاختلاط مع الناس على أساس عدم وجود النية الكاملة .

فى العلم .. فضل ورحمة

إن علاج فتنة الشبهات لا يتم إلا بالعلم ، فهو الذى يجعل القلب محلاً لقبول الهداية ، والعلم يجلب آلة الهدى ، كما أنه يقود إلى دفع المؤمن لعمل الخير ، فتجتمع من العلم الأمور الثلاثة التى تؤدى إلى الهداية التى تمنع هذه الفتنة ، وإذا ما ذهبت الشبهات من القلب ، فسوف تتصل الرحمة بالهدى ، فيكون فى العلم من القرآن والسنة المزيد من الهدى والرحمة ، وهكذا حتى تتحقق كل من الرحمة العاجلة والآجلة ، والعاجلة ما يعطيهم الله من محبة الخير ومحبة الاستزادة منه ، وتذوق طعم الإيمان وحلاوته ، وما يقود الخير إلى الفرح والسرور ، وأما الآجلة فما أعده الله للمؤمنين العاملين .

(.. وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن ، وهما اتباع الرسول ، وهذا من أعظم الرحمة التى يرحم الله بها من يشاء من عباده ، فإن الأمن والعافية والسرور ، ولذة القلب ونعيمه وبهجته ، وطمأنينته ؛ مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح ، والسعادة . والخوف والهم والغم ،

والبلاء ، والألم والقلق ، مع الضلال والحيرة ، ومُثّل هذا بمسافرين ، أحدهما اهتدى لطريق مقصده ، فصار آمناً مطمئناً ، والآخر قد ضل الطريق ، فلم يدر أين يتوجه ؟ كما قال تعالى : ﴿ **قل الدعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾) [1] .

إذن ، فالمسافر فى قطار الدعوة لا بد له من معرفة الطريق ، الذى يعرف مقصده ، ولا يمكن أن يسير فيه آمناً مطمئناً حتى يتجاوز الفتن ، ولعله ــ وإيانا ــ بفضل من الله ورحمته ، نتجاوز إن شاء الله فتنة الشبهات ، ثم نلحقها بتجاوز فتنة الشهوات .



(١) إغاثة اللهفان : ٢ / ١٧٢ .



(٢٢) من وعثاء الطريق (٢)

لقد سبق الحديث عن أحد جانبى الوعثاء ، بذكر فتنة الشبهات ، وهى وإن كانت أهم الفتنتين ، وأخطر المحنتين ، ولكنها على الأعم الأغلب ، تقل وسط الدعاة ، أو تخف حدتها فى غالب الأحوال ، أو لا تطل برأسها إلا فى أوقات المحن والشدائد ، بينما الفتنة الأخرى ، والمتعلقة بالشهوات هى الغالبة فى أوساط الدعاة ، ومنها ينفذ الشيطان ، وفى أجوائها تنحر الهمم وتهبط الأرواح ، ومن نتائجها يحصل الفتور ويتعطل العمل ، فكان لزاماً الحديث عنها ، حتى يتمكن من اتقائها ، والعمل على صدها ، وبالتالى ترتفع الهمم ، وتقل المتاعب ، فيمكن قطع طريق السفر بهمة ونجاح .

مصدر الفتنة ..

إن فتنة الشهوات تتعلق بالهوى ، ومصدرها النفس وإبليس والدنيا ، وهى أول فتنة أبينا آدم عليه السلام ، حيث استجاب لنداء شهوته بإغراء إبليس ، فاستجاب لشهوة البدن وأكل من الشجرة ، ولا تزال ذريته ـ وفق مشيئة الله ـ يقعون فى الشهوات ، ولا ينجون منها إلا بتوفيق من الله وعون ، سواء أكانت الشهوات بدنية أم نفسية .

ولّما كان ابن آدم مخلوقاً من الحمإ المسنون ففيه إذن من صفات الطين ، ومن صفات النار ، وشهواته مدارها على هذين القسمين ، فمنها ما هو متعلق بمادة الطين حيث الركون إلى مادة الأرض ، وشهوات الطين ، فيلهث وراء شهوات الجسد الترابية ، كشهوة النساء ، وشهوة المال ، وحب التملك ، وقد تدفع هذه الشهوات إلى الفاحشة كالزنا أو السرقة، أو ما هو من مقدماتها .

أما الشهوات النارية فتتعلق بحظوظ النفس كالغضب ، أو التكبر على الخلق ، أو طلب الاستعلاء ، أو حب الرئاسة والوجاهة ، وما يرتبط بكل ذلك ويتداخل معها ، كفتنة الغربة ، والخوف على الأهل والأولاد ، وفتنة إعجاب المرء بنفسه ، وفتنة التكاثر بأى عرض من أعراض الدنيا ، خفى عن الناس أو ظهر .

اجتماع الفتنتين ..

وقد تجتمع الفتنتان معاً فى قلب العبد ، أو يشتمل قلبه على شيء من هنا ، وشيء من هناك ، كما قد ينفرد العبد بإحداهما ، وإذا كانت فتنة الشبهات لها النصيب الأوفر في انحراف النصارى الضالين ، فلليهود السهم الأكبر من فتنة الشهوات الذى أدى إلى ضلالهم وغضب الله عليهم ، بما جحدوا به النعم ، وعبادتهم لعجل الذهب ، وما استحلوه من المحارم حرصاً على دنيا زائلة ؛ أو حباً فى

متاع فانٍ ، ووصفهم ربّ العزة بأنهم أحرص الناس على حياة ، واختار الله تعالى أمة الإسلام خير الأمم لأن تكون الوسط بين الإفراط والتفريط ، وإنها على الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، وليس بصراط النصارى الضالين ، ولا اليهود المغضوب عليهم .

وقد جمع سبحانه وتعالى بين الفتنتين تحذيراً لأمة محمد ﷺ فقال : ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بِخَلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون** ﴾ (١) .

فأوضح أن الخَلاق وهو النصيب المقدر ، كان من شهوات الدنيا ، ثم أردفها تعالى بالخوض فى الباطل وهى فتنة الشبهات ، والأولى تقود إلى البدع ، والانحراف ، والزيغ ، وإلقاء الشبهات الفاسدة ، والتأويلات الشاذة ، ثم قد تقود إلى الشرك أو الكفر ، ولهذا يلاحظ أن أكثر الملحدين أو الكفار كان منشؤهم من فتنة فى الشبهة حيث الجهل بالشرع ، أو القول بتأويل فاسد تبعاً لغرض فاسد أو هوى متبع ، وقد سقط فى هذه الفتنة ناس من أهل القبلة

---

(١) التوبة : ٦٩ .

كالروافض والخوارج والمعتزلة ، وكثر الخارج فيهم من الملة ، لأن الشبهة قد تقود إلى الكفر أو الشرك ، كما سقط فى الفتنة الثانية أناس آخرون ، فوقعوا فى المحارم ، كالزنا وشرب الخمر ، وترك العمل ، والتساهل بالذنوب ، وجرت على مناهجهم أقوام من ذرارى المسلمين ، لا يزالون حتى اليوم .

ولمّا ضرب الله تعالى للمسلمين مثل اليهود والنصارى ليحذرهم أن أمة محمد ﷺ قد تقع فى بعض هذه الفتن ، وبدرجات متفاوتة ، تبتعد أو تقترب من الخط المستقيم ، فإذَنْ على المسلم أن لا يغتر ويحذر من التشبه بالأمم التى حادت عن الصراط المستقيم .

والإمامة بتركهما ..

وإذا كانت فتنة الشبهات مردها إلى فهم فاسد ، ونقل كاذب ، وغرض يتبع الهوى ، فمصدرها العام الجهل بما يقود إلى تقديم الرأى على الشرع ، فلا تدفع إلا بالعلم واليقين ، أما الفتنة الأخرى فأصلها تقديم الهوى على العقل ، والرغبة على الإدراك ، فلا تدفع الفتنتان إلا بالصبر المقرون باليقين .

(ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال : ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين ، وجمع

بينهما أيضاً فى قوله : ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ فتواصوا بالحق الذى يدفع الشبهات ، وبالصبر الذى يكف عن الشهوات ، وجمع بينهما فى قوله : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ﴾ فالأيدى : القوى والعزائم فى ذات الله ، والأبصار : البصائر فى أمر الله ، وعبارات السلف تدور على ذلك ...) [١] .

فالداعية ـ فى قطار الدعوة ـ لن يكون إماماً يهتدى به فى المجتمع ، ولا قادراً على التغيير ، ولا يحصل على التمكين فى الأرض ، والقيام بواجبات الاستخلاف ، إلا بالسيطرة على الفتنتين بقوة الصبر ، وعمق اليقين .

فتنة القوارير ..

ولعل أهم الفتن فى مجال الشهوات ، ما ذكره الرسول ﷺ فى أن أول فتنة بنى إسرائيل هى النساء ، وما يتعلق بذلك من شهوة الجسد ، وفتنة العشق ، للصور والأجساد أياً كانت ، إذ قد تقود تلك الشهوة إلى الزنا أو نظائره ، وكذلك فدون هذه الفاحشة مقدمات وممهدات ، حذر الإسلام منها بنصوصه الكثيرة ، والدعاة ـ فى قطار الدعوة ـ ليسوا بمنأى عن ذلك ، وهم بشر ، وخصوصاً

(١) إغاثة اللهفان : ٢ / ١٦٧ .

فى زمـن زادت فيـهـا مـظاهر الفـتنة ، وتعـاظمت فيـهـا طـرق الغواية ، ولقد قـال الله تعالى : ﴿ **زين للناس حُبُ الشـهوات مـن النساء** ﴾ (١) .

مما يدل على أن شهوات النساء مزينة للناس ، ومغوية لهم .

وقـوله تعـالى ـ من النسـاء ـ بدأ بهن لكثـرة تشـوف النفـوس إليهن ، « ما تركت بعدى فتنة أشد على الرجال من النساء » (٢) .

(فـفتنة النـساء أشـد من جمـيع الأشـياء ، ويـقال : فى النسـاء فتنتان ؛ وفى الأولاد فتنة واحدة ، فأما اللتان فى النساء ؛ فأحدهما : أن تؤدى إلى قطع الرحم ، لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمهات والأولاد ، والثـانيـة : يبـتلى بجـمع المال من الحـلال والحـرام ، وأمـا البنون فإن الفتنة واحدة ، وهو ما ابتلى بجمع المال لأجلهم ..) (٣)

فحرى بالداعـية إذن أن يصون نفسه حـتى عن ممهدات الوقوع فى الفاحشـة ، ولقد أمر تعالى بالكف حتى عـن الاقـتراب ، فقال : ﴿ **ولا تقـربوا الزنا** ﴾ ويجب أن لا يعـرض الإنسـان نفسـه للفـتنة تحت أى تبرير كان ، ومـهما كان واثقـاً من نفسـه ، لأن الله ـ وهو أعلم بخلقـه ـ يعلم ضـعف الإنسان ، ولا بد من أن يلجـأ الداعيـة ،

---

(١) آل عمران : ١٤ .   (٢) متفق عليه .
(٣) تفسير القرطبي : ٤ / ٢٩ .

بأسرع وقت ـ إلى الزواج ليعف نفسه ، أو يلجأ إلى الصوم فإنه وِجاء ، أي وقاية له من المنكر .

وسواس المخدة ..

ورغم أن المعنى السابق مفهوم ، إلا أن ما يرتبط به من معان ، قد لا يكون واضحاً للدعاة ، ومنها ما قد يتعلق به الداعية ، من حب زوجته ، وهو حلال مطلوب ، إلا أن هذا الحب والتعلق قد يصد عن المعروف ، أو إعانة جماعة المسلمين ، بحجة الخوف على الأهل ، أو حرصاً على البقاء بجانب الزوجة ، وإيثاراً لشهوات الدنيا على عمل الآخرة ، ناهيك عن أن يقود البعض إلى قطع صلة الرحم ، أو إيذاء الوالدين ، أو ترك الإنفاق والبذل .

وهذه المظاهر من أشد الفتن ، لأنها تأتى بأسلوب خفى ، وعند اقتراب الرجل من المرأة .

(يقال : إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء من إبليس إياها .. وأن أول كلامه معها لأنها وسواس المخدة ، وهى أول فتنة دخلت على الرجال من النساء ، فقال : ما منعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد ، لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد ، فأتاهما من حيث أحبا (حبُك الشيء يُعمى ويُصم) ...) (١) .

---

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٣٠٧ .

فانظر ـ أيها القارئ ـ إلى تعبير القرطبي ـ عن هذه الفتنة ـ بوسواس المخدة ـ لإدراكه أن الوسواس في مثل هذه المواضع ، تصل إلى الرجل بسهولة ، وقد تصمه آنذاك عن سماع الخير ، أو تعميه عن رؤية المعروف ، ولقد شوهد من التجارب كم من داعية ترك الكثير من الخير بسبب زوجته ، أو تجاوز المعروف بسبب كثرة السماع منها ، بل لعل أدنى ما يكون من وسواس المخدة ، تقليل احترام الزوج لإخوانه من الدعاة بكثرة النقد ، أو تشويه السمعة بترديد الإشاعة ، أو إشاعة أخبار السوء تلذذاً بالحديث ، أو غيبة الناس سعياً لقضاء الوقت ؛ وهكذا بمثل هذا تزداد الأمور سوءاً ، ويضيع الأجر ، وتضيع فرص ، إضافة إلى ما تقع المرأة نفسها فيه من الوزر .

يَصْرعْن ذا اللب ..

إن على المسلم ـ والداعية خصوصاً ـ مهما شعر بقوة شخصيته ، أو رجاحة عقله ، الحذر من فتنة النساء ، سواء بالابتعاد عن دواعي الفتنة ، أو مقدمات الرذيلة ، مهما كان التبرير ، ولقد حذر العلماء من تقرب الرجال من النساء حتى ولو بحجة تعليمها للقرآن ، فعن جماعة من العلماء والزهاد ، ومنهم ميمون بن مهران ، الذي يقول : « ثلاث لا تبلّون نفسك بهن ؛ لا تدخل على السلطان

وإن قلت آمره بطاعة الله ، ولا تصغين بسمعك إلى هوى ، فإنك لا تدرى ما يعلق بقلبك منه ، ولا تدخل على امرأة ، ولو قلت : أعلمها كتاب الله » (١) .

والابتعاد عن الأقارب غير المحارم مهما كانت الأعراف والعادات ، وكذلك التنبه الدقيق للفتنة التى تأتى عن طريق الزوجة حتى لو كانت صالحة ، وأن يتعاون الداعية وإياها بعرض كل حديث أو تصرف على قواعد الشريعة ، والسبب فى كل ذلك ضعف الإنسان أمام النساء ، وهى حقيقة أثبتها خالق الإنسان ، فقال تعالى : ﴿ **وخُلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ .

وقد قيل فى تفسيرها :

(..قال طاووس : ذلك فى أمر النساء خاصة .. وروى عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ **وخُلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ أى : وخلق الله الإنسان ضعيفاً ، أى لا يصبر على النساء .. ونحوه عن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ قال : ألا ترونى لا أقوم إلا رِفْداً ، ولا آكل إلا ما لُوِقَ لى .. ما يسرنى أنى خلوت بامرأة لا تحل لى ، وأن لى ما تطلع عليه الشمس ، مخافة أن يأتينى الشيطان) (٢) .

---

١) سير أعلام النبلاء : ٥ / ١٧ .

(٢) تفسير القرطبي : ٥ / ١٤٩ .

وما أحكم قول الشاعر :

يَصْرَعْنَ ذا اللب حتى لا حراك به

وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

والمال .. فتنة

ولعل الفتنة الثانية التى حذر منها الرسول ﷺ فتنة المال التى تؤدى إلى الزهو والاعتزاز ، وبالتالى تقود إلى نسيان المنعم ، وما ينبغى له من الحمد والشكر ، وكم دلت التجارب على مشاهدة بعض العاملين الدائبين فى سن الشباب ، وما تكاد أيديهم تصل إلى المال ، أو إلى شىء من الثراء ، أو انفتاح باب من أبواب الرزق ، حتى يقع ذلك العامل صريعاً للفتنة ، وتشاهده يلهث وراء جمع المال ، تاركاً الأولى والأهم ، وكان تنبيه المصطفى ﷺ لذلك بأُسلوب عملى ، وصورة مؤثرة ،فلقد مرّ وأصحابه يوماً بشاة ميتة ، فقال لهم : « أرأيتم هذه هانت على أهلها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله ، فقال : للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » (١)

وفى صورة أخرى يرويها أبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنه قال :

---

(١) رواه أحمد .

قال رسول الله ﷺ : « إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يَقْتُلُ حبطاً ، أو يُلِمُّ إلا آكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترّت وثَلَطَت وبالت ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حُلْوَةٌ من أخذه بحقه ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان الذى يأكل ولا يشبع » (١) .

والمتأمل فى الواقع أو فى التاريخ ـ إن كان ذا لب ـ يشاهد تساوى الناس فى الكفن بعد الموت ، وكم ترك الأموال أصحابها ، ورحل أهل الغنى عن الدنيا ، كما رحل أهل الفقر .

وفى نقصه فتنة ..

ولهذا تعوذ رسول الله ﷺ من شر فتنة الغنى ، بعد حصوله ، وإن كان فى الفقر فتنة أيضاً فينبغى التعوذ منهما جميعاً ، وإن كات فتنة الغنى أشد شراً فى زماننا هذا وأغلب ، قال الكرمانى فى شرح الحديث الذى يدعو به الرسول ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم .. ومن شر فتنة الغنى ، وأعوذ بك من شر فتنة الفقر »

(صرح فى فتنة الغنى بذكر الشر إشارة إلى أن مضرته أكثر من

---

(١) صحيح البخاري جـ ٨ ، ص ١١٣ ، باب الرقائق .

مضرة غيره ، أو تغليظاً على أصحابه حتى لا يغتروا فيغفلوا عن مفاسده ، أو إيماء إلى أن صورته لا يكون فيها خير ، بخلاف صورة الفقر ، فإنها قد تكون خيراً) .

وعلق ابن حجر على الاستنباط الأخير قائلاً :

« كل هذا غفلة عن الواقع ، فإن الذى ظهر لى أن لفظ «شر» فى الأصل ثابتة فى الموضعين ، وإنما اختصرها بعض الرواة .. والتقييد فى الغنى والفقر بالشر لا بد منه ، لأن كلاً منهما فيه خير باعتبار ، فالتقييد في الاستعاذة منه بالشر يخرج ما فيه من الخير ، سواءً قل أم كثر .. » (١) .

ولذا ، يلاحظ أن صاحب الحاجة قد يبتلى بشىء من الفتنة فيلهث وراء الدنيا طالباً المزيد ، أو يظل ساخطاً على ما هو فيه ، أو قد يمد عينيه إلى ما مُتّع به غيره ، فيقع فى إثم الحسد ، وتقتل قلبه الغيرة ، وقد تتطور إلى مشاعر حقد ظاهر ، أو كراهية دفينة ، تنعكس على تصرفات توقعه فى الآثام ، أو تؤدى به إلى المهالك .

لكل من اسمه نصيب ..

ولعل الداعية يعتبر حتى بأسماء المال ، ولكل شىء نصيب من

---

(١) فتح الباري : ١١ / ١٧٦ .

اسمه ، فاسمع ما قيل فيه ؛ وفى الدرهم والدينار ، وظلال المشاكلة اللفظية فيها :

(فالذهب مأخوذة من الذهاب ، والفضة مأخوذة من انفض الشيء ، تفرق ، ومنه فضضت القوم فانفضوا ، أى فرقتهم فتفرقوا ، وهذا الاشتقاق يشعر بزوالهما ، وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد فى الوجود ، ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم :

النار آخر دينارٍ نطقت به

والهمّ آخر هذا الدرهم الجارى

والمرء بينهما إن كان ذا ورع

معذب القلب بين الهم والنار [1] .

وليعلم ، أن المال وسيلة ، فمدحه وذمه خاضع للهدف والغاية ، ففوائده الدينية الإنفاق منه على النفس والعيال ، فى عبادة أو للاستعانة به على عبادة ، كالحج والجهاد ، والإنفاق فى سبيل الله تعالى ، ومنها ما يصرف للناس كالصدقة التى تطفئ غضب الرب ، والمروءة بما يصرف بها فى الضيافة والهدية والإعانة ، وكذلك وقاية العرض ، والمكافأة ، والاستعانة بالمال لاستخدامه في توفير الجهد

(١) تفسير القرطبي : ٤ / ٣٢ .

والوقت والمكان لصرفهـا فيما هو أجـدى وأنفع ، وكذلك من فوائد المال مـا يتحـقق به النفع العـام مما هو أجـر مدخـر ينفع بعـد انقضـاء الأجل ، ومـا يتـوصل به إلـى كـثـرة الإخـوان ، وكـسب القلوب ، واستحصال المحبة .

أمّا آفات المـال ومضاره ، مـا يجر بـه إلى معـصية ، أو الـوقوع بسببه فى فتنة السـراء ، أو المبالغة فى التـنعيم بالمباحـات مما يجر إلى الحسـد والكبر ، أو العجـب والريـاء ، وكذلك ما قـد يجره المال إلى الالتهـاء بإصلاحه عن الاشـتغال بذكـر الله ، أو الدعوة إلى سـبيله ، وما قد يجـر ذلك من خوف وحزن وغم وهم لقلب المؤمن ، أو إلى المصاعب التى لا بد منها لحفظه ، والسعيد من استطاع أن يوازن بين الفوائد والآفات .

فتنة الأولاد ..

لقد حبب الله الأولاد للإنسان ، فجعل النكاح من سنة الأنبياء والمرسلين ، بل وجعلهم سـبباً للثـواب ، إذا ما أدى الوالد الواجـب ، وتعليم الدين نحـو أبنائه ، ولكن قد يـتحول الأولاد إلـى فتنة ، كـما يتحول المال كذلك ، وتقع فيهـما الفتنة بالمعنى الخاص ، وكذلك :

(تطـلق الـفـتنة على أعــم من ذلك كقـوله تعـالى : ﴿ **إنمـا أمـوالكم وأولادكـم فـتنة** ﴾ . قـال مـقـاتل : أى بلاء وشـغل عن

الآخرة ، قال ابن عباس : فلا تطيعوهم في معصية الله .. وقال الزجاج : أعلمهم الله ـ عز وجل ـ أن الأموال والأولاد مما يفتنون به ، وهذا عام في جميع الأولاد ، فإن الإنسان مفتون بولده ، لأنه ربما عصى الله بسببه ، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى ..) (١) .

ولقد ورد أن الرسول ﷺ كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران .

(فنزل النبي ﷺ إليهما فأخذهما ، فوضعهما في حجره على المنبر ، وقال : صدق الله ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما) (٢) .

ودلّ الحديث على ضرورة التحذير من الانحراف وراء العاطفة الجارفة ، وإثارة اليقظة في النفوس المؤمنة من تسلسل المشاعر ، وضغط المؤثرات ، من الانتقال من حد العاطفة الشرعي ، ومستواها الإيماني الذي يدل على الرحمة إلى المستوى المفرط الذي تنتقل فيه الوشائج إلى ترك العمل ، والفرار من الجهاد ، أو الاعتذار بالأولاد عن ترك ما هو أرجح .

وقد تكون الفتنة بالأحياء بما قد يخشى عليهم من إصابتهم من

---

(١) إغاثة اللهفان : ٢ / ١٦٠ .

(٢) رواه أحمد .

الأذى بسببه ، وهو لا يملك لذلك دافعاً ، وللدعاة قدوة بما فعله سعد بن أبي وقاص ، بأمه عندما قاطعت الأكل والشرب فقال لها : « يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني » ، وهكذا يجب أن ينتصر الإيمان في قلوب الدعاة على فتنة القرابة والرحم ،مع استبقاء البر والإحسان ، لأن في الالتزام بما أراد الله النجاة والأمان .

كذلك ، ليحذر العاملون إلى الله تعالى ، منع الأولاد والأهل من العمل في سبيل الله ، كما فعل البعض بمن أسلم من مكة ، وأبوا أن يدعوهم ، ثم فاتهم القطار ، ولاحظوا بعد فتح مكة ، أن الناس قد فقهوا في الدين ، فالأولاد ونظائرهم قد يكونون ملهاة عن ذكر الله ، أو سبباً للتقصير في تبعات الإيمان ، ولكنها ضريبة الإيمان ، ونتيجة اليقين حتى تتحقق التضحية في سبيل الله ، ويكون التجرد الكامل لله ــ عز وجل ــ ومثل هذه الفتن لا بد منها ، وهي متفاوتة مختلفة ، وحصيلتها الأجر الجزيل ، والعاقبة الطيبة ، والله المتكفل بالعباد .

فتنة العلم ..

ومن أشد الفتن ، فتنة العلم وهي مرتع خصب في مجال العامة ، وعند غيرهم من العلماء والخطباء أشد وأعتى ، فوسائل

الدعوة من خطابة وكتابة وتعليم وحوار ، يمكن أن تكون عند قلة التقوى ، أو غياب الورع من أوسع مداخل الشيطان لأنها تجلب الشهرة ، وتلفت الأنظار ، وتشيع الرغبات ، وقد اعتبر المصطفى ﷺ الخيلاء آفة العلم ، وحذر من أن يجارى بالعلم العلماء ، أو يمارى به السفهاء ، وينبغي احتراس الدعاة الشديد من الوقوع في آفاته، وليتذكر المرء دوماً أن ما أعطى من موهبة إنما هى من الله وحده ، وهو القادر على سلبها ، وأن كل قول أو فعل لا يقبل ـ حتى لو كان صائباً ـ ما لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى . ومن المواعظ فى ذلك ما كان من بشر الحافى كان يقول :

(أنا أشتهى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت ، وقال هو وغيره ، إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت ، فإذا لم تشته فحدث ، وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ، ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم فى الدنيا ، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا ، ولذلك قال الثورى : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد ، وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين ﷺ ﴿ **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ..** ﴾ [(١)] .

ومن نتائج فتنة العلم أو قل من مظاهرها أن يكون الكلام أحب

---

(١) إحياء علوم الدين : ١ / ٦١ .

من الاستماع ، لأن فى الكلام تنميق وزيادة يُحْتَمَل على صاحبه الخطأ ، وفى العلم حب صاحبه للاحتفاظ به ، وكراهية أن يكون مثله عند غيره ، والعلم قد يجعل صاحبه بمنزلة السلطان يغضب إذا رد عليه ، ويحزن إذا انتقد فى مسألة ، من فتن العلم أيضاً أن العالم قد يختص بعلمه بعض الناس دون بعض لغرض أو هوى ، كما أنه قد يقود إلى التكلف المذموم ، أو الإفتاء بالباطل ، إضافة إلى اتخاذه للذكر بين الناس ، والاستشهار به ، أو ما قد يؤدى بصاحبه إلى الزهو والعجب ، وغير ذلك .

ولكن السعيد من اتخذ العلم طريقاً إلى الآخرة ، فزكى به باطنه كما تزكى به ظاهره ، فإن من سيماء العلم السكينة والوقار ، والحلم والتواضع ، والخشية والخشوع ، والزهد وحسن الخلق ، إضافة إلى حسن النية ، وربانية التعليم .

فتنة المنطق ..

ومن مظاهر غرور العلم وكأحد نتائجه ، فتنة المنطق ، والإعجاب بحلاوة الحديث ، ورقص القلب عند سماع الإعجاب ، فينبغى أن يحذر الداعية من السقوط فى العجب على ما فى أحاديث الدعوة من أجر ، وليكن من نفسه على حذر .

(.. عن أبى عبد الله الحرشى ، قال : سمعت بعض العلماء ممن

قدم على عمر بن عبد العزيز يقول : الصامت على علم ، كالمتكلم على علم ، فقال عمر : إنى لأرجو أن يكون المتكلم على علم أفضلهما يوم القيامة حالاً ، وذلك لأن منفعته للناس ، وهذا صمته لنفسه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وكيف بفتنة المنطق ؟ فبكى عمر بن عبد العزيز بكاءً شديداً ..) (١) .

ولا نقول كما يقول بعض المتزهدة ، أو بعض مبتدعة الصوفية ، بالامتناع عن الكلام خوف المباهاة ، أو ترك الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ بحجة خوف الرياء ، وإنما الحديث واجب ، وإخلاص النية لله واجب آخر ، فلا ينبغى ترك أحدهما ، والمتحدث بإخلاص أفضل بكثير من الصامت لإخلاص ، ويتفرع عن فتنة المنطق ، حب المبادرة بالجواب ، أو السرعة فيه ، حتى يقال عن المتحدث ، ما أسرع فهمه ، أو ما أغزر علمه ، فهى فتنة أخرى قد يوقع الشيطان فيها العالم ليقوده إلى الإعجاب بنفسه ، أو السقوط فى الزلل .

(قال عيسى بن مسكين : قلت لسحنون : تأتيك المسائل مشهورة مفهومة ، فتأبى الجواب فيها ؟ فقال : سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من شدة المال وقال : كان بعض من مضى يريد

---

(١) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي : ٢٤٦ . (٢) رياض النفوس : ١ / ٣٥٥ .

أن يتكلم الكلمة ، ولو تكلم بها لانتفع بها خلق كثير ، فيحبسها ولا يتكلم بها مخافة المباهاة ، وكان يتكلم لله ويصمت ، فإذا أعجبه الصمت تكلم ، وإذا أعجبه الكلام صمت) (١) .

فتنة العقل ..

ومنا كذلك فتنة مشابهة قد تصيب الصامت ، ولهذا فليس كل صمت تقوى ، ولا كل سلبية ورع ، وقد يمتلك بعض الدعاة ، عقلاً راجحاً ، أو فكراً ثاقباً ، أو إبداعاً متميزاً ، ويزينه بطلاوة الحديث ، أو بطء الفكرة ، ورزانة الأسلوب ، ولا تكاد تسمع شيئاً منه من لحن القول ، أو قرينة الرياء ، ولكنها الفتنة المكنونة في الأعماق ، تشهد لوجودها الرواية التالية :

(قال عمر بن عبد العزيز لرجاء بن حيوة : يا رجاء .. إن لي عقلاً أخاف أن يعذبني الله عليه) (٢) .

إذ خشي عمر الزاهد من عقله الكبير ، إذ قد يوقعه في تبريرات ومزالق ، أو يقوده اعتماده عليه إلى أن ينسى الاعتماد على الواحد القهار ، فيركن صاحب العقل في أعماله الفكرية أو الاقتصادية أو السياسية ، بل حتى الدعوية إلى محض عقله ، ويعتمد فيها على مجرد تفكيره ، فيفوت على نفسه اللجوء إلى الركن الوثيق ،

---

(١) رياض النفوس : ١ / ٣٥٥ . (٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي : ٢٥٢ .

والحصن الحصين ، فتسوء النية ، ويفسد القصد . ويقع فى المهلكة .

ومما لا شك فيه أن العقل مناط التكليف ، وبالعقل تدرك المنجيات ، وتتقى المهلكات ، وكفى بالعقل فخراً أن به يعرف العلم ، وينفذ العمل ، ولكن الفتنة فيه ، ما قد يستعمله العبد فى المعاصى بدل الطاعات ، وفى العجب بدل التواضع ، وفى التبرير بدل الاعتراف والاستجابة للمعروف .

وآفات العقل ـ وما قد يرادفه من مصطلحات كالذكاء ، والموهبة أو الفطنة والكفاية ـ كثيرة ، إذ لم يخالطه التقوى والورع ، فمنها نسيان الذنوب أو إهمالها ، أو استعظام الأعمال واستكبارها ومنها المقدرة على التبجح وإظهار المحاسن ، أو الموهبة فى كتم المساوئ والعيوب ، ومنها تبرير الأفكار الخاطئة أو المواقف المشينة ، وتخطئة الأفكار الصحيحة أو المواقف السليمة ، وما قد يجر ذلك من عجب بالنفس ، واستعلاء على الغير ،وبالتالى الصمم عن سماع النصيحة ، أو العمى عن رؤية الحق ، وبدلاً من أن يصبح العقل هادياً ومرشداً ومعيناً للمعروف ، يتحول إلى عائق عن الخير ، صادٍ عن المعروف ، موقع لصاحبه فى المهالك .

الغرور .. مصدر الفتن

وجماع فتن العلم والعقل وما يتفرع عنها الغرور بالنفس ، وما على الداعية إلا أن يتذكر فضل الله عليه ، ويتفكر في قدرة الله عليه ، وما هو صائر إليه ، وأن النعم تزول ، والفضل من الله أولاً وآخراً ، وكذلك :

(فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه ، ويتفكر في خلقه من حين كونه ماءً دافقاً إلى كونه خلقاً سوياً ، يعان بالأغذية ، ويربى بالرفق ، ويحفظ باللين ، حتى يكتسب القوى ويبلغ الأشد ، وإذا هو قد قال : أنا ،و أنا .. ، ونسى حين أتى عليه حين من لدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وسيعود مقبوراً ، فيا ويحه إن كان محسوراً ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** ﴾ ..

فينظر أنه عبد مربوب مكلف ، مخوف بالعذاب إن قصر ، مرتجياً بالثواب إن ائتمر .. ولا يتكبر على أحد من عباد الله ، فإنه مؤلف من أقذار ، مشحون من أوضار ، صائر إلى جنة ـ إن طاع ـ أو إلى نار .

وقال ابن العربي : وكان شيوخنا يستحبون أن ينظر المرء في الأبيات الحكمية :

كيف يزهـو مـن رجيعـه أبد الدهر ضجـيعـه

فهـو منـه وإليـه وأخـوه ورضيعُـه

وهـو يدعـوه إلى الحـش بصُغْرٍ فيطيعه [1]

فلا اقتحم العقبة ..

والمسافر ، بعد ذلك كله ، لا يمكن له السير فى قطار الدعوة ، إلا بتجاوز عقبة الفتن بشبهاتها وشهواتها ،وتجاوز هذه العقبة هى التى توصله إلى الآخرة ، فيقابل العقبة الأخرى التى ما هى إلا صدى لهذه العقبة ، فإن تجاوز عقبة الدنيا سهلت عليه عقبة الأخرى ، وإن كان العكس صعب عليه تجاوز عقبة الآخرة ، فهنيئاً لمن تجاوز الطريق ، حتى يتمكن من اقتحام العقبة ، وقد قيل فى العقبة : إنها : (خَلاصُه من هول العَرض ، وقال قتادة وكعب : هى نار دون الجسر ، وقال الحسن : هى والله عقبة شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ، وعَدُوِّه الشيطان ..) [1] .

وما هذه المصادر إلا مصادر فتنة الشهوات ، فليحذر منها ، ولقد ذكر القرطبى بعد إيراده للأقوال السابقة قول بعضهم :

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ٣٣٤ .

إنـى بليــــتُ بأربـــع يرمينـــنى

بالنَّبـل قـد نصــبوا علىّ شـِراكـــا

إبليس ، والدنيا ، ونفسى ، والهوى

مـــن أيـن أرجـو بينـهـن فِــكـاكا

يـــا رب ســـاعدنى بعــفوٍ إنـنى

أصبــحت لا أرجو لـهنَّ سِـواكا



(٢٣) آفـــات وحزونات [١]

لقد سبق الحديث عن فتنتى الشبهات والشهوات ، فى فصلى (وعثاء الطريق) وكلتاهما فردية قد يؤديان بدورهما ،و مع أسباب أخرى إلى الفتن الجماعية ، أو المحن العامة ، التى تعرقل السير ، وتسبب الحزونات ، وتعيق التقدم .. ويمثل التخلص منها داخل ركب الدعاة ، أحد مظاهر الهداية .. قال ابن القيم ـ رحمه الله :

(ولا يتم المقصود إلا بالهداية إلى الطريق ، والهداية فيها ، وأوقات السير من غيره ، وزاد المسير ، آفات الطريق ، ولهذا قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾ ، قال : سبيلاً وسنة ، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير ، فالسبيل : الطريق ، وهى المنهاج . والسنة : الشرعة ، وهى تفاصيل الطريق ، وحزوناته ، وكيفية المسير فيه ، وأوقات المسير ، وعلى هذا ، فقوله (سبيلا وسنة) ، يكون السبيل : المنهاج ، والسنة : الشرعة ، فالمقدم فى الآية للمؤخر فى التفسير ، وفى لفظ آخر : سنة وسبيلا ، فيكون المقدم للمقدم ، والمؤخر للمؤخر ..) [٢] .

---

(١) الحزونات جمع حُزونة ، والحزونة الخشونة والحَزْن : المكان الغليظ الخشن .
(٢) شفاء العليل لابن القيم : ٨٢ .

فجعل من الهداية فى الطريق ، من زاد المسير ، التخلص من آفات الطريق ، ومعرفة تفاصيله ، وحزوناته ، وكيفية المسير فيه ، فكان لا بد من الحديث عن فتن الجماعة المسلمة ، ومعرفة أسبابها ، ومظاهرها ، ثم التعرف على كيفية التخلص منها .

الفتن .. مراتب

قد تطلق الفتنة ـ فى النصوص الشرعية ـ على ما يحصل به الافتتان ، وقد تطلق أحياناً على الاختبار والابتلاء الذى لا يفتتن صاحبه ، بل يخرج من البلاء ذهباً صافياً ، كما قال تعالى لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وفتناك فتوناً** ﴾ ، أما النوع الأول فهى من المعاصى ، التى تتفاوت مراتبها ، فمنها مثلا فتنة الشرك والكفر كقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ ، ومنها ما هو من النفاق ، كقوله تعالى : ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ ، ومنها ما هو دون ذلك من المعاصى كقول موسى : ﴿ **إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء * وتهدى من تشاء** ﴾ .

وكما أن المعاصى صغائر وكبائر ، فكذلك الفتن ، ولعل الكبائر منها تلك التى تؤثر على ضروريات الدين الكلية ، أى تؤثر على الدين والنفس والعقل والمال ، كفتنة الانشقاق على الجماعة المؤمنة ، والاختلاف على الأمراء ، وكشف ثغور المسلمين ، والتجسس

عليهم ، فإن مثل هذه الأمور فتن عظيمة ، لأنها تقود إلى رزايا في الدين والجماعة ، كما حصل في فتنة عثمان ـ رضى الله عنه ـ وهي أول فتنة في الإسلام ، والله المستعان .

باب لا يغلق ..

ولهذا كان مقتل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مفتاح هذه الفتن ، ومقتله بداية فتن الجماعة المؤمنة ـ وهو موضوع حديث الفصل ـ لتبيان عظم هذه الفتنة ، لما ورد في صحيح البخارى ، حيث يقول حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه :

(بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول النبى ﷺ في الفتنة ، قال : فتنة الرجل في أهله ، وماله وولده ، وجاره يكفرها الصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، قال : ليس عن هذا أسألك ، ولكن التى تموج كموج البحر ، فقال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال عمر : أيكسر أم يفتح ، قال : لا بل يكسر ، قال عمر :إذن لا يغلق أبداً ، قلت :أجل . قلنا لحذيفة أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أنى حدثته حديثاً ليس بالأغاليط ، فَهِبْنا أن نسأله من الباب ، فأمرنا مسروقاً فسأله ، فقال : من الباب ؟ قال : عمر) [1] .

(١) فتح الباري : ١٣ / ٤٨ .

فبذهاب القيادة المؤمنة الملهمة ، وما جرى للمسلمين ، وهم خير الخلق من الفتن ، كان وقوع الناس بعد ذلك فيها أمراً مقدوراً ، ولا مفر منه ، ولقوله تعالى: ﴿ **ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾ .

وبالطبع لا يعنى ذلك الرضا بالفتن ، أو البحث عنها ، وإنما يقتضى توقيها ، والحذر منها .

للفتنة رجال ..

والفتن ، هى التى تميز بين أناس وأناس ، فإن لكل من الحق والباطل رجالاً ، فكما أن الحق يحمله رجال ، وينافحون عنه ، فكذلك الفتن لها رجال يحملونها ، ويدعون الناس لها ، ويتحملون كبرها ، وبين حملة الحق والصابرين عليه ، ودعاة الفتن جمهور يتنازعهم الخير والشر ، ومن هنا ينبغى الحذر من دعاة الفتن ، ومن يتأثر بهم من الرعاع ، وضعاف النفوس ، وأتباع الهوى ، يقول الإمام على ـ كرم الله وجهه :

« إن هذه القلوب أوعية فخيرها ، أوعاها للخير ، والناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .. أف

لحامل حق لا بصيرة له ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة ، لا يدرى أين الحق ، إن قال أخطأ ، وإن أخطأ لم يدر ، شغوف بما لا يدرى حقيقته ، فهو فتنة لمن فتن به ... » [١] .

أى أن أهل الفتن ، قد يلهجون بما لا يعرفون ، وينطقون بما لا يفهمون ، يشكون فيما وثق به الأبرار ، ويخطئون ما استقام عند جملة الأخيار ، لهم شغف بالغرائب ، وتمسك بالعوارض ، ولكن السعيد من كان مفتاحاً للخير ، مغلاقاً للشر .

من خصائص الفتن ..

إن للفتن خصائص كثيرة تميزها عن مشاكل الحوادث العرضية ، أو حزونات العمل الاعتيادية ، وتفرقها عن الخلافات الطبيعية بين البشر ، ولعل أهم هذه الخصائص التى على ركب مسافرى قطار الدعوة التنبه لها ، هو اختفاؤها فى البداية ، ثم نموها بسرعة ، حتى تدمر الدعوة ، دون الانتباه لها ، فهى إذن لا تبرز للعيان مرة واحدة ، بل تبدأ بنجوى الاثنين والثلاثة ، كما تبدأ بادعاء النصح والإرشاد ، وتتخذ مظهر الورع والحرص على الدعوة ، ثم تتقد مع الأيام ، وتنمو مع الأهواء ، وتزداد مع غفلة القادة ، فتطورها كالمرض الباطن الذى لا يشعر به فى آحاد قافلة الإبل ، وإذا

---

(١) الاعتصام للشاطبي : ٢ / ٣٥٨ .

به يمتد إلى البقية ، فيعطل السير ، ولذا كان لا بد من الحزم ، وتربية الدعاة على عدم النجوى ، أو تأسيس الجيوب ، ولقد سبق إلى إدراك هذا المعنى الإمام الراشد ، كما روى عنه سلف دعاة لبنان الإمام الأوزاعى ، فقال : « قال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيت قوماً يتناجون فى دينهم بشيء دون العامة ، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة » (١) .

فلينظر كيف تتأسس الضلالة ، وأنها بداية من التناجى فى الدين ، إذ النجوى ، تقود إلى النقاش الجانبى بعيداً عن أجواء العلم المثمر ، وفى منأى عن الجماعة المؤمنة ، فتتحول الهمسة إلى كلمة ، والكلمة إلى مناقشة ، المناقشة إلى خلاف ، ويلتف الضعاف وأصحاب الهوى حول داعية الفتنة الأول فى البداية ، ثم ينخدع معهم أصحاب الفطر السليمة ، لتلبس الحق بالباطل ، واختلاط قليل الخير بكثير الشر ، ولقد قال المحدث الكبير ابن عيينة عن خلف الحوشب : « كانوا يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن ، قال امرؤ القيس :

الحرب أول ما تكون فتيّة

يسعى بزينتها لكل جهول

(١) سير عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي : ١٠٣ .

حتى إذا اشتعلت ، وشبّ ضرامها

ولّت عـجوزاً غير ذات حليل

شمـطاء ينكر لونها ، وتغـيّرت

مكروهـة للشمّ والتقـبيل

والمراد من التمثل بهذه الأبيات استحضار ما شاهدوه ، وسمعوه حال الفتنة ، فإنهم يتذكرون بإنشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها ، حتى لا يغتروا بظاهر أمرها أولاً ...) [١] .

همة في الشر ..

ومن ظواهر الفتن ثانياً نشاط أصحابها ، فتكاد لا ترى لصاحب الهمة الفاترة ، أو الضعف المعروف ، أثناء أوقات العافية ، أو في مراحل العمل الجاد ،تكاد لا ترى له نشاطاً ، ولا تعرف عنه جداً ، فإذا ما حصلت الفتن ، أو كان الخلاف ، رأيتَه وأصحابه ينشطون ، وحول الحرص على الدعوة يتحدثون ، وفي التخطيط ومعرفة العمل هم يلهجون ، ولا غرابة في ذلك ، فإن غريزة الإنسان السبُعية ، وجهله وهواه يدفعونه بسبب الشهوة الغالبة ، إلى المزيد من الحماسة ، وإلى الإكثار من النشاط بإغراء الشيطان ، ولقد

---

(١) فتح الباري : ١٣ / ٥٠ .

تنبه بعض المفسرين لهذا المعنى ، من آية البقرة : ﴿ **وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾ .

فنظروا إلى ما توحيه كلمة السعى من النشاط والمشى السريع ، والعمل الدؤوب فقالوا : (والسعى فى الأرض : المشى بسرعة ، وهذه عبارة عن إيقاع الفتنة ، والتضريب بين الناس ، والله أعلم) (١) .

ولقد تنبه الإمام على ـ كرم الله وجه ـ لهذا المعنى ، وأوضحه بعبارة صريحة، إذ لاحظ أن أهل الفتن خاملون فى الجماعة ، ولكنهم يبرزون فى الفتن ، فأجاب أحدهم ، كما روى الهيثمى فى مجمع الزوائد ، عن الطبرانى ـ عندما قال له معترضاً على نصحه ، ودعوته للخير ووحدة الجماعة :

(إنك ـ والله ـ ما نهيتنا ، بل أمرتنا وذمرتنا ، فلما كان منها ما تكره ، برأت نفسك ، ونحلتنا ذنبك ، فقال على ـ رضى الله عنه ـ : ما أنت وهذا الكلام قبحك الله ، والله ، لقد كانت الجماعة ، فكنت فيها خاملاً ، فلما ظهرت الفتنة ، نجمت فيها نجوم قرن الماعز) (٢) .

---

(١) تفسير القرطبي : ٣ / ١٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ١ / ١٢٠ .

ولا يزال الدعـاة ـــ فى كل زمـان ومكان ـ يشـاهدون هذا الصنف من الناس ، ولكن الجماعـة تظل أقوى ، ومسير أهل الحق أبقى .

قليل الحق بكثير الباطل ..

وإن من أهـم خـصـائص الفتن كـذلك ، أن أهـلهـا عـيـابون طعانـون ، يلبسون قليل الحق بكثيـر الباطل ، ويكتـمون الكثير من المحاسن ، ولا تنجـو رواياتهم مـــن التدليس ، ويسيئون تـفسـيـر المـواقف ، ويتأولون الألـفاظ ، ويفسرون البسمة بـالتهكم ، والزهد بالبخل ، والشجـاعة بالتهور ، ولهـذه المظاهر سلف من أول فتنة فى الإسلام ، حـيث وصفهـا الخليفة الراشـد عثمـان ـ رضى الله عنه ـ كما فى رواية الطبرى :

(أما بعـد ، فإن لكل شيء آفة ، ولكل أمر عـاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعـاهة هذه النعـمة ، عيـابون طعانون ، يـرونكم ما تحبون ، ويسرون لكم مـا تكرهون ، ويقولون لكم ويقولون ، أمثـال النعام ، يتبـعون أول ناعـق ، أحـــب مواردها إليـها البـعيد ، لا يـشربون إلا نغـصـاً ، ولا يَرِدون إلا عكراً ، لا يقـوم لهـم رائد ، وقـد أعـيـتـهـم الأمور ، وتعذرت عليهم المكاسب ..) .

يا اللـه ، مـا أصـدق هذا الكـلام ، فكيف يذهب أهـل الفتن ،

وأصحاب الانشقاق ، إلى الموارد البعيدة ، ويشربون عكر الموارد ، فلا يكشفون إلا مساوئ الأتقياء ، وينبشون ما كان مدفوناً ، حتى يتحول النقد إلى الأشخاص ، بل الأسرة .

من أسباب الفتن ..

وللفتن أسبابٌ وعلل ، كما أن لها عوامل وظروفاً ، تساعد على انتشارها ، وتعاون على نموها ، ولا يمكن علاج الفتن ، أو منعها ، إلا بمعرفة أسبابها ، وأول هذه الأسباب الطعن فى الأمراء ، لأن الرضا عنهم غاية لا تدرك ، فالكمال معوز ، ومعظم الناس بعيدون عن الإنصاف ، ولهذا كان :

(.. شأن الرعية قلة الرضا عن الأئمة ، وتحجر العذر عليهم ، وإلزام اللائمة لهم ، ورب ملوم لا ذنب له ، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة ، إذ كان رضا جملتها ، وموافقة جماعتها ، من المعجز الذى لا يدرك ، والممتنع الذى لا يُملك ، ولكل حصته من العدل ، ومنزلته من الحكم) [1] .

وهذه قاعدة مُطْرَدَة فى الجماعات والدعوات ، وحتى لو أنصف معظم الأتباع ، فسوف تبقى قلة لا ترضى ، وتظل طائفة ، لا ترى إلا المساوئ ، مما يقتضى أن يكون للأمير أو الداعية قلب

(١) العقد الفريد : ١ / ٨ .

واسع ، وصدر رحب ، وقدرة على تحمل الأعباء ، وجَلد على سماع النقد ، وقد قيل فيمن يحصل على ولاية :

تـولّاها وليـس لـه عـدو

وفـارقـها وليـس له صـديـق

أى قد يأتى شخص وكل الناس يحبونه ، وإذا به بعدها وكل الناس يبغضونه ، ولذلك قال سفيان الثورى ـ رحمه الله : « أحب أن يكون صاحب العلم فى كفاية ، فإن الآفات إليه أسرع ، والألسن إليه أسرع » (١) .

وكما ينبغى ذلك لصاحب العلم ،فمن تأمَّر على آخرين أولى بذلك ، وما شوهد فى التاريخ القريب أو البعيد ، أن عالماً سلم من الألسنة ، أو أميراً نجا من الملامة ، ولكن لكل مخلص أجره واجتهاده ، ويزداد الأجر بازدياد الصبر ، وطريق الدعوة إلى الله تعالى الصبر على أذى الخلق .

ولذلك أمثلة كثيرة ، نختار منها ما ذكره النباهى موضحاً هذا الفقه الدعوى :

(.. وليس عوامل التأخير والتقديم ، بمستنكر دخولها على كل

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٧ / ٢٥٤ .

والٍ في الحديث والقديم ، فقد عزل عمر ـ رضى الله عنه ـ زياد بن أبى سفيان دون بأس ، وقال له : كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس ، وعزل أيضاً شرحبيل بن حَسنة ، فقال له : أعن سخْطَة عزلتنى ، قال : لا ، ولكن وجدت من هو مثلك في الصلاح ، وأقوى منك على العمل ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن عزلك عيبٌ ، فأخبر الناس بعذرى ، ففعل عمر ذلك ...) (١) .

الإنكار العلنى .. منكر

ومن أسباب الفتن ، الإنكار العلنى على الأمير ، فيتلقف الآخرون الأخطاء ، ويزيدون عليها ، فتكون المفسدة أكبر ، ويقود النهى عن المنكر إلى ما هو أنكر ، والنصح في السر هو الأولى ، لأنه دليل الصدق ، وحب الخير ، وبه يفرق بين النصح والتعيير ، وهذا أسامة بن زيد ، حِبُّ رسول الله ﷺ قيل له في فتنة عثمان ـ رضى الله عنه ـ :

(ألا تكلم هذا ؟ قال : كلمته دون أن أفتح باباً أكون أول من فتحه ، وما أنا بالذى أقول لرجل ـ بعد أن يكون أميراً على رجلين ـ أنت خير ، بعدما سمعت من رسول الله ﷺ .... الحديث) .

فقيل في شرح كلمة أسامة بن زيد :

(١) تاريخ قضاة الأندلس للنباهي : ١٧١ .

(قد كلمته سراً دون أن أفتح باباً ، أى باب الإنكار على الأئمة ، علانية ، خشية أن تفترق الكلمة ، ثم عرفهم أنه لا يداهن أحداً ، ولو كان أميراً بل ينصح له فى السر جهده ..) (١) .

ولقد أدرك الصحابى الجليل ـ رضى الله عنه ـ كيف أن النصح فى العلن ، وإظهار الأخطاء والعيوب ، أو البحث عن الزلات ، يفتح باباً إلى الفتن ، وينشر أشرعة للشر ، والستر لا يعنى المداهنة فى الحق ، ولا يتضمن معنى السكوت عن الأمر بالمعروف ، بل إنه معروف مقيد بمصلحة ، ومعروف يجر إلى معروف .

والأمراء من أسبابها ..

وكما أن للأمراء حق ، فعليهم واجب ، ومنهم تكون بعض أسباب الفتن أيضاً ، مما يقتضى محاسبة الأمير لنفسه ، وتنبيه الآخرين له ، وأن تكون له بطانة الخير ، التى تشجعه على المعروف ، وتنهاه عن الشر .

(لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال : انظروا رجلين من أفضل من تجدون فجىء برجلين فكان إذا جلس مجلس الإمارة أمر ، فألقى لهما وسادة قبالته ، فقال لهما : إنه مجلس شرٍ وفتنة ،

(١) فتح الباري : ١٣ / ٥٢ .

فـلا يكن لكمـا عمل إلا النظر إليّ ، فـإن رأيتمـا منى شيـئاً لا يوافق الحق ، فخوّفانى ، وذكرانى بالله عز وجل ..) (١) .

فكانت اللوائــح والإرشادت ، والقـواعـد والنظم ، أمـر لا بد منه ، لكل عمل جمـاعى ، ليضـبط تصرفات الأمير ، ويحكـم قواعد التصـرف ، لتتـحقق المصلحة الـعامة ، وتمنع التـصرفـات الفردية ، ، ويستـفـاد مــن الرأى والشـورى إلى أقـصى الحـدود ، وبذلك تدرأ الفتن ، ويفتح الباب لأصحاب الرأى والمشورة ، وفى الوقت نفسه ، الذى تحـدد فيـه تصـرفات الأميـر و ضوابطهـا ، وإتاحـة المجال أمـام المحاسبة الـشرعية ، والنقد الملتزم بالآداب ، فـلا بد من تربية الدعاة ، على حـسن الأدب ، وجمـال التـصرف ، وأن لا يكون الهـدف من النقد إبراز الذات ، ومن النـصح إظهار الحرص ، ويستـشهد لأمـثال هؤلاء ، ما ادعاه أحـدهم أمام المنصور من الوعظ والتـذكير ، ودلت القرائن على غير ذلك ، فقال له المنصور :

(مرحباً مرحباً ، لقد ذكرت جليلاً ، وخوّفت عظيماً ، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له: اتق الله ، أخذته العزة بالإثم .. وأنت يا قائلهـا ، فاحلف بالله ، ما الله أردت بها ، وإنما أردت أن يـقال : قام فقال : فـعوقب فصبر ، فـأهون بها من قائلها ، واهتـبلها لله ، ويلك

---

(١) سيرة عمر لابن الجوزي : ٢٢٦ .

إني غفرتها ، وإياكم يا معشر الناس وأمثالها .. » (١) .

وهكذا يتصرف بعض أهل الفتن ، فينصحون حتى يقال عنهم نصحوا وأدوا الواجب ، وينتقدون حتى يقال : إن عندهم خبرة ، ويتكلمون حتى يقال : إن عندهم علماً ، ولكن مثل هذه التصرفات لا يبارك الله فيها ، وهي محبطة للعمل ، ومآلها سراب .

ترئيس الجاهل .. فتنة

ومن أسباب الفتن ، قلة العلم بالشرع أو بالواقع ، فيتصرف الدعاة بجهل ، فتزداد أهمية العلم مع مراتب المسؤولية ، وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما :

(سمعت النبي ﷺ يقول : إن الله لا يَنْزِعُ العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهِم ، فيبقى ناس جهال ، يُستَفْتون فيفتون برأيهم ، فيُضِلون ويَضِلون) .

(وفي الحديث الزجر عن ترئيس الجاهل لما يترتب عليه من المفسدة ، وقد يتمسك به من لا يجيز تولية الجاهل بالحكم ، ولو كان عاقلاً عفيفاً) (٢) .

ويقاس على ذلك ، كل مسؤولية مهمة في ركب الدعوة ، إذ

---

(١) تاريخ بغداد : ١٠ / ٥٥ . (٢) فتح الباري : ١٣ / ٢٨٧ .

ينبغى للمسؤول عنها أن يكون عالماً بها ، شرعاً وواقعاً ، حتى تصبح العبادة بالنية الصادقة ، ويسلم العمل من الخطأ ، وحتى لا تحدث القالة والتلاوم ، ويشتد الجدل والتخاصم ،حتى تتهيأ مبررات الفتن

نفرة القلوب

وقد يكون من يلى أمراً ، أو يتصدر لمهمة ، له القدر الكافى من العلم ، وعنده الموهبة الجيدة فى التخطيط ، ولكنه لا يملك القلب الرحيم الذى يشد إليه الأتباع ، ولا النفس الصافية التى تقرب إليها الأرواح ، فينفض عنه الناس وتكون إمارته مدعاة للفتنة ، لما تجره من الخلاف عليه ، وافتراق القلوب عنه ، ومن الأمثلة فى ذلك الإمام الجليل ابن حزم ، فهو مع علمه الواسع ،لم ينتشر مذهبه بين الناس ، فقال فيه أبو مروان ابن حيان ، بعد أن مدحه مدحاً رائعاً :

(وكان يحمل علمه هذا ، ويجادل عنه من خالفه عن استرسال فى طباعه ، ومَذَل بأسراره ، واستناداً إلى العهد الذى أخذه الله على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه فلم يك يُلطّف صَدْعَه بما عنده بتعريض ، ولا بتدريج ، بل يصك به من عارضه صك الجندل ، ويُنْشقه انشاق الخردل ، فتنفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب ، حتى استهدف لفقهاء وقته ، فتمالؤوا عليه ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا

عوامهم عن الدنو منه ...) [(١)] .

فانظر ـ أيها الداعية ـ كيف شنع على علمه ، وحذر من فتنته ، وهو العالم النحرير ، فكان لا بد للأمير من عدم الفظاظة ، وقد قال تعالى عن نبيه ﷺ : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ .

الاستغفار .. أس العلاج

وأول طرق علاج الفتنة الاستغفار ، فيه تنفى الفتن ، وبه يُطرد الانشقاق ، واستغفار القيادات يطرد الفتن عن الأتباع ، وخصوصاً الاختلاف ، فإن الخطط والأفكار والعقول واللوائح ، والوعظ والتذكير ، كلها تطيش عند بعض هذه الفتن فى الجماعة المؤمنة ، فكان لا بد للجوء إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار ، وانظر إلى فقه الصحابى الجليل فى هذا المضمار حيث استنبط هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ .

كما ثبت فى الصحيح عن جابر عن النبى ﷺ أنه لما أنزل قوله ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم** ﴾ قال :

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٢٠١ .

أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ، فلما نزلت ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : (هاتان أهون) [1] .

وإنما تنفى الفتنة بالاستغفار من الذنوب ، والعمل الصالح .

الطاعة بالمعروف ..

وأهم شيء بعد الاستغفار ، طاعة الأمراء بالمعروف ، وبعد الالتزام بالشورى ، وطاعة الله تعالى ، وحتى على افتراض الخطأ والزلل ، فلا بد من الالتزام من باب سد الذريعة ، وجلباً لمصلحة أكبر ، ودفعاً لمفسدة أشد ، ولقد بين الرسول ﷺ ذلك فقال فى الحديث الصحيح : « .. إنكم سترون بعدى أَثَرَة وأموراً تنكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال: أدوا إليهم حقهم ، وسلوا الله حقكم .. » وقيل فى شرح ما يؤدى إليهم : أى بذل المال الواجب فى الزكاة ، والنفس فى الخروج إلى الجهاد عند التعيين ونحو ذلك) [2] .

والطاعة للأمراء مظهر من مظاهر العبادة ، كما أن الطاعة هى لأجل الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وليست لذات الأشخاص ، إلا أن يرى الداعية من أميره كفراً بواحاً ، أو معصية

---

(١) رواه البخاري .　　(٢) فح الباري : ١٣ / ٦ .

صريحة ، ما دام الخلاف فى أمور اجتهادية ، ولا يمكن لأى أمير أن يقوم بكل الحقوق ، فينبغى الرضا بالغالب منه ، ومن أقوال الإمام معاوية ـ رضى لله عنه ـ مخاطباً الناس فى الفتنة :

« .. فإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فارضوا ببعضه ، فإنها ليست بقابية قوبها ، وإن السيل إن جاء يرى ، وإن قلّ أغنى ، إياكم والفتنة ، فلا تهموا بها ، فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة ، وتورث الاستئصال.. » (١) .

وما أدقها من عبارة توضح نتائج الفتنة ، ومن عاشها عرف كدرها ، ومن عاناها ذاق مرارتها .

الركون لأهل التقوى

ثم يركن الداعية المتردد ، أو الذى يسيطر عليه ظلام الفتنة ، بعد الاستغفار والطاعة ، إلى من يثق به فى دينه وتقواه ، فهم الذين يعصمهم الله عند الفتن إذ قد يفتتن العالم الفاجر بكثرة علمه ، والديّن الجاهل يغتر بعبادته ، ولكن العالم الزاهد والفطن الورع ، هو المتغلب على الهوى باليقين ، وعلى الجهل بالعلم فيكون فى حصن من الفتنة بمنأى عن الخصومة .. وفى ذلك حديث فى ذهاب أبى المنهال مع أبيه ـ أثناء فتنة عثمان ـ إلى أبى برزة الأسلمى ، فقال

---

(١) البداية والنهاية : ٨ / ١٣٢ .

لهم فى جزء من حديث طويل : « إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذى علمتم من الذلة والقلة والضلالة ، وإن الله أنقذكم بالإسلام ، وبمحمد ﷺ حتى بلغ بكم ما ترون .. الحديث » .

وقيل عن بعض ما يستنبط منه :

(وفيه استشارة أهل العلم والدين عند نزول الفتن ، وبذل العالم النصيحة لمن يستشيره ، وفيه الاكتفاء فى إنكار المنكر بالقول ، ولو فى غيبة من ينكر عليه ، ليتعظ من يسمعه ، فيحذر فى الوقوع فيه [1] .

ومن العلاج العلم والعمل ..

ومنها العلم الشرعى ، الذى يمنع الدعاة من الفتن ، ويصدهم عن استماع النجوى ، ويكسبهم المناعة ضد الخلاف والمماراة ، ويمنحهم الثقة بالأخوة والمنهج . ثم العلم بوقائع التاريخ ، ومعلومات عن الواقع ، وأثر الخلاف فى الأمم والجماعات ، وتأثيرها على الأفراد والدعوات ، وكيف صارت نتائج أهل الفتنة فى كل ملة ، ومصير الانشقاق فى كل نحلة ، ثم بعد العلم الانشغال بالعمل الصائب ، والشغل الدؤوب ، ولقد أدرك أحد أمراء عثمان ــ رضى

---

(١) فتح الباري : ١٣ / ٧٤ .

الله عنه ـ بعد الفتنة ، كيف يؤدى البطر والخلاف إلى الفتن ، فأخذ قاعدة العمل من قول عبقرى الأمة عمر ـ رضي الله عنه : « إنما مثل العرب ، مثل جمل آنف أتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده ، أما أنا فورب الكعبة ، لأحملنكم على الطريق » .

فكان هذا الأمير طباً فى ولايته على الكوفة حيث تشتعل الفتنة فيها ، فقيل عنه كما فى رواية الطبرى :

(فقد حزم أهلها ، وساسهم سياسة صارمة ، ووجههم إلى الغزو والجهاد ، وفتح البلاد ليشغلهم عن اللهو والفساد ، والخوض فى أحاديث الإدارة والأمراء ، ونقد الولاة والعمال ، وكان هذا رأيه فى تسكين الفتنة العامة حينما استشار عثمان أمراءه بالموسم فى أمر الناس) .

أى إن انشغال الداعية بالعلم الصائب ، ومن ثم بالعمل الخالص ، وعدم الخوض فيما يجهل ، مما يدرأ عنه الفتنة .

والجهاد . . يدرأ الفتن

ويتوج العمل كله بالجهاد فى سبيل الله ، ودعوة الناس إلى التوحيد ، والإسلام دين واقعى متحرك ، يريد أن يربى أتباعه على مفاهيم الخير ، من خلال الحركة والممارسة ، فيبدأ بالتربية من

مجاهدة النفس والهوى ، ثم مجاهدة الشيطان والمنافقين ، ثم مجاهدة أهل البدع والضلال ، فهو في ديمومة من العمل ، واستمرار من العطاء ، تمنعه من أن يشغل نفسه بالفتن ، ولقد ذكر الله تعالى أن عدم اشتغال المؤمنين بالجهاد ، يسبب ابتلاءهم بالفتن ، التي تجعل البأس بينهم شديداً .

(وقوله تعالى : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم** ﴾ قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيدى العباد ، فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن بينهم يوقع العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع ، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم ، وألف بينهم ، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم ، وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذّبهم الله بأن يلبسهم شيعاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض ..) (١) .

فالخلاف والتشيع والتحزب ، وإذاقة البعض بأس بعض ، إنما يكون نتيجة لترك الجهاد ، أو لأمر الدعوة ، والعكس صحيح ، فالفتنة تكون بعيدة عمن انشغل بالجهاد ، ولهذا يكون العاملون المخلصون في أمر دعوى جاد ، من أبعد الناس عن ظلام الفتن ، وليس أدل علي هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا**

---

(١) فتاوي ابن تيمية : ١٥ / ٤٤ .

لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (١) .

ولقد أدرك السلف هذا المعنى ، وروى عن أكثر من شخص منهم وأحدهم سفيان بن عيينة ، حيث يقول لعبد الله بن المبارك :

(إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين ، وأهل الثغور ، فإن الله تعالى يقول :﴿ **لنهدينهم** ﴾ ...) (٢) .

ويستفاد من ذلك أن الارتباط ــ وقت الفتن والاضطراب ــ يجب أن يكون مع العاملين والمجاهدين ، وليس مع القاعدين المنظرين ، فإن الرأى الصائب معهم ، وهداية السبيل فى طريقهم .

وأخيراً ..

فعلى الداعية ، إذاً ، أن لا ينشغل بالفتن ، ولا يضيع الأوقات فى النجوى وأن لا يخالف أميراً ما دام بالمعروف ، ولا ينقض بيعته ، وعليه بسلوك الجادة والرنو إلى الأمام ، والعيش بأشواق الآخرة ، وأن لا يحيد عن القافلة ، أو ينشغل بالنوم ، فيفوته مقصد السفر ، وأن يتنبه فى ظلام الفتن جيداً ، فإذا لم يميز الحق من الباطل ، فعليه أن لا يتطلع لغير مركزه ، ويقنع أن يكون فى أواخر الركب ، حتى يتفقده أمير القافلة ، أو يكلفه قائد القطار ، وهذا أخوك ابن القيم ،

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .　　(٢) تفسير القرطبي : ١٣ / ٣٦٥ .

يقول لك أيها الداعية المسافر :

(إنما يقطع السفر ، ويصل المسافر بلزوم الجادة ، وسير الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ، ونام الليل كله فمتى يصل مقصده ؟)

(يا من انحرف عن جادتهم ، كن في أواخر الركب ، ونم إذا نمت على الطريق ، فالأمير يراعي الساقة) [١] .



---

(١) الفوائد : ١١٣ ، ٥٠ .

(٢٤) وللنساء نصيب

لا يقتصر قطار الدعوة على حمل الرجال فقط ، وإنما للنساء نصيب فيه ، ولما كانت أمور التكليف الشرعية عامة ، فكل ما ورد من أمر دعوى ، أو تربية حركة ، أو نصيحة وعظية ـ إنما يراد به الرجل والمرأة على حد سواء ، وعلى هذا النهج سار الفقهاء والمحدثون والوعاظ ، على مدار العصور الإسلامية ، فى فهم النصوص أو الاستنباط من الأساليب ، إذ إن غالب أحكام الشريعة عامة ، إلا ما ورد فيه التخصيص للحكم بالرجل أو بالمرأة لعلة خاصة ، أو لسبب معين ، وانطلاقاً من بعض هذه الخصوصيات ، ومراعاة لبعض الأعراف القائمة ، وأخذاً بمبدأ المصلحة ، ورداً لبعض المفاهيم الخاطئة ، كان لا بد من توضيح بعض المسائل المتعلقة بركوب المرأة لقطار الدعوة ، وانضمامها لقافلة الدعاة ، وملازمة السير من أجل الوصول إلى الأهداف المنشودة .

المشاكلة فى الحقوق والواجبات ..

إن جميع التكاليف الشرعية وردت فى النصوص عامة تخص الذكر والأنثى ، إذ إن مناط التكليف هو الإسلام ، والإسلام يدين به الذكر والأنثى ، إلا إذا وردت بعض القرائن ، أو الأساليب التى

تصرف الحكم التكليفي لجنس معين ، كلفظ النساء والمرضعات التي لا يفهم منها إلا أنها للنساء ، أو كلمة الرجال التي تنصرف إلى الذكور فقط ، وكلاهما لا يراد لسبب معين ، أو لعلة خاصة ، بل وقد يرد كل من لفظ المذكر والمؤنث في مكان واحد ، أو لعلة خاصة ، تأكيداً لمعنى المشاركة ، وتحقيقاً لمبدأ المشابهة في التكليف ، والمساواة في الثواب والعقاب ،كقوله تعالى : ﴿ **وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة منْ أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ (١) .

وكقوله تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة و لنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ (٢) .

وغيرها من النصوص في القرآن الكريم أو الحديث ، التي تدل على التساوي في الحقوق والواجبات ، على مقدار الطاقة ، والاستعداد ، والكفاية ، ولذلك فهما متكافئان في حقوق الحياة ، وأخلاق العشرة ، وعصمة الدم ، وكذلك في اكتساب المال ، وتعلم العلم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإصلاح المجتمع ، وينبني على ذلك كله ، وجوب مشاركة المرأة في العمل الدعوي ، والانضمام لقافلة الخير ، وإعانة الدعاة ، وتدعيم المسيرة ، وحفظ

(١) الأحزاب : ٣٦ . (٢) النحل : ٩٧ .

القافلة ، من الموانع والعوائق ، وأن تتجاوز الداعية مع الرجل العقبات والحزونات ، وتبذل كل جهدها للعمل فى التمكين لدين الله فى الأرض .

المساواة الحقيقية ..

وحقيقة أخرى لا بد منها ، أن تحقق المساواة بين الجنسين لا يعنى بالضرورة التشابه الظاهرى ، ولا التشاكل السطحى ، لارتباط كل من الحق والواجب بالاستعداد والفطرة ، فقد يكون التشابه الظاهرى ،مثل قمة الظلم ، والتشاكل السطحى يؤدى إلى أوج الاعتداء ، ولذلك كانت كل من الحقوق أو الواجبات لكل من الرجل والمرأة يتمم أحدهما الآخر ، وبينهما تجانس وتوافق حتى تتحقق فى النهاية العدالة فى الحياة ، والإنصاف فى العطاء ، وبها يمكن إعمار الأرض ، وتحقيق السعادة ، ويمكن بها تحقيق مقاصد الشريعة فى حفظ النسل والنفس والدين ، وتتحقق من ثم العبودية كاملة لله ، وذلك بتنفيذ شرعه فى الأرض .

وعلى سبيل المثال ، فحق المرأة فى المهر ، يقابله حق واجب الطاعة للرجل فى المعروف ومثله حق الرجل فى إبقاء العصمة يقابله واجبه فى النفقة ، وواجب المرأة فى تربية الأولاد يقابل بوجوب إنفاق الرجل على أهله .

وقد تتغير كل من الحقوق والواجبات ، وتتخذ أولويات معينة ، أو يكون لها مراتب محددة ، حسب القابلية والاستعداد ، وحسب الظروف والمصالح ، فالجهاد والعمل الدعوى قد يكون فرضاً أو مستحباً بالنسة للرجل ، ولكنه قطعاً أقل مرتبة بالنسبة للمرأة ، على الرغم من أنه قد يكون من همم بعض النساء ـ فى عمل ما ـ ما تغلب به الكثير من الرجال ، ومثل ذلك أن للرجال مسؤولية فى تربية الأولاد ، ولكنها أقل رتبة من مسؤولية المرأة ، ويقاس على ذلك أيضاً أن واجب الرجل في المشاركة السياسية ، والنظر إلي أحوال المسلمين أكبر من واجب المرأة ، ولكن ذلك يواجه بزيادة واجب حضانة المرأة الأطفال ورعايتهم .

وبمثل هذه الموازنات ، تتحقق معادلة الحياة ، وتستقر أوضاع المجتمعات ، إذ تتكامل فيها الأدوار ، ويمكن للبشرية فيها السير على هدى السماء ، وعلى منهاج الأنبياء ، فلا يكون عندها انحراف ، ولا تقع البشرية بسببها فى الفصام النكد .

والدعوة ـ كأحد مظاهر العمل الإنساني المشروع ـ واجب علي كل مسلم ومسلمة ، ولكنه يتفاوت بمقدار الأداء والعطاء ، ويتفاوت بمقدار الحقوق والواجبات ، فبعض الأمور الدعوية ، والتكاليف الحركية ، يكون وجوبها علي الرجل أو ندبها أكثر من

المرأة ، وبعضها يكون علي المرأة أكثر من الرجل ، كما أن هنالك من الأمور ما لا يمكن أن يقوم به الرجل ، والبعض الآخر بعكس ذلك ، ومن مجموع الأعمال يتكامل العمل الدعوي ، وتنجح المسيرة الدعوية ، وتحقق الأهداف في أعلي مستويات النجاح.

دور المرأة الاجتماعي ..

وفوق حقيقة تشابه المرأة مع الرجل فى التكاليف الدعوية ، فإن الضرورة تزداد إلى مشاركتها فى قافلة الدعوة فى الزمن المعاصر ، للتردى الحاصل فى مجتمعاتنا الإسلامية ، ولقوة الباطل وعنفوانه من جهة ، وكذلك لتشابك المؤثرات الاجتماعية مع بعضها من جهة أخرى ، فقد أصبح النساء يمثلن أكثر من نصف أعداد المجتمع ، وأصبح للمرأة دور فى جميع التغييرات الحضارية والعقيدية والفكرية ، سواء أرضى بذلك المسلمون أم لا ، فالتغييرات أصبحت تتم فى إطار جماهيرى ، وتأخر المرأة المسلمة ، أو الإحجام عن المساهمات المشروعة يجعل التيار الجاهلى ، أو تيار المعاصى يكون أكبر فى التأثير من التيار الإسلامى ، وخصوصاً أن جميع الأحزاب الأرضية ، والتجمعات المنحرفة ، تدفع بالمرأة فى جميع أنشطتها وفعالياتها ، بل وتستغل أحياناً العواطف والمؤثرات النفسية ، كالتباكى على حقوق المرأة ، أو الدفاع عنها ، فى إذكاء الروح

الجاهلية ، أو تشجيع أهل المنكر على الاندفاع فى محاربة الفضيلة ، ولقد تنبه الفقهاء لهذا المعنى ، فعلى الرغم من أن الأصل الشرعى ترك قتل النساء لأن العلة فى الحكم محاولة كسبهن للدين ، ولعدم مشاركتهن فى القتال ، ولكن هذه العلة تنتفى إذا ما شاركن فى حرب الإسلام ، والكيد للمسلمين ، فاقتضى الأمر تفويت الفرصة على أهل الباطل باستغلال النساء ، ويكتفى بنقل نص لأحد الأئمة حيث قال :

(... بل فى قتلهن مصالح منها : منعهن من إمداد الرجال بالأموال ، وبالحث على القتال بإنشاد الأشعار المحركة لطباعهم ، فإنه إذا حدثت الحرب بين العرب ، أبرزت النساء باعثات على الحرب ، متناشدات بالأشعار ، وذلك من أعظم الفتن ، وترى الواحد منهم يقتل نفسه ، ويرد الأمان قائلاً : إن نساء الحىّ لا يتحدثن عنى بالجزع فى القتال ، وطلب الأمان ، ففى قتلهم ـ على هذا الوجه ـ مصالح عظيمة ، وهل يقاتل أكثر الناس إلا ذباً عن النساء ؟)

فإذا كانت أمثال هذه الفتاوى فى نقض أصل لانتفاء علة الحكم ، فما أشد الحاجة اليوم ، وقد استشرى الباطل بالنساء ، وكثر المنكر باستغلالهن ، إلى ضرورة مسارعة المرأة المسلمة لأداء دورها فى محاربة هذا المنكر ، ورد ذلك الباطل ، وتفويت الفرصة على

الأعداء باستغلال المرأة ، وإثبات المرأة المسلمة لدورها فى المجتمع والحياة ، ومنع وقوع أخواتهن بين براثن الجاهلية والفساد .

المرأة .. وهمسات الخير

ومما يعضد دور المسلمة فى العمل الإسلامى ، ما يمكن لها أن تؤديه فى البيئات العائلية ، والمجتمعات الخاصة ، حتى ولو كان خبراً مفيداً ، أو موعظة جيدة ، أو دعوة إلى الخير عن طريق النساء ، ولله فى خلقه شؤون ، ولعل هذا الاستنباط مظهر من حكمة زواج الرسول ﷺ الكثير من النساء ، واختصاصه بهن ، مع تنوع صفاتهن وخصائصهن وشمائلهن ، وقد أمرهن الله تعالى بوجوب تبليغ ما يجرى فى بيوتهن للنساء ، بل أمر الأمة بقبول خبرهن ، بل خبر الواحدة منهن فى الدين ، فقال تعالى : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ [1] .

(أمر الله أزواج رسوله بأن يخبرن بما أنزل الله من القرآن فى بيوتهن ، وما يرين من أفعال النبى ﷺ وأقواله فيهن ، حتى يبلغ ذلك إلى الناس ، فيعملوا بما فيه ، ويقتدوا به ، وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء فى الدين) [2] .

وإذا كُلّف نساء المصطفى ﷺ بنقل أخبار البيوت للناس ، فما

(١) الأحزاب : ٣٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ٣ / ١٥٣٨ .

أحرى بنساء اليوم نقل ما ينفع من بيوتهن إلى الآخرين ، كنقل خبر سار ، أو المسارعة بدفع مضرة بينة ، أو الانتفاع من فرصة متاحة ، أو جلب تبرع مفيد ، وغني عن القول ، التأكيد على حرمة نقل ما يقود إلى مفسدة ، أو يتنافى مع الأحكام الشرعية ، أو يتعلق بالأسرار الخاصة ، وإنما المقصود إسالة الخير من البيوت وإليها ، مما لا يمكن نقله إلا بواسطة النساء ، أو لا يؤتى ثماره إلا من خلالهن .

وخلف الدعاة ... داعيات

ومما يزيد المصلحة في ضرورة العمل الدعوى وسط النساء ، أن للمرأة دوراً كبيراً في دفع الرجل للعمل الإسلامي ، أو في منعها له منه ، وليس المقصود بهذا زوجها فحسب ، بل إنها قد تدفع أخاها أو أباها ، ناهيك عن دفعها لأولادها ، أو طلابها ، وللمرأة أثر كبير في دفع إخوتها للخير ، ومنعهم عن الشر ، وخصوصاً الأصغر منها سناً ، حيث قد تكون بمكانة الأم لهم ، إذا ما غيرت بالعطف أو الحنان عليهم ، فكم من داعية ارتفع إلى المعالي بدفع أخته أو أمه لذلك ، والحوادث كثيرة في صفحات التاريخ أو في تجاربنا المعاصرة ، فانظر إلى تأثير بنات المحدث الثقة عاصم بن علي بن عاصم ، أحد شيوخ الإمام أحمد بن حنبل ، ومن أقران شُعبة ، وكيف صبر في محنة الإمام أحمد وتقوى على الثبات عندما كتبن

إليه بناته بتثبيته على الحق .

(يا أبانا : إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل ، فضربه على أن يقول : القرآن مخلوق ، فاتق الله ، ولا تجبه ، فوالله لئن يأتينا نعيك ، أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت) (١) .

وليس تاريخنا المعاصر ، بحوادثه أقل من ذلك ، فلقد كان للنساء العاملات دفع لمسيرة الحركة ، وخصوصاً فى مصر ، حيث كان لتثبيتهن وسط أجواء المحن والمعتقلات دور بارز مشهود ، وفى حوادث حماة حيث دفعت الأمهات أبناءها للاستشهاد فى سبيل الله ، وآخرهن مثلاً زوجة الشهيد عبد الله عزام ــ رحمه الله ــ وما كان لها من ثبات وصبر وشجاعة ، حيث رفضت العزية فى زوجها و ولدها ، وأظهرت لمن جئن لها شريطاً فيه إحدى محاضرات الشهيد للاستماع إليها ، ومنعتهن من البكاء والنحيب .

وما أشبه اليوم بالبارحة ...

ومن أمثلة السلف التى اقتدت بها هذه الداعية المسلمة ، التابعية الجليلة معاذة بنت عبد الله ، زوجة التابعى الجليل ، السيد القدوة صِلَة بن أشْيَم الذى استشهد هو وولده فى معركة واحدة ، وقد قال له رجل :

---

(١) تاريخ بغداد : ١٢ / ٢٤٨ .

(يا أبا الصهباء ، رأيت أنى أعطيت شهدة وأعطيت شهدتين ، فقال تستشهد ، وأنا وابنى ، فلما كان يوم يزيد بن زياد ، لَقِيَتْهم الترك بسجستان ٦٢ هـ ، فانهزموا ، وقال صلة : يا بنى ارجع إلى أمك ، قال : يا أبه تريد الخير لنفسك وتأمرنى بالرجوع ، قال : فتقدم ، فتقدم حتى أصيب ، فرمى صلة عن جسده ، وكان رامياً حتى تفرقوا عنه ، وأقبل حتى قام عليه ، فدعا له ، ثم قاتل حتى قُتل ..) [١] .

أما قصة زوجته فهى كالتالى :

(اجتمع النساء عندها ، فقالت : مرحباً بكن إن كنتن جئتن للهناء ، وإن كنتن لغير ذلك فارجعن .. وكانت تقول : والله ما أحب البقاء إلا لأتقرب إلى ربى بالوسائل ، لعله يجمع بينى وبين أبى الشعثاء وابنه ، فى الجنة ..) [٢] .

فانظرى ـ أختى الداعية ـ كيف كان دور بنات عاصم فى تثبيته على الحق ، وكيف كان فعل زوجة صلة مع زوجها وولدها ، فلا تبخسى جهدك مع والدك وولدك ، ولا تسأمى أو تتواضعى فى أن تقومى بالنصح فى كل مجال ، وأن تبلغى الدعوة لكل رجل ، وإياك واستضعاف النفس ، فإن الكلمة الصادقة ، والنية الخالصة ،

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٣ / ٤٩٩ .　　(٢) المرجع السابق : ٤ / ٥٠٩ .

تصل إلى كل القلوب لا يحجزها حاجز ، ولا يصدها عائق .

دورهن في الإبداع الدعوى

ومن مثيلات زوجات الصحابة ، اللاتى سجلن سبقاً فى الإبداع الدعوى التى شاركت فى جهاد العدو وطالبت زوجة حبيب بن مسلمة ، بحقها في المرافقة ، ولم تكن تلك المرافقة دنيوية ، أو مرافقة لسياحة ، وإنما فى العمل الجهادى ، حيث أراد الصحابى الجليل الدخول إلى سرادق الموريان الرومى ، وتبييت العدو على حين غرة ، وكان شجاعاً شهماً .

(فسمعته امرأته يقول للأمراء ذلك ، فقالت له : فأين موعدى معك ؟ ـ تعنى أين أجتمع بك غداً ـ فقال لها : موعدك سرادق الموريان أو الجنة . ثم نهض إليهم فى ذلك الليل بمن معه من المسلمين ، فقتل من أشرف له ، وسبقته امرأته إلى سرادق الموريان ، فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها السرادق) (١) .

وهذه قصة من آلاف القصص ، فى دور المسلمة فى الإبداع الدعوى ، وفى مقدرتها على إيجاد السبل الجديدة ، والأفكار المستجدة ، فى إطار العمل النسائى الدعوى ، من أجل دفع مسيرة العمل الإسلامى .

---

(١) البداية والنهاية : ٧ / ١٥ .

والدور الكبير

أما دور المرأة فى تنشئة الجيل ، وبناء الأسرة المسلمة ، فهو أمر أشهر من أن يذكر ، فالمرأة هى مدرسة التربية والبناء ، والولد يتربى على أُمِه أكثر مما يتربى على والده ، فى المراحل الأولى ، بل إن مهمة المرأة الأولى فى الحياة هى لإنجاز هذا الهدف التربوى العظيم ، بل إن الدور الجهادى ابتداء يكون بتربية الأم ، حيث تربيه على العزة والكرامة ، وتدفعه إلى طريق الدعوة والجهاد ، ونكتفى بمثالين من الجيل الأول ...

(فعن عبد الله بن زيد قال : جرحت يوماً جرحاً فى عضدى اليسرى (يوم أحد) .. وجعل الدم لا يرقأ ، فقال رسول الله ﷺ اعصب جرحك ، فتقبل أمى إلىّ ، ومعها عصائب فى حقويها قد أعدتها للجراح ، فربطت جرحى ، والنبى واقف ينظر إلىّ ، قالت : انهض يا بنى فضارب القوم ، فجعل النبى ﷺ يقول : من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة) [(١)] .

(وقال ابن إسحق : وحدثنى أبو ليلى .. أن عائشة أم المؤمنين ، كانت فى حصن بنى حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة ... وكانت أم سعد بن معاذ معها فى الحصن ، فقالت عائشة

---

(١) طبقات ابن سعد : ٨ / ٤١٤ .

وذلك قبل أن يفرض علينا الحجاب ، فمر سعد وعليه درع مقلّصة قد خرجت منه ذراعه كلها ، وفى يده حربته يرقد بها ، ويقول :

ابث قليلاً يشهد الهجيا جمل

لا بأس بالموت إذا حان الأجل

قال : فقالت أمه : إلحق أى بنى ، فقد والله أخرت ، قالت عائشة ، فقلت لها : يا أم سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى ، قالت : وخفت عليه حيث أصاب السهم منه) (١) .

وقصص أم عمارة كثيرة ، موطنها كتب السيرة ،نتركها للقارئة الداعية ، لتبحث عنها ، وتعيش فى أجواء السيرة ، وتأخذ منها العبرة ، وتستلهم منها التجارب ، بحسها الأنثوى ، وإدراكها الفطرى .

الإسناد الجهادى ..

أما مشاركة المرأة فى الجهاد ـ على الرغم من أنه ليس بالواجب عليها ـ فحوادثه كثيرة من الصدر الأول فروى البخارى عن أنس أنه قال :

(لقد رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمرتان تنقزان القرب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٣٧ .

عن متونهما ، تفرغـان الماء فى أفـواه القوم ، ثم ترجـعان فتـملآنها ، ثم تجـيئان فتفرغانه فى أفواه القوم) .

وعن أم عطية قالـت : غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم فى رحالهم ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى) [١] .

فكيف بـالعـمل الـدعـوى ، والأمـر بالمعـروف ، والـنهى عن المنكر ، وهو أقل خطورة من ذلك ، ولا بأس بعرض بـعض الأعمال الجهادية ، فـمنها هجرة أم كلثوم بنت أحـد زعماء الكفار عـقبة بن أبى معيط ، حـيث قبلت هجرتها ، ولم ترد حسب هدنة الحـديبية ، فقالت لرسول الله ﷺ :

(أتردنى يا رسـول الله إلى الـكفار ، يـفتـنونى عن دينى ، ولا صبر لى ، وحال النساء كما علمت ..) [٢] .

وقصة أم عمارة مشهورة ، وشـجاعتها بيّنة ، فلقد شـهدت ليلة العـقبـة ، وشهـدت أحداً والحـديبيـة ، ويوم حنين ، ويوم اليـمامـة ، وفعلت الأفاعيل .

(قالـت أم عمارة : رأيـتنى وقد انكشف الناس عن رسـول الله

---

(١) الطبقات الكبري : ٨ / ٤٥٥ .
(٢) البخاري : ٥ / ٢٢٨ .

ﷺ فمـا بقى إلا فى نفر ما يتـمون عشـرة ، وأنا وابناى وزوجى بين يديه ، نذب عنه والناس يمـرون به منهزميـن ، ورآنى لا ترس معى ، فرأى رجلاً مولياً معـه ترس ، فقال لصاحب الترس : ألق ترسك إلى من يقاتل ،فـألقى ترسه فأخـذته ، فجعلت أتتـرس به عن رسول الله ﷺ فيقبل رجل على فرس فضـربنى ، وتترست له ، فلم يصنع سيفه شيـئاً ، وولى ، فأضرب عـرقوب فرسـه ، فوقع على ظهره ، فـجعل النبى ﷺ يصيح : يا أم عمارة ، أمامك ، فقالت : فعاونني عليه حتى أوردته شعوب (أى المنية) ...) (١) .

ومـثلهـا أسـمـاء بنت يزيد بن السـكن حـيث (قـتلت بعـمـود خـبائهـا ، يوم اليرمـوك تسعـة من الروم ، وكـانت ليلة المعركـة ليلة عرسها) .

وأم سليم صاحبة القصة المشـهورة مع زوجها أبى طلحة عندما مات لهـما ولد ، ثم بورك لها فى نسلهـا (حيث صار لولدها سبـعة بنين كلهـم قد خـتم القرآن ، قد اتخذت خنجراً يـوم حنين وشهدت أحداً) (٢) .

ويؤخذ من مجمل هذه القصص من الصحابيات ، وأمثالها من أجيال أخرى ، ما للمرأة من إسناد لكل عمل يقوم به الرجال ، ولعل

---

(١) طبقات ابن سعد : ٨ / ٤١٣ .　　　(٢) سير أعلام النبلاء : ٢ / ٣٠٤ .

هذا الدور من أهم مجالات العمل فى عالمنا المعاصر .

زمام المبادرة ...

وفى المجال الدعوى الرحب تبرز قصص أخرى ، ففى مجال الهجرة إلى الله تعالى ، واختلاط ذلك بروح المبادرة ما عملته أم حرام حيث ركبت البحر ، وهى من بيئة لا تعرف ركوب البحر ، ومن ذلك قصة أسماء بنت عميس التى نقلت بعض الأفكار من بيئة الحبشة إلى بيئة الحجاز ، واستفادت من تجاربها ، ووظيفتها لخدمة المجتمع الإسلامى ..

(قال الشعبى : أول من أشار بنعش المرأة ـ يعنى المكَبَّة ـ أسماء رأت النصارى يصنعونه بالحبشة) (١) .

وأم سليم استغلت رغبة أبى طلحة عندما جاء يخطبها ، فدعته إلى الله ـ عز وجل ـ وناقشته بحوار هادئ ، تدل على ذلك الرواية التالية :

(أخبرنا عفّان بن مسلم ، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت أن أم سليم قالت : يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذى تعبد ، إنما هو شجرة تنبت من الأرض نجَّرها حبشى بنى فلان ؟ قالت : فهل

---

(١) المرجع السابق : ٢ / ٢٨٤.

لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأُزوجك نفسي لا أريد منك صداقاً غيره ، قال لها : دعيني حتى أنظر ، قالت : فذهب فنظر ، ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قالت : يا أنس قم فزوج أبا طلحة) (١) .

فما أحرى داعية اليوم ، باستغلال مودة أهلها بدعوتهم للخير ، أو تعلق زملائها في العمل بها ، أو طالبتها إذا كانت مدرسة ، أن تأخذ بأيديهم إلى المعروف وتحبيب نفسها للخلق ـ في الوقت نفسه ـ دعوة بذاتها ، والله الموفق للخير .

دور الداعية الإعلامي ...

وفي الإطار الإعلامي كان تحفيز النساء كثيراً ، ويستعملن لإثارة النخوة ، والتحريض على أداء المعروف ، ورد الاعتداء ولقد كان سلف نساء هذه الأمة من الصحابيات والتابعيات في معركة اليرموك ، أحد عوامل النجاح ، فلقد (مر عليهن أبو سفيان وقال لهن : من رأيتنه فاراً فاضربنه بهذه الأحجار والعصي حتى يرجع .. وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم ، وقتلن خلقاً كثيراً من الروم وكن يضربن من انهزم من المسلمين ، ويقلن : أين تذهبون وتدعوننا للعلوج ..) (٢) . وفي إطار الأهازيج والأناشيد :

(١) طبقات ابن سعد : ٨ / ٤٢٧.   (٢) البداية والنهاية : ٨ / ١٣ .

(كانت خولة بنت ثعلبة تحرض المجاهدين في معركة اليرموك ، وتقول :

يـا هـاربـاً من نـسوةٍ تـقيّات

فعـن قـليل مـا ترى سـبـيّات

ولا حـصيّات ولا رضـيّـات)[1] .

ولا يزال هذا الدور مفتوحاً أمام الداعيات ، نحيل اكتشاف أبعاده لذكائهن وحدسهن .

مبلغات العلم ...

وفى إطار تبليغ العلم الشرعى ، فليس هنالك أبلغ من فقيهة الأمة ، وسيدة نساء العالمين ، وعالمة الصحابة ، حبيبة المصطفى ﷺ الصديقة بنت الصديق ، رضى الله عنهما وأرضاهما ، المبرأة النقية الطاهرة فى الدنيا والآخرة ، فلقد نقل عنها الكثير من أمور الدين ، حتى يقال : إن ما نقل عنها ثلث الدين ، وكذلك بقية أمهات المؤمنين اللائى أمرن بتبليغ الدعوة إلى الناس .

(فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن فى بيوتهن ، وما يريد من أفعال النبى عليه الصلاة والسلام ويسمعن من

---

(١) المرجع السابق : ٧ / ١١ .

أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس ، فيعلموا ويقتدوا ، وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء فى الدين ..) [١] .

ويؤخذ من النص كيف تعتبر المرأة كإحدى وسائل تبليغ الدين وبالتالى الدعوة بمضمونها الواسع ، حتى ولو كانت واحدة ، فإن أخبارهن تقبل .. ولم يقتصر تبليغ العلم على أمهات المؤمنين ، فهنالك العشرات من الصحابيات ، كأم الدرداء وحفصة بنت سيرين أم الهذيل التى قرأت القرآن وهى بنت ثنتى عشرة سنة ، وبقيت تدرسه حتى بلغت سناً كبيرة ، وتوفيت بعد المائة ، ومن التابعيات تلميذة أم المؤمنين عائشة عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، وجدها من قدماء الصحابة ، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زرارة قال عنها عالم عصره ابن شهاب الزهرى : (فأتيتها فوجدتها بحراً لا ينزف) [٢] .

أى أن العلم الشرعى لا يقتصر على الرجال ، فللنساء دورهن فى القراء والمطالعة ، وتعلم شرع الله تعالى ، ثم فى التعليم والتدريس ، وإلقاء المحاضرات والمواعظ ، فهن أبلغ فى أداء المهمة ، وأعلم بنفسيات الرجال ، كما أن للداعيات دوراً فى قطار الدعوة فى التأليف والتدوين ، وقد آن الأوان أن لا يظل النساء فى اعتمادهن

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ١٨٤ .

(٢) سير الأعلام : ٤ / ٥٠٨ .

على خطب ودروس الرجال ، بل أن يجدن طريقهن ، لتوسعة دائرة الاستماع للخير ، والتفاعل الأشد مع جماهير النساء .

سلف الانتفاضة ...

ولا يخفى ما تفعله نساء الانتفاضة اليوم ، من أدوار بطولية فى الدعوة والجهاد ، ولنساء الانتفاضة سلف فى جداتهن من نساء نابلس ، فلقد امتدحهن الإمام القرطبى من بين نساء قرى العالم الإسلامى (١) .

ثم نقل نصاً عن شيخه ابن العربى ، ننقله هنا هدية للداعيات فى الأرض المحتلة :

(ولقد دخلت نَيفاً على ألف قرية من برية ، فما رأيت نساءً أصون عيالاً ، ولا أعف نساءً من نساء نابلس التى رمى فيها الخليل ــ عليه السلام ــ بالنار ، فإنى أقمت أشهراً ، فما رأيت امرأة فى طريق نهاراً إلا يوم الجمعة ، فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن ، فإذا قضيت الصلاة ، وانقلبن إلى منازلهن لم تقع عينى على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى ، وسائر القرى تُرى نساؤها متبرجات بزينة وعُطْلة ، متفرقات فى كل فتنة وعُضْلة (أى داهية)

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ١٨١ .

وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه ..) [١] .

فيا له من نص رائع ، يهدى لنساء نابلس اليوم بشكل خاص ، وإلى أخواتنا فى ربوع فلسطين بشكل عام ، كيف كانت عبادة النساء آنذاك بحيث استدعت إعجاب ابن العربى ، وهو القادم من الأندلس ، وثبتها بعده القرطبى فى تفسيره ، وكيف ميّزا بينهن وبين المتفرقات فى الفتنة ، وبين عفتهن واستشهادهن وضياع الأخريات فى التبرج والزينة ، مما يقود إلى النظر اليوم للتفرقة بين من ينصرون قضية فلسطين بالدم والآلام ، وبين من ينصرونها ـ أو قل يخذلونها ـ بالرقص والأنغام .

عداوة القرين ...

والمرأة بفطرتها إن لم تدفع الرجل للخير ، صارت عوناً له فى الشر ، والمسألة تقاس بأضدادها ، فكم من داعية تأخر بسبب زوجته ، وكم من شاب ضاع بسبب تربية أمه ، فحياة المسلم إما تقدم أو تأخر ، والوقوف ـ بحد ذاته ـ تأخر ، لقوله تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر** ﴾

فيؤخذ منها أن المرأة إذا لم تدفع الرجل إلى التقدم بالخير

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٥٣٥ .

وللخير ، فإنه على تأخر ، وإن زعم هو ، أو ادعت هى ، أنهما على خير ما داما بعيدين عن الشر والمعاصى ، فدعوة الناس للخير أمرٌ لا بد منه ، وواجب على كل مسلم ومسلمة ، كل على حسب استطاعته ، كما أن قوله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ (١) .

يؤكد المعنى فى أن الزوجات ، إن لم يدفعن للخير ، فإنهن سيصبحن عوناً للشر ، ما لم يعن أحدهما الآخر على فعل الخير .

(كما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدواً ، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدواً بهذا المعنى بعينه ، وعموم قوله تعالى : **﴿ من أزواجكم ﴾** يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما فى كل آية ، والله أعلم) (٢) .

فليعلم ، أن عمل المرأة فى المجال الإسلامى ، حتى على فرض عدم دفعه للخير ، فهو مانع للشر .

والمرأة الملهمة .. أم الخطط ..

ومع تخصيص المرأة بالدعوة النسائية ، وبالأعمال الخاصة ، فلا

---

(١) التغابن : ١٤

(٢) تفسير القرطبي : ١٨ / ١٤٢ .

يستغنى عن رأيها حتى فى أمهات الخطط الدعوية ، وليس أدل على ما فعله النبى ﷺ فى الحديبية حينما اقترحت عليه أم سلمة أن يقوم ويذبح الهدى حتى يقتدى به ، وأخذ الرسول ﷺ بقولها ، ومن هنا استدل العلماء على جواز قتل المرأة المقاتلة حتى ولو كانت مشاركتها بالرأى ، وما أروع هذا الفهم ، فكم من امرأة فى عصرنا ، يشكل عقلها خطراً على الإسلام والمسلمين أكثر من أسلحة الرجال ، وقد قال إلْكيا الهراسى فى قوله تعالى : ﴿ **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** ﴾

(عام فى الرجال والنساء والصبيان ، وهم يقتلون إذا كانت المصلحة فى قتلهم ـ على ما عرف من مذهب الشافعى رحمه الله فيه : وإذا كانت المرأة مقاتلة بالمال والرأى والتدبير ، وكانت فى عز فى قومها ، فيجب قتلها ، وإذا كانت المصلحة فى استرقاقها ، فنفع الاسترقاق أوفى على قتلها ، فلا يجوز قتلها) [(١)] .

فانظر ـ أيها الداعية ـ إلى العلة التى لأجلها قال الفقهاء بقتل الكوافر ، ألا وهى الرأى والتدبير ، أليس الأحرى أن يكون للمرأة المسلمة رأى وتدبير فيما ينفع المسلمين ؟

وأليس الأجدى بهن أن ينزلن إلى ميدان بناء المجتمع الإسلامى ، وإلى أداء الدور المنوط بهن فى بناء الجيل ، وتربية الرجال ؟ أو ليس

---

(١) أحكام القرآن لإلكيا الهراسي : ١ / ٨٣ . .

الأنفع والأفضل للدنيا والآخرة الانصراف إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ وفى كل هذا دفع عن وقوع المرأة فى مفسدة الانصراف إلى اللهو الفاسد ، وإضاعة الأوقات التى أرادها الله تعالى للإنتاج والعطاء وليس لصرفها أمام شاشة التلفاز والنظر إلى سفهاء القوم ، وصغار الأحلام ، وتزجية الوقت بالترهات من الأقوال والأفعال .

بعضهم أولياء بعض ..

وخلاصة الأمر ، أنه لا بد من مشاركة النساء فى ركب الدعوة ، فنداء السماء للجميع ، وجماع الأوامر السماوية ما ورد فى آية آل عمران ، ومما قيل فى سبب نزولها :

(... روى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله : ألا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** ......﴾ الآية [١] .

وقوله ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ : أى : دينكم واحد ، وقيل : بعضكم من بعض فى الثواب والأحكام والنصرة وشبه ذلك ، وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم فى الطاعة ، ونساؤكم شكل

(١) أخرجه الترمذي .

رجالكم فى الطاعة ، نظيرها قوله عز وجل : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ ......)[١] .

أى أن الجميع يربطهم رابط الموالاة إلى الله ، ويقتضى ذلك أن تكون المعاداة فى الله ، فالأخوة فى الدين هى التى توجب المحبة بين المؤمنين ، وعدم الدين يقتضى عدم الموالاة فى الدنيا ، ويؤخذ من شرح الآية أيضاً ، التساوى فى الواجبات والتكاليف ، والتشابه فى الحقوق والمكاسب ، مما يجعل النساء والرجال فى الدعوة ، جماعة واحدة ..

وإن للنساء المتناظر والمشابه حتى فى الهجرة ، والإيذاء فى سبيل الله ، حتى الاستشهاد فى سبيله ، ثم تكون النتيجة ، الفوز والفلاح ، كما قال تعالى :

﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم منم بعض فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب** ﴾[٢] .

❊❊❊❊❊

---

(١) تفسير القرطبي : ٤ / ٣١٨ .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .



(٢٥) التعليم الربانى

قد سبقت الإشارة إلي دور العلم في صحة العمل ، وبيان منهج الدعوة ، وتأصيل المنهج والحركة ، وهو لازم لمسيرة الدعاة ، ومستلزم لصحة السير علي الطريق ، وبعد قطع هذه المفازة في الطريق ، لا بد من العودة إليه ، كمنهج تربوى لا بد للدعاة منه ، إذ لا يخلو قطار الدعوة من تعلم وتعليم ، يخضع فيها اللاحق لتربية السابق ، ويعلم المتقدم منه المتأخر ، ويستسقى المتعلم من دلاء العالم ، والركب إمّا عالم أو متعلم ، ولا بد لعملية التعليم من منهج ربانى يعطى التربية لناشئة الدعوة وليس فقط الوصول إلي وجهة القطار فحسب ، وإنما أن يكون مسيره علي النهج الربانى الذي أراده الله تعالى ، وعلي سنة نبيه ﷺ .

الربانية أصل ..

وأساس ربانية التعليم فى قطار الدعوة ، ما رواه البخارى عن ابن عباس فى قوله : (كونوا ربانيين حكماء فقهاء ، ويقال : الربانى الذى يُربِّى بصغار العلم قبل كباره)

فالأصل فى التعليم الدعوى ، الربانية فالدعوة إذاً تربية وتعليم ، ولا يراد العلم لذاته ، أو ليبارى به العلماء ، أو يجارى به السفهاء ،

بل لتصحيح النية وسلامة القصد ، والنهوض بالنفس والتسامى بها ، والبحث عن أصح المسارات الموصلة إلى الله تعالى ، واختيار أفضل السبل الموصلة إلى الآخرة .

ولعل أول مبادئ الربانية ، التعليم بصغار العلم قبل كباره .

وقد سبق الإسلام ـ بهذا الإدراك الواعى ـ أحد أهم مسائل وأسس التربية المعاصرة . ألا ترى أن المناهج فى المراحل الدراسية المتعددة يسبق بعضها بعضاً ، والمساقات الجامعية ينبنى بعضها على بعض ، ولا يسبق تدريس بعض الأجزاء أجزاء أخرى ، فكل فن ترتبط أجزاؤه وفق نسق منطقى ، والعلم بشموليته تتسق فنونه بعضها ببعض ، لا يتقدم المبهم الدقيق على الواضح السهل ، ولا نتيجة على مقدمة ، ولا الأهم على المهم ، ولا يتقدم صعب على سهل ، وغير ذلك ؛ وقد أوضح ابن حجر شمولية معنى صغار العلم وكباره فقال :

« والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله ، وبكباره ما دق منها » .

وقيل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله أو مقدماته قبل مقاصده » (١) .

---

(١) فتح البارى : ١ / ١٦٢ .

العلم بعيار العقل ..

ومن قواعد التربية ، إعطاء الداعية العلم ، على قدر فهمه وإدراكه ، كى لا يقع فى المفسدة ، أو يتأول الأحكام على غير ما وصفت له ، أو يتحدث فى غير مواقعها ، ولقد امتنع الرسول ﷺ من هدم الكعبة مخافة تسارع الناس للتأويل ، وهم لا يزالون حديثى عهد بجاهلية ، ولقد استنبط البخارى فى هذا الحديث القاعدة التربوية فقال :

« باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس ، فيقعوا فى أشد منه » .

فصار لزاماً أخذ الأهم قبل المهم ، وتعلم المبادئ الأساسية مثل الخوض فى الخلافيات ، وسلوك طريق الاستقامة ، دون البحث عن مظاهر الكرامة ، يضاف إلى ذلك مقصد عدم التنفير من العلم أو التخبط فيه .

ولهذا المعنى أشار الغزالى ، واعتبره من وظائف المربى و المعلم ، فحدد ذلك بقوله : « .. أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره ، أو يخبط عليه عقله .. ولذلك قيل : كِلْ لكل عبدٍ بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه حتى

تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار) [1] .

إذ إن طالب العلم إذا أخذ علماً لا يستوعبه ، أو دون مداركة له ، أو أن حدود تجاربه الحياتية وطبيعته النفسية لا تستطيع إدراكه يؤدى به إلى عدم توازنه ، بل وإلى انحرافه ، ولذلك كانت الفلسفة والمناظرات الكلامية أو بعض أمور المنطق قادت ببعض طلبة العلم إلى الشطط ، بل إلى الانحراف ، وذلك عندما لم يتم بناؤهم الفكرى ولم يستكملوا علم الشرع كما حصل لابن سينا وابن رشد ، واضطر بعض العلماء إلى تحريم بعض العلوم ، على عموم الناس ، كدراسة الفلسفة ، أو المنطق ، إذ إن معرفة الجاهلية دون الإلمام بالعلم الشرعى الكافى ، قد يقود إلى زيغ وضلال .

زيادة المنطق .. مفسدة ..

ومن قواعد التربية التعليمية للدعاة ، عدم الإكثار من الأحاديث دون مبرر ، إذ قد يقع الداعية فى الترف الفكرى ، والمباحث النظرية دون تحويلها إلى عمل مثمر ، فوق أنه قد يجلب الملل للمستمع ، فإن زيادة المنطق على العقل خداع ، وزيادة العقل على المنطق تخلف وقد يسكت الداعية الملهم عن بعض العلم لحكمة ، ويمنع بعضه لمصلحة ، وكثرة الحديث قد تورد الخطأ والنسيان ، وقلته تجلب

---

(١) الإحياء : ١ / ٥٧ .

الانتباه والتركيز ، ومن كثر كلامه ، كثر سقطه ، ولقد قال رسول الله ﷺ كما فى صحيح مسلم : « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » ..

وقد علق الإمام النووى على ذلك بقوله عن هذا الحديث والآثار التى فى الباب :

« ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان ، فإنه يسمع فى العامة الصدق والكذب ، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن .. »

وكذلك : « فإنه إذا حدث بكل ما سمع كثر الخطأ فى روايته ، فتُرك الاعتماد عليه والأخذ عنه .. » (١) .

الأصول قبل الفروع ..

ومن أهم مبادئ ربانية التعليم الدعوى ، تعلم أصول الشريعة قبل فروعها ، فالعقيدة فى معرفة البارى وأسمائه وصفاته، والإيمان بأنبيائه ورسله ، وما يبنى على ذلك من التصديق بما ورد فى الكتاب والسنة ، قبل القناعات بالفروع ، أو البحث عن البراهين ، ودراسة فروع الشريعة ، وإلا فالعمل يصيبه الإحباط ، فالعلم قبل العمل ، والفقه وفروع الشريعة تبع للعقيدة الصحيحة ، وقد ضاع

(١) شرح صحيح مسلم : ١ / ٧٥ .

قوم بحثوا عن الصغير ، وأضاعوا الكبير ، كما ضل قوم كانوا من أعلم الناس بما لم يكن وأجهلهم بما كان ، فعلى الدعاة ألا يلتمسوا الفروع إلا بعد إتقان الأصول ، ولا يتعلموا المسائل والغرائب ، قبل إدراك الأسس والقواعد ، وكما تصح القاعدة فى الفهم النظرى تصح فى السلوك ، فلا ينبغى عمل الأسهل الذى يتناسق مع الهوى ، دون الأهم المخالف له ، وفى هذا يقول ابن الجوزى ـ رحمه الله : « رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش النجاسة ولا يتحاشون عن غيبة ، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا ، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت فى أشياء عدّها من حفظ فروع وتضييع أصول .. فالله الله فى تضييع الأصول ، ومن إهمال سرح الهوى فإنه إن أُهملت ماشيته نفشت فى زروع التقى .. » (١) .

وللتمييز بين قاعدتى (الأصول قبل الفروع) وما سلف ذكره من أحوال استثنائية فى أنه فى الفن الواحد ، وعند تساوى أصوله وفروعه بالفهم ، حيث قد تكون الفروع قبل الأصول يمكن الاستشهاد بقاعدة شرعية يمكن استقراؤها فى الكثير من الشرائع والفرائض والتوجيهات القرآنية ، ذكرها الأستاذ الشهيد سيد قطب ـ عند الحديث عن التدرج فى تحريم الخمر ـ بقوله :

(١) صيد الخاطر : ١٥٦ .

« عندمـــا يتـعلق الأمـر والنهى بـقـاعـدة من قـواعـد التـصـور الإيمـانى ، أى بمسـألة اعتـقـادية ، فإن الإسـلام يقـضى فيـهـا قضـاءً حاسماً منذ اللحظة الأولى .. ولكن عندما يتعلق الأمر والنهى بعادة وتقليد ، أو بوضع اجتـماعى معقد ، فإن الإسـلام يتريث به ، ويأخذ المسألة باليسـر والرفق والتدرج ، ويهيئ الظروف الواقعيـة التى تيسر التنفيذ والطاعة .

فعندمـا كانت المسألة مـسألة التوحـيد أو الشرك ، أمـضى أمره منذ اللحظة الأولى ، فـى ضربة حـازمـة جازمـة ، لا تردد فـيهـا ولا تلفت ، ولا مـجـاملة فـيـهـا ولا مـســاومـة ، ولا لقـاء فى منتـصف الطريق ، لأن المسـألة هنا مسـألة قاعـدة أساسيـة للتصـور ، لا يصلح بدونها إيمان ، ولا يقام إسلام .. » [١] .

وتطبيقـاً لهـذا المبدأ فـإن تعلم العـقيـدة قبـل الفقـه لا بد منه ، وأصول الشـريعة كـالقرآن والحديث ، قـبل فروع الخـلاف والتوسع الفـقهى ، كـما أن القـاعدة تنطـبق فى الفن الواحد ، فـقراءة القـرآن وتلاوته قبل مـعرفة تفـسيره ، وتفـسيره العـام قبل الغوص بدقـائقه ، والغوص بدقـائقه النافعـة قبل الخوض بالمتـشابهات ، أمـا فى الحديث فمعرفة الصحيح قبل الحسن ، والحسن قبل الخوض بمعرفة الضعيف

---

(١) الظلال : ١ / ٢٢٩ .

ومعرفة متون الأحاديث الصحيحة والاطلاع على شروح البخارى ومسلم أولى من الانشغال بطرق الجرح والتعديل ، وتخريج الأسانيد ، وتعلم الفرائض فى الفقه أولى من دراسة السنن ، وأبواب الصلاة والزكاة مقدمة على معرفة الوكالة والشركة .

ويتبقى على الداعية معرفة أن ما تسلم به العقيدة ، وتصح به العبادة ، وقواعد الدعوة إلى الله تعالى أولى من الانشغال بترهات العلوم وسفاسف الأقوال .

القطعى مقدم على الظنى ..

والعلم وإن كان مُشْرع الأبواب ، والحكمة ضالة المؤمن ، وهو أحق بها أنى وجدها ، إلا أن علوم الشرع هى الأهم والأجدى ، ففقه الكتاب والسنة ، قبل الفكر والتأمل ، وقواعد الشريعة والالتزام بها ، قبل الأخذ بنظرية المصالح ، والقطعى قبل الظنى ، وعلم الشريعة كله من كبار العلم .

وما عدا علوم الشرع فهى من صغاره ، فما كان من الكتاب والسنة والإجماع فهو علم مقطوع به أنه من الحق ، وهو الذى عليه الثواب والعقاب ، وهو ما أراد الله تبليغه لعباده ، وأرسل لأجل هذا التبليغ رسوله به ، وأنزل كتابه ، وفى مقابل ذلك علوم مختلفة ، مما فى أيدى أهل الكتاب ، وما روى عن الأوائل من

المتفلسفة ونحوهم ، وما يلقى فى قلوب المسلمين يقظة ومناماً ، وما دلت عليه الأقيسة العقلية ، وما قاله أكابر هذه الأمة علماؤها وامراؤها ، وكذلك تتضمن الأقيسة العقلية الشرعية ، وما ينقدح فى عقول البشر كل ذلك فيه الحق والباطل ، فلا يرد كله ولا يقبل كله ، بل يقبل منه ما وافق الحق ، ويرد منه ما فيه من الباطل .

وبهذا الميزان تصبح كل هذه العمل من صغار العلم مقارنة بعلوم الشريعة القطعية التى يجب تقديمها .

(وذلك أن الحق الذى لا باطل فيه هو ما جاءت به الرسل عن الله وذلك في حقنا ، ويعرف بالكتاب والسنة والإجماع ، وأما ما لم تجيء به الرسل عن الله ، أو جاءت به ولكن ليس لنا طريق موصلة إلى العلم به ، ففيه الحق والباطل ، فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع : للكتاب والسنة والإجماع ، فإن هذا حق لا باطل فيه ، واجب الاتباع لا يجوز تركه بحال ..) (١) .

النهى عن الأغلوطات ..

ومن معانى الربانية أن الواضح من المسائل مقدم على الغامض منها ؛ وهذا معنى قول ابن حجر أن المراد (بصغار العلم ما

(١) فتاوي ابن تيمية : ١٩ / ٥ .

وضح من مسائله ، وبكباره ما دقّ منها) ، إذ إن من المعلوم أن فى كل علم جوانب واضحة فهمها وفيه ما قد يصعب فهمه ، أو يحيطه شيء من الغموض ، فيكون الواضح أولى بالتعلم من غيره .

والأصل فى المفتى والكاتب والداعية والخطيب إبلاغ العلم لأهله على هذا المنوال ، وقد قال ابن القيم عن المفتي ـ مثلاً ـ مما يقاس عليه غيره من أهل التربية والتعليم (لا يجوز للمفتى الترويج وتخيير السائل ، وإلقاؤه فى الإشكال والحيرة ، بل عليه أن يبين بياناً مزيلاً للإشكال ، متضمناً لفصل الخطاب ، كافياً فى حصول المقصود ، لا يحتاج معه إلى غيره) [1] .

وقد ورد فى النصوص نهى الرسول ﷺ عن الأغلوطات ، وهى الألغاز الملتوية ، وهذا الدليل ، وإن لم يكن مباشراً إلا أن الإمام الأوزاعى ـ رحمه الله ـ أخذ هذا المعنى المراد من الحديث .. فقال مفسراً : (يعنى صعاب المسائل) [2] .

وكما أن الأمر ينطبق على المعانى ، فهو أيضاً ينطبق على الألفاظ ، فاختيار الواضح منها أولى من اختيار الغامض ، والبلاغة الحقة فى اختيار المفهوم ، وترك المعقد ، فالبيان فى بعض ما قيل عنه :

---

(١) إعلام الموقعين : ٤ / ٢٢٨ .

(٢) عيون الأخبار : ٢ / ١١٧ .

(أن يكون الإسم يحيط بمعناك ، ويحكى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذى لا بد له منه أن يكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقد ، غنياً عن التأويل) [1] .

ويتفرع عن هذه القاعدة ، كراهية التقعر والتكلف فى الكلام ، وكراهية البعد عن السهل المفهوم فى الحديث ، واختيار الأنسب من الجمل والكلمات ، والأقرب للمدارك والأفهام ، وكذلك لا بد من المرونة فى الأخذ والعطاء ، وعدم إظهار المعرفة ، ولو كانت أكثر من الآخرين ، والاعتراف بالخطأ والزلل عند التنبيه عليه ، وعزو العلم إلى أهله ، ولقد قال الحسن البصرى : « إذا ترك العالم قول لا أدرى ، فقد أصيبت مقاتله » .

التدرج من التربية ..

إن العلوم جميعها ، مرتبة ترتيباً ضرورياً ، كما أن أجزاء العلم مرتبة على بعضها ، فلا ينبغى دراسة العلم إلا بالتدرج فيه ، والتراكم صفة من صفات المعرفة ، والذهن مخلوق لإدراك العلم بالتدريج ، واستيعابه مرحلة بعد أخرى ، ولما كان العمر يضيق عن استجماع علم بأكمله ، فقد يكتفى بأهم القواعد والفنون ، فى العلم الواحد ،

---

(١) المرجع السابق : ٢ / ١٧٣ .

ويرجع إلى ما يحتاج إليه ، بالنظر فى الكتب ، أو فى سؤال غيره ، والأصل أن يعرف المتعلم موارد العلوم ومصادرها ، ومآخذ الفنون ومناهجها ، وأن يستلهم وصية الغزالى : « أن لا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب ، ويبدأ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه) [١] .

والتدرج فى العلم مظهر من مظاهر التيسير ، والتبشير وقد قال رسول الله ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا » [٢] .

وقال ابن حجر معقباً :

(.. وكذلك تعليم العلم يجب أن يكون بالتدريج ، لأن الشىء إذا كان ابتداؤه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانبساط ، وكانت عاقبته غالباً الازدياد ، بخلاف ضده) [٣] .

فالداعية المربى ، عليه عالماً ومتعلماً ، أن يدرك أن أخذ المعلومات أو أعطاءها ، يكون بتدرج وحسب أهميتها ، شرعاً ومصلحة ، أو من أهميتها المرحلية ، أو حسب ظروف الواقع والعادة والزمان والمكان ، إذا تساوت شرعاً ، ولا بد من غرس

---

(١) الإحياء : ١ / ٥٢ .   (٢) البخارى (كتاب العلم) .

(٢) فتح البارى : ١ / ١٦٣ .

النظرات الشرعية ، والموازين الإسلامية ، دون إضاعة العمر بفن واحد ، أو صناعة علوم مهمة ، بالاستكثار فى علم واحد .

ويستشهد هنا ، بنقد ابن الجوزى ليحيى بن معين ، وهو أعلم الناس بالجرح والتعديل ، ولكنه كانت تغيب عنه مسائل الفقه البسيطة ، ولم يصل إلى ما وصل إليه أقرانه ، كالإمام أحمد وغيره ممن أخذوا العلم من أطرافه ، فيقول :

(اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال فى كل علم إلى منتهاه ، غير أن العمر قصير ، والعلم كثير .. فالتشاغل بغير ما صح يمنع التشاغل بما هو أهم .. ولما تشاغل يحيى بن معين فاته من الفقه الكثير .. ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها) (١) .

المتفق قبل المفترق

ومن مفاهيم الربانية فى التعليم ، ضمن قطار الدعوة ، أن يبدأ التعليم بما اتفق عليه من العلم ، كما أن على المتعلم أن لا يطلب من أول الأمر ما اختلف فيه ، وغاية العلم ـ إذا صحت النية ـ العبادة والبحث عن صحة العمل ، إضافة إلى ما يقود العلم المتفق عليه من قوة فى اليقين ، وصفاء فى القلب ، والاختلاف يقود إلى عكس

---

(١) صيد الخاطر : ٣٦٦ .

ذلك ، كما أنه للمتعلم مفسدة ، وإضاعة لأصل مقاصد التعليم ، كما وأنه يربك عملية التفكير ، إضافة إلى ما قد يؤدى إلى إضاعة الدين وحفظ الشريعة ، لما فى الأمر من ضياع فى متاهة الجدل ولذلك قيل :

(أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواءً كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ..) (١) .

وما ينطبق فى الفقه ، ينطبق فى العمل التربوى أيضاً ، وقد أورد ابن القيم هذا المعنى تمييزاً بين المتكلم أو السالك :

(فترى المتكلم يبحث فى الزمان والمكان والجواهر والأعراض والأكوان .. والسالك إلى الله قد يجاوزها إلى جمع القلب على ربه المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته .. فالمتكلم متفرق مشتغل فى معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد شح بالزمان والمكان أن يذهب ضائعاً فى غير السير إلى رب الزمان والمكان) (٢) .

وعلى المربى والقائد مراعاة ذلك أيضاً ، (وأن لا يسمح للدعاة القفز فى سلم المعرفة والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من

---

(١) الإحياء : ١ / ٥١ .
(٢) مدارج السالكين : ٢ / ٣٤٩ .

الجلى ..) [١] .

والداعية المربى ، ينبغى عليه التركيز ، على مواضيع الإثارة ومسائل الغربة ، أو ما يجلب الرئاسة والشهرة ، أو أن يتتبع شوارد المسائل ، وغرائب القضايا ، فقد لا يصيب المتحدث أو المستمع من الخير شيئاً .

التخصيص بالعلم سنة ..

ومن معانى الربانية فى التعليم جواز تخصيص قوم بنوع من العلم ، وذلك لاختلاف المفاهيم والمدارك ، والتجارب والممارسات مما قد يؤدى إلى الفهم الخاطئ أحياناً من قبل بعضهم عند استماعهم أو قراءتهم لعلم دون مداركهم ، أو أن يقود إلى تأويل واه ، أو تفسير باطل ، بل قد يؤدى إلى تحميل الكلام أكثر مما يحتمله ، والبناء على الالفاظ أكثر مما تطيق ، وفى حالات أخرى قد يكون ظاهر الحديث أو المقال يقوى على بدعة ، أو يقود إلى معصية بينما ظاهره فى الأصل غير مراد، ولذلك ورد عن الرسول ﷺ جملة أحاديث يستنبط منها هذا المعنى .. ومنها قوله لمعاذ :

(من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا إنى أخاف أن يتكلوا) [٢] .

(١) الإحياء : ١ / ٥١ .

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في كتاب (العلم) ، ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) .

وقد سبق الحديث عن هذا المعنى فى الفصل الخامس .

وفى قطار الدعوة ، قد يضطر المربى إلى اختصاص بعض الدعاة دون غيرهم ببعض الأحاديث ، أو العلم ، إما لاختلاف دواعيهم ، أو توفرهم على طلب العلم ، وإما لمقصد يراه لتجربة معينة ، أو فراسة ملهمة ، أو لنصيب من الذكاء والفطرة ، وليس كل ذلك تضعيفاً لهم أو عدم الثقة بهم ، أو حجزهم عن خير كثير ، أو حرمانهم من فضل العلم ، ولكن منعاً لسوء فهم ، أو إدخالهم فى فتنة ، أو أن يكون العلم بحاجة إلى مقدمات أخرى ، بل قد يكون الغرض أحياناً من منع بعض الأحاديث عن بعض الدعاة حفظاً لقلوبهم من الوسواس ، ولآذانهم من سماع الغيبة ، ولصدورهم من الضغينة ، وسد أبواب فضول الكلام عنهم ، وإعانتهم على عدم التدخل فيما لا يعنى ، أو الانشغال بما لا يجدى .

يسروا ولا تعسروا ...

ومن الربانية تقديم الأسهل من العبادات ، والأوضح من الكلمات ، لأن الأصل تبليغ السامع بالمعنى ، وتوصيل العلم إليه بأقرب طريق دون التواء ، إذ لو صحت النية من المتحدث أو الكاتب لاختار أحسن السبل لإيصال العلم ، ولا يختار الطريق الوعر ، لأنه ليس بحاجة لإثبات فصاحته ، ولا لإظهار علمه ، بل يطلب

بالعلم رضا الرحمن .

(وعلى هذا النحو مرّ السلف الصالح فى بث الشريعة للمؤالف والمخالف ، ومن نظر فى استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطريق ، وأقربها إلى عقول الطالبين ، لكن من غير ترتيب متكلف ، ولا نظم مؤلف بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه ، ولا يبالون كيف وقع فى ترتيبه ، إذا كان قريب المأخذ ، سهل الملتمس ..) (١) .

ومن المسالك الوعرة فى تصعيب الألفاظ ، وإضاعة المعانى ، ما قد يلجأ إليه البعض من استعمال المجاز المبالغ فيه ، والرموز الشاذة المعقدة ، وجميع أنواع المواضعة الاصطلاحية ، والمواضعة ضربان ، أحدهما : عامة وهى ما تواضع عليه العلماء فى كل علم فيما جعلوه ألقاباً لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ، ولا يقف على معنى الكلام إلا بها ، والثانية : خاصة وهذا هو الذى لا ينبغى استعماله من قبل الداعية ، لعدم فائدته من جهة ، ومظهر من التخليط بالنية من جهة أخرى لأنه :

(إنما يختص غالباً بأحد شيئين : إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ، ويجعل الرمز سبباً لتطلع النفوس إليه ، واحتمال التأويل فيه

---

(١) الموافقات : ١ / ٥٩ .

سبباً لدفع التهمة عنه ، وإمّا لما يدعى أربابه أنه علم معوز ، وأن إدراكه بديع معجز ..) [1] .

وكلا الأمرين مما يترفع عنه الداعية ، ناهيك عن المربى أو القائد ، وحتى لو احتاج إليها لسبب ثانوى فيربأ بنفسه عنها ، سداً للذرائع ، وابتعاداً عن قالة السوء ولكن مع هذا (.. ربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تضخيمه من المعانى وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى فى القلوب موقعاً ، وأجل فى النفوس موضعاً ، فيصير بالرمز سائراً ، وفى الصحف مخلداً ..) [2] .

وعندئذ لا بأس باستعماله ما دام مفهوماً ، ويقع قلب السامع موقعاً جميلاً ، ما دام لا يقود إلى مفسدة ، على شرط عدم المبالغة والإكثار منه ، أو التكلف للإتيان فيه ، وأن يكون السامعون ممن تدرك عقولهم مثل هذه الرموز ، ومع هذا فالنقد هنا ينصب على الخطيب أو الكاتب إذا تكلف الأمر والصعوبة ، وكان يمكن له التبسيط والتسهيل ، إذ يشعر السامع أنه يبتغى من وراء ذلك شهوة القول ، وحب السمعة ، دون الحرص على تبليغ المعنى ، مع ملاحظة أن بعض المعانى ، لا بد من تبليغها ببعض القول ، الذى يصعب فهمه ، فعلى القارئ أيضاً أو المستمع ، من كدّ الذهن ،

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ٦١ .
(٢) المرجع السابق .

وإعادة النظر ، وكثرة السؤال حتى ينفتح له ما انغلق عليه ، ويتوضح له ما استغلق عنه ..

وفى التعليم.. أذواق ..

من الربانية استعمال الأساليب الجميلة الحلوة ، المؤدية للمعنى ، وعدم استعمال العبارات الخشنة الجارحة والتى لها نفس الأداء ، لأن الرفق ما كان فى شيء إلا زانه ، والعبارات الجميلة دليل على شفافية المسلم ، وحسن انتقائه ، وقد قال المصطفى ﷺ :

(لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، ولكن ليقل لَقِست نفسى) (١)

(يؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء ، والعدول إلى ما لا قبح فيه .. وإن كان المعنى يتأدى بكل منهما ..) (٢) .

وللتعبير أثر فى إبراز الحق وكم من حق يخرجه إلى الباطل سوء التعبير ، وما أحسن القائل :

تقول : هذا جناءُ النحل تمدحه
وإن تشأ قلتَ : ذا قيء الزنابيرِ

---

(١) البخاري (كتاب الأدب) ، مسلم . (٢) فتح الباري : ١٠ / ٥٦٤ .

مدحاً وذماً ، وما جاوزت وصفهما
والحق قد يعتريه سوء تعبير (١)

المزيج السلسبيل ..

ومن الربانية فى التعليم مزج كل علم بالرقائق كى تتحقق السكينة الإيمانية ، ولا يسيطر العقل وحده على القلب ، والفكر على الروح ، فتتحول المعانى الإيمانية إلى فلسفة عقيمة ، وتضيع المقاصد الأصلية لعملية التعليم التربوى ، إذ إن أصل المقاصد فى التعليم ربط المخلوق بربه ، وتذكيره بالآخرة ، وجعله يشمر بساعد الجد للعبادة والعمل ، وإلا فدراسة العلم دون هذه النية مضيعة للوقت ، والتهاء بالشهوات وقد قيل :

(رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفى فى صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر فى سير السلف الصالحين ، فأما مجرد العلم بالحلال فليس له كبير عمل فى رقة القلب ، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث ، وأخبار السلف الصالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذه إلا بعد معالجة وذوق .. فافهم هذا ، وامزج

---

(١) إعلام الموقعين : ٤ / ٢٩٢ .

طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف الزهاد فى الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك ..) [١] .

ولما كان علمية العلم والتعليم القرب من الله تعالى ، وليس طلب الدنيا بها ، ففى هذا المعنى صلاح للمعلم والمتعلم ، إذ فيه يتذكر المتعلم أن مآل العلم القرب إلى الله ، وإن قصد القراءة والاستماع تحلية الباطن ، وأن لا يكون التعليم الدعوى ، غايته المباهاة بين الأقران ، أو التفاخر فى النوادى والمجالس ، أو تطلب به المراكز والمنافسات ، فالتعليم الدعوى لا بد له من حسن النية ، وسلامة القصد ، فهو حديث القلوب للقلوب، وكل حديث أو استماع مرتبط بالنية والصحة وعليها مدار الثواب والعقاب .



(١) صيد الخاطر : ١٩٧ .



(٢٦) النفق المظلم

قد يصادف القطار فى طريقه نفقاً مظلماً ، وطريقاً شائكاً متعرجاً ، لا يستطيع الراكب فيه أن ينقذ نفسه ، أو ينجو بإخوانه ، مهما كان وضعهم داخل المركبة مستقراً ، والتوافق بينهم تاماً ، والخطط فى أذهانهم معدة والحماسة بين جنباتهم وافرة ، ما لم تكن أضواء القطار ذاته كاشفة ، ومسالك الطريق معروفة ، كى لا يضيع السائر مساره ، أو يتناثر أشلاء تحت وقع الكارثة ، أو يسرف فى التفاؤل عندما يبصر نوراً فى آخر النفق ، وقد يكون مجرد أنوار قطار يسير بالاتجاه المعاكس .

إن مثل هذا النفق ، كفتن الخلاف بين المسلمين ، إذ بينما يسير الدعاة فى ركبهم الميمون ، والطريق سالكة ، والناس يركبون وإياهم الواحد تلو الآخر ، وصولاً للمحطة التالية ، إذ يصطدم المسلمون فيما بينهم ، ويبغى بعضهم على بعض ، فتلتف الظلمات ، وتنطفئ الأنوار ، ويضطر ركب الدعاة إلى ركوب الظلمة ، ودخول النفق ، إذ لا بد لهم منه ، وهم مضطرون لذلك باعتبارها من جماعة المسلمين ، فإذا لم تكن البصائر على يقين ، والأبصار على وضوح ، فالكارثة ستقع لا محالة ، والقطار سيتحطم ولا ريب ، وأنوار

القطار الكاشفة ، المتمثلة فى فقه الفتن هى التى تدفع الكارثة ، وتوضح مسالك الطريق .

هدى السماء يضىء النفق

إن الدعاة بتجاوزهم المحن الداخلية ، وكلاً من فتن الشبهات والشهوات سيظلون بحاجة إلى تجاوز فتن الخلاف بين المسلمين ، وإبصار جوانب الحق والباطل عند كل فئة ، والإعانة فى رد المظالم ، والمعاونة فى نصرة المظلوم ، وعدم تجاوز مبادئ الشريعة ، أو رد الاعتداء بما هو أنكى ، وتأصيل المشاكل من منطلق مبادئ الإسلام ، والحذر الشديد من اختلاط الرايات ، أو الإفراط فى النقد والتقويم ، أو الإسراف فى التعامل والممارسات ، أو الدخول فى الأسباب دون النتائج ، أو الاهتمام بالنتائج دون دراسة الأسباب ، واللهث كعوام المسلمين وراء العواطف تارة ، أو خلف الشعارات البراقة تارة أخرى ، بل ينبغى أن يكون الداعية ثابتاً على المنهج ، مستقيماً على الطريق ، يبصر بنور الله ، ويستهدى بنور الله ، ويسير على هدى الله ، يبحث عن الحلول فى الإسلام لا فى الإعلام ، ويقيس المواقف على أساس المعايير الإسلامية ، وليس الإقليمية ، ويريد المخرج بدعاء الأنبياء ، لا بصرخات الأدعياء .

الاستبداد ... أصل الفتن

إن من أسباب التفرق ، والوقوع فى الفتن ، الاستبداد وترك الشورى ، وتحكم الأفراد فى مصائر الأمة ، وهذا المبدأ الذى يجب أن يستلهم من أحداث الفتن ولا ينسى ، وأن يعمل الدعاة على تركيز مفاهيم الشورى والحوار ، وإلا فالأزمات لن تنتهى بانتهاء الظلمة ، إذ إن الطاغية يخلفه آخر ، والمستبد قد يرث المستبد ، وتدفع ضريبتها الشعوب ، كما أن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو محاولة منع أهله منه ، هو الذى يسلط الله به من لا يرحم ، ويهلك بسببه الحرث والنسل ، كما ورد فى الحديث الشريف ، ويهلك كذلك من عاون الظلمة ، أو سكت عنهم وقد قال ﷺ : « إذا أنزل الله بقوم عذاباً ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم » (١) .

(ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار ، ومن الظلمة ، لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة ، هذا إذا لم يعنهم ، ولم يرض بأفعالهم ، فإن أعان أو رضى فهو منهم ، ويؤيد أمره ﷺ الإسراع فى الخروج من ديار ثمود ؛ وأما بعثهم على أعمالهم ، فحكم عدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها فى الآخرة ، وأمّا

---

(١) رواه البخاري .

فى الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيراً لما قدموه من عمل سيئ ، فكان العذاب المرسل فى الدنيا على الذين ظلموا يتناول من كان معهم ، ولم ينكر عليهم ، فكان ذلك جزاءً لهم على مداهنتهم ، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله ، وفى الحديث تحذير وتخويف عظيم لمن سكت عن النهى ، فكيف بمن داهن .. ، فكيف بمن رضى .. ، فكيف بمن عاون .. ، نسأل الله السلامة) [1] .

من الفتن .. الركون إلى الكفار

وبمقابل الركون إلى الظلم وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الركون إلى الكفار والمشركين ، وهم أهل التحريش والفتن وقد نبه الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ [2]

وسبب نزول هذه الآية مما يوضح المعنى ، فقد ذكر أهل التفسير أن يهودياً أراد تجديد الفتنة بين الأوس والخزرج ، فتآمر بين هذا وذاك ، حتى وصل التحريش ، فنبه القرآن الكريم إلى أن أسباب التحريش دوماً هم اليهود والنصارى ، فينبغى عدم الركون إليهم ، وليست حادثة عبد الله بن سبأ ، وتفريقهم فى أول فتنة بمجهولة .

(١) فتح الباري : ١٣ / ٦١ .

(٢) آل عمران : ١٠٠ .

ومن فتنهم ، إدخال الشبهات وإثارة المؤامرات ، حتى يقع المسلمون فى سفك الدماء ، وتقطيع الأرحام ، كما ذكر تعالى فى سورة البقرة (٢٠٥) وسمى التولى عن دينه بالالتجاء إلى الكفار فساداً فى الدين ، لأنه يقود إليه .

(وإنما سمى هذا المعنى فساداً فى الأرض ، لأنه يوقع الاختلاف بين الناس ، ويفرق كلمتهم ويؤدى إلى أن يتبرأ بعضهم من بعض ، فتنقطع الأرحام ، وتنسفك الدماء ، قال تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ فأخبر أنهم إن تولوا عن دينه لم يحصلوا إلا على الفساد فى الأرض ، وقطع الأرحام ، وذلك من حيث قلنا وهو كثير فى القرآن ، واعلم أن حمل الفساد على هذا أولى من حمله على التخريب والنهب ، لأنه تعالى قال : ﴿ **ويهلك الحرث والنسل** ﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه لا محالة) [١] .

الترف من الفتن ..

ومن الفتن ، وما قد تجره من الاعتماد على المشركين ، وعدم رد الاعتداء ، الترف ونشر المفاسد والملاهى ، وعدم التدريب على الشجاعة والمروءة ، حفاظاً على مصالح ذاتية ، أو رغبات أنانية ،

---

(١) تفسير الرازي : ٥ / ٢٠٠ .

فيأتي البلاء فيما بعد ، جزاء على ذلك ، وتزداد الفتن ضراوة عندما يهرب الإنسان من المحنة بالغناء ، ومن المصائب بالخمور ، ومن البلاء بالمعصية ، وطريق الخروج من البلاء أن يكون بالعودة إلى الله ، والتخلص من ذل المعصية بأنس الطاعة ، ومن أزمة المحنة بمدارج التوبة ، وتكرار الفتنة نتيجة لعدم التنبه للطاعة .

« أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ، ثم لا يتوبون ، ولا هم يذكرون » (١) .

ومن هنا ينبغى على الدعاة تنبيه الناشئة على الأخذ بمظاهر القوة ، وترك الترف ، والاعتماد على الآخرين ، حتى ولو كانوا سواقاً أو خدماً ، والتدرب على المهارات والكفايات ، والبذل والوفاء والتضحية ، وعدم الركون إلى الدنيا ، والتربية على بغض الملاهى والمنكرات ، والأخذ بالجد والعزائم من الأمور ، ولنا قدوة من عمر بن عبد العزيز وهو يقول لمؤدب ولده سهل :

« ... فحدثهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة ـ أى الفارغة ـ فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك فإن كثرته تميت القلب ، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ..) (٢) .

---

(١) التوبة : ١٢٦ .   (٢) سيرة عمر لابن الجوزي : ٣٢٥ .

احذر الأدعياء

وفى الفتن يدعى مثيروها أنهم الأقرب إلى الدين ، والأحرص على الشريعة ، فتضيع الرايات ، وتلتبس الأمور ، وفى الفتنة الكبرى ـ حيث يظهر المسيح الدجال ـ ينخدع به من لم يكن على بصيرة ، ويخالفه من كان من أهل الدين ، حتى ولو كان أمياً ، وحتى لو رأى على يديه الخوارق ، ودون هذه الفتنة ما يحصل بين جماعات من المسلمين، تدعى قيادتها وزعامتها الإسلام ، وكل يدعى لنفسه التقوى والورع ، وهنا ينبغى للداعية المسافر أن لا يصدق بالأقنعة ، ولا يلهث وراء الشعارات ، فالمسلم الصادق من كان مسلماً قبل الفتنة ، ودلت على إيمانه القرائن قبل المصلحة ، وقد حذر المصطفى ﷺ وعلم أن فى الفتن يظهر الأدعياء ، الذين يدعون أنهم من سلالة النبوة وكل منافق يغطى ما يبطنه من الشر بالدين ، أو ما يحميه من مصلحته بالتقوى ، فتتقنع الجاهلية بالشريعة ، وتختفى المصالح بستار الحرص على المسلمين ، فذكر وصف فتنة الأحلاس ، ثم وصف فتنة السراء ، فقال عنها :

« دَخَنُها من تحت قَدَمَىْ رجلٍ من أهل بيتى ، يزعم أنه منى ، وليس منى وإنما أوليائى المتقون » (١) .

---

(١) أخرجه أبو داود .

وقد تعقب هذه الفتنة فتن أخرى ، منها الدهيماء ، ثم يختلط الناس حتى ينقسمون إلى فسطاطين ، فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، فكيف ينجو الداعية من أن يقع فى معسكر النفاق وهو لا يشعر .. ؟

عليه أن يعرف الرجال بالدين ، وليس الدين بالرجال ، ويعرض كل مدع على الإسلام ، هل سلوكه وتصرفاته صحيحة بمقياس الإسلام ، وهل كان قبل الفتنة مسلماً يطبق شرع الله ، وهل ما يفعله حالياً يتناسق مع الشريعة ، دون الاعتماد على الشعارات ، أو الأخذ بالادعاءات ، ولا يغرنك ـ أيها الداعية ـ من يقابل الآخر ، فقد يصطلم الظالم بالظالم ، وقد يحارب الكافر بالكافر ، أو يجتلد الفاسق بالفاسق ، فلا يغرنك ـ أيها الداعية ـ من يحارب الأدعياء ، ولكن انظر إليهم أنفسهم تعرف الحقيقة .

لا تكن من العوام

ولا يزال العوام فى كل زمان ومكان ، يلهثون وراء كل ناعق ، ويصدقون كل إشاعة ، ويتناقلون كل خبر ، يحركهم أهل الفتن ، ويقودهم أهل الأهواء ، وتستبد بهم الألسنة ، وتستأثر بهم المقالات ، فهم وقود الفتن ، ومحركو الاضطرابات ، وإذا كان الأمر فى سابق الزمان ، فكيف والإعلام اليوم يسمعه الناس فى بيوتهم ،

ينتقل الصوت مع رحلاتهم ، والأخبار تبصرها العيون فى الخدور ، ومع الأصوات والمشاهد ، فن يتقنه أبالسة الإنس ، ويحسنه شياطين الخلق ، ومن هنا فعلى الداعية أن يرى بعين البصيرة ، لا ينحرف مع ركب الغوغاء ، ولا يتأثر كما يتأثر العوام ، وإلا سقط فى الفتن ، كما يسقط الآخرون ، بل ويصير من وقودها .

وفى هذا الأمر يحذرنا الرسول ﷺ من التشبه بالعوام عند الفتن ، فيقول : « ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر .. » (١) .

وفى حديث مشابه رواه أحمد وابن ماجة ، كيف يعمل العوام عند الفتن ، ويتأثرون بما يسمعون ويقرأون ، مما يتغربل فيه الناس ، ويشتبكون ، فيقول ﷺ : « كيف بكم وبزمان تغربل فيه غربلة ، ثم تبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، واختلفوا هكذا ــ وشبك بين أصابعه ــ قالوا : كيف بنا يا رسول الله .. ؟ ، قال : تأخذون ما تعرفون ، وتذرون ما تنكرون ، وتقبلون على أمر خاصتكم ، وتذرون أمر عامتكم » .

(١) رواه الترمذي وابن ماجة وأبو داود .

فانظر أيها الداعية ، ولا تكن كعوام المسلمين ، بل ابحث عن الخاصة ، وتناقش معها فى وجه نظر الحق ، وارو الأحاديث بموضوعية ، ولا تصدق كل إشاعة ، فكل أهل الباطل يزين باطله ، ويؤثر دنياه ، ويعجب برأيه ، ثم بعد ذلك عليك بالمعروف وخذ به وعض عليه بالنواجذ ، واعرف المنكر فاتركه ، وبهذا تتميز عن العوام ، وتستحق أن تكون فى القطار الذى يتجاوز نفق الفتنة .

واحذر الغوغاء

ويبرز بين العوام ، عند كل فتنة طائفة من الغوغاء ، ينتصرون لمعسكرهم الباطل ، ويلهجون بالإشاعات ، وينشدون الحق بالتعصب ، لا يميزون بين حق وباطل ، وتختلط عندهم الأولويات ، يتصرفون كالأوباش ، همهم الاعتداء على الناس ، يعممون الأحكام على الخلق ، ويحملون الأخطاء على المجتمعات ، وهكذا ديدنهم منذ فتنة عثمان ، حيث جاء سفلة أهل العراق واتهموا أهل الحجاز ، وجاء غوغاء أهل مصر يحملون الفتنة ، ثم كان هؤلاء الغوغاء وقود الفتن بين المسلمين ، ينتهكون الحرمات ويسلبون الأموال ، ويروعون الآمنين ، فيقابلهم من الطرف الآخر غوغاء آخرون ، يظلمون الناس بالأقوال والأفعال ، ويتهمون الجميع بذنوب البعض ، ويظلمون الناس دون وجه حق ، ويأخذون الناس

بالريبة ، وظلت الأمور هكذا كقاعدة فى كل زمان ومكان ، فكان سفلة الناس وغوغاؤهم هم الذين اعتنقوا الشعوبية ، وهم الذين ذبحوا المسلمين فى ثورة الزنج ، وغيرها حتى صرح بهذه الظاهرة ابن قتيبة وغيره ، وقال أحد المفكرين معلقاً :

(ولم أر فى هذه الشعوبية أرسخ عداوة ، ولا أشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة ، وأوباش النبط ، وأبناء أكرة القرى) [١] .

وقال الفقيه المعاصر لفتنة خلق القرآن محمد بن أسلم محذراً منهم : (احذروا الغوغاء ، فإنهم قتلة الأنبياء ..) [٢] .

فكيف فى عالم اليوم ، وبيد الغوغاء مفاتيح الإعلام ، وأقلام الصحافة ، فأخطاء النظام يتحملها الشعب ، وعيوب الظلمة لا تظهر إلا فى الأوقات التى يريدون ، ولا يعرضون إلا أحد جانبى الحقائق ، ناهيك عن الأكاذيب ، والمبالغات ، ومن هنا ينبغى لمسافرى قطار الدعوة التأنى والتمحيص ، والتثبت فى الرواية ، وأخذ الأخبار بموازين العقل والموضوعية ، وتجنب الإثارة وأخبار القصاص ، وعدم التعميم إذ إن فى كل قوم أهل خير وصلاح ، وأهل فسق وفجور ، وأهل الإسلام هكذا حتى روى عن سليم بن عامر أنه قال حكمته الخالدة :

---

(١) رسائل البلغاء لمحمد كرد علي .   (٢) سير أعلام النبلاء : ١٢ / ١٩٨ .

(استقبلت الإسلام من أوله ، فلم أزل أرى فى الناس صالحاً وطالحاً) (١) .

وذم عمر بن الخطاب مرة بنى تميم ـ معمماً لحكمه ـ فاستأذن الأحنف بن قيس وقال : (إنك ذكرت بنى تميم ، فعممتهم بالذم ، وإنما هم من الناس ، فيهم الصالح والطالح ، قال : صدقت) (٢) .

تداعى الأمم

والفتن تجر إلى مجاراة الأهواء ، والوقوع فى المفاسد ، حتى يصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، ويصبح تحرير الأرض بالأغانى ، والهروب من المحن بالخمور ، والتخلص من القلق بالآثام ، ولقد وصف ذلك المصطفى ﷺ : « .. وإنه سيخرج من أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » (٣) .

أى أن الأهواء ، وحب العروش والدنيا ، يتجارى بصاحبه كما يتجارى الكَلَب عندما يصيب إنساناً ، فهو ينظر إلى اليمين وإلى الشمال ، ويتقلب على هذا الجانب وعلى ذلك ، ويتمسك بكل غاشم أو ظالم أو كافر ، ويتعلق بأى حل أو سبب ، ولا يبالى بعد

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣ / ١٤٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء : ٤ / ٩١ .
(٣) أخرجه أبو داود وأحمد .

ذلك بمن سيموت أو يقتل ، وكم من دماء سوف تسفك ، وكم من فتن ستصيب الأمة .

وهكذا حصل لبعض ملوك الأندلس ، حيث اعتدى بعضهم على بعض ، واستعدى بعضهم النصارى على المسلمين ، فتداعت عليهم أمم النصارى من القوط والإفرنج وأشباههما ، فضاعت البلاد ، وذهبت الأندلس ، وانتكست رايات التوحيد ، ولا تزال السنة جارية فى الخلق ، يخبرنا بها الصادق المصدوق :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ .. ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت » [1] .

فلينظر كيف تقود الفتن إلى تداعى الأمم ، بالرغم من كثرة المسلمين ، ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، لغلبة المهانة عليهم ، وسيطرة الوهن على قلوبهم ، فيقع المسلم فى الفتنة الأعظم ، والمحنة الأشد ، ولا مفر للداعية من هذه الأزمة ، إلا بمبادرة الطاعات ، والأخذ بالعزائم ، والدعاء كدعاء الغريق ، وأداء

(١) أخرجه أبو داود .

الصلوات فى المساجد ، وقراءة القرآن مع الأذكار ، حتى يصفو القلب وتدرك الحقائق ، ويتميز له الحق من الباطل ، والصدق من النفاق ، ولا تختلط عليه الرايات ، ويعين على الباطل وهو لا يشعر ، ويحارب الحق وهو لا يدرى ، ويبرر الدنيا بالآخرة .

« بادروا بالأعمال ، فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » (١) .

الحصار الاقتصادى

وكما أن المعاصى تقود إلى الفتن ، فشدتها تحصل بانتهاك حرمة الله وحرمة رسوله ، فتقود إلى تغليظ قلوب أهل الذمة على المسلمين ، فيمسكون ما فى أيديهم من طعام أو دواء ، ويحرمون منه الأبرياء من المسلمين ، وما يقع لبعض المسلمين فى عصر ، يقع لغيرهم فى عصر آخر ، وما يقع لهم فى مكان سيقع عليهم فى مكان آخر ، إذ لم يكن للمسلمين عرق ينبض ، ولا لقلوبهم نبض يدق ، ولا تتمعر وجوههم فى سبيل الله ، ولا يشعرون بصرخة طفل ، أو آهة مريض ، فهذا هو الانتهاك للحرمة ، يأخذ حظه من

(١) أخرجه مسلم والترمذي .

الإثم من كان سبباً فيها ، كما يأخذ نصيبه من الذنب من سكت عن المنكر ، والأمر ليس بحديث الأماني ، ولا تطفل الجهال ، وإنما صدر من مشكاة النبوة ، فهذا ﷺ يقول : « منعت العراق درهمها وقَفِيزها ، ومنعت الشام مُدْيها ودينارها ، ومنعت مصر من أردبَّها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم ... » (١) .

فانظر أيها الداعية إلى ما يفسر هذا في نهاية الحديث من رواية البخاري ، حيث يقول أبو هريرة محذراً : (كيف أنتم إذا لم تجبوا ديناراً ولا درهماً .. ؟ فقيل : وكيف ترى ذلك كائناً .. ؟ قال : أي والذي نفسي بيده عن قول الصادق المصدوق ، قيل : عم ذاك ؟ قال : تهتك حرمة الله وذمة رسوله ، فيشد الله على قلوب أهل الذمة فيمنعون ما في أيديهم ..)

فليحذر كل داعية مؤمن ، من انتهاك حرمة الله أو حرمة رسوله ، من الاعتداء والظلم ، أو رد الظلم بالكفر ، أو رد الضرر الأخف بالأشد ، أو تجاوز الحق برد الضرر ، فكله من الانتهاك الذى قد يقود إلي الحرمان حتى من الطعام والشراب ، ولا يراعى أهل الكفر فينا إلاً ولا ذمة .

---

(١) رواه مسلم .

فى الشريعة وقاية وعلاج

ومن درء الفتن نفى الشبهات ، وتأصيل القواعد الشرعية ، وإرجاع المواقف إلى النصوص الشرعية ، ولا يحكم على المواقف من أقوال أهلها ، أو الاكتفاء بسماع الأخبار ، والتأثر بالإشاعات والعواطف ، وإنما إرجاع جميع المواقف إلى القرآن والسنة ، ومعرفة الأحكام منها ، فنحكم بما حكمت به الشريعة ، على أهل البغى والاعتداء ، أو على الظلم والظالمين ، وعلى من يوالى غير المؤمنين ، وغير ذلك مما أوضحه الله سبحانه وتعالى ، دون اتباع الظن أو الهوى ، وتوضيح الشبهات واجب الدعاة ، لتبين الحق عند كل معسكر من معسكرات المسلمين عند اختلافها .

(قال العلماء : لا تخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما ، إمَّا أن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعاً أو لا ، فإن كان الأول فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ، ويثمر المكافأة والموادعة ، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغى صير إلى مقاتلتهما ، وأما إن كان الثانى ، وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكف وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغى عليها ، بالقسط والعدل ، فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما ، وكلتاهما

عند أنفسهما محققة ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق ، فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين ، والله أعلم) (١) .

ولابن حزم أبيات يستحسن الاستشهاد بها :

قالوا : تحفظ ، فإن الناس قد كثرت
أقوالهم وأقاويل الورى محنُ
فقلت : هل عيبهم لى ، غير أنّى لا
أقول بالرأى إذ فى رأيهم فتنُ
وأننى مولع بالنص لست إلى
سواه أنحو ولا فى نصره أهن (٢) .

توازن مطلوب

من واجب الدعاة ، مراعاة الموقف والبلد فى إزالة الشبهة ، وأن لا يشتط فى إيضاح ما هو معروف عند قومه وفى بلده ، بل يوازن كل ذلك بوجه الحق الآخر ، وتوضيح جوانب الإنصاف ، ويكشف ما خفى من السلبيات ، حتى يساهم فى إرجاع الحق ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣١٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٢١٢ .

وفى توضيح المواقف ، ومن فقه هذا التوازن ما عمله العالمان المحدثان الليث بن سعد وإسماعيل بن عياش ، حيث (كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث بن سعد ، فحدثهم بفضائل عثمان ، فكفوا عن ذلك ، وكان أهل حمص ينتقصون علياً ، حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش ، فحدثهم بفضائل على ، فكفوا عن ذلك) [(١)] .

وقال سفيان الثورى لعطاء بن مسلم :

(إذا كنت بالشام فاذكر مناقب علي ، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبى بكر وعمر) [(٢)] .

إياك ونصف الحقيقة

وليحذر الدعاة والمصلحون من مسألة مهمة ، وهو إبراز الحق الذى مع أهواء الناس ، وكتم الحق الذى يخالف أهواء الناس ، فيبرز من العلم ما كانت إشارته خضراء ، ويسكت عما كانت إشارته حمراء ، لأن فى هذا إعانة للظلم ، وتخليطاً للحق مع الباطل ، وتشابكاً للرايات ، فيكون الإفساد أكثر من الإصلاح ، ويكون الداعية عوناً للباطل دون أن يدرى ، مع ذرائع فاسدة تفتح ، ومصالح راجحة تفوت ، ثم بعد انكشاف الفتن ، ووضوح الحقائق

(١) المرجع السابق : ٨ / ٣١٦ .

(٢) المرجع السابق : ٧ / ٢٦٠ .

يفقد أهل الحق ثقة الناس بهم ، إذ إن النصر لا يأتى إلا لمن ثبت على النهج المستقيم ، ليحذر الداعية أشد الحذر من المداهنة ، وقد قيل لأسامة بن زيد ، ألا تكلم عثمان بن عفان (قال كلمته دون أن أفتح باباً أكون أول من فتحه ، وما أنا بالذى أقول لرجل ـ بعد أن يكون أميراً على رجلين ـ إنك خير ..) الحديث .

وشرح العبارة كما قال المهلب :

(.. قال أسامة : قد كلمته سراً دون أن أفتح باباً ، أى باب الإنكار على الأئمة علانية خشية أن تفترق الكلمة ، ثم عرفهم أنه لا يداهن أحداً ، ولو كان أميراً ، بل ينصح له فى السر جهده ..)

(وقال عياض : .. وفيه ذم مداهنة الأمراء فى الحق ، وإظهار ما يبطن خلافه كالمتملق بالباطل ، فأشار أسامة إلى المداراة المحمودة ، والمداهنة المذمومة ، وضابط المداراة لا يكون فيها قدح فى الدين ، والمداهنة المذمومة أن يكون فيها تزيين القبيح ، وتصويب الباطل ، ونحو ذلك ..) (١) .

ترك المداهنة فى الحق

وينبغى كذلك على الدعاة ، فوق ترك المداهنة ، تخفيف حدة طبع الناس ، وإطفاء الثائرة ، وتهدئة العواطف ، حتى يكون الركون

(١) فتح الباري : ١٣ / ٥٢ .

للعقل ، وبالتالى معرفة حكم الله فى مواقف الفتن ، والتصرف وفق مقتضيات الشريعة ، دون ظلم لأحد ، أو اعتداء على مخلوق ، ومنع الناس من الاختلاط على بعضهم ، ورمى البعض للبعض بأشنع التهم ، ومن كلام الخليفة الراشد بالله : « إنا نكره الفتن إشفاقاً على الرعية ، ونؤثر العدل والأمن فى البرية ، ويأبى المقدور إلا تصعب الأمور ، واختلاط الجمهور ، فنسأل الله العون على لَمِّ شعث الناس ، بإطفاء ثائرة البأس » (١) .

بل من مقاصد الإصلاح فى الفتن ، تسكين الدهماء ، كما فى آية الحجرات (قال الزمخشرى : فإن قلت لِمَ قُرِن بالإصلاح الثانى العدل دون الأول .. ؟

قلت : لأن المراد بالاقتتال فى أول الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاح ذات البين ، وتسكين الدهماء ، بإراءة الحق والمواعظ الشافية ، ونفى الشبهة ..) (٢) .

أى أن واجب الداعية ، إذا لم يكن قادراً على تغيير المنكر ، وإقام العدل ، فعليه الوعظ والإرشاد عند الفتن ، وتوضيح الظلم والاعتداء ، وتبيان حكم الله فى المواقف والآراء ، ورد المصائب إلى

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٩ / ٥٧٠ .   (٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣٢٠ .

أسبابها ، وربطها بمسبباتها وإصلاح ذات البين بين المسلمين ، والدفاع عن كل المظلومين ، حتى تسكن عواطف الأمة ، وتسكن ثائرة الخلق .

فى العزلة .. علاج

ومن درء الفتن عند عدم معرفة الصواب ، أو اختلاط الحق بالباطل الاعتزال عن الفتنة ، عندما لا يكون المرء قادراً على إصلاح الأمر ، أو إحقاق الحق ، والعزلة هنا نسبية ، لا يعنى بها الذهاب إلى المغارات والكهوف ، أو ترك الدعوة إلى الله ، بل اجتناب شرور الفتنة ..

قال المغيرة لعمار فى الفتنة : (.. فهل لك يا أبا اليقظان تدخل بيتك ، وتضع سيفك حتى تنجلى هذه الظلمة ، ويطلع قمر فنمشى مبصرين ..؟ قال : أعوذ بالله أن أعمى بعد إذ كنت بصيراً قال : يا أبا اليقظان ؛ إذا رأيت السيل فاجتنب جِريَتَه) (١)

وإلا فالأصل محاربة الباطل ، والانتصار للحق ، ولكن الفتن أحياناً تختلط فيها الرايات ، ويمتزج فيها الحق والباطل ، فيكون الموقف الشرعى ، الابتعاد عن المشاركة ، حتى لا يسفح الإنسان دم مسلم ، ولا يشارك فى مقتل مؤمن ، وفى هذا يشير المصطفى ﷺ

(١) سير أعلام النبلاء : ٣ / ٢٩ .

كما قال أبو بكرة : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار ، قال : فقلت : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول .؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » (١) .

وفى حديث لأبى ذر أنه ﷺ قال له : « .. تلزم بيتك ، قلت : فإن دخل عليّ بيتى .. ؟ قال : إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف ، فألق ثوبك على وجهك ، يبوء بأثمك وإثمه » (٢) .

ومن حديث أهبان الغفارى يقول لعلى (رضى الله عنهما) :

إن خليلى وابن عمك عهد إليّ ، إذا اختلف الناس ، أن أتخذ سيفاً من خشب .. » (٣) .

(وفى هذا الباب متسع .. فلينظر فى أحاديث الفتن من كتب الحديث النبوى .

والصبر الصبر

وخاتمة العلاج ، وأول الدواء الصبر على المكاره والمصائب ، والصبر أحد جانبى الإيمان ، ولا ينفك المؤمن الطائع من بلاء يسلطه الله عليه ، حتى يخرج من الدنيا نقياً من الذنوب .

---

(١) رواه البخاري ومسلم . (٢) أخرجه أبو داود .
(٣) أخرجه الترمذي وأحمد .

وقال القرطبى فى تفسير آيات البروج (٤ ــ ٧) « قتل أصحاب الأخدود »

(قال علماؤنا : أَعْلَمَ الله ــ عز وجل ــ المؤمنين من هذه الأمة فى هذه الآية ما كان يلقاه مَنْ وَحَّدَ قبلهم من الشدائد ، يؤنسهم بذلك ، وذكر لهم النبى ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام ، والمشقات التى كانوا عليها ، ليتأسوا بمثل هذا الغلام فى صبره وتصلبه فى الحق ، وتمسكه به ، وبذله نفسه فى حق إظهار دعوته ، ودخول الناس فى الدين مع صغر سنه ، وعظم صبره ، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار ، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ، ورسخ الإيمان فى قلوبهم صبروا على الطرح فى النار ، ولم يرجعوا عن دينهم ..

قال علماؤنا : ولقد امتحن كثير من أصحاب النبى ﷺ بالقتل والصلب ، والتعذيب الشديد ، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شىء من ذلك ، ويكفيك قصة عاصم وخبيب ، وأصحابهما وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق ، وغير ذلك ..) [١] .

وفيما ذكر تذكير ، نسأل الله العافية لنا وللمسلمين حتى نخرج جميعاً من نفق الفتنة .. والله سميع الدعاء .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٩ / ٢٩٣ .



(٢٧) وتزودوا

إن لكل سفر زاداً ، ومن لم يتزود لسفره فهو أحمق ، أو على جهل عظيم ، فقد تشذ به الآراء ، أو تنحرف به الأهواء ، وإذا كان سفر الدنيا لا يستغنى المرء فيه عن الزاد الذى يوصله إلى مبتغاه ، والتزود للرحلة بما يوصله إلى منتهاه ، فإن السفر مع الدعاة أولى إذْ لا بد للداعية فيه من زاد يقطع به الطريق ، ويأمن به المكاره ، ويرد به غائلة الفتن ، ويحمى نفسه من بوائق المحن ، وإذ كان الفقهاء من السلف قد قرروا أن سفر الأبدان دون التزود بالطعام لها مناف للتوكل ، بل هو بدع الجهلة والسفهاء ، فإن التزود لسفر الأرواح أدعى أنّ يكون من منهاج النبوة ، وأولى بالاتباع .. وقد أخذوا هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ [1] .

مما يدل على تنوع الزاد ، وأعلاها درجة التقوى ..

زاد المسافر

ومن أقوال الركب الميمون فى مقتضى الزاد للمسافر ، ما حدث به عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ فى عبارة صريحة ، فيقول :

(١) البقرة : ١٩٧ .

(إن لكل سفر زاداً لا محالة ، فتزودوا من الدنيا للآخرة ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله تعالى من ثوابه وعقابه ، ترغبون وترهبون ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه ـ والله ـ ما بسط أملُ من لا يدرى ، لعله لا يصبح بعد مسائه ، ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا مغتراً ، وإنما تقر عينُ من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من أمِنَ من أهوال القيامة ..) [١] .

فانظر ـ أيها الداعية ـ إلى تأمل الراشد ، وكيف يخشى على الداعية القديم قبل الداعية الجديد ، وكيف يحذر من استطالة الأمد ومن ثم قسوة القلوب ، وإن عدم التزود للسفر قد يقود للانقياد للعدو ، أو اللجوء لغير الله تعالى فينتقل به المرء من حكم ظالم إلى أظلم ، ومن جور إلى أشد جوراً ، وانظر كذلك كيف يحذِّر من خطفات المنايا ، وان لا يركن الداعية إلى ما يراه من أمان ، أو يشعر به من اطمئنان ، فإن هذا عين الاغترار ، فالحصن الحصين هو الالتجاء لذى القوة المتين ، ويتمم الخليفة الراشد رسالته إلى الدعاة ، بما يغنى عن الشرح ، وكأنه ينظر بعين الله إلى حال المسلمين اليوم ، ويرشدهم إلى ما يحسن النقلة ، ويجمل الرحلة بالتزود لها

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي : ٢٥٨ .

حتى يستوثق المسافر من النجاة (إن الدنيا ليست بدار قرار ، دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظعن ، فكم عامر موثق عمّا قليل يخرب ، وكم مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة ، فأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفيء ظلال قَلُص فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا منافس .. إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، إنها تسر قليلاً ، وتجر حُزْناً طويلاً ..) (١) .

أول الزاد

وأول الزاد ومبتدأه ، وأساس التزود ومنتهاه ، إنما هو الإخلاص ، لأن كل عمل لا يراد به وجه الله باطل ، وهجرة البدن ينبغى لها أن تكون لله تعالى ورسوله ، وإلا فهى للدنيا أو ما يتفرع عنها ، كما فى الحديث الصحيح المشهور .

وكذلك سفر الدعاة هو النوع الثانى من الهجرة ، وهى الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ﷺ وهى التى لا تقطع المفاوز إلا بها ، ولا تنقضى المراحل إلا بمعيتها ، وهى الفرض العينى على المسافر فى قطار الدعوة ، فاستمع ــ أيها الداعية ــ إلى قول أخيك ابن القيم ــ رحمه الله ــ يناديك من زمن :

(١) المرجع السابق : ٢٥٨ .

(فلما فصل عِيرُ السفر ، واستوطن المسافر دار الغربة ، وحيل بينه وبين مألوفاته ، و عوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه ، أحدث له ذلك نظراً ، فأجال فكره في أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله ، وينفق فيه بقية عمره ، فأرشده من بيده الرشد إلى أن أهم شيء يقصده إنما هو الهجرة إلى الله ورسوله ، فإنها فرض عين على كل واحد ، في كل وقت ، وأنه لا انفكاك لأحد عن وجوبها ، وهي مطلوب الله ومراده من العباد ، إذ الهجرة هجرتان :

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ..

والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ـ وهي المقصودة هنا ـ وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية ، وهي الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها ..) [1] .

ففروا إلى الله

والإخلاص يقتضي أن يُخرِج الداعية كل شبهة من قلبه ، فلا يؤمن حق الإيمان حتى يُخرِج الجاهلية منه ، فلا يبرر المصلحة الخاصة أمام العامة ، ولا يفوت الراجح لأجل المرجوح ، ولا يدفع الضرر الأصغر بالضرر الأكبر ، ولا يقدم إلا ما قدمه الله ، ولا يؤخر

---

(١) الرسالة التبوكية لابن القيم : ١٨ .

ما أخره الله ، ويكون ميزانه على الأشخاص والمواقف والجماعات ميزان السماء ، ولا يركن إلى ميزان الأهواء ، فلا تكون الوطنية والإقليمية مقدمة على الإسلامية ، ولا القومية والعصبية أولى من الآصرة الإيمانية ، ولا أن تكون الأرض أعزّ من الفكرة ، ولا التراب أولى من العقيدة ، بل التجرد المطلق لله عز وجل ، وهذا هو معنى الفرار إلى الله تعالى دون النظر إلى ما سواه .

فالسفر لا بد له من الفرار إلى الله ، لأن هذا ما يتضمنه معنى الهجرة إليه .

(وهي هجرة تتضمن (من) و (إلى) ، فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته ، ومن عبودية غيره إلى عبوديته ، ومن خوف غير الله ورجائه ، والتوكل عليه ، ومن دعاء غيره وسؤاله ، والخضوع له ، والاستكانة له ، إلى دعائه وسؤاله والخضوع له ، والاستكانة له ،وهذا بعينه معنى الفرار إليه ، قال تعالى : ﴿ **ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين** ﴾ (١) ، والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه) (٢) .

فمقتضى التوحيد يتضمن الفرار إلى الله ، وهو الولاء له ولرسوله وشرعه ، والبراء مما سواه .

---

(١) الذاريات : ٥٠ .　　(٢) الرسالة التبوكية : ١٨ .

احذر الاستدراج

ومن مقتضى الإخلاص كذلك ، أن لا تكون الدعوة مما يراد بها الدنيا ، فترى حماسة الداعية ملتهبة ما دام مرتاحاً في بلده ، آمناً في سربه ، فإن أصابته فتنة ، أو عمّت عليه مصيبة ، انقلب على وجهه ، وتنكر للدعوة وأصحابها ، واختلطت عليه الرايات ، وتبدلت أمامه المواقف ، فإن ذلك هو الانقلاب على العقبين ، بل هو الخسران المبين .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ (١) .

فالفتنة ينكشف فيها معدن الرجال ، ويتميز بها الإخلاص الحقيقي عن الرياء ، سواءً أكانت الفتن من النعم أم النقم ، وهي علامات للإنسان يكشف بها عن طبيعة إيمانه ، فينبغي للداعية إذاً أن ينظر لهذا الأمر الجلل ، ليعرف مدى الإخلاص الحقيقي ، ويحذر من الاستدراج ، فقد يجلب له السفر مع الدعاة مغنماً ، أو يمنح لارتباطه مع القافلة مركزاً ، فيجعل الله له الثواب في الدنيا ، ويمنع عنه أجر الآخرة ، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، بينما عمله

---

(١) الحج : ١١ .

عرضة للإحباط ، لقد قال تعالى :

﴿ من كـان يريد الحيـاة الدنيا وزينتـها نُوَفِّ إليـهم أعـمـالهم فيها وهم لا يُبْخسون ﴾ (١) .

(وقـيل المراد بالآية المؤمنـون ، أى من أراد بعـمله ثواب الدنيـا عـجل له الثواب ، ولم ينـقص منه شيـئـاً فى الدنيا ، وله فى الآخـرة العـذاب ، لأنه جرد قصـده إلى الدنيـا ، وهذا كـمـا قال ﷺ : « إنمـا الأعـمـال بالنيـات » فالعـبـد إنما يعطى على وجـه قـصـده ، وبحكم ضـميره ، وهذا أمر متفق عليه فى الأمم بين كل ملّة ، وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء « صُمتم وصلّيتم .. » ثم قال : « إن هؤلاء أول من تُسْعَر بهم النار .. » (٢) .

وقـال مـيمـون بن مـهْران : ليس أحـد يعـمل حـسنة إلا وفى ثوابها ، فإن كـان مسلماً مخلصاً وُفِّى فى الدنيـا والآخرة ، وإن كان كافراً وُفِّيَ فى الدنيا) (٣) .

ومن هنا على المؤمن الداعيـة الوجلُ ، واستـشـعار الخـوف من عـدم قبـول العمل ، فـقد يعـجل الأجـر بالثناء والمدح ، أو بالشهـرة والمركز ، وقد يستدرج الداعية فيعوّض بالعمل الدعوى ، وبالوظيفة

(١) هود : ١٥ .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) تفسير القرطبي : ٩ / ١٤ .

والسمعة ، أو بلّذة العيش ورفاهية السكن ، ويحرم بعد ذلك كله من الأجر الأخروى ، ونظير ذلك ما قد يبتلى به عباده المؤمنين ، من البلاء والفتن ، ومن كوارث الإحن ، فإذا ثبت على مبادئ العقيدة ، واستقام على المنهج ، زادت حسناته فى ميزان الله تعالى ، وإذا انقلب على وجهه ـ والعياذ بالله ـ فإن فى الفتنة حصاد المنافقين ، وبها يتميز معدن الإخلاص ، ولا شك أن الانقلاب مراتب ، والانحراف مدارج على قدر النقص فى الإيمان والضعف فى اليقين

العلم الموروث

والزاد الثانى الذى يصحح به المسار ، ويبصر به الطريق ، العلم الموروث عن النبوة ، والذى يكون النبراس الذى لا تختلط به الروايات ، والضوء الذى يكشف تدليس الجاهليات ، وليس العلم أحاديث وإشاعات العوام ، ولا تدليس وأخبار الأعلام ، وعن هذا يجيب ابن القيم ـ رحمه الله :

(فإن قلت : قد أشرت إلى سفر عظيم ، وأمر جسيم فما زاد هذا السفر ، وما طريقه وما مركبه .. ؟

قلت : زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه ، فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالفين ... فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يُحصوا ، فله

أسـوة بهـم ، ولن ينفعه هـذا التأسي يوم الحسـرة شيئاً ، كـما قال تعـالى : ﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العـذاب مشتركون** ﴾ (١) .

فقطع الله سبحانه وتعالى انتفاعهم وتأسّى بعضهم ببعض فى العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، وتأسي بعض المصابين ببعض ، كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى
على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخي ، ولكن
أسلى النفس عنهم بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسى معدوم بين المشتركين فى العذاب يوم القيامة) (٢) .

وما أكثر كلام الوعاظ والمتحدثين ، وما أشد غثاء الصحافة والإعلاميين ، وفى زماننا ما أوسع ما تبصره العيون ، وما أعرض ما تسمعه الآذان ، وليس من كل ذلك ضوء تبصر به المسالك ، أو شمعة يضاء بها الطريق ، فاحذر أيها الداعية من التخبط ، فكل حزب بما لديهم فرحون ، فإنما النجاة النجاة بحبل الله المتين ،

(١) الزخرف : ٣٩ .
(٢) الرسالة التبوكية : ٧٧ .

وصراطه المستقيم ، وعليك بمصباح النبوة إذا ازدحمت الخطوب ، وأضواء الشريعة إذا ادلهمت الآراء ، ونبراس الرسالة إذا تشعبت الأهواء .

خير الزاد التقوى

فإذا اجتمع العلم الموروث مع العمل الصائب ، فإن ذلك اجتماع الصواب مع الإخلاص ، ويتحقق التوازن الذى يجعل المؤمن على الصراط المستقيم ، ويتخلص من الانحراف مع المغضوب عليهم أو الضالين ، إمّا بالزيغ نحو فتنة الشبهات بقلة العمل ، أو نحو فتنة الشهوات بغلبة الهوى ، فيتحقق بذلك حصول منزلة التقوى ، والتى بها يحصل خير زاد للسائر على الطريق .. فكما أن سفر الدنيا لا يتم فضله ، أو يسعد المسافر به إلا بالطعام والشراب ، فكذلك سفر الآخرة ، لا يتم إلا بالتزود بالتقوى ، وفى هذا قيل :

(أما قوله تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ ففيه قولان : أحدهما ـ أن المراد : وتزودوا من التقوى ، والدليل عليه قوله بعد ذلك : ﴿ **فإن خير الزاد التقوى** ﴾ وتحقيق الكلام فيه أن الإنسان له سفران : سفر فى الدنيا ، وسفر من الدنيا ، فالسفر فى الدنيا لا بد له من زاد ، وهو الطعام والشراب والمركب والمال ،

والسفر من الدنيا لا بد فيه أيضاً من زاد ، وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه ، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لوجوه :

الأول : أن زاد الدنيا يخلصك من عذاب موهوم ، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب متيقن .

وثانيها : أن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع ، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم .

وثالثها : أن زاد الدنيا يوصلك إلى لذة ممزوجة بالآلام والأسقام والبليات ، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذات باقية خالصة من شوائب المضرة ، آمنة من الانقطاع والزوال .

ورابعها : أن زاد الدنيا وهى كل ساعة فى الإدبار والانقضاء ، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة ، وهى كل ساعة فى الإقبال والقرب والوصول .

وخامسها : أن زاد الدنيا يوصلك إلى منصة الشهوة والنفس ، وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس ، فثبت بمجموع ما ذكرنا أن خير الزاد التقوى ..) [1] .

فهنيئاً لمن تزود من الدنيا إلى الآخرة ، ومن المحطة العاجلة إلى

(١) تفسير الرازي : ٥ / ١٦٨ .

المحطة الآجلة ، ومن ضيق المعاش إلى سعة المعاد ، ومن دار الرحيل إلى دار البقاء .

ومن الزاد لزوم الجماعة

فإذا اجتمع زاد الإخلاص والعلم ، وتفاعلا فى بوتقة التقوى ، صار لزاماً على الداعية التزود مع إخوانه أخذاً وعطاءً ، فلا يجمل التزود إلا مع الرفقاء ، ولا ينمو الفضل إلا مع الأتقياء ، فكما أن بركة الطعام فى سفر الدنيا مع الجماعة ، فإن نمو الأجر فى القول والعمل ، لا تكون إلا مع ركب المؤمنين ، وزيادة الفضل لا تربو إلا بمسيرة العاملين .

لقد حدد الإمام القرطبى معنى الجماعة بأنهم الإخوان الذين يكونون على مذهب واحد ، أى فى منهج العمل والدعوة ، فقال :

(والإخوان جمع أخ ، وسمى أخاً لأنه لا يتوخى مذهب أخيه ، أى يقصده)

وذلك بعد أن أورد نصوص الالتزام بالجماعة من السلف الصالح ، فذكر ما يلى :

(وقال ابن عباس لسماك الحنفى : يا حنفى ، الجماعةَ الجماعةَ فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها ، أمَا سمعت قول الله عز وجل :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [١] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ،وأن تناصحوا من ولّى الله أمركم ، ويسخط لكم قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » .

فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيّه ، والرجوع إليهما عند الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً ، وذلك سبب اتفاق الكلمة ، وانتظام الشتات الذى يتم به مصالح الدنيا والدين والسلامة من الاختلاف ، وأمر بالاجتماع ، ونهى عن الافتراق الذى حصل لأهل الكتابين) [٢] .

ففي الجماعة ـ إذاً ـ بركة الزاد ، وفي الرفقة يكون أمن الطريق ..

التنوع .. بركة الجماعة

والسر في بركة الجماعة .. التنوع في العمل الصالح ، تماماً كتنوع الأطعمة في سفر الدنيا ، وبالتالي يتكامل العمل فيغرف كل داعية من فضل صاحبه ، أو يصحح كل مؤمن خطأ أخيه ، فينال

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) تفسير القرطبي : ٤ / ١٦٤ .

الجميع بركة الاجتماع ، ويتحصل للكل فضل الالتقاء ، وهذه سمة الإخوان الذين يغبطهم الصديقون والشهداء ، بل هى صفة الأتقياء المؤمنين الذين تنقل أخبار مجالسهم بالملائكة السيّارين ، وهذا أصل التعاون على البر والتقوى .

(قال ابن خَوَيْز مِنْداد فى أحكامه : والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه ، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم ، ويعينهم الغنى بماله ، والشجاع بشجاعته فى سبيل الله ، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة (المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم) ، ويجب الإعراض عن المتعدى ، وترك النصرة له ، وردّه عما هو عليه ..)[1]

الدعوة مع الجماعة

ومن البركة ـ كما فى حديث مسلم ـ ما يناله المستطرق العابر عندما يجلس مع ركب المؤمنين ، فينال المغفرة ، لأنهم القوم الذين لا يشقى جليسهم ، إذ فى مرافقة أهل الخير صلاح ، وفى السفر مع الجماعة فلاح .

ولقد نقل القرطبى ـ رحمه الله ـ كلاماً لأحد وعاظ مصر عام ٤٦٩ هـ ، حيث نوه الواعظ كيف نال كلب أهل الكهف

(١) المرجع السابق : ٦ / ٤٧ .

فضل ذكره في القرآن الكريم ، فقال : (إنّ مَنْ أحَبَّ أهل الخير نال من بركتهم ، كلب أحب أهل الفضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله ..) ثم قال :

(إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء الأولياء ، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جلّ وعلا ، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين ، المحبين للأولياء والصالحين ، بل هذا تسلية للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال ..) ثم استطرد القرطبي في الشرح ذاكراً قول أنس بن مالك الوارد في الصحيح :

« فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم »

ثم قال :

وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك و إن كنا غير مستأهلين ، كلب أحبّ قوماً فذكره الله معهم .. ، فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان ، وكلمة الإسلام ، و حب النبي ﷺ ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن**

خلقنا تفضيلا ﴾ (1) .

فما أحلى هذا الكلام ، الذى يجب أن يشد عليه الداعية ، فيلتزم بالركب الميمون ، ولا يجعل للشيطان إليه سبيلاً ، ويحاول جهده بدعوة الآخرين ، ليزداد بذلك جمع المسافرين .

دعوة لجميع الكواكب .. !!

والدعوة إلى الله يجب أن تكون لجميع الخلق ، ولا ينبغى أن يزهد الداعية فى أحد من الخلق ، فالدعوة للأقارب من النساء والرجال ، وللصغار وللكبار ، كما أنها لأهل البادية والحضر ، وأصدقاء المدينة أو رفقاء السفر ، والدعوة للعالم والجاهل وللقريب والغريب ، كما أنها للعرب وغير العرب ، بل لقد سبق العلماء بإدراك وجود كواكب أخرى ، وأوجبوا دعوة الإسلام إلى أهلها إن ثبت ذلك .

ومن طرائف ذلك ، ما ننقله للقارئ عن الإمام القرطبى :

(.. فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى ، اختصت دعوة الإسلام بأهل هذه الأرض ، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام عند إمكان الوصول إليهم ، لأن فصل البحار إذا أمكن سلوكها لا

(1) المرجع السابق : 10 / 371 .

يمنع من لزوم ما عمّ حكمه ، واحتمل ألا تلزمهم دعوة الإسلام ، لأنها لو لزمتهم لكان النص بها وارداً ، ولكان ﷺ بها مأموراً) (١) .

فلننظر عبارته فى أنه إذا كان للدعاة وصول إلى أرض أخرى ، لزمهم ذلك إذا استطاعوا تجاوز البحار ، وبمثلها الوصول إلى كواكب أخرى ، إذا استطاع البشر تجاوز الفضاء .

والجهاد من الدعوة

وقمة الدعوة إلى سبيل الله، الجهاد فى سبيله ، فهو سنام العمل الصالح ، ورأس التزود فى سفر الآخرة ، وبه النجاة من العذاب ، والجهاد فى كثير من الآيات والأحاديث يرد بالمعنى العام ، حيث يتضمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإعانة المؤمنين فى السراء والضراء ، والتعاون على البر والتقوى ، قال تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ (٢)

(.. أى جاهدوا الكفار فينا ، أى فى طلب مرضاتنا ، وقال السدى وغيره : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال ، قال ابن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى ، وإنما هو جهاد عام فى دين الله ، وطلب مرضاته .. وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا ، تقصيرنا فى العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا

(١) المرجع السابق : ١٨/ ١٧٦ .   (٢) العنكبوت : ٦٩ .

لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا .. وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعظة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه مجاهدة النفوس في طاعة الله ..) (١) .

ويقاس على كل ذلك الوعظ والإرشاد ، والكتابة والتصنيف ، وتربية الأهل والأولاد على مبادئ الإسلام ، وجمع التبرعات للعاملين والمجاهدين ، وإعانة المظلوم والضعيف ، وكشف الدعوات الباطلة ، والرد على الأفكار المنحرفة وإعداد الناس لمرحلة التمكين .

جماع الأمر

أي أن أعمال الجهاد متفاوتة ، ومقتضيات البر مختلفة ، ولكنها جميعاً إمّا أمر بمعروف ، أو عمل لأمر مشروع ، أو إعراض عن منكر ، فهو تقسيم ثالث للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل هو تقسيم لجميع أعمال البر والمعروف ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ **خُذ العفو وأْمُر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (٢) .

(هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات ، فقوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ دخل فيه صلة

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ٣٦٤ . (٢) الأعراف : ١٩٩ .

القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ، ودخل في قوله : ﴿ **وأْمُر بالعرف** ﴾ صلة الأرحام ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغض الأبصار ، والاستعداد لدار القرار ، وفي قوله : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ الحض على التعلق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة ، والأفعال الرشيدة ..) (١) .

وفى النص من المعانى التى يمكن القياس عليها ، وتغنى عن الاستطالة فيها ..

سبيل التزود

والخلاصة : أن الزاد علم وعمل ، يقتضى الإخلاص لأولها والصواب لثانيها ، وجماعها التقوى ، ومع معرفة الزاد لا بد من معرفة سبيل السفر فى القطار ، ومن ثم كيفية الركوب .

(ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :

أحدهما : أن لا يصبو فى الحق إلى لوم لائم ، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ، ويجعله صريعاً فى الأرض .

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ٣٤٤ .

والثانى : أن تهون عليه نفسه فى الله ، فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال ، فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض ، ولا يتم له هذا الأمر إلا بالصبر ، فمن صبر قليلاً صارت تلك الأهوال ريحاً رخاءً فى حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه ، فبينما هو يخاف منها إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه ..) (١) .

فهذا هو سبيل السفر وطريقه ، ومنهج التزود ومنهاجه ..

عود على بدء

ومع معرفة السبيل ، لا بد من معرفة المركوب بعد التزود ، وفى الأمر عود على بدء ، إذ إن ذكر الإخلاص والصدق فى البداية ، لا بد من ذكره أيضاً فى النهاية ، فالإخلاص هو المبتدأ والمنتهى ،ولا بد منه فى أول العمل ومنتهاه ، إذ لا بد للسفر من صدق الالتجاء إلى الله ، وتحقيق معنى العبودية له ، بالدعاء والاستكانة والتضرع ، فهو وحده ما ابتدأت به هذه الهجرة وله وحده تنتهى . قال ابن القيم فى رسالته (تحفة الأحباب) :

(وأما مركبه فيصدق اللَّجَأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته ، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه ، والضراعة إليه وصدق التوكل

(١) الرسالة التبوكية : ٧٨ .

والاســتعـانة به ، والانطراح بين يديه انطـراح المكلوم المكســور الفــارغ الذى لا شــىء عنــده ، فـهــو يتطـلـع إلى قَيِّمـة ووليـه أن يجبره ويلم شـعثه ، ويمده من فضــله ويستـرده ، فهذا الذى يرجى له أن يتولى الله هدايته ، وأن يكشف له ما خفى عن غيره من طريق هــذه الهجرة ومنازلها) [١] .



(١) المرجع السابق : ٧٨ .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢٨) كواشف الأنفاق

في أحد اقتباسات الإمام القرطبى ذكر قول الشاعر :

تقول ما لاحَ يا مسافرُ

يا ابنة عمى لاحنى الهواجرُ

ونقول :

وهكذا مسافر الدعوة ، يتلوّح وجهه بحر الهواجر ، وينصب من عناء الطريق ، ويشقى من وعثاء السفر ، وتلفه ظلمة أنفاق الفتن ، وتحدّ من سيره العوائق ، وتجره لثقلة الأرض العلائق ، ولكنه مع كل هذا ، ينطلق فى سيره الميمون ، على هدى من الله وبصيره ، يستضىء بنور السماء ، ويستهدى بسنة المصطفى ﷺ فلم تعد توقفه الظلمات ، ولا تعيق سيره العقبات ، مستعيناً وفق هدى القرآن والسنة على مجموعة من الكواشف والأضواء .

أس الفضائل

وأولها العقل ، وهو أمرٌ زائدٌ على مجرد إدراك المعلوم ، (واعلم أن لكل فضيلة أسّا ، ولكل أدب ينبوعاً ، وأسُّ الفضائل

وينبـوع الآداب هو الـعـقل ، الذى جـعله الله تعـالـى للدين أصـلاً ، وللدنيـا عـمـاداً ، فـأوجب التكليف بكمـاله ، وجـعل الدنيـا مـدبرة بأحكامه ، وألّف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبّدهم به قسمين ، قسماً وجب بالعقل فوكّده الشرع ، وقسماً جاز فى العقل فأوجبه الشرع ، فكان العقل لهما عماداً ..) [1] .

فالعقل شىء غيـر الوحى والمعرفة ، ولكنه مناط التكليف ، وبه يعرف الدين ، ويفهم العلم فهو أفـضل مرجو ، كما أن الجهل أنكى عدوّ ، وأن خـير مـا أُوتى المسلم من المواهب العـقل ، وشر مـا يحلُّ عليه من المصائب الجهل ، ولذا فإن من بين العوامل التى تميز البشر ، وتفاضل بين الدعاة مـوهبة العقل ، فوق مـوهبة العلم والصلاح ، إذ به تتمايز الأهواء ،وتتوضح به ملامح الفتن ، وبه ينقذ من الوقوع فى المعـاصى ، وهو الحـاجـز عن التـهـور والانـدفـاع ، أو عن النكـوص والجبن ، وبالعقل تعرف حـقائق الأمور ، وتتوضح مـسالك السبل .
ومن العقل ما هو غريزى كقوله تعالى :

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فـتكون لهم قلوب يعقلون بها..﴾
ومنهـا ما هو مكتسب ، بل هو نتاج العقل الأول ، وهو نهاية المعرفة

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ١٩ .

فى إصابة الفكرة ، وفى تمييز المعرفة ، وهو مما ينمو إن استعمل ، وينقص إذا أهمل ، وذلك بكثرة الاستعمال وتنوع التجارب ، وممارسة الأفكار ، ما لم تؤثر فيه الأهواء ، أو تصده الشهوات .

تفكروا فى الخلق

ومن مقتضيات العقل التدبر والتفكر ، وأخذ الأمور بمنهاجها السليم ، دون تخبط أو جنوح ، وبلا هوى وعاطفة ، وإن التدبر هو النظر فى أواخر الأمور وعواقبها ، والتفكر يفيد تكثير العلم بالعقل ، واستجلاب ما ليس حاصلاً ، وكذلك فى معانيهما التذكر المفيد لتكرار ما ينتج عن التدبر والتفكر ، وتكراره على القلب حتى يزيد رسوخاً وتثبيتاً .

وفى التدبر والتفكر تلقيح لألباب الرجال ، وهو مفتاح خزائن العلم ، ومنها تكون ثمرة العقل ، ونتاج العلم ، ومقود الخيرات .

(وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب ، وأنفعها له حتى قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، فالفكر هو الذى ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ، ومن المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء

الإنابة إلى الله والتجافى عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمى والصم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور ..)[١] .

التفكر عبادة

والتفكير والتذكر عبادة لقوله تعالى :

﴿ **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ ولقد حكى عن سفيان الثورى أنه تفكر يوماً فى السماء وخلقها حتى غشى عليه ، وكان يبول دماً من طول حزنه وفكرته ، وسئلت أم الدرداء عن أبى الدرداء فقالت : « كان أكثر شأنه التفكر » ، ويتضمن التفكر البحث فى العلوم المختلفة ، وإطالة النظر فى خلق الله ، كغرائب النبات ودورات الحياة فى البيئة ، والتوسع فى النظر إلى وظائف أجهزة الإنسان ، والتفكر فى خلق الأحياء المختلفة ، وعجائب الجبال والبحار والسهول والغابات ، وأسرار الاستنباط البشرى من الصخور والآثار ، وأشباه ذلك مما تزدحم به مكتبات اليوم السمعية والبصرية .

ومع الأخذ بمنهج التفكر ، فينبغى التنبيه على عدم المبالغة فيما يدعيه الصوفية فى أن التفكر أفضل من الصلاة ، أو استغناؤهم

(١) مفتاح دار السعادة : ١٨٣ .

بالتفكر عن بعض العبادة ، أو إطالته إلى الحد الممجوج والمعطل عن أعمال الحياة ، لأن خير الأمور أواسطها ، وعلماء الأمة وسلفها كانوا على منهاج التوسط فى التفكير ، وكل عبادة هى الأفضل فى وقتها ، بل إن معظم العبادات لا تنفك عن شىء من التفكر .

ولعل من نتائج التفكر ، طلب العلوم المختلفة ، وهى من الكواشف التالية .

شمول وتخصص

ولا بد من توظيف العلوم المختلفة لأجل الدعوة إلى الله تعالى ، باعتبار أن بعضها يحقق مقاصد الشريعة ، من حفظ الدين والعرض والنفس والمال ، ومنها ما هو من الوسائل والأساليب ، والتى يُتخذ حكمها من حكم المقاصد والذى عليه مدار الأحكام كلها ، فقد يكون من الواجب عندما لا يتحقق الواجب إلا به ، وقد يكون من فروض الأعيان ، كما يكون من فروض الكفايات ، أى فيها ما ينبغى أن يفعله بعض الدعاة ، وإلا وقع فى الأثم ، ومنها ما يتناسب مع حجم المقصد وطبيعة الهدف .

ومن أجل هذا ، كان تعلم الدعاة للعلوم الكونية أمراً مهما ، لما فيه من تحقيق مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وجلب المصالح وفق السنن الكونية ، ودفع المفاسد عنهم ، بل إن لجميع العلوم الحسنة

انعكاساً على أخلاق المرء وسلوكه (قال المزني : سمعت الشافعي يقول : ومن تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر في الفقه نَبُل مقداره ، ومن تعلم اللغة رقَّ طبعُه ، ومن تعلم الحساب جَزَل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه) [1] .

في العلم زيادة عقل

وطلب العلوم قد يتفاوت ويتوزع على مراتب الحكم التكليفي ، ما بين فرض وواجب ، أو مباح ومندوب ، كما أن الأمر ليس بالضرورة بعمل تزييني ، وإنما قد يكون لذاته ، لما فيه من مصالح العباد ، ولذلك قال الغزالي بفرضية الطب على الكفاية ، وأن أهل القرية المسلمين جميعاً يقعون في الإثم ، ما لم يتصد منهم من يقوم بواجب تعلم الطب وممارسته ، وكذلك ينبغي على الدعاة والمسلمين أن لا يتركوا بعض العلوم يسيطر عليها أهل الشرك والنفاق ، ولهذا كان الإمام الشافعي يحذر المسلمين ، ويدعوهم لتعلم الطب ، حتى لا يحتكره النصارى في بلاد المسلمين ، فيا سبحان الله ، ما أشبه اليوم بالأمس .. !!

قال الإمام الغزالي : (فلا عجب من قولنا أن الطب والحساب

(١) المرجع السابق : ١٦٥ .

من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات ، كالفلاحة والحياكة والسياسة .. وأما ما يعد فضيلة لا فريضة ، فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه) [(١)] .

وقد يكون التعلم لأجل المنهج كتعلم الرياضيات ، إذ إنها تقود لتعلم الأقيسة ، وكان السلف العلماء يتسلون بمسائل المواريث رغبة فى ذلك ، وفى هذا يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته : (.. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلاً مزيداً ، والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مستفاد من تلك الملكة ، فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلاً ، والحضارة تفيد عقلاً ... وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل ..) [(٢)] .

الفن العسكرى فى الشريعة

ومن علوم الدعوة النافعة ، الأخذ بالعلوم العسكرية وفنون القتال ، سواءً أكان بالتعلم المباشر ، أو بالعلوم المساندة ، مما يتنوع بتغيير الزمان والمكان ، والعلوم الجهادية متممة للعلوم الفكرية .

قال ابن القيم : (فقوام الدين بالعلم والجهاد ، ولهذا كان

(١) الإحياء : ١ / ١٦ .   (٢) المقدمة : ٤٢٨ .

الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان ، وهذا المشارك فيه كثير ، والثانى الجهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهاد الخاصة ، من أتباع الرسل ، وهو جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته ، وشدة مؤنته وكثرة أعدائه ..) كما قال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** ﴾ .

فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين ، كما قيل :

فما هو إلا الوحى ، أو حَد مرهف

تميل ظباه أخدعا كل مايل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل

وهذا دواء الداء من كل جاهلِ

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة ، يسمى سبيل الله ، فَسَّرَ الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ قوله :

﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ .

بالأمراء والعلماء ، فإنهم المجاهدون فى سبيل الله ، هؤلاء

بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم)[١] .

وقال شيخ الإسلام :

(.. ولن يقوم الدين إلا بالكتاب والميزان والحديد ، كتاب يهدى به وحديد ينصره ، كما قال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ فالكتاب به يقوم العلم والدين ، والميزان به تقوم الحقوق فى العقود المالية المقبوضة ، والحديد تقوم به الحدود على الكافرين والمنافقين .

ولهذا كان فى الأزمان المتأخرة الكتاب للعلماء والعباد ، والميزان للوزراء والكتاب ، وأهل الديوان ، والحديد للأمراء والأجناد ، والكتاب له الصلاة ، والحديد له الجهاد ، ولهذا كان أكثر الآيات والأحاديث النبوية فى الصلاة والجهاد ..)[٢] .

والسياسة سبب التمكين

والعلم بالسياسة من مقتضى فهم الشريعة ، ومن عوامل التمكين فى الأرض ، وقد يظن بعض مسلمى اليوم أن هذا القول تكلف ، أو أن السياسة لا علاقة لها بالدين ، وما هى إلا من المصطلحات المحدثة ، وما علموا أن من عربوا مصطلحات العصر

(١) مفتاح دار السعادة : ٧٠ .   (٢) الفتاوى : ٣٥ / ٣٦ .

أدركوا معنى الفعل (ساس) وأنه يقتضى أن تكون السياسة مفهوماً عربياً ، ولقد استعمله الفقهاء وخصوه بالسياسة الشرعية ، فهذا ابن تيمية يسمى رسالته (السياسة الشرعية) ، وتلميذه ابن القيم يسمى رسالة أخرى (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) ، بل واعتبر فى كتاب آخر أن السياسة من وسائل التمكين فى الأرض ، فقال متحدثاً عن فضل العلم ، وما يتفرع من الفضل عن العلم بالسياسة : (... وما حصل ليوسف ـ عليه السلام ـ من التمكين فى الأرض ، والعزة والعظمة تعلمه بتعبير تلك الرؤيا ، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته ، بما يقرون به ، ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة ، وكمال الحال التى توصل إليها بالعلم ، كما أشار إليها سبحانه فى قوله : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ [1] .

جاء فى تفسيرها : نرفع درجات من نشاء بالعلم ، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم ، وقال فى إبراهيم عليه السلام : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء** ﴾ [2] فهذه رفعة بعلم الحجة ، وتلك رفعة بعلم السياسة) [3]

---

(١) يوسف : ٧٦ . (٢) الأنعام : ٨٣ .

(٣) مفتاح دار السعادة : ١٧٣ .

ومن هنا يعلم ضرورة تعلم الداعية للسياسة ، وفهم البواعث والأهداف والخلفيات للمواقف السياسية ، ومحاولة تحليلها ومعرفة أسبابها ونتائجها ، ومن ثم توقع الأحداث والاحتمالات ، ويخطط لذلك بوضع المناهج والبدائل ، حتى يتحقق للدعوة التمكين فى الأرض .

وعلم السياسة يتضمن معانى عدة ، أولها : النصح لجماعة المؤمنين ، والولاء لهم ، ثم البراءة من الكفار والمشركين ، وكلها مظاهر للجهاد الذى من مقتضياته .

(.. النصح لله ، والإيمان به ، والعمل بشريعته ، وترك ما يخالفها ، كائناً ما كان ، ويدخل تحته دخولاً أولياً ، نصح عباده ومحبة المجاهدين فى سبيله ، وبذل النصيحة فى أمر الجهاد وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه ..) (١) .

تجنب الكتب الفاسدة

وكما ينبغى الأخذ من بعض العلوم بنصيب . فكذلك ينبغى عدم الأخذ من بعضها الآخر، كالعلوم المضرة فى الدنيا والآخرة ، كعلوم الشعوذة والسحر والتنجيم ، وما يجرى مجراها ، ومنها كتب الفلاسفة والملاحدة ، وكتب المنطق وترهات الجاهلية ، وما

---

(١) نيل المرام لصديق حسن خان : ٤١٧ .

تلقيه من الشبهات أو الشهوات ، فالداعية المسافر في قطار الدعوة ، مسافر إلى ربه يجب أن لا تلهيه بُنيات الطريق ، فإن من ركب القطار لا ينبغي أن يفكر بعد في لون القطار وأجرته ، أو موعد انطلاقه وهوية سائقه ، ولقد قال ابن القيم أن السالك إلى الله تعالى قد عرف رب الزمان والمكان ، فلا ينبغي أن يبحث بعد عن معاني الزمان والمكان ، بل أن ينطلق مسرعاً ليعوض ما فاته من الطريق .

ونذكر دعاة اليوم بالابتعاد عن أشباه هذه الكتب ، ولا يقتدى ببعض خواص الدعاة ، الذين لهم علم وتجربة تمنعهم من التأثر ، أو تحجزهم عن الاضطراب ، ولقد نبه الإمام الذهبي بعض تلامذته على ذلك ، ومنعهم من الاقتداء ببعض العلماء ، كاطلاع الإمام الغزالي على رسائل إخوان الصفا ، فقال محذراً :

(.. لولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء ، وخيار المخلصين لتلف ، فالحذار الحذار من هذه الكتب ، واهربوا بدينكم من شُبَهِ الأوائل ، وإلا وقعتم في الحيرة ، فمن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية ، وليدمن الاستغاثة بالله ، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام ، وأن يتوفى على إيمان الصحابة ، وسادة التابعين والله الموفق) (١) .

(١) سير أعلام النبلاء : ١٩ / ٣٢٨ .

وتعلم السلاح المضاد

كما ينبغي لبعض الدعاة التصدى للرد على الشبهات ، ومعارضة المبطلين ، كما انتدب بعض العلماء أنفسهم للرد على النصارى والكفار ، والبعض على المبتدعة والمنحرفين ، وخاضوا فى اصطلاحاتهم ، ثم قاتلوهم وقتلوهم بأسلحتهم ، ولكن دون مبالغة وإسفاف ، ودونما جرٍ لعموم المسلمين ، بل إبقاء التلامذة والعموم ، ومن درج من المسلمين متمسكين بالقرآن والسنة ، معرضين عن شبه الملحدين ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، فنحن بحاجة إلى نقل ما قاله الإمام القرطبى .

(قلت : ومن نظر الآن فى اصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدين ، فمنزلته قريبة من النبيين ، فأما من يُهجِّن من غلاة المتكلمين طريق من أخذ بالأثر من المؤمنين ، ويحض على درس كتب الكلام ، وأنه لا يعرف الحق إلا من جهتها بتلك المصطلحات ، فصاروا مذمومين لنقضهم طريق المتقدمين من الأئمة الماضين ، والله أعلم) [١] .

توازن فى الجماعة

إن الأصل فى الجهاد الدعوة والسيف ، وقد تتغير أهمية كل

(١) تفسير القرطبي : ٢ / ٢١٤ .

منهما حسب الظروف والأحوال ، والطاقة والاستطاعة ، فالدعوة فى المراحل الابتدائية للحركة الإسلامية ، وهى جهاد أهل الفسوق والعصيان ، وهى الأمر الواجب عند دخول ديار الكفر بعهد أمان ، والسيف هو الأصل لإزالة المنكر عند تعذر الوسائل الأخرى ، وهو المرحلة المتقدمة للعمل الإسلامى ، وبه يؤخذ عند الاستطاعة لجهاد الكفار وأهل الذمة ، والفرض متعين لتعلم كليهما والقيام بهما ولا بد للجماعة المسلمة من إرشاد أفراد منها لتعلم فنون كلا الجهادين .

(.. وكما يجب أن يكون فى عسكر الإسلام من يستعد لقوة الدين بالسلاح والعدة ، فكذلك يجب أن يكون فيهم من يستقل لقوة المناظرة وتعريف الأدلة ..) (١) .

إذ إن الشريعة متوازنة ، ولا بد من حفظها بالوسائل المكافئة لها فجهاد اللسان والقلم لتبليغ الدعوة ، وجهاد السيف لحفظ الحركة.

صناعة الحياة

ولكل ما سبق صناعة ، فصناعة الفكر ما وقف منها على التدبيرات الصادرة كنتائج للآراء الصحيحة ، كفن السياسة والإعلام ، والإدارة والفنون ، ومنها ما كانت نتائج للأفكار النظرية

(١) أحكام القرآن لإلكيا الهراسي :٤ / ١٨٠ .

كما سلف فى الحديث عن العلم وربانية التعليم ، أما صناعة العمل فهى التى تحتاج إلى معاطاة فى تعلمه ، ومعاناة فى تصوره ، وهنالك صناعات متفاوتة بينهما تجمع بين الفكر والعمل ، والحياة لا تنفك عن هذه جميعاً .

والخلق متفاوتون فى إتيانهم لهذه الصناعات .

(فهذه أحوال التى ركبهم الله عز وجل فى ارتياد مواردهم ، ووكلهم إلى نظرهم ، فى طلب مكاسبهم ، وفرق بين هممهم فى التماسها ، ليكون ذلك سبباً لألفتهم ، فسبحان من تفرد فينا بلطيف حكمته ، وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته) [1] .

وما أحوج الدعاة هذه الأيام لتفهم نظرية صناعة الحياة ، من أجل فهم العلاقات الحيوية بين مراتب وعلوم الحياة المتنوعة ، واستثمار الحقائق الحياتية ، وتعلم الطرق المنهجية فى البحث والاستقراء ، حتى تسير الحياة كلها فى تيار واحد بما فيها من بشر وعلاقات وأموال وعلوم ، وفق منهج الله الذى أراده فى الحياة ، ومن أجل تجديد خطط الدعوة ، وتجديد مسار القطار ، وتقاسم الواجبات والأدوار .

والمسافرون فى قطار الدعوة عليهم الإمساك بقيادة القطار ،

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ٢١٣ .

وزمام القافلة بالنزول إلى ساحة الحياة، بأفق حضارى شامل فى إصلاح الأدب ، وأسلمة العلوم ، وبناء الاقتصاد ، وتحسين الذوق ، وإصلاح العائلة ، وإسالة المال الصالح للعمل الصالح .

الداعية المصباح

وبعد طلبك للعلوم ، وصناعتك للحياة ، لا تجعل قلبك أيها الداعية للشبهات والإيرادات كالإسفنجة تتشرب الماء فلا ينضح إلا ما فيها ، بل كن كما قال ابن تيمية لتلميذه ابن القيم ، حيث أوصاه بأن يجعله كالزجاجة المصمتة ، تمر الشبهات بها فلا تستقر بها ، إذ يراها بصفائه ، ثم يدفعها بصلابته ، وعلى الداعية أن يكون صاحب علم ويقين ، فلا يغتر بأمر ،بل يجوز النظر حتى يكتشف الحقائق ، ويزداد تقرباً من الله تعالى ، ولا يغتر بزيف الألفاظ ، ولا أعلام الصور ، مهما ترافق معه من جمال العبارة ، وتحسين الصورة ، وزيف الإخراج ، وأن لا يكون من أهل العقول الصغيرة ، وخفافيش البصائر

(وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالاتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ ، من الحق والباطل ،ولا تغتر باللفظ ، كما قيل فى هذا المعنى .

تقول هذا جـنـاء النـحل تمدحـه

وإن تشـأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما

والحـق قد يعتريه سـوء تعبير

فـإذا أردت الاطلاع على كـنه المعنـى هل هو حق أو بـاطل ، فـجرده من لبـاس العـبارة ، وجـرد قلبك من النفـرة والميل ، ثم أعط النظر حـقـه ، ناظراً بعـين الإنصـاف ، ولا تكن ممن ينظر فى مـقـالة أصـحابه ومن يـحسن ظنه نظـراً تاماً بكل قـلبه ، ثم ينظـر فى مقـالة خصـومه وممن يسيء ظنه به كنظر الـشزر والملاحظة ، فالناظـر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ ، والناظر بعين المحبة عكسه ، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق) (١) .

ثم اثبت على الأمر

وتعلم الفنون وصناعة الحيـاة ، قد تتقاذف الداعية فـى أمواجه العـاتيـة ، فـلا يصـمـد أمـام الـفتن والأهواء ، أو لا يثـبت أمـام المحن والبـلاء ، فلا بـد من العودة إلى الـثوابت مـهـما سـاح فى الآفـاق ، والتـمسك بالأصـول مهـما توسع فى الفـروع ، والاعتـصام بالحـبل

(١) مفتاح دار السعادة : ١٤١ .

المتين مهما تفرقت الأهواء ، والالتزام بالمسلك المستقيم مهما تفرعت الشعب ، والحذر من أهواء الباطل وسبل الشيطان ، فإن المنقاد لها سيضيع مع التيار « بخلاف الثابت التام فإنه لا تستفزه البداءات ، ولا تزعجه وتقلقه ، فإن الباطل له دهشة وروعة فى أوله ، فإذا ثبت له القلب ، رد على عقبيه ، والله يحب من عبده الحلم والأناة ، فلا يعجل بل يثبت ، حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة من الشيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداءات ، استقبل أمره بحزم وجزم ، ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش .. ولهذا فى الدعاء الذى رواه الإمام أحمد والنسائى عن النبى ﷺ اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أُتى العبد إلا من تضييعهما أو من تضييع أحدهما ، فما أُتى أحدٌ إلا من باب العجلة والطيش ، واستفزاز البداءات له ، أو من التهاون .. وتضييع الفرصة بعد مواتاتها ، فإذا حصل الثبات أولاً ، والعزيمة ثانياً ، أفلح كل الفلاح ، والله ولى التوفيق » (١) .

واستقم كما أمرت

ومن الثبات الاستقامة على المنهج لقوله تعالى : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾

(١) المرجع السابق : ١٤٢ .

وقوله ﷺ لسفيان الثقفي عندما سأله ، فقال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (١) .

وارتباط الاستقامة ـ كما تشير الآية ـ مع الذين تابوا ، تدل على أن طلبها للاستقامة على المنهج دون التواء ، أو دونما تعلق برغبة الآخرين ، أو طلباً للكسب السريع ، أو مجاراة لأهل الأهواء ، فالآية تشير بوضوح إلى طلب استمرار الدعاة على الطريق دون غلو فى الدين ، أو زيادة فيه ، أو التساهل مع الظلمة أو غوغاء الجماهير ، أو الغلو فى التشدد ومخالفة السنن ، وأن ما يحصل من انحرافات فى المنهج ما هى إلا ما بين تفريط وإفراط ، إمّا محاولة لكسب مواقف ، أو دفعاً لبعض مشقات الطريق ، أو استعجالاً لمكاسب جزئية ، والأصل فى منهج الدعاة ، الاستقامة على ما يريده الله ، وهو المتكفل بالنصر أو الغلبة ، أو أن يكتب على عباده ما يشاء ، فليست النتائج من صنع البشر ، وليست الاستقامة ـ على هذا ـ مع ما قد تؤديه من مخالفة بالعمل السهل على الدعاة ، إذ لم يكن سهلاً حتى على المصطفى ﷺ فلقد أحس برهبة الاستقامة ، وشدة الثبات على الطريق ، ، كيف لا ، وهو يبين أن آية الاستقامة قد شيبته .

---

(١) رواه مسلم .

(.. فالاستقامة : الاعتدال والمضى على النهج دون انحراف ، وهو فى حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحرى الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التى تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً .. ومن ثم فهى شغل دائم فى كل حركة من حركات الحياة

وإنه لمما يستحق الانتباه هنا أن النهى الذى أعقب الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهياً عن القصور والتقصير ، إنما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة .. وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه فى الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهى إلى الغلو والمبالغة التى تحول هذا الدين من يسر إلى عسر .. والله يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير . وهى التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمساك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء ..) (١) .

ومن هنا لا ينبغى لصاحب الدعوة إلى هذا الدين ، أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة ، فى تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية ، ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم .

(١) في ظلال القرآن : جـ ٤ / ١٩٣١ .

قاعدة لابن القيم

ونختتم بقاعدة لابن القيم رحمه الله ، يحدث فيها السائرين إلى الله فى هذا المجال فيقول :

(.. السائر إلى الله والدار الآخرة ، بل كل سائر إلى مقصد لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية ، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها ويجتنب أسباب الهلاك ، ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل ، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشى فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها ، فلا يضل عنها فيكشف ل النور عن الأمرين أعلام الطريق ومعاطبها ، وبالقوة العملية يسي حقيقة بل السير هو حقيقة القوة العملية ، فإن السير هو عمل المساف وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها ، وأبصر المغا والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح وبقى عليه الشطر الآخر ، وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافراً فى الطريق قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة فكلما قطع مرحلة

- استعد لقطع الأخرى ، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، كلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعَدها قرب التلاقى ، وبرد العيش عند الوصول فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمة فهو يقول : يا نفس أبشرى فقد قرب المنزل ودنا التلاقى فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الأحبة فإن صبرت وواصلت السرى وصلت حميدة مسرورة جذلة ، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة ، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله لا تنقطعى فى المفازة ، فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين ،فإن استصعبت عليه ، فليذكرها ما أمامها من أحبابها ، وما لديهم من الإكرام والإنعام وما خلفها من أعدائها ، وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء ، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها ، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها ، وإن وقفت فى طريقها أدركها أعداؤها ، فإنهم وراءها فى الطلب ، ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أيها شاءت.

وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها ، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها ، ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره ، ولا يغتر

بكثرة المنقطعين ، فألم انقطاعه وبعاده ، واصل إليهم دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ، وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم ، بل هي من عوارض الطريق فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم ، فيا قرة عينه إذ ذاك ويا فرحته إذ يقول :﴿ يَا ليتْ قوْمي يَعْلَمُون ﴾ (١) .



(١) طريق الهجرتين : ٢٣١ .



(٢٩) واحة المسافر

لا بد للمسافر المُتْعَبِ ، وقلب الداعية المكدود ، والنفس التى هدّتها الوعثاء ، لا بد من واحة يستراح فيها من نصب الطريق ، وروضة يُحبَر فيها من عناء المسار ، ودوحة يُلاذ بها من لأواء العوائق ، وما هذه الروضة أو تلك الواحة ، إلا الرقائق التى تزكى القلب ، والمواعظ التى توازن الفكر ، والسكينة التى يلجأ إليها المؤمن ... ويُرْمَز لهذه المواعظ والرقائق بالواحة الإيمانية ، ذات الأشجار المورقة ، التى بها وعندها يستريح المسافر عندما يقطع بعض أشواط الطريق ، ونرجو ـ أيها القارئ ـ أن تتمتع معنا بالتجوال فى هذه الواحة .

أصالة الرمز وتأصيل التشبيه

وتشبيه الأفكار والمواعظ ، برمزية الأشجار الباسقة ، أو الحشائش المُعشبة ، ليس بغريب عن نصوص القرآن ، ولا على مجازات الحديث ، إذ فيهما الكثير والكثير من ذلك ، مما يدل على وحدانية الخالق ، وفردانية الصمد ، بتشابه الخلق ، ووحدة الحياة ، إذ إن له فى كل خلق آية ، تدل على أنه الواحد المتفرد ، فإن ما بين خلقه من ترابط يشهد للخالق بالتوحيد ، ويلهج صامتاً بالتسبيح .

ومن خلال مؤثرات الفطرة والوعى لا يزال الدعاة يستعملون مثل هذه التشبيهات بالشجر فى التعبير والتمثيل ، لشهودهم الربط الجامع ، واستيعابهم الإشارة لما بين معانى الإيمان وخصائص الشجر فى التكوين والخلق وفى المظهر والإنتاج ، وبحسبنا هنا أن نستمع من أحدهم وهو يسقى شجراته (العشر) فى واحة (الرقائق) ، مذكراً إيانا بهذه المعانى ، ومرخصاً لنا باستمرار الغرس ، واستلهام المزيد من حكمة الأشجار ، وعبرة الغراس فقال أخونا فى الله ، الراشد « .. فاخرج وتجول متأملاً : تجد أخلاق الإيمان قد مازجت الخضرة ، وأن لكل شجرة تعبيراً عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها ويقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها .

ومن ها هنا كانت سويعات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافل ، وسبيل إنابة ، ومما ينبيك عن صدق ظننا الحسن هذا بالأشجار أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة ، لكنها ليست قائمة ، بل اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فليس من شجر واقف إلا ويعظك بكلمة من الإيمان » [1] .

---

(١) الرقائق للراشد : ٩٥ .

تشابه وتباين

ولئن كان الشجر والبشر كلاهما من خلق الله ، يشهد خلقهما بوحدانيته ، فلا يقتصر التشبيه على تكوينهما فحسب ، بل ويمتد إلى صفات شتى ، فمن الشجر ما يعطى ومنها ما يأخذ دون عطاء ، ومنها ما هو للغذاء أو الدواء ومنها ما هو داء ، ومنها ما أصله ثابت وفرعه فى السماء ، ومنها ما يجتث من الأرض ما له من قرار ، ومنها ما يكون جُذيلاً محككاً ترتبط به النفوس ، ومنها ما لا يصلح إلا للزينة ، ومن الشجر ما يثبت عند العواصف ، ومنها ما تعصف به الريح فتعجفه مرة واحدة ، ... وفى كل منها للداعية تأمل ، وله منها استلهام ، ولقلبه فيها عبرة ، ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾ .

ولقد ضرب الله تعالى مثلاً من الأشجار سدرة المنتهى ، والتى نؤمن بها دون تأويل ولا تعطيل ، ولكن يؤخذ منها روعة التشبيه بالإيمان ، وما الله أعلم به من دلائل ملكوته ، وعجائب قدرته « .. وقال الماوَرْدِى فى معانى القرآن له : فإن قيل لم اختيرت السدرة لهذا الأمر دونَ غيرها من الشجر ؟ قيل : لأن السدرة تختص بثلاثة أوصاف : ظل مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذى يجمع قولاً وعملاً ونيّة ، فظلها من الإيمان بمنزلة

العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النيّة لكمونه ، ورائحتها منزلة القول لظهوره » [٢] .

التوحيد . غاية النظر

والناظر فى خلق الله تعالى لا يعوزه الاستدلال فى إيجاد التشابه بين المخلوقات ، بل وبين أجزائها من جذور وسيقان وورق ، وما ينتابه من شعور بإبداع الخلق ، وفضل الخالق ، وما ينبغى على المؤمن من شكر الله تعالى ، والإنكار على الجاحدين ، وما يتعلم من التشابه والمناظرة ما يعينه على أمور الدنيا .

فواعَجباً كيف يُعصى الإله

أم كيف يجحده الجاحدُ

ولله فى كل تحريكة

وتسكينة أبداً شاهدُ

وفى كل شىء له آيةٌ

تدل على أنه واحدُ

« فجدير بمن له مسحة من عقل أن يسافر بفكره فى هذه النعم

---

(١) تفسير القرطبي : ١٧ / ٩٧ .

والآلاء ، ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها ، ما هو ؟ ولأى شيء خلق ؟ ولماذا هيئ ؟ وأى أمر طلب منه على هذه النعم ؟ كما قال تعالى : ﴿ **فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة ، لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحمداً وشكراً وطاعة ، وشهود تقصيره ، بل تفريطه فى القليل مما يجب لله عليه ، ولله در القائل :

قد هيؤوك لأمرٍ لو فطنت له

فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل [(١)] .

شجرة الإيمان

وأول أشجار واحة المسافر وأعظمها، بل أُسُّها وقاعدتها شجرة الإيمان ، إذ لا يصح عمل بدونه ، ولا بد من وجودها فى كل واحة من واحات الإيمان ، وهى التى قال عنها تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أُكُلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ [(٢)] .

حيث مُثّلت الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، حتى قال كثير من

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١ / ٢٢٩ . (٢) إبراهيم : ٢٤ - ٢٥ .

السلف : إن الكلمة الطيبة هي (لا إله إلا الله) أساس التوحيد وقاعدته ، وقيل عن الشجرة : إنها النخلة باعتبار أن أصلها ثابت كما في حديث ابن عمر في الصحيحين ، ولا خلاف بين الحقيقة والمجاز ، بل هو تأكيد لوحدة الخلق ، ووحدانية الخالق ، ويجوز أن يكون المعنى « أصل الكلمة في قلب المؤمن ـ وهو الإيمان ـ شبهه بالنخلة في المنبت ، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالثمر .. ويجوز أن يكون المعنى : أصل النخلة ثابت في الأض ، أي عروقها تشرب من الأرض ، وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية نامية .. » (١) .

وكذلك المؤمن خلق من طينة الأرض ، وروحه متعلقة بهدى السماء ، ويُنتفَع بمصاحبته ، وبمجالسته وبمشاركته ، صلب عند ريح الشدائد ، لا ينعجف عند الأعاصير ، يرميه الناس بالحجر ، فيمنحهم الثمر ، الإيمان ثابت في قلبه وعمله وقوله ، وتسبيحه مرتفع عال في السماء، يكسب من بركة الإيمان وثوابه في كل الأحيان كما يُنال من ثمرة النخلة في كل الأوقات ، ولقد أطال بعض العلماء في محاولة إيجاد الشبه بين الإنسان والنخلة ، ولا تكاد تخلو التشبيهات من تكلف أحياناً ، ومن صحة في معظم الأحيان ، ونكتفي بإحالة القارئ إلى ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابيه (

(١) تفسير القرطبي : ٩ / ٣٥٩ .

إعلام الموقعين) ، وكتاب (مفتاح دار السعادة) .

شجرة العلم

والعلم قبل العمل ، وهو أول مدارج السالكين بعد استقرار الإيمان فكان استناد الداعية المسافر إلى شجرة العلم من أهم المنازل ، للتزود بطاقة العمل الصائب ، والعلم ضروري في أول طريق المسافر ، وأثناء السفر والانقطاع ، وفي كل مرحلة من مراحل السير ، وعلم الله لا ينفد ، وكلما استزاد الداعية منه كلما سهل عليه الطريق ، وتوضحت له المسالك ، وسهل له التخلص من العلائق ، وتيسر له تجاوز العوائق ، والعلم لا ينفد لأنه من كلمات الله تعالى : ﴿ **ولو أنما ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ (١) . شجرة العلم تتميز عن غيرها بثمرتها وثمرة العلم في تشبيهات الكثير من العلماء هو العمل ، فما أحوج المسافر في قطارنا إلى الأخذ بالعلم ، ثم العمل بعلمه ، وحث النفس على الائتمار بما أمر به ، وأن يكون ممن يستمع القول ويعمل به ، وأن لا يقول ما لا يفعل ، فإن إصرار النفس يغريها ، وقد يحسن لها مساويها ، فإن من قال ما لا يفعل فقد مكر ، ومن أمر بما لا يأتمر به فقد خدع ، فما

---

(١) لقمان : ٢٧ .

أحلى شجرة العلم من شجرة ، وما أنفعها فى العمل العاجل ، وما أحلى ثمرتها فى الثواب الآجل .

والشجرة الثالثة

وشجرة العلم ثمرتها العمل ، والعمل من مقتضيات الإيمان ، ولكن ليس على الداعية ضمان الثمر ، أو انتظار النتائج ، فإن الله تعالى تكفل عنه بذلك ، وتنحصر مهمة الداعية فى بذر الخير ، وغرس المعروف ، وقد ينفع الله الخلائق بكلمته ، أو يهدى الله أهل الضلال بمعروفه ، ورب كلمة تدخل صاحبها الجنة ، فكان غرس الداعية (شجرة العمل) أمراً مطلوباً ، يبينه حديث المصطفى ﷺ فى مسند الإمام أحمد (إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها) (١) .

فلتنظر ـ أيها الداعية ـ كيف يأمل المصطفى ﷺ بغرس فسيلة قد لا ينتفع منها أحد ، ومع أهوال يوم القيامة ، ليركز معنى الحرص على الغراس دون النظر إلى النتيجة ، وربما يموت المرء ويكتب له الأجر على كلماته وأعماله ، وليس هناك أكثر فضلاً من دعوة الخلق إلى الخير ، حيث يكتب للداعية أجر الآخرين دون أن ينقص من أجورهم شيئاً .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣ / ١٩١ .

وشجرة للذوق والجمال

ولعل من معانى غرس الفسيلة أيضاً معنى التذوق والجمال ، الذى ينبغى أن لا ينفك عنه الداعية ، حتى ولو لم يكن لمكسب أو إنتاج واضح ، وإن كان للذوق الرفيع وجمال الكون مظهر من مظاهر التسبيح للخالق ، والنظر فى ملكوت الله عز وجل ، مما منّ الله به علينا ، ونبهنا على شجرة الذوق والجمال ، بذكره للحدائق ذات البهجة ، فقال عز من قائل : ﴿ .. **وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلهٌ مع الله بل هم قوم يَعْدِلون** ﴾ (١) .

« إنه تعالى يبين أنه الذى اختص بأن خلق السموات والأرض .. وذكر أعظم النعم وهى الحدائق ذات البهجة ، ونبه تعالى على أن هذا الإنبات فى الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى .. وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن يُخَصَّ بالعبادة .. » (٢) .

ومن أجل هذا منع الإسلام قطع الأشجار دون منفعة ودعا إلى التمتع بملكوت الله عز وجل ، واستلهام العبرة منه .

---

(١) النمل : ٦٠ .

(٢) تفسير الرازي : ٢٤ / ٢٠٦ .

شجرة لا شرقية ولا غربية

وبعد العمل المرتبط بالإيمان لا بد من التذكير الدائم ، بأن كل قول وعمل لا يقبل ما لم يُرَدْ به وجه الله عز وجل ، فكان لا بد من الإخلاص قبل العمل وأثناءه وبعده كي لا يصيبه النقص ، أو يعتريه الإحباط ، فكان للداعية من التمسك بشجرة الإخلاص فهي أساس الإيمان ، وهي بريد العمل الصالح للقبول ، وما شجرة الإخلاص إلا دواء القلب الناجع ، وسر الصفاء المضيء ، وكلما كان إخلاص الداعية لله كبيراً ، كلما ازداد إشعاع الإيمان منه وانتشر ، وبلغت كلماته القلوب ، واخترقت مواعظه النفوس ، وأحيت عباراته الهالكين ، وأيقظت حماسته الغافلين ، ولقد ضرب الله تعالى لنفسه مثلاً من المشكاة والمصباح فقال عن نوره : ﴿ .. **يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية * يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم** ﴾ (١) .

ووصف الله تعالى زيتها بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، لأن الزيت إذا كان خالصاً صافياً ثم رؤى من بعيد يرى كأن له شعاعاً ،فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء ، كذلك يكاد قلب

---

(١) النور : ٣٥ .

المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد نوراً على نور ، وهدى على هدى ، قال يحيى بن سلام : « قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له ، لموافقته له » ، وهو المراد من قوله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله .. » (١) .

لذا فإن هذه الشجرة المباركة تعطى الإشارة عن مفهوم الإخلاص ، وعن الفراسة والإلهام ، كما أنها توحى بوسطية هذا الدين بين الغالى فيه والمتجافى عنه ، وعن وسطية هذه الأمة بين الأمم كما قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ..** ﴾ (٢) .

شجرة الدعوة

وشجرة سادسة اختص بها المسافر فى قطار الدعوة ، ألا وهى شجرة الدعوة ، كأحد أشجار العمل المثمرة ، وهى أساس تميزه عن غيره من ركب المؤمنين ، ومثلها رسول الله ﷺ بشجرة الأترج (ويقاس عليها نظائرها كأشجار البرتقال) ، حيث شبه الداعية القارئ للقرآن العامل به ، فقال ـ كما فى الصحيحين ـ « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُنْجَة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا

---

(١) تفسير الرازي : ٢٣ / ٢٣٧ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ، ولا طعم لها ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، طعمها مرّ ، ولا ريح لها » (١) .

« قال الطيبى : اعلم أن هذا التشبيه والتمثيل فى الحقيقة وصف لموصوف اشتمل على معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس بالمشاهدة ، ثم إن كلام من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير وهو المؤمن القارئ ، ومنهم من لا نصيب له ألبته ، وهو المنافق الحقيقى ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه وهو المرائى أو العكس ، وهو المؤمن الذى لم يقرأه ، وإبراز هذه المعانى وتصويرها فى المحسوسات ما هو مذكور فى الحديث ، ولم نجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ، ولا أحسن ، ولا أجمع من ذلك ، لأن المشبهات والمشبه بها واردة على التقسيم الحاصر .. فعلى هذا قس الأثمار المُشبَّه بها » (٢) .

فالداعية ـ قارئ القرآن ـ لا يقتصر نفعه على نفسه فحسب ، بل ويتعدى نفعه إلى جميع الخلق ، فيكون كالثمر اللذيذ الطعم بذاته وتتعدى رائحته الطيبة إلى الآخرين .

---

(١) فتح الباري : ٩ / ٦٦ .

(٢) هامش شرح السنة للبغوي : ٤٣١ - ٤٣٢ .

شجرة الأخوة

ولا تتم متطلبات الدعوة والعمل لها إلا بالأخوة التى تدعم روابط الجماعة المؤمنة ، حيث رابطة العقيدة والإيمان ، ورابطة الفكرة والالتزام ، ورابطة العقد والانتظام ، وتتفرع عن شجرة الأخوة طائفة من الخصائص ويكتفى هنا باثنتين منها ، إذ يمكن استعمال رمزية الشجر حولهما ، كما ذكرها القرآن الكريم .

أولها : التطوير والنمو فهى صفة لركب المؤمنين ، كما ورد فى حديث هرقل المشهور أنهم يزيدون ولا ينقصون ، وكذلك وصفهم الله تعالى فى سورة الفتح .

﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ [1] .

(أى وصفوا فى الكتابين به ، ومثلوا بذلك لأنه أول ما يخرج يكون ضعيفاً ، وله نمو إلى حد الكمال ، فكذلك المؤمنون) [2] .

---

(١) الفتح : ٢٩ .   (٢) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٠٨ .

فلا ييأس الداعيـة من ضعف الجماعة المؤمنة ، ولا ييئس من قلة المعين والنـصير ، فهذه هي سنة الدعوات ، تماماً كما هي سنة الزروع ، كما أخبر بذلك الكتاب العزيز .

وثانيهما : الستر على زلات الإخوان ، إذ ستّرَ الله تعالى على نبيّه يونس عليه السلام بعد تعرضه للبلاء الشديد بشجرة اليقطين ، فكانت رمزاً للمؤمنين على ما يسترهم الله تعالى به ، وعلى ما يجب على المؤمنين من ستر بعضهم لبعض ، حيث قال تعالى : ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ « قال المبرد والزجاج : كل شجر لا يقوم على ساق ، وإنما يمتد على الأرض فهو يقطين .. وروى الفراء أنه قيل عند ابن عباس : هو ورق القرع ، فقال : ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً ؟ كل ورقة اتسعت وسترت فهو يقطين » (١) .

ولا معنى لأخوة الدعاة دون الأخذ بمبدأ الكف عن الأعراض والنقد والملاحاة « فلأن عدمه ملاذ السفهاء ، وانتقال أهل الغوغاء ، وهو مستسهل الكُلَف ، وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف ، وزاجر صاد تلبطّ بمعاره ، وتخبط بمضادّه ، وظن أنه لتجافي الناس عنه حمى يُتَّقى ورتبة تُرتقى ، فهلك و أهلك » (٢) .

---

(١) المرجع السابق : ٢٦ / ١٦٦ .   (٢) أدب الدنيا والدين للماوردي : ٣١١ .

شجرة الجهاد

أما الشجرة الثامنة فهى « شجرة الجهاد » سنام الإسلام ، وذروة الدعوة فيه ، يركن إليها المسافر بعد استكمال العدة بقوة اليقين بالإيمان الراسخ ، وقوة الإعداد بالأخوة والنظام ، وقوة التمكين بالأيدى والأبصار ، ويقتضى الاستناد بهذه الشجرة البذل للنفس والمال والوقت ، فدعوة السماء لا ترتضى « بدون مثل هذا البذل ، ومنزلة الصديقين والشهداء لا يدركها إلا من استفرغ الجهد ، وتخلصت نفسه من ضغوط نفسه ، فلقد حفت الجنة بالمكاره ، وعن هذا يخبرنا رب العزة بقوله تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ..** ﴾ (١) ، « لما قص الله سبحانه ما فيه من البراهين حث على الجهاد ، واعلم أن من جاهد بعد هذا البرهان الذى لا يأتى به إلا نبى ، فله فى جهاده الثواب العظيم .. وطريق آخر : مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع فى الأرض حبة ، فأنبتت الحبة سبع سنابل ، يعنى أخرجت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، فشبه المتصدق بالزارع ، وشبه الصدقة بالنهر ، فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة ، ثم قال تعالى ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء** ﴾ يعنى على سبعمائة ، فيكون مثل

---

(١) البقرة : ٤٤ .

المتصدق مثل الزارع ، إن كان حاذقاً فى عمله ، ويكون البذر جيداً وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر فكذلك المتصدق إذا كان صالحاً ، والمال طيباً ، ويضعه موضعه فيصير الثواب أكثر » (١)

والتشبيه بالسنابل لا يوحى بمعنى الجهاد والتضحية فحسب ، بل وبه معنى النماء والتطوير ، حيث النماء بالأجر والثواب ، كما أن هذا النماء وهو من فضل الله تعالى على عباده ، ويتضاعف بالنية ، إلا أنه يتضاعف بالأثر الحسن ، فتقريب فرد إلى قطار الدعوة ، أو إصلاح فاسق ، يقود بذاته إلى المزيد من الخير ، ورب كلمة ينتفع بها خلق كثير ، فيكتب الأجر لصاحبها ، بل ورب معروف يكتب لصاحبه الأجر إلى قيام الساعة ، والله ذو الفضل العظيم .

شجرة الابتلاء

وشجرة الجهاد والسعى إليها محفوف بالابتلاء ، والابتلاء الشجرة التاسعة ، وهو طريق الدعوات ، وفيه يمحص الله المصلح من المفسد ، وفيه تختبر النفوس ، وشجرة الابتلاء صنوان لقوله تعالى : ﴿ **ويبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ .

فالصنو الأول منها ، الابتلاء بالسراء وهو ما ابتلى به أبو البشر آدم عليه السلام ، فنزل مزوداً برصيد التجربة الأولى ، وظلت فى

(١) تفسير القرطبي : ٣ / ٣٠٣ .

عقبه ، حيث امتحنه الله تعالى وقال له : ﴿ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ (١) .

ولقد اختلف الناس كثيراً في نوع الشجرة ، وزادت الإسرائيليات هذا الاختلاف بما لا يعضده دليل ، والعبرة هي معصية آدم لأكله منها ، وتعرضه لفتنة الابتلاء « قال ابن عطية : وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبر ، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة ، فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها ، وقال القشيرى أبو نصر : وكان الإمام والدى يرحمه الله يقول : يعلم على الجملة أنها شجرة المحنة » (٢) .

وصنو الشجرة الآخر ، الابتلاء بالضراء وما ينبغى على المؤمن من الصبر عليه فلقد ورد في الصحيحين التشبيه بخامة الزرع نقتبس منها نصين وردا في البخارى (١٠ / ١٠٣) حيث قوله ﷺ : « مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيؤها الريح مرة وتعدلها مرة ، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة »

« مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع ، من حيث أتتها الريح

---

(١) البقرة : ٣٥ .   (٢) القرطبي : ١ / ٣٠٥ .

كفأتها ، فإذا اعتدلت تكاد بالبلاء ، والفاجر كالأرزة صماء معتدلة ، حتى يقصمها الله إذا شاء »

« قال المهلب : معنى الحديث أن المؤمن حيث جاءه أمر الله انطاع له ، فإن وقع له خيرٌ فرح به وشكر ، وإن وقع له مكروه صبر ، ورجا فيه الخير والأجر ، فإن اندفع عنه اعتدل شاكراً ، والكافر لا يتفقده الله باختباره ، بل يحصل التيسير فى الدنيا ليتعسر عليه الحال في المعاد ، حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه فيكون موته أشد عذاباً عليه وأكثر ألماً فى خروج نفسه .. » (١) .

فإذا ما فاز المؤمن بالنجاة من الفتنتين كان فى ركب الفائزين يوم القيامة برحمة من الله تعالى ومغفرة .

والزهد .. آخر الواحة

وقبل مغادرة الواحة لا بد من التعرف على الشجرة العاشرة وهى شجرة الزهد ، إذ يتمكن الداعية من الأخذ بالعلم ، والقيام بالعمل وممارسة الجهاد ، وتجاوز الفتن بالزهد فى الدنيا ، والابتعاد عن ملذاتها ، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف « عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ نام على حصير فقام وقد أثر ذلك فى جسده ، فقال له ابن مسعود : يا رسول الله لو أمرت أن نبسط لك ونعمل ،

---

(١) فتح الباري : ١٠ / ١٠٧ .

فقال ما لى وللدنيا ، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها .. » (١) .

فما أحوج الداعية إلى الركون إلى شجرة الزهد ، حتى يتمكن من متابعة السير ..



(١) حديث صحيح رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد وابن حبان .



(٣٠) استلهام المعرفة

أخي المسافر : لقد طال بنا العهد ، وانقطع بنا اللقاء وما ذلك إلا بسبب فتن ظلماء وعقبات كأداء ، وما كان ينبغي لنا الانقطاع ، فقافلة الحياة تسير ، وسنة الله تعالى ماضية ، فأستأنف معك الرحلة في حلقة أخيرة ، ننهي بها المرحلة الأولى ، لعلنا ندخل وإياك في مرحلة جديدة ، تقربنا إلى الله عز وجل ، وتوصلنا إلى الهدف المرتجى .

من كل ألف واحد

وبعد الاقتراب من نهاية الرحلة في قطار الدعوة ، لا بد من التذكير بضرورة علو الهمة ، كيف لا وقد اقتربت الأهداف ، وتميزت السبل ، فلا بد إذن من التهيؤ للعمل ، والاستعداد للأهبة ، إذ كلما ازداد التعب والنصب كلما قل عدد السالكين ، وكلما بعد السفر وكثرت المفاوز كلما انخفضت همم السائرين ، ولكن القلة الصابرة ، والمجموعة المبايعة هي التي تظل سائدة على الحق مهما ازدحم ظلام الطريق ، وتثبت على الاستمرار مهما اشتدت لأواء السبيل ، وفي هذا يتحدث ابن القيم رحمه

الله لهذه القلة ، مفترضاً النسبة فيها الواحد من الألف من هؤلاء الذين يتساقطون فى الطريق ، أو يتقاعسون عن المسير فيقول : « ونهض من كل ألف واحد وقالوا : والله ما مقامنا هذا فى ظل زائل تحت شجرة قد دنا قلعها ، وانقطاع ثمرها ، وموت أطيارها ، ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذى لا يزول ، والعيش الهنىء الذى لا ينقطع ، إلا من أعجز ، وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذه وطناً خشية التأذى بالحر والبرد ، وهل هذا إلا أسفه السفه ، فالسباق السباق والبدار البدار .

حكم المنيةِ فى البرية جارى

ما هذه الدنيا بدار قرار

اقضوا مآربكم سراعاً إنما

أعماركم سَفَر من الأسفار

وتراكضوا خيل السباق وبادروا

أن تسترد فإنهن عوارى

ودعوا الإقامة تحت ظل زائل

أنتم على سـفر بهذى الدار

من يرج طيب العيـش فيها إنما

يبنى الرجـاء على شفير هار

والعيش كل العيش بعد فراقـها

فى دار أهل السـبق أكرم دار (١) .

همة واقتحام

فانظر ـ أخى الداعية ـ كيف استعمل ابن القيم مـجازات السـفـر ، والتى مـا انفكت تتكرر علينا عـبر الأجيال ، لتأكـد المعـانى الحقـيقية لسـير الدعـاة ، وتثبـت القواعد الأسـاسية فى مـسيرة الدعـوة ، ثم يؤكـد على القـلة الثـابتـة ضـرورة عدم استيحـاش الطريق ، وتجـاوز أسبـاب الفتـور ، والسـمو إلى أعالى الهمم ، فيقول :

(فاقـتحـموا حلقـة السبـاق ، ولم يستـوحشوا من قلـة الرفاق، وسـاروا فى ظهـور العزائـم ، ولم تأخذهم فـى سيرهم لومة لائم ، والمتخلف فى ظل الشـجرة نائم ، فوالله ما كـان إلا قليل حتى ذوت أغصـان تلك الشجرة ، وتسـاقطت أوراقها وانقطع ثمـرها ، فى حر

---

(١) عدة الصابرين : ٢٤٢ .

السموم يتقلبون ، وعلى ما فاتهم من العيش فى ظلها يتحسرون أحرقها قيمها فصارت هى وما حولها ناراً تلظى ، وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد منهم الخروج منها ، فقالوا : أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ؟ ثم راحوا وتركوه ، فقيل لهم : ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم ، فرأوهم من البعد فى قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليه الحسرات ، ألا يكونوا معهم وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون ، وقيل : هذا جزاء المتخلفين ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ... ﴾[(١)])[(٢)] .

علوم الرواد

ولما كان الحديث فى هذه الحلقة للمجموعة المنتقاة ، الجماعة المختارة ، فسوف يكون الحديث هنا عن وسائل الدعوة التخطيطية فى استلهام المعرفة الإنسانية ، ليكون من هؤلاء الدعاة بناة الحضارة وصناع الحياة ، فلا بد لكل منهم بعد أن حلق فى خلوص العمل ، وبنى أساسه على صواب العلم من معرفة الأمور بهمة تتراوح ما بين معرفة الواقع وإدراك الجاهلية ، وحتى السياحة والوعى الحضارى مروراً باستلهام المعارف والتاريخ .

---

(١) النحل : ١١٨ .   (٢) عدة الصابرين : ٢٤٣ .

لقد أدرك العلماء قديماً أهمية المعارف لتشابك العلاقات في الحياة ، ولكن أشكل عليهم الحد المناسب منها ، أو أهملوا وضع الضوابط لها ، فبالغ البعض في وصفها وجعلها بمرتبة فروض الأعيان أو الكفاية ، كما رفضها البعض الآخر على اعتبار أنها ليست من أسس الدين ، والصواب أنها ليست من الواجب المحتم العام على كل أحد ، وفي كل وقت كما أنها ليست محرمة ومكروهة وإنما تأخذ حكمها من الوجوب أو الاستحباب في بعض الأزمان ، وعلى بعض الأشخاص ، بقدر خدمة تلك المعارف ، أو المدارات لأهداف العقيدة ، ومصالح الدين ، ومقاصد الشريعة .

(وبالجملة ، فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شيء منها كان ذلك واجباً وجوب الوسائل ، ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان ، فليس لذلك حد مقدر ، وإنما ضوابطها المصلحة ، وفق الظروف والأحوال والعوائد دون تمحك وتعصب أو تعنت وتكلف) (١) .

معرفة الجاهلية

وأول هذه المعارف مما ينبغي لرواد الدعوة معرفته هو فهم

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٥٩ .

الجاهلية وأبعادها ووسائلها ، وقد يبدو للبعض أن معرفة الإسلام وحدها تكفي ، بينما شعار التوحيد ذاته نفى وإثبات ، حيث إثبات الألوهية لرب العزة وحده ، ونفيها عن غيره ، وبمقتضى ذلك فكل تصديق بأركان الإيمان يقابلها رفض للجاهلية ، ولا يتم رسوخ الإيمان فى القلب حتى تخرج الجاهلية منه ، لذا فإن من تمام الإيمان ومقتضى اليقين معرفة الجاهلية وأبعادها ، وفهم طرق الضلالة ووسائلها ، وفى هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه موضحاً هذه الحقيقة :

إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية ، (ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه ، وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهاداً لأعدائه وتكلماً بإعلامه وتحذيراً من خلافه ، لكمال علمهم بضده فجاءهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه ، فازدادوا له معرفة وحباً ، وفيه جهاداً بمعرفتهم بضده ، وذلك بمنزلة من كان فى حصر شديد ، وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة ، فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة ، وأمن وعافية ، وغنى وبهجة وسرور ، لأنه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه ، وليس حال هذا كمن ولد فى الأمن والعافية ، والغنى

والسرور ، فإنه لم يشعر بغيره ، وربما قيضت له أسباب تخرجه عن ذلك إلى ضده وهو لا يشعر وربما ظن أن كثيراً من أسباب الهلاك والعطب تفضي به إلي السلامة والأمن والعافية ، فيكون هلاكه على يدى نفسه وهو لا يشعر ، وما أكثر هذا الضرب من الناس ، فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين وعرف أسباب الهلاك على التفصيل ، كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم وفى مثل هذا قال القائل :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطناً حاذقاً أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه ، فإذا تكلم فى الشر وأسبابه ظننته من شر الناس ، فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبر الناس ، والمقصود أن من بلى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها ، وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه) (١) .

فالداعية إذن بمعرفته للجاهلية ، يكن من أحرص الناس على الابتعاد عنها ، وأشد الناس إخلاصاً فى النجاة منها ، بل والتخطيط للتخلص من مكرها .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٢٩٥ .

استلهام التاريخ

ومن هذه العلوم علم التاريخ ، وما يتضمنه من معرفة نشوء الدول وسقوطها ، أو نشأة المدنيات وتطورها ، وسنن الله تعالى فى الخلق والدول ، وهو كبقية العلوم أسرف أناس بمدحه كما أسرف الآخرون بذمه ، والإنصاف يقتضى العدل فى الأحكام ، واعتباره من الوسائل التى تتجاذبها الأحكام الخمسة ، وكل معرفة تاريخية تأخذ حكمها من حكم الهدف الذى يهدف إليه المتعلم ، والغاية التى يرجوها منها المتفقه .

ولقد صنف فى فوائده جمهرة من العلماء ، ولعل من أحسنها ما ذكره السخاوى فى (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) حيث أنحى باللائمة على من ذم التاريخ ، وبين حكم أقسامه فى فروع الشريعة ، وأشار إلى ما نحن بصدده من فوائده ، حيث قال : (وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم ، وأسباب مبادئ الدول وإقبالها ، ثم سبب انقراضها ، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء ، وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر مثلها ، وأشباهها أبداً فى العالم ، غزير النفع ، كثير الفائدة ، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها ، وباشر تلك الأحوال بنفسه ، فيغزر عقله ، ويصير مجرباً غير غر ولا غمر ،

وما أحسن قول بعض السادة ، العقل عقلان : مطبوع ومسموع ، ولا ينفع مسموع ما لم يكن ثَم مطبوع .. » (١) .

ويمكن ذكر جملة من فوائد التاريخ لراكبى قطار الدعوة ، فمنها : قصص الأنبياء والمرسلين ، وسنة الله فى الصراع بين الإيمان والجاهلية ، وما يصيب الدعاة من المحن والبلاء ، وعاقبة الصبر على الطريق ، ومنها قصص التأسى بالصالحين ، والاستفادة من أعمالهم وأقوالهم ، ومنها : قصص التأديب والتهذيب ، وما يتعلق بمسيرة الدعاة التربوية حيث معرفة سيرة المفرط تفيد الخوف من التفريط ، فيشحذ الداعية صوارم العقول ، ويشحذ الهمة للتنزه فى صحاح المنقول ، ومنها : الإطلاع على عجائب الأمور ، وتقلبات الزمن وتصاريف القدر ، ولقد قيل فى التاريخ الكثير ، فمنها ما قاله المسعودى مثلاً : (إنه علم يستمتع به العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ، فكل غريبة منه تعرف ، وكل أعجوبة منه تستظرف ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس ، وآداب سياسة الملوك وغيرها منه تلتمس ، يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والبادى والحاضر ، والموجود والغابر ، وعليه مدار كثير من الأحكام ، وبه يتزين فى كل محفل ومقام .. » (٢) .

(١) الإعلان بالتوبيخ : ١٣١ .
(٢) مروج الذهب : ١ / ٤ طبعة القاهرة .

فنون الأقيسة المستقيمة

ومن المعارف البشرية مما لا بد للداعية من الأخذ منها بسهم ، والاستفادة منها بنصيب ، تلك العلوم الطبيعية الصحيحة ، والمبنية علي المشاهدة والتجربة ، كعلوم الفلك والفيزياء ،والرياضيات أو الكيمياء ، وما يتعلق بالبيئة والأحياء ، وشيء من قواعد الطب وأحوال البيئة ، إذ إنها ـ وإن كانت ظنية ـ إلا أنها علوم صحيحة ، لا تخالف صحيح المنقول ، ولا تعارض صريح المعقول « ففي الإدمان علي معرفة ذلك ، تعتاد النفس العلم الصحيح والقضايا الصحيحة الصادقة ، والقياس المستقيم فيكون في ذلك تصحيح الذهن والإدراك ، وتعود النفس أنها تعلم الحق وتقوله لتستعين بذلك علي المعرفة التي هي فوق ذلك .. وكذلك كثير من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بطالتهم بعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة ، ونحو ذلك ، لأن فيه تفريحاً للنفس ، وهو علم صحيح لا يدخل فيه غلط .. » (١) .

وليس المقصود الإكثار منها ، أو الولوج فيها ، إلا لمن كانت أسلوباً لمعاشه ، أو ممن يقوم عن الأمة بفرض الكفاية فيها ، وإنما المطلوب منها ما عمت فائدته ، وسهل تناوله ، ووضحت مسائله ،

---

(١) الفتاوي : ٩ / ١٢٨ .

وتساوقت مناهجه ، إذ فيها إدراك لفهم الحياة ، ووسيلة لسير العلائق ، فتكسب الداعية عقلاً تحليلياً ، ومنهجاً استنباطياً ، يساعد علي استعمالها في توسيع العقول والأذهان ، وفي كسب القلوب والمشاعر ، ويعين في أمور التخطيط والتربية ، ولقد أدرك هذا المعني فقيه اليمن الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ فأضافها كأحد فنون الطبقة الأولي في المجتهدين ، فقال : « ثم لا بأس علي من رسخ قدمه في العلوم الشرعية أن يأخذ بطرف من فنون هي من أعظم ما يصقل الأفكار ويصفي القرائح ويزيد القلب سروراً والنفس انشراحاً ، كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب ، وبالجملة فالعلم لكل فن خير من الجهل به بكثير ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة ، ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات ، فإنها كما قدمنا لك شعبة من التقليد وأنت بعد العلم بأي علم من العلوم حاكم عليه بما قد لديك من العلم غير محكوم عليك واختر لنفسك ما يحلو ، وليس يخشي علي من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء ، وإنما يخشي علي من كان غير ثابت القدم في علوم الكتاب والسنة ، فإنه ربما يتزلزل وتحول ثقته ، فإذا قدمت العلم بما قدمنا لك من العلوم الشرعية فاشتغل بما شئت ، واستكثر من الفنون ما أردت ، وتبحر في الدقائق ما استطعت ، وجاوب من خالفك وعذلك وشنع عليك بقول القائل :

أتانا أن سـهلاً ذم جـهلاً

عـلوماً ليس يعرفهن سهل

علوماً لو دراهـا ما قلاهـا

ولكن الرضا بالجهـل سـهل) [١] .

فتتبع أثر الفقهـاء في الأمة ، وتجارب الأمم والدول ، وتوعظ بضرورة مثل هذه الثقافة الشمولية .

سفر العبرة

وتضاف فوق هذه العلوم مجموعة من المعارف لا يسع المجال هنا للاستطالة فيها ، كتعلم فنون السياسة وتحليلها ، وبعض العلوم العسكرية وفروعها ، (مما سبقت الإشارة إليه في الفصل الثامن والعشرين) ، فوق تنمية المدارك ، ومثلها كإدراك الحوار مع الأقران والعلماء ، وملاقاة القادة والحكماء ، والتفكر في مجريات الأمور ، والتأمل في أسباب الحوادث ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ... ﴾ [٢] ، ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين** .. ﴾ [٣] .

إن السير في الأرض يتضمن السياحة الدعوية ذات المقاصد

---

(١) أدب الطلب للشوكاني : ١٢٣ .

(٢) الأنعام : ١١ .

(٣) النمل : ٦٩ .

الحسنة ، رغم ما تركه مصطلح (السياحة) عند بعض الفقهاء من إيماء بالمقاصد السيئة ،مثل ترك التوكل علي التزود، أو هجرة الأهل والأولاد ، أو الانقطاع عن الأعمال الصالحة دون سبب ، بينما السياحة الدعوية بذاتها دعوة إلي التفكر في خلق الله ، وطريق إلي التفقه المتكامل ، لفهم الكثيرمن الدقائق ، والاعتبار بالكثير من الحقائق ، كما قال تعالي : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين** ﴾ (١) .

وفي هذا يقول الرازي :

« .. أفتدل الآية علي وجوب الخروج للتفقه في كل زمان ؟

قلنا : متي عجز علي التفقه إلا بالسفر وجب عليه السفر .. فإذا أمكنه تحصيل العلم في الوطن لم يكن السفر واجباً ، إلا أنه لما كان لفظ الآية دليلاً علي السفر لا جزم رأيت أن العلم المبارك المنتفع به لا يحصل إلا في السفر » (٢) .

أما الإمام القرطبي فقد سمي السياحة الدعوية بسفر العبرة / فقال : (سفر العبرة .. ويقال : إن ذا القرنين إنما طاف الأرض ليري عجائبها ..) (٣) .

---

(١) التوبة : ١٢٢ .
(٢) تفسير الرازي : ١٦ / ٢٢٦ .
(٣) تفسير القرطبي : ٥ / ٣٥١ .

الوعي الحضاري

إن هذه العلوم والفنون تقود إلي درجة الوعي الحضاري ، والذي هو من مقاصد الشريعة ، إذ إن بواسطته يمكن للداعية ما يلي :

معرفة ما عند الآخرين من علم ومعرفة ، وأنظمة ومعارف ، تكون بمثابة الوسائل لخدمة هذا الدين ، تطبيقاً لقاعدة (الحكمة ضالة المؤمن) .

معرفة الأسباب والعوامل المؤدية إلي سقوط المدنيات أو نشوئها ، وتحقق سنن الله تعالي في ارتباط السقوط بالمعاصي ، وصعود الأمم بالطاعات .

معرفة التجارب الحربية ، والصراعات السياسية ، الجاهلية منها والدينية ، وكيف تؤدي الجمعيات والمؤسسات العالمية أهدافها وتنفذ رسالتها .

معرفة التطبيقات العملية للمفاهيم التربوية ، وطرق معالجة القضايا السلوكية ، بالتوسع في رؤية وسائل التعليم ومتاحف العلوم

معرفة نقاط الضعف والقوة ، وعوامل البناء والتخريب في المجتمعات المختلفة ، ومعرفة مدي تأثير العوامل المختلفة في ذلك .

كل هـذا ينمي قـدرة الداعـية علي التـفكـيـر وعلى القـيـاس المستقيم ، وربط المسببات بأسبابها ، والعلل بمقدماتها ، ويفهم علي ظروف الواقع الظواهر وتحليـلاتهـا ، فـتنمـو عنـده ملكة الإدارة ، والمقدرة علي التحليل والاستنباط ، والتخلص من سـذاجة التفكير ، أو مـن سطحـيـة الاسـتنـتاج ، وعـدم الجنوح تحت تأثيـر سلبيـات العاطفة ، أو الإغـراق في مثاليات التأمل ، مما يجـعل العمل في رحلة المسافر أكثر صواباً ، وأشد قرباً إلي تحقيق الغايات .

المعرفة الشمولية .. لماذا ؟

إن مـعرفـة هذه العلوم الـنظرية للفنون الميـدانيـة ، ثم تشذيـبهـا بالحـوار والمناقشـة ، وتطويرها بالتـأمل والتـفكر والسيـاحـة ، بعـد تصـويبهـا بقواعــد الشـريعة ومـبادئ العـقيـدة ، لمن وسائل الـدعوة المهمـة ، يجب علي الداعية الأخـذ بها ، بمقـدار ما ترتبط بالأهداف المتعلقـة بها ، فهي تأخذ حكمـها من حكم غاياتها ، وفـوق الأهمية التي سـوف تتـركـها علي الـنفس والسلوك وعلي العـقل والإدراك ، فهي ـ في نفس الوقت ـ طريق لوسائل أخري لا بد منها في مناهج التـحليل والاسـتقـراء ، وطرق الاسـتنبـاط والاستـخـراج ، إذ فـيهـا وبواسطتـها يمكـن الترجـيح بين المصـالح المرسلة المختـلفة ، واخـتيـار الأفضل منهـا ، وبواسطة تكامل هذه العلوم وشمول المعـرفة ، يمكن

استعمال الواقع في استقراء الغايات فتفتح أبواب المصالح ، وتسد الذرائع الموصلة إلي المفاسد ، والمقصود طبعاً في كل ذلك مما لم يرد فيه نص ولا يعرف بالشرع ، بل هو مما يدرك بالعقل والتجارب ، أو هو من الوسائل المناظرة لمصالح الدنيا وكتاب سلطان العلماء العز بن عبد السلام كله في هذا الباب ، وفيه يقول : « أما مصالح الدارين وأسبابها فلا تعرف إلا بالشرع ، فإن خفي منها شيء طلب من أدلة الشرع ، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح ، وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات ، فإن خفي شيء من ذلك ، طلب أدلته » (1) .

وما العلم الشمولي إلا من أدوات التجارب ، ووسائل طلب الدولة ، وممهدات التمكين .

تحقيق المناط

ومما يحتم معرفة الفنون المختلفة ، تمكن الداعية من إنزال الأحكام الشرعية علي الوقائع ، ومعرفة تطبيق النصوص علي النوازل ، وهذا الفن أسماه علماء الأصول (تحقيق المناط) ، إذ به يتعرف المكلف علي مداخل الشيطان وحظوظ النفس ، والداعية

---

(1) قواعد الأحكام : ١ / ٨ .

ـ كأي مسلم ـ لا بد له منه ، وهو يحتاج إليه في أمرين ، وأولهما تخليص النفس من الضرر والحرج ، وخلوص العمل من الشوائب ، والثاني يختص بالتكليف غير المنحتم بوجه آخر :

« .. وهو النظر فيما يصلح بكل مكلف في نفسه ، بحسب وقت دون وقت ، وحال دون حال ، وشخص دون شخص ، إذ النفوس ليست في قبول الأعمال الخاصة علي وزان واحد ، كما أنها في العلوم والصنائع كذلك .

فرب عمل صالح يدخل بسببه علي رجل ضرر أو فترة ، ولا يكون كذلك بالنسبة إلي آخر ، ورب عمل يكون حظ النفس والشيطان فيه بالنسبة إلي العامل أقوي منه في عملٍ آخر ، ويكون بريئاً من ذلك في بعض الأعمال من بعض ، فصاحب هذا التحقيق الخاص هو الذي رزق نوراً يعرف به النفوس ومراميها ، وتفاوت إدراكها ، وقوة تحملها للتكاليف ، وصبرها علي حمل أعبائها أو ضعفها ، ويعرف التفاتها إلي الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها ، فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص ما يليق بها ، بناء علي أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف ، فكأنه يخص عموم المكلفين والتكاليف بهذا التحقق .. » (١) .

---

(١) الموافقات للشاطبي : ٤ / ٩٨ .

وبالتالي ، فإن تعلم العلوم المختلفة لهي أداة مهمة عند الدعاة العاملين ، لتحقيق مناطق الأحكام الشرعية ، وإنزال النصوص منازلها الواقعية ، ويتحقق أخيراً صواب العمل المبني علي العلم الصحيح .

نهاية مرحلة ـ وبداية أخري

وأخيراً ، لا تظن ـ أخي الداعية ، أنك قد وصلت إلي نهاية الطريق ، وإنما هي نهاية المرحلة الأولي ، وبعدها مراحل ومراحل دونها خرط القتاد ، ولا يلقاها إلا أصحاب الهمم العالية ، والتثقيف بها وبمراحلها ووسائلها ، لها مواطنها الأخري مما لا يتسع لها المجال هنا ، وبحسبنا التذكير فحسب ، وما عليك سوي العودة إلي قراءة هذه الفصول مرة أخري والتمعن بعباراتها ،والاستفادة من إشاراتها ، واحرص علي جماعة المؤمنين ، وركب السائرين ، فهم أدلاء المراحل ، وهم مشاعل الطريق ، وعليك بحفظ الهمة فإنها مقدمة الأشياء ، واستمع إلي نصيحة أخيك في الله ابن القيم وهو يقول :

(يا من عزمَ علي السفر إلي الله والدار الآخرة ، قد رفع لك علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير ، واجعل سيرك بين مطالعة مننه ، ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير ، فما أبقي مشهد

النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتي من عذاب السعير ، ما المعول إلا علي عفوه ومغفرته فكل أحد إليها فقير ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، أنا المذنب المسكين ، وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك ، فهل رعيتها بالله حق رعايتها ، وهي في تصريفك وطوع يديك ، فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح ، إنه غفور شكور .

نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها ، وحذره من وبال معصيته وأشهده علي نفسه وعلي غيره شؤمها وعقابها ، وقال : إن أطعت فبفضلي وأنا أشكر ، وإن عصيت فبقضائي وأنا أغفر ، إن ربنا لغفور شكور .

وأزاح عن العبد العلل ، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل ، ووعده أن يشكر له القليل من العمل ، ويغفر له الكثير من الزلل ، إن ربنا لغفور شكور ، أعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره علي إحسانه إليه ، ووعده علي إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ، ويقربه لديه ، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه إن ربنا لغفور شكور) [١] .

---

(١) عدة الصابرين : ٢٨٤ .

وإلي لقـاء المرحلة الثانيـة معك ، في مكان آخـر ، وأستـودعك الله الذي لا تضيع ودائعه .



كشاف المسافر

▼ **أدب الدنيا والدين** / أبي الحسن الماوردي دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٨ م .

▼ **أدب الطلب** / الإمام الشوكاني ، مركز الأبحاث والدراسات اليمنية ، صنعاء ١٩٧٩ م .

▼ **الأدب المفرد** / الإمام البخاري ، وزارة العدل والشئون الإسلامية ، الإمارات ١٩٨١ م .

▼ **أحكام القرآن** / أبو بكر العربي ، دار المعرفة ، بيروت .

▼ أحكام القرآن / الكياهراسي .

▼ **الأذكار** / الإمام النووي مطبعة الملاح ، دمشق ١٩٧١ م

▼ **الاعتصام** / الإمام الشاطبي ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٢ م .

▼ **أعلام الموقعين عن رب العالمين** / ابن قيم الجوزية دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٩ م .

▼ **الإعلان بالتوبيخ** / الإمام السخاوي ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٢ م

▼ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان** / ابن قيم الجوزية ، دار العدل الأسكندرية .

▼ **اقتضاء العلم العمل** / الخطيب البغدادي .

▼ **الامتاع والمؤانسة** / أبو حيان التوحيدي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

▼ **بدائع الفوائد** / ابن قيم الجوزية .

▼ **البداية والنهاية** / ابن كثير ، مطبعة الفجالة الجديدة ، القاهرة .

▼ **تاريخ بغداد** / الخطيب البغدادي .

▼ **تاريخ قضاة الأندلس** / النباهي .

▼ **تدريب الراوي** / جلال الدين السيوطي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦ م .

▼ **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)** .

▼ **التفسير الكبير (تفسير الرازي)** للفخر الرازي ، دار إحياء التراث بيروت .

▼ **تهذيب مدارج السالكين** / ابن القيم ، عبد المنعم صالح العلي ، الأوقاف الإسلامية ، الإمارات .

▼ **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)** / الإمام البخاري (المطبوع مع فتح الباري) .

▼ **الجامع الصحيح (صحيح مسلم) الإمام مسلم** / دار الإفتاء ١٩٨٠ م .

▼ **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)** / القرطبي .

▼ **الجامع لأخلاق الراوي** / الخطيب البغدادي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨١ م .

▼ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء / أبو نعيم الأصفهاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٠ م .
▼ رسائل البلغاء / محمد كرد علي .
▼ الرسالة التبوكية / ابن قيم الجوزية .
▼ رسالة التعاليم / الإمام حسن البنا .
▼ الرقائق / محمد أحمد الراشد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٨ م .
▼ روضة الطالبين وعمدة المفتين / الإمام النووي ، المكتب الإسلامي ١٩٧٥ .
▼ روضة المحبين / ابن قيم الجوزية .
▼ رياض النفوس .
▼ الزهرة / أبي بكر الأصفهاني ، عمان ١٩٨٥ م .
▼ سنن ابن ماجة .
▼ سنن (أبو داود) / سليمان بن الأشعث السجستاني ، دار الفكر .
▼ سنن البيهقي .
▼ سنن الترمذي .
▼ سنن النسائي .
▼ سيرة أعلام النبلاء (للإمام الذهبي) .
▼ السيرة النبوية / ابن هشام ، دار الكنوز الأدبية ، القاهرة .
▼ سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز / ابن الجوزي .

▼ **شرح السنة** / الإمام البغوي ، المكتب الإسلامي ١٩٧٧ م .

▼ **شرح صحيح مسلم** / الإمام النووي .

▼ **شرح العقيدة الطحاوية** / الإمام الطحاوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

▼ **شفاء العليل** / ابن قيم الجوزية ، مكتبة الرياض الحديثة .

▼ **صيد الخاطر** / لابن الجوزي .

▼ **طبقات الشافعية** / الإمام السبكي .

▼ **طبقات الصوفية** / أبو عبد الرحـمن السلمي ، دار الكتاب النفيس ، حلب ١٩٨٦ م .

▼ **الطبقات الكبري** / طبقات ابن سعد .

▼ **طريق الهجرتين** / ابن قيم الجوزية .

▼ **عدة الصابرين** / ابن قيم الجوزية

▼ **العقد الفريد** / ابن عبد ربه الأندلسي .

▼ **عيون الأخبار** / ابن قتيبة .

▼ **فتاوي الإمام الشاطبي** .

▼ **الفتاوي الكبري (فتاوي شيخ الإسلام)** / الإمام ابن تيمية ، طبعة الرياض ١٣٩٨ هـ .

▼ **فتح الباري في شرح صحيح البخاري** / ابن حجر العسقلاني ، جامعة الإمام ، الرياض .

- **الفوائد** / ابن قيم الجوزية .
- **في ظلال القرآن** / سيد قطب دار الشروق بيروت .
- **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** / العز بن عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **لباب الآداب** / أسامة بن منقذ .
- **لسان الميزان** / ابن حجر العسقلانى .
- **مجمع الأمثال** / الميداني
- **مختصر منهاج القاصدين** / ابن قدامة .
- **المدهش** / ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥ م .
- **مروج الذهب** / المسعودي .
- **المسند** / الإمام أحمد .
- **المصباح المنير** .
- **المغني** / ابن قدامة ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .
- **مفتاح دار السعادة** / ابن قيم الجوزية ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض
- **الموافقات في اصول الشريعة** / الإمام الشاطبي ، دار المعرفة بيروت
- **ميزان الاعتدال** / الإمام الذهبي ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٦٣ م
- **نيل المرام** / صديق حسن خان .





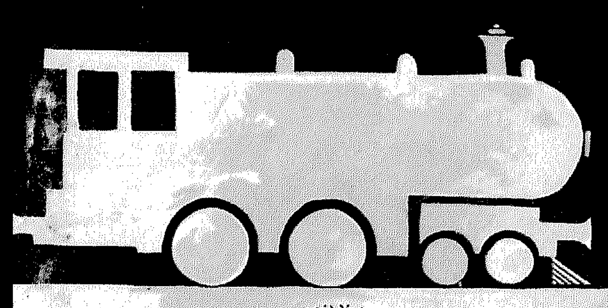
المحتوى

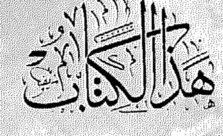
مر رائد الإبداع وهذا الأثر 7
المقدمة 17
(١) قطار الرواحل 23
(٢) السفينة السائرة 35
(٣) شعب الإيمان 49
(٤) العلم بعد الإيمان 61
(٥) ترويجة علي طريق العلم 75
(٦) العمل الصالح 89
(٧) التأهب للمسير 107
(٨) رفقة الطريق 127
(٩) بداية الطريق 145
(١٠) إخوان الطريق 161
(١١) أشواك علي الطريق 185
(١٢) أخطاء العلماء 209
(١٣) من آداب الطريق 233
(١٤) وآداب أخري 251

(١٥) والصبر في الطريق	271
(١٦) من حق الطريق (١)	291
(١٧) من حق الطريق (٢)	315
(١٨) تنبيهات وإشارات	335
(١٩) جسر علي الطريق	357
(٢٠) استراحة المسافر	381
(٢١) من وعثاء الطريق (١)	401
(٢٢) من وعثاء الطريق (٢)	423
(٢٣) آفات وحزونات	447
(٢٤) وللنساء نصيب	471
(٢٥) التعليم الرباني	497
(٢٦) النفق المظلم	519
(٢٧) وتزودوا	543
(٢٨) كواشف الأنفاق	565
(٢٩) واحة المسافر	589
(٣٠) استلهام المعرفة	609
كشفاف المسافر	629
المحتوى	635

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ للفاكس : ٣٦٢٢٣١٣ - ٣٦٢٣١٤ ,







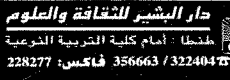
هذا الكتاب

مجرد محاولة على الطريق

نشترك فيها مع الآخرين لعلها
تضع زادا ينفع في دعم أولويات
العمل الإسلامي، في مسار الصحوة
المباركة ولعله يصيب بفضل الله
ونعمته شيئا من الهدف

وأسأل القارئ الدعاء لنا بظهر
الغيب، وفقنا الله تعالى لما يحبه ويرضاه

المؤلف


دار البشير للثقافة والعلوم
طنطا : أمام كلية التربية النوعية
3224047 / 356663 فاكس: 228277

وكيل التوزيع في المملكة المغربية
دار الإعتصام للطباعة والنشر والتوزيع
35-33 الشارع الملكي (الأحباس) الدار البيضاء
هاتف : 304285 فاكس : 444539